

فكر محمود محمد طه ومنهجُه وآراؤه

دراسة تحليلية نقدية

المؤلفون :

- د. الباقر عمر السيد مسعود (أستاذ الفلسفة المشارك)
- د. عبد الإله كنهه محبوب (دكتوراه مقارنة أديان)
- د. إسماعيل صديق عثمان (أستاذ العقيدة والأديان المشارك)
- د. الصادق عوض الفاضل (أستاذ التفسير وعلوم القرآن)
- د. محمد عثمان مان عمر (أستاذ الحديث وعلومه)

استهلال

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

(الأعراف: ١٥٨)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

(غافر: ٥٦)

إن كل عبارة لا بد أن تستند على أساس من البدهيات أو الحقائق الغنية عن البيان، إذا ما كان علينا أن نعدها صحيحة، فالبدهيات تؤسس قاعدة معرفية واضحة يمكن أن نستمد من خلالها نتائج راسخة. وإذا ما ناقضت هذه النتائج البدهيات، فعندها يمكن القول أن هذه النتائج تقع خارج نطاق العقل.



إهداء

إلى الأذكياء النابهين

المتطلعين للأعالي

الشباب الثائرين المسلحين بالعلم

إلى الرجال والنساء الذين كست تجاربهم ما معهم من علم ثوب الوقار

إلى الباحثين الحقيقيين في كل مكان

إلى أمة الإسلام وأمة القرآن

نهدي هذا الجهد

اللهم منا العمل .. وعليك التكلان..

ومنك القبول .. ومنك التوفيق

شكر

الشكر لله أولاً وأخيراً، وهو أحق من شكر، نحمده كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، فقد منّ علينا برحمته ومدنا بفضلله وعونه وأجزل علينا كثير عطائه، وإلى جميع من وقف معنا داعماً حتى اكتمل هذا العمل، نزجي الشكر أجزله، مع الدعاء أن يمتنعهم الله بما خصهم من فضل، وأن لا ينزع عنهم ما أضفاه من النعمة عليهم، فلهم منا شكرنا الجزيل وتقديرنا الجُمّ والدعاء المتواصل أن ينفع الله بهم وأن يمتّعهم بحياة طيبة، وعمل صالح نافع، ويجعل ذلك في ميزان حسناتهم، ويجزيهم عنّا خير الجزاء الأوفى. ونخص بالشكر الأستاذين عبد الغفار عبد الكريم سعد الله ومحمد صابر شخيموس لقراءتهما مسودات الكتاب وإبدائهما آراء قيمة أفدنا منها، وكذلك الأستاذ عمر شيخ الدين الذي أمدنا بمراجع مهمة، والشيخ محمد أبو ضلع الذي كان حلقة الوصل بين المؤلفين. والمستحقون للشكر على ما أسدوه من عون كثير، بيد أن هناك أعلاما لا بد أن يخصصوا بالذكر، ومن هؤلاء الدكتور الفاضل: عمار صالح، الذي وقف على هذا الكتاب منذ مراحل الأولى وها نحن نتقدم إليه بالشكر والعرفان لما قدم سائلين الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناته.

والحمد لله رب العالمين.



مقدمة

العقل هو أغلى ما يفاخر به المخاصم، والقرآن الكريم لا يتهيب نتائج العقول؛ لأنها - دائماً إذا كانت صحيحة صريحة - لا تتعارض مع الحقائق الإيمانية وأصول الدين المعلومة؛ بل القرآن يحث على إعمال الفكر ويدعو للنظر والتدبر يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خَمَلٍ ذَرْبٍ وَكَذَلِكَ تُصَيِّرُونَ كَلِمَاتِي كَمِثْلِ الْحَبْلِ وَالشَّجَرِ الْكَافِرِ وَالْكَافِرُ لَكُمْ فِي هَذِهِ سَعِيرٌ﴾ (سبأ: ٤٦) وقد ذم القرآن الذين يجادلون في الله بغير حجة لا من كتاب ناطق ولا من عقل صادق ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (الحج: ٨)، وقد ورد عن أبي بكر رضي الله عنه قوله: «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي»^(١). يقول القرطبي رحمه الله: «من قال بما سنح في وهمه، وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح»^(٢)

منهجنا في هذا الكتاب أن من ذهب إلى رأي محتجاً عليه ومبرهنًا بما غلب على ظنه، وبذل قصارى جهده وصلاحيته في توخي الحق فلا ملام عليه ولا تشريب؛ لأنه مأجور على أي حال، ولمن قام عنده دليل على خلافه واتضح له المحجة في غيره أن يجادله بالتالي هي أحسن ويهديه إلى طريق الرشاد. لذلك سنعتمد على تبيان المقدمات اللازمة لكل ما له علاقة بأفكار وآراء ومعتقدات محمود لتكون الميزان؛ فمنهجية البحث عند المسلمين إن كنت ناقلًا فالصحة أو مدعيًا فالدليل؛ ولأن تلك المقدمات يلزم معرفتها قبل الدخول بأية ممارسة لآلية الفهم ولجعلها هي المتحكمة كشروط للقراءة المنهجية التي نسعى لتحقيقها في كتابنا هذا لما جاء به محمود؛ ولتكون هذه المقدمات

(١) الموافقات ٤/ ١٧٠، المكتبة البخارية/ القاهرة «٢» اعلام الموقعين ٤/ ٢١٢

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٧٨ وتفسير بن كثير ١/ ٥ وتفسير الطبري ١/ ٨٩

روابط عامة ومتفق عليها تتحكم في الحكم الشرعي الذي سنذهب إليه، ومن هذه المقدمات القرآن الكريم وعلومه، والحديث النبوي وعلومه، والتصوف والفلسفة والاجتهاد والتجديد، وقد جعلنا لهذا للكتاب غاية أساس وهي الوقوف على أفكار محمود التي قدمها في كتابه الرسالة الثانية من الاسلام، وتتبع هذه الأفكار في بقية كتبه، وهل هي أفكار أصيلة مستقلة عن التفكير الفلسفي الصوفي؟ وماهية أصول هذه الأفكار وما منهجيته في طرحها، وما مدى موافقتها للفقه الإسلامي وأصوله، وما يستتبع ذلك من معرفة للغة العربية؛ لعلاقتها بالتفسير الذي انتحى به محمود منحًا مخالفًا لما هو معهود، مصورًا نفسه عارفًا بدقائق وخفايا علم التفسير والحديث، ومستنده في ذلك الممارسة والذوق والوصول لمقام الأصيل كما ادعى، وبلوغه مرتبة الإنسان الكامل، مما أوقعه في متاهات التصوف الفلسفي، وقد انتحل الكثير مما ورد عن زعمائه، فشابهت أفكاره ما ذهب إليه محي الدين بن عربي وغيره، كما اتسمت عباراته بعدم الوضوح والتجريدات حتى تكون خط دفاعه الأول لمواجهة مخالفيه. وذلك عبر وصمهم بعدم الفهم!. ولذلك تجد معظم مناصريه من بعده يدمغون معارضيهم بعدم الفهم؛ وينبهون بأنه إذا ظهر للناس شيء من كلامه لا يوافق الكتاب والسنة فالسبب في ذلك يعود إلى فهم القارئ نفسه، لا من حيث مراد محمود! هذا وقد افتقرت معظم كتابات وأفكار محمود إلى التأصيل الشرعي في ضوء الكتاب والسنة وتمييز الحديث الصحيح من الضعيف.

حاول محمود الانفتاح على بعض المدارس المتنوعة بل والمتناقضة، حيث تمثل بالعلمانية حينًا، ودافع عن الشيوعية حينًا آخر، وسائر المسيحية أشواطًا، ولعل ما يمكن أن يلاحظه الناظر جليًا في مؤلفاته أنه كان غزير الإنتاج، ويعود ذلك كما قال هو عن نفسه في كتابه «رسالة الصلاة» أنه يجد الوقت ويجد العافية. ويلاحظ كذلك أنه كان متأثرًا بنظريات الصوفية ومستخدمًا مصطلحاتهم. وأنه كان كثير التكرار لمعلوماته وقد يكررها في الكتاب الواحد ناهيك عن كتبه المختلفة، كما يلاحظ كذلك اسهابه في الحديث لقضايا لا تستحق الإسهاب مما يشوش على ذهن القارئ، هذا مع استخدامه



للتأويل واعتماده منهجية التفسير الباطني للقرآن، متحديًا توقيفية اللغة بصورة لم يسبقه عليها كاتب يدعى الكتابة في الفكر الإسلامي. كما نجده مخالفًا للمدرستين السنية والشيعية في التفسير فالمدرسة السنية تعتمد وترتكز في تفسيرها على كلام الله ثم حديث النبي ﷺ ثم اجتهاد الصحابة ومن بعدهم التابعين. وبالنسبة للمدرسة الشيعية فبعد الله ورسوله يجيء الأئمة، أما محمود فالتفسير عنده: هو فهم مباشر من الله أُخْتُصَّ به هو وحده.

هذا الكتاب يعني كذلك بإبراز رؤية نقدية تحليلية حول مناهج التفكير عند محمود؛ ونعني بذلك كيف أن محمودًا قد عرض أفكاره للناس؟ هل اتبع في ذلك منهجية علمية محددة ومنظمة، أم كانت كتاباته غير ملتزمة بأي منهجية. من أهم المناقشات التي تمت كانت حول استدلال محمود بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. في الآيات القرآنية كأن محمودًا لا يرد الآيات إلى سورها ولا إلى أرقامها—إلا فيما ندر—حتى يسهل على القارئ الرجوع إليها. وقد حاولنا إيراد أسماء السور وأرقام الآيات أثناء النقاش. ومحمود ألزم نفسه في بداية كتاب «الرسالة الثانية في الإسلام» وفي الصفحة الرابعة منه، بظاهر القرآن واللغة العربية، من هنا انطلقت رؤية نقدية كثيرة تقيم مدى التزامه بهذا التوجه. فاعتماد منهجية التفسير الباطني للقرآن يعني اقتراح أن البشر يستطيعون تفسير الوحي على نحو أفضل من الذي أنزل ذلك الوحي.

في الحديث النبوي لم يُخَرَّج محمود الأحاديث التي استند عليها إلا فيما ندر، لذلك عمدنا إلى تخريجها حسب ما اصطلاح عليه علماء الحديث منذ نشأة هذا العلم الذي تفردت به الأمة الإسلامية. بعدها كانت الرؤية النقدية حاضرة حول استدلاله بالحديث.

عند تناولنا أطروحات محمود الفكرية جعلناها بين قوسين، والتزمنا علامات الترقيم كما وضعها محمود في كتابه قدر الإمكان. وأشرنا إلى اسم الكتاب ورقم الصفحة، كما أشرنا إلى الطبعة وتاريخها.

إن المنهجية والنتائج المستخلصة هنا قد بنيت على أساس من البحث الدراسي رفيع المستوى، فضلاً عن كونها تتوافق والفطرة السليمة. وفيما يخص المنهجية، كان لابد من هز جذوع الأشجار التي يزعم أنها استقت ثمار معرفتها الربانية منها، وذلك لكي نرى ما يمكن أن يتساقط منها.

ومما يكسب هذا الموضوع أهمية خاصة:

الخطاب المُحذر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل: ١١٦)، وقوله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم: «مَنْ أَقْبَى بَغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ»^(١)

وكذلك من أهداف الكتاب التأكيد على أهمية وضرورة جمع الصف ولم الشمل ووحدة الأمة والاجتماع على كلمة الحق ونجد ذلك في قوله تعالى ﴿وَأَعِصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

يرى المؤلفون أنه لابد من معرفة بعض القواعد والمنطلقات التي يجب الرجوع إليها والصدور عنها للولوج في هذا الكتاب وهي:

- إنَّ من واجب العلماء في هذه الأُمَّة نشر العلم الصحيح القائم على الدليل والبرهان والمنطق العلمي، وذلك صيانة لمقام الاجتهاد، وحفظاً لأحكام الدين من سوء الفهم وضلال الفكر، وحتى لا يسأل الناس من غير المتخصصين

(١) سنن أبي داود، أبو داود، الإمام أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني (٢٧٥ هـ)، كتاب العلم، باب التوقي في الفتيا، حديث رقم «٣٦٥٧»، دار الحديث، القاهرة، ج ٣، ص ٣٢١. حاشية الألباني في صحيح الجامع، الألباني، محمد ناصر الدين، حديث رقم «٦٠٦٩».



فيضّلون، أو يتّبعون مَنْ ليس أهلاً بغير علم فيهلكون.

- أهل الاجتهاد هم من أحاطوا علماً بخمسة أصول، «أحدها: علمهم بكتاب الله تعالى، في: معرفة ناسخه ومنسوخه، ومحكمه، ومتشابهه، ومفسره ومجمله، وعمومه وخصوصه. والثاني: علمهم بسنة رسول الله ﷺ، في: معرفة أخبار التواتر والآحاد، وما تقدم منها وما تأخر. والثالث: علمهم بالإجماع والاختلاف، والرابع: علمهم بالقياس، ما كان منه جلياً أو خفياً...، والخامس: علمهم باللغة العربية فيما تدعو الحاجة إليه من اللغة والإعراب»^(١). ويمكننا إجمال ضوابط الاجتهاد في الآتي: تجنب تحميل النصوص ما لا تحتمله من الدلالات طبقاً للمقرر في أصول الفقه وقواعد الاستنباط، والتحرز من الاستدلال بما لم يثبت من الأحاديث، مع الاهتمام بتخريج ما يستدل به من الحديث.

- مَنْ تجرأ على الحديث في أمور الدين دون تحقق شروط المجتهد فيه يكون آثماً، وليس مأجوراً كما قد يظن البعض.

- إن العلماء إن لم يقوموا بواجب ضبط الاجتهاد فإنهم آثمون أيضاً.

أهم أسباب مشكلات من يدعون تجديد الفكر الإسلامي في العصر الحاضر، ما يلي:

أ- ضعف العلم بالنصوص ودلالاتها، وبالضوابط والأصول الحاكمة للاستنباط والتفسير والتأويل.

ب- التذرع بالمحافظة على المصالح وتلبية الضرورات والحاجات الموهومة.

ت- دعوى التجديد ومسايرة العصر.

(١) الحاوي الكبير شرح مختصر المزني، الماوردي، الإمام أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب، تحقيق: علي معوض وعادل بن عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج١٦، ص٥١.

ث- مراعاة المصالح الخاصة، والهوى والتشهي، أو حب الشهرة والظهور، أو عدم الخوف من الله ومراقبته.^(١)

وأخيرا لا نقول إلا ما قاله أحد الحكماء: «إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا في يومه إلا قال في غده لو زيد هذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»، والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن يرزقنا العمل بما نعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

(١) بتصرف: ميثاق الفتوى، المؤتمر العالمي للفتوى وضوابطها، رابطة العالم الإسلامي،

الباب الثاني: «مشكلات الفتوى، وأسبابها، وآثارها»



محمود محمد طه

مولده ونشأته ومصادر معرفته وأهم المحطات في حياته

يُعتبر محمود محمد طه من أكثر المفكرين السودانيين والعرب إثارة للجدل بسبب الأفكار التي وضعها ودعا المسلمين إلى اعتناقها، وخاصة في السودان، والتي كانت سبباً في إعدامه في ١٨ يناير ١٩٨٥. فقد أعدم محمود بعد صدور حكم قضائي بردهته عن الإسلام ورفضه كل المحاولات التي جرت معه لثنيه عن تلك الأفكار التي رآها القضاء السوداني في عهد الرئيس الأسبق جعفر محمد نميري منافية للدين الإسلامي ولا تمت له بأية صلة بل تسيء إليه. «بدأ محمود تعليمه بالدراسة بالخلوة فقرأ القرآن لكنه لم يبق بها حتى يكمل حفظه، كما تعلم قدرًا من اللغة العربية، مثلما يفعل سائر أضرابه في ذلك الوقت، حيث يبدؤون تعليمهم بالخلوة، قبل الالتحاق بالتعليم المدرسي النظامي»^(١). أتم محمود دراسته النظامية ثم انتقل إلى الخرطوم «بعد إتمامه دراسته الوسطى برفاعة انتقل محمود في العام ١٩٣٢م إلى الخرطوم عاصمة السودان».

درس المساحة في كلية غردون «تخرج الأستاذ محمود في قسم المساحة بكلية غردون في العام ١٩٣٦م وعمل بعد تخرجه مهندسًا بمصلحة السكك الحديدية، والتي كانت رئاستها بمدينة عطبرة»^(٢). بدأ نشاطًا سياسيًا ضد الاستعمار الإنجليزي «ضاقت السلطات الاستعمارية ذرعًا بنشاط محمود فأوعزت إلى مصلحة السكة حديد بنقله، فتم نقله إلى مدينة كسلا بشرق السودان في العام ١٩٣٧م»^(٣) بذلك يكون محمود قد أقام في عطبرة حوالي عام واحد فقط. لم يعمر في العمل الحكومي طويلاً «وفي العام ١٩٤١م تقدم محمود باستقالته من العمل. واختار أن يعمل في قطاع العمل الحر كمهندس

(١) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه. إصدارات مركز الأستاذ محمود محمد طه الثقافي - ١ ص ١.

(٢) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ٢.

(٣) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ٣.

ومقاول»^(١). من هنا يتضح لنا أن تعليم محمود ومسيرته المهنية كانت في غالبيتها دراسة أكاديمية بحثية وكانت مهنته مهندسًا حسب تأهيله الأكاديمي، النزعة الدينية لم تكن قد ظهرت حتى نهاية هذه المرحلة من حياته.

مولده ونشأته

ولد محمود في مدينة رفاعة بوسط السودان حوالي عام ١٩٠٩ م لأب من منطقة مورة بشمال السودان، وأم من رفاعة بوسط السودان، ويعود نسبه إلى قبيلة الركابية، فرع البليلاب نسبة إلى الشيخ المتصوف حسن ود بليل وهو من كبار متصوفة السودان، توفيت والدته - فاطمة بنت محمود - وهو لما يزل في بواكير طفولته وذلك في حوالي عام ١٩١٥ م، فعاش محمود وإخوته الثلاثة: بتول وكلثوم ومختار تحت رعاية والدهم، وعملوا معه بالزراعة، في قرية الهجيليج بالقرب من رفاعة، غير أن والده لما يلبث أن التحق بوالدته في حوالي العام ١٩٢٠ م، فانتقل محمود وإخوته للعيش بمنزل عمتهم برفاعة.

تعليمه النظامي

انتقل الأستاذ محمود في عام ١٩٣٢ م، بعد إتمامه دراسته الوسطى بمدينة رفاعة، إلى الخرطوم عاصمة السودان، الذي كان تحت سيطرة الاستعمار البريطاني، ليتسنى له الالتحاق بكلية عُردون التذكارية، وكانت تقبل الصفوة من الطلاب السودانيين ممن أتموا تعليمهم المتوسط، فدرس هندسة المساحة، ولما تخرج منها عمل مهندسًا في السكة الحديدية، عام ١٩٣٦. ظهر اهتمامه بالشؤون الإسلامية عام ١٩٤٥ عندما قرر مع عدد من أصحابه تأسيس الحزب الجمهوري السوداني، في ٢٦ أكتوبر، وهو من أوائل الأحزاب السودانية التي نادى باستقلال السودان وتحولته إلى دولة جمهورية.^(٢)

(١) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ٣.

(٢) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه. إصدارات مركز الأستاذ محمود محمد طه =



السكك الحديدية والنضال السياسي

عندما ضاقت السلطات الاستعمارية ذرعاً بنشاطه، ونقل إلى مدينة كسلا في شرق السودان في العام ١٩٣٧م، تقدم باستقالته من العمل في عام ١٩٤١م، واختار أن يعمل في القطاع الحر كمهندس ومقاول. كأن محموداً في تلك الفترة المحتشدة من تاريخ السودان، علماً في النضال السياسي والثقافي ضد الاستعمار، من خلال كتاباته في الصحف، ومن خلال جهره بالرأي، غير أنه كان مناضلاً من طراز مختلف، عما عرف عن السياسيين، حيث كان يمتاز بشجاعة لافتة، لا تقيدتها حسابات السياسة وتقلباتها، وقد أدرك الإنجليز منذ وقت مبكر ما يمثله هذا النموذج الجديد من خطورة على سلطتهم الاستعمارية، فظلت عيونهم مفتوحة لمراقبة نشاطه.

أفكاره

لم يكن الحزب الجمهوري حزباً سياسياً فحسب، بل كان أشبه بالجماعة التي يتجمع فيها تلامذة محمود والمؤمنون بأفكاره التي كانوا يرونها ثورة في الفكر الإسلامي، وأطلقوا عليها اسم «الفكرة الجمهورية»، واعتبرها «الجمهوريون» رؤية مختلفة تماماً للدين الإسلامي. أما خارج جماعتهم، فقد رأى البعض أنها تمثل تجديداً حقيقياً في الدين الإسلامي، فيما اعتبر آخرون أنها تشويه متعمد للإسلام، ومحاولة للتغيير فيه وفقاً لآراء محمود ومعتقداته الشخصية. الملمح الرئيسي لـ«الفكرة الجمهورية» أو بمعنى أدق لكل الأفكار التي نادى بها محمود هو تقسيمه للدين الإسلامي إلى قسمين: القسم الأول أسماه بالإسلام المكي وتمثله السور المكية في القرآن الكريم وعددها ٨٦ سورة نزلت على الرسول محمد ﷺ بين عامي ٦١٠ و٦٢٢م، والقسم الثاني أسماه إسلام المدينة وتمثله السور المدنية في القرآن وعددها ٢٨ سورة «على خلاف بين العلماء» نزلت على الرسول ﷺ بين عامي ٦٢٢م و٦٣٢م. ويؤمن محمود بأن الإسلام الحقيقي هو الإسلام

المكي الذي يعتبر أصل الدين والمليء بآيات الرحمة والتسامح وهو الرسالة الأصل للإسلام، في حين أن الإسلام المدني أو إسلام المدينة هو فرع في الدين نزل على الرسول ليحكم من خلاله في الزمن الذي كان يعيش فيه، وانتهى هذا الإسلام بانتهاء عصر الرسول وانتهت معه آيات الجهاد والسبي والميراث والتمييز بين الرجل والمرأة والحدود.

نادى محمود بالمساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء، وألغى الزكاة والجهاد بحكم الوقت. وأكد أن الصلاة وقتية وليست دائمة للأبد. بنى محمود كل أفكاره التي تعتمد في أساسها على ضرورة العودة إلى الإسلام المكي باعتباره الأصل في الإسلام، وتجاهل الإسلام المدني الذي لا يصلح للعصر الحالي مطلقاً. وفي ضوء هذا الفهم كان لمحمود محمد طه العديد من الأفكار غير التقليدية التي تتسم بالشذوذ عن الدين، وكانت سبباً في الحكم برده عن الإسلام وهي التهمة التي أعدم بسببها.

نشأة الحزب الجمهوري

في يوم الجمعة ٢٦ أكتوبر ١٩٤٥م أنشأ محمود وثلة من رفاقه هم: أمين مصطفى التني، وعبد القادر المرضي، ومنصور عبد الحميد، ومحمود المغربي، وإسماعيل محمد بخيت حبة، حزباً سياسياً أسموه «الحزب الجمهوري»، حيث اقترح التسمية أمين مصطفى التني، في إشارة إلى مطالبتهم بقيام جمهورية سودانية مستقلة عن دولتي الحكم الثنائي، ترأس محمود الحزب منذ البدايات الأولى «كان الاجتماع الثاني من تلك الاجتماعات بين ٢٦ أكتوبر ١٩٤٥م و٣٠ أكتوبر ١٩٤٥م بمنزل محمود، تم فيه انتخاب المكتب السياسي للحزب وكان كما يلي: محمود طه رئيساً، عبد القادر المرضي سكرتيراً، إبراهيم المغربي نائباً للسكرتير، وأحمد محمد خير أميناً للصندوق وعضوية بقية المجتمعين»^(١) وتفرد الحزب الجمهوري عن بقية الأحزاب في المطالبة بالحكم

(١) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ٤.



الجمهوري، وفي المطالبة بالاستقلال التام، في الوقت الذي كانت فيه الحركة الوطنية السودانية، ممثلة في الحزبين الكبيرين، تنادي بالاتحاد مع مصر أو الاستقلال تحت التاج البريطاني. وأشار الجمهوريون إلى ذلك في بيان لهم صدر في ١٨ فبراير عام ١٩٤٦م بقولهم: «... أنتم تريدون إبقاء المصريين، وأنتم تريدون إبقاء الإنجليز، فإذا اجتمعت كلمتكم فإنما تجتمع على إبقاء المصريين والإنجليز معا...»، وقد عبّر هذا الموقف التاريخي عن مصير السودان، أصدق تعبير، برؤية ثاقبة، وبصيرة نافذة صارت سمة الحركة الجمهورية التي أنشأها ورعاها محمود. انتسب إلى الحزب الجمهوري في تلك الفترة من الأربعينيات كل من: أمين محمد صديق، محمد فضل الصديق، ذو النون جبارة، عوض لطفي، مهدي أبوبكر، أحمد المبارك عيسى، محمد المهدي مجذوب، منير صالح، مكايي المرضي، سعد صالح عبد القادر، عثمان عتباني، أحمد يوسف قوّي، يحيى صالح عبد القادر، ومحمد صالح التوم.

في عام ١٩٥٢م صدر كتاب «قل هذه سيلى» وصدر منشور بالإنجليزية هو «Islam, The Way out»، وبدأت بذلك حركة واسعة لتأليف الكتب التي تتولى شرح فكرة الدعوة الإسلامية الجديدة وتفصيل مذهبيتها.

محمود السياسي ورجل الدين

ثارت رفاة بقيادة محمود مدافعة عن امرأة سجنها الإنجليز لمخالفتها القانون الذي يجرم ممارسة الخفاض الفرعوني، مما أدى إلى سجن محمود للمرة الثانية «تمخضت ثورة رفاة عن سجن محمود لمدة سنين، حيث سجن في ود مدني لبعض الوقت، ثم أتم باقي مدة السجن في سجن كوبر الشهير بمدينة الخرطوم بحري»^(١).

اعتبر محمود هذا السجن بمثابة خلوة مارس فيه نشاطاً تأملياً ورياضةً روحيةً كما يفعل الصوفيون، وصف محمود دخوله السجن بقوله: «ولما استقر بي المقام في السجن

(١) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ٧.

علمت أني جئت على قدر من ربي فخلوت إليه» لعله تمثل بمجيء سيدنا موسى عليه السلام ﴿فَرَجَعْتُ عَلَى قَدَرٍ يَكُونُ مِنِّي﴾ (طه: ٤٠)، هذا الشعور جعله يحاول الإفادة بصورة كبيرة من هذه الفرصة التي أوحى له بهذه الفكرة القدرية التي سيطرت عليه «فلقد أخذ نفسه بالعبادة المجودة في القيام والصيام الصمدي الذي يُواصل نهارًا وليلاً، والتأمل، والتفكير العميق منتظرًا موعود الله حيث قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، فلما انصرم العامان شعر بأن فكرة البعث الإسلامي قد بدأت تتضح معالمها في ذهنه، كما شعر بأنه لابد أن يواصل في الخلوة بعد مغادرة السجن»^(١).

خلوة السجن هذه صورت له صوتًا داخليًا قويًا يدفعه في اتجاه روحي جديد. احتاج محمود إلى تمديد فترة خلوته «بعد إتمامه لمدة السجن في العام ١٩٤٨م خرج محمود إلى مدينة رفاعه حيث اعتكف لمدة ثلاث سنوات ليكمل ما بدأه في السجن.. وقد بدا واضحًا للعيان أن محمودًا قد أقبل على موضوع كبير وخطير»^(٢). هنا تظهر محاولات للتشبه بتحنث محمد ﷺ في غار حراء قبل البعثة.

بعد هذه الخلوة حدث انقلاب كبير في خط سير محمود «وما أن خرج محمود من معتكفه، إلا واجتمع بالجمهوريين وغيرهم في دار الحزب الجمهوري بالموردة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥١م. وفي هذا الاجتماع طرح محمود المذهبية الإسلامية الجديدة، والتي تقوم على الحرية الفردية المطلقة، والعدالة الاجتماعية الشاملة، ليتجه بذلك الحزب الجمهوري من «ملء فراغ الحماس» إلى «ملء فراغ الفكر» ولقد اعترض بعض الجمهوريين على الاتجاه الجديد الديني الجديد، وخرجوا عن الحزب، وأعجب آخرون فانضموا إليه»^(٣) الجدير بالملاحظة أن الحزب تجمد نشاطه تمامًا عندما كان زعيمه

(١) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ٧.

(٢) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ٨.

(٣) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ٨.



غائبًا «وكان الحزب الجمهوري طوال فترة اعتكافه قد توقف نشاطه، في حين كان أفرادهم ينتظرون خروج قائدهم من اعتكافه».^(١) هذا الانتظار السلبي جعل السواد الأعظم منهم يبنّي إيمانه بهذا التغيير الذي طرأ على الحزب على عامل واحد هو الإعجاب. هذا العامل جعل الحزب عالة على مفكر واحد كتلاميذ المسيح حسب نصوص الإنجيل الذين تبعوه في بلاهة وغباءٍ مشيرين للحيرة.

بدأ محمود طرح المذهبية الإسلامية الجديدة، وكتب أول كتاب له «في عام ١٩٥٢م صدر كتاب «قل هذه سبيلي» وصدر منشور باللغة الإنجليزية بعنوان «Islam, The Way out» وبدأت بذلك حركة واسعة لتأليف الكتب التي تتولى شرح فكرة «الدعوة الإسلامية الجديدة» وتفصيل مذهبيتها»^(٢). بعد ذلك مضى محمود يكتب وحده الكتب في الغالب الأعم ساعده في ذلك توافره على فراغ «أي وقت» وصحة جيدة كما ذكر ذلك في مقدمة الطبعة الرابعة من كتاب رسالة الصلاة «فإنّا، بفضل الله، وبتوقيفه، نجد الوقت، ونجد العافية»^(٣) ثم كتب كتابه الأهم «الرسالة الثانية من الإسلام» في العام ١٩٦٧م. وأطلق عليه لقب الكتاب الأم «وهذا الكتاب هو، بالنسبة للدعوة الجمهورية، الكتاب الأم»^(٤) وتوالى الكتب والرسائل والبيانات ولم يتوقف نشاطه الدعوي إلى وقت وفاته.

دعا محمود إلى الإسلام كمذهبية تبشّر بتحقيق إنسانية الإنسان، عن طريق تقديم المنهاج الذي يحقق السلام في كل نفس بشرية، وعلى مستوى الكوكب، حيث يُقدم الإسلام في مستواه العلمي كدعوة عالمية للسلام. وقد ظلت قضايا الفكر، والحرية، والاستقرار العلمي للحضارة الغربية ولواقع المسلمين قضايا مطروحة بإلحاح منذ أن

(١) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ٧

(٢) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ٨

(٣) رسالة الصلاة، محمود محمد طه، الطبعة الخامسة. ام درمان. يونيو ١٩٧٠م. ص ٩.

(٤) الرسالة الثانية من الإسلام، محمود محمد طه، الطبعة السادسة. ١٩٨٦. ص ٣.

تناولها محمود في المنشور الأول وحتى اليوم.

يعتبر انقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩ م. بقيادة جعفر محمد نميري من أهم المحطات في مسيرة محمود والدعوة الجمهورية حيث تحول الحزب الجمهوري إلى مسمى الإخوان الجمهوريين. أيد الجمهوريون هذا الانقلاب رغم أنهم قبله بيوم - ٢٤ مايو ١٩٦٩ م - أصدروا كتاب «لا إله إلا الله» وقال فيه محمود بالحرف الواحد مشيداً بثورة أكتوبر ومشنعاً بالعسكر «إن ثورة أكتوبر فريدة في التاريخ»^(١). ثم قال «ولقد يكفي أن يقال أنها ثورة فريدة في التاريخ المعاصر تمكن بها شعب أعزل من إسقاط نظام عسكري استأثر بالسلطة ست سنوات»^(٢). ويا للعجب في صبيحة اليوم التالي قام نظام عسكري انتزع السلطة من الشعب بالدبابة والبنديقية، وأيده الجمهوريون «حماة الحرية والديمقراطية وحكم الجمهور بمقتضى اسم الحزب» وحسب مقتضى دستوره «حكماً عسكرياً»، استمروا في تأييده حوالي ١٦ عامًا [١٩٦٩ م - ١٩٨٥ م]. يقول دستور الحزب لسنة ١٩٤٥ م «قيام حكومة سودانية جمهورية ديمقراطية حرة مع المحافظة على السودان بكامل حدوده الجغرافية الآن»^(٣) وفي دستور ١٩٥١ م «قيام حكومة سودانية جمهورية ديمقراطية حرة داخل حدود السودان الجغرافية القائمة إلى العام ١٩٣٤ م.»^(٤) وفي دستور ١٩٦٨ م يقول «قيام حكومة جمهورية فدرالية ديمقراطية اشتراكية داخل حدود السودان الجغرافية القائمة إلى العام ١٩٣٤ م.»^(٥). هكذا ظلت كلمة ديمقراطية هي القاسم المشترك في أهداف الجمهوريين منذ قيام حزبهم. فما هو مبرر تأييد الحزب لمايو في ٢٥ مايو ١٩٦٩ م؟

«تم انقلاب مايو، في لحظة تاريخية دقيقة كانت الأحزاب الطائفية وقوى الهوس الديني تنهياً فيه لفرض دستور يسمى «الدستور الإسلامي»، ويهدف لتمكين تلك

(١) الرسالة الثانية للإسلام، ص ٥

(٢) الرسالة الثانية للإسلام، ص ٥ - ٦

(٣) أسس دستور السودان. إصدارات مركز الأستاذ محمود محمد طه الثقافي «٥» ص ٥٦.

(٤) أسس دستور السودان، «٥» ص ٥٩.

(٥) أسس دستور السودان، ص ٦٢.



الأحزاب من فرض حكم شمولي يتلفح برداء الإسلام، ليصادر حرية الشعب ويهدد وحدته الوطنية، فاعلن الجمهوريون تأييدهم لحركة مايو باعتبارها حالت بين الشعب وبين فتنة كبرى كادت تؤدي باستقرار الوطن والشعب»^(١). كان خصوم الجمهوريين «يتهيؤون» ولكنهم لم يصلوا لمرحلة الفعل. لكن ردة فعل الجمهوريين كانت عنيفة لدرجة تأييدهم لانقلاب دون الانتظار لدورة ديمقراطية آتية في المستقبل، فيها يقنعون الشعب بوجاهة طرحهم السياسي والفكري، ومن ثم يغيرون الدستور الذي فُرض على الشعب. جاء النميري بدفع من أحزاب اليسار «أي تلفع برداء الاشتراكية والشيوعية» وأيده الجمهوريون.

في ديسمبر ١٩٨٥م أصدر محمود منشورًا كان الحد الفاصل في علاقته ب مايو، وهو ما عرف باسم «هذا أو الطوفان»، كرد فعل لعلمه بمؤامرة تدبر ضده وضد دعوته وتلاميذه «ورغم علم محمود بالمؤامرة وحديثه عنها، إلا أنه لم يتردد في إصدار منشوره الشهير «هذا! أو الطوفان!» في يوم الثلاثاء ٢٥ ديسمبر ١٩٨٥م»^(٢) تصاعدت الأحداث «في يناير من العام ١٩٨٥م أقام الجمهوريون مؤتمر الاستقلال بمنزل محمود بأم درمان، الثورة - الحارة الأولى - وفي ختامه في جلسة مساء الجمعة ٤ يناير ١٩٨٥م «سميت عند الجمهوريين فيما بعد، بجلسة الفداء» تحدث محمود في تلك الجلسة عن ضرورة أن يفدي الجمهوريون الشعب السوداني، حتى يرفعوا عن كاهله إصر الظلم الذي وقع عليه، مقدمًا نماذج من تاريخ التصوف ولصورٍ من فداء المتصوفة لشعبهم» لقد كأن محمودًا صوفيًا بكل تأكيد إلا أنه حاول في كل مراحل حياته أن يكون نسيج وحده في التصوف. لقد تأثر بالمسيحية وظهر ذلك في كتابه الأم «الرسالة الثانية من الإسلام» حينما أراد أن يدل الناس على صفات نبي الرسالة الثانية «حسنًا!! قالوا إن المسيح قد قال يومًا لتلاميذه: «احذروا الأنبياء الكذبة!!» قالوا: «كيف نعرفهم؟؟»، قال: «بثمارهم

(١) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ١٢.

(٢) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه، ص ١٤.

تعرفونهم»^(١). لعل تصاعد الأحداث فيما بعد جعل تلاميذه يطلقون اسم «جلسة الفداء» على لقاءهم الأخير مع أستاذهم. كان السيد المسيح يعرف بالمعلم «لأنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ» متى ٢٣: ٨. وهم يقولون عن محمود محمد طه الأستاذ.

صدر كتاب «أسس دستور السودان» في ديسمبر ١٩٥٥م لشرح أسس الدستور الذي دعا له الجمهوريون، ثم توالى إصدار الكتب فصدر كتاب «الإسلام» في عام ١٩٦٠م، ثم كتابا «رسالة الصلاة» و«طريق محمد» في عام ١٩٦٦م. وتوجت حركة البعث الإسلامي - في نظر أتباعه - هذه في يناير ١٩٦٧م بكتاب «الرسالة الثانية من الإسلام» والذي يُعد الكتاب الأم للفكرة الجمهورية.

ثم توالى بعد ذلك، الكتب التي تتولى تنزيل دقائق العلم بالدعوة إلى الإسلام في مستوى الرسالة الثانية، وذلك في كافة مناحي المعرفة، فصدر ما يفوق الثلاثين كتابًا، على مدى يمتد قرابة العشرين عامًا، هذا فضلا عن الكتيبات والمنشورات التي كانت تواكب مستجدات الأحداث وقد صدر في هذا الباب ما زاد على المائتي كتيب ومنشور.^(٢)

تواريخ مهمة في حياة محمود

- ٥ يناير ١٩٨٥م اعتقال محمود.
 - ٧ يناير ١٩٨٥م قدم محمود وأربعة من تلاميذه للمحاكمة أمام محكمة الطوارئ برئاسة القاضي حسن إبراهيم المهلاوي.
 - ٨ يناير ١٩٨٥م أصدرت المحكمة حكما بالإعدام عليهم جميعًا.
 - ١٥ يناير ١٩٨٥م أيدت محكمة الاستئناف برئاسة القاضي المكاشفي طه الكباشي حكم الإعدام.
 - ١٧ يناير ١٩٨٥م مصادقة النميري على حكم الإعدام.
- استتابت المحكمة محمودًا وتلاميذه فثبت محمود على أفكاره ورفض الرجوع

(١) الرسالة الثانية من الإسلام، ص ١١

(٢) انظر جميع كتب ومؤلفات محمود على: www.alfikra.org
شبكة الألوكة - قسم الكتب



عنها بينما تراجع التلاميذ الأربعة. وقد عرض التلفزيون السوداني يومها جلسات المحاكمة والاستتابة.

وللحقيقة والتاريخ مهما اختلف الناس مع محمود، أو اختلفوا فيه فإن حقيقتين يجب ألا تغيبان عن المشهد:

أولاً: إيمان محموداً الشديد بأفكاره التي لم يتراجع عنها قط.

ثانياً: لقد تمتع محمود بالعناد فقد دخل السجن عدة مرات وواجه الموت إلا أن عناده لم يفارقه في كل هذه المواطن.

هاتان الحقيقتان لا تعنيان أن أي إنسان يتصف بهما هو على الحق دوماً، إنهما موجودتان في كثير من البشر بغض النظر عن الجنس أو المعتقد أو الوجود الجغرافي.

من مؤلفاته

- (١) الرسالة الثانية من الإسلام
- (٢) رسالة الصلاة
- (٣) طريق محمد
- (٤) مشكلة الشرق الأوسط
- (٥) التحدي الذي يواجه العرب
- (٦) تطوير شريعة الأحوال الشخصية
- (٧) لا إله الا الله
- (٨) من دقائق حقائق الدين
- (٩) القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري
- (١٠) أسس دستور السودان
- (١١) الإسلام
- (١٢) الدستور الإسلامي نعم ولا
- (١٣) الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين

- (١٤) بيننا وبين محكمة الردة
 - (١٥) أسئلة وأجوبة - الكتاب الأول
 - (١٦) خطوة نحو الزواج في الإسلام
 - (١٧) أسئلة وأجوبة - الكتاب الثاني
 - (١٨) الثورة الثقافية
 - (١٩) تعلموا كيف تصلون
 - (٢٠) رسائل ومقالات - الكتاب الأول
 - (٢١) رسائل ومقالات - الكتاب الثاني
 - (٢٢) الله نور السموات والأرض
 - (٢٣) الإسلام وإنسانية القرن العشرين
 - (٢٤) الماركسية في الميزان
 - (٢٥) أضواء على شريعة الأحوال الشخصية
 - (٢٦) الإسلام والفنون
 - (٢٧) الدعوة الإسلامية الجديدة
 - (٢٨) الدين والتنمية الاجتماعية
- ومؤلفات أخرى.

مصادر المعرفة عند محمود

«عالم بدون شبكة عنكبوتية «Internet» لا يمكن تصوره»،. هذا ما يقوله جيل القرن الحادي والعشرين، لم يكن السودان بكل تأكيد «حتى العام ١٩٨٥م» يعرف شيئاً اسمه الشبكة العنكبوتية. وبالتالي لم يكن متاحاً لمحمود أن يفيد من هذا المصدر المعرفي المهم.

محمد ﷺ جاء من القرن العشرين إلى الناس في القرن السابع الميلادي حسب رأي محمود؛ لكن محموداً لم يخترق حجابات بضع سنين إلى تسعينات القرن العشرين



ليفيد من المحركات العملاقة مثل قول في الشبكة العنكبوتية. ومعلوم أن القنوات الفضائية على كثرتها وتخصصاتها المختلفة لم تكن متاحة في ذلك الوقت في السودان. لم يدرس محمود في معاهد دينية متخصصة وليست له إجازة منها، هذه حقيقة مجردة سواء اعترف محمود بهذه المعاهد أم لا. كذلك لم يؤثر عن محمود أنه اتخذ له شيخاً كما فعل كبار مشايخ الصوفية مثل الحلاج وابن عربي وعبد القادر الجيلاني وغيرهم من رجالات الصوفية عبر التاريخ الإسلامي. إذن ماهي مصادر المعرفة لدى محمود؟

لم يتبق أمامنا إلا الكتاب الورقي الذي ظل المصدر الرئيس للمعرفة عند محمود. وأبلغ دليل على ذلك رسالة محمود للشيخ محمد الأمين الجعلي والتي شكلت كتاب «من دقائق حقائق الدين» كله: «بسم الرحمن الرحيم. أم درمان في ٢٣ فبراير ١٩٧٤ يوافق ٣٠ محرم ١٣٩٤. ص ب ١١٥١. إلى حضرة الأخ العزيز الشيخ محمد الأمين الجعلي. زاده الله من نوامي البركة، وسوابغ الإحسان.. تحية طيبة. أما بعد، فإني أحمد لك الله الذي لا إله غيره، وأشكره ولا أكفره، وأسأله لي ولك عافية الدين والدنيا.. ثم إن جوابك «بدون تاريخ» ويجري نصه كالآتي: بسم الرحمن الرحيم. الصديق القديم محمود أفندي محمد طه. المحترم. السلام عليكم ورحمة الله، وقع في يدي كتاب العبادلة للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي رضي الله عنه ورأيت في رسائلك أنك ترضى قوله وتستدل به علمًا سديدًا وإليك أهدي كتابه هذا «العبادلة» لتطلع عليه إن لم يكن وصلك قبلاً فإن وصل إليك فله الحمد وإن كان مكرراً فأسف أن ترده إلى ولك الشكر.. ولقد لقيت شخصية أتأكد أنها توصله إليك والله يجمعنا على الحق ويبصرنا به إنه سميع مجيب ولك الشوق والسلام عليكم ورحمة الله. أبو زيد محمد الأمين.. لقد وصلني الكتاب المذكور أعلاه، وهو كتاب قيم، ولم يتفق لي أن رأيته من قبل، ولم أسمع به، وأنا على ذلك مأذون منك في الاحتفاظ به.. فجزاك الله عن صديقك القديم كل

خير...»^(١)

من هذا الجزء من الخطاب يمكن استخلاص عدة نقاط مهمة:

كتب محمود خطابه كما يكتبه «الكتبة» في الدوائر الحكومية في ذلك الوقت، من حيث التاريخ، والعنوان بصندوق البوستة «ص ب» وقوله «ثم إن جوابك بدون تاريخ»، ثم إirاده لنص الخطاب كاملاً؛ مرد ذلك أنه لم تكن في ذلك الزمان إمكانية إرفاق صورة طبق الأصل.

حيا محمود صديقه القديم بقوله «تحية طيبة» كما هو معهود في المراسلات الرسمية في ذلك الوقت، رغم أن الشيخ قد حياه بتحية الإسلام مرتين، يبدو أن محموداً لم يحفل بالتوجيه الرباني عند التحية ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ (النساء: ٨٦).

قال الشيخ بأن آراء «الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي» لها أثر واضح في كتابات محمود التي كان يطلع الشيخ عليها، ومن المؤكد أنه لم يلتق محموداً مدة من الزمن حيث أنه ذكر محموداً بأنه «صديق قديم»، وقد أكد محمود هذا المعنى بنفسه أيضاً «حقاً إنني لكثير الإعزاز للشيخ الأكبر ابن عربي»^(٢). وقد ارتضى محمود قول الشيخ عن تأثره بالشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، بدليل أنه لم ينفيه عن نفسه بل أثبته.

الدليل الدامغ على تأثر محمود بابن عربي هو قوله عن الكتاب «وهو كتاب قيم». يعني أنه قرأه بصورة دقيقة ووجد فيه معلومات قيمة «عساك تريدني أن أطلع بشكل خاص، على ما ورد في صفحة ٣٣ من كتاب «العبادة» هذا ويجري النص هكذا: - «ومع هذا النزوع والطموح فهو بحكم التوفيق خانع للحق لائذ بميزان الشرع من مغبة

(١) من دقائق حقائق الدين، محمود محمد طه. مايو ١٩٨١. ص ١٢.

(٢) من دقائق حقائق الدين. ص ١٣.



الانحراف ضلال الطريق، وقد كرر هذا المعنى كثيراً في كتاب العبادلة^(١). من آتاه الله الفهم عنه في القرآن عام ١٩٦٧ م. يستفيد في العام ١٩٧٤ م. من إنسان آخر ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦).

أكثر النقاط تأكيداً على مدى معرفة محمود قوله «ولم يتفق لي أن رأيته من قبل، ولم أسمع به» أي أن هنالك معارف لم يطلع عليها محمود ولم يسمع بها - كما قال بعظمة لسانه - وهو ما كان له الأثر في اعتقاده إن ما يكتبه هو نوع من البحث بدليل أنه كتب في بعض كتبه عبارة «توطئة البحث» ومن بعدها لم يكتب بحثاً؛ لعل قصته مع كتب البحوث العلمية كانت على نسق «ولم يتفق لي أن رأيته من قبل، ولم أسمع بها». الملاحظة الجديرة بالالتفات إليها، هي عبارات دعاء محمود التي كانت تعبر عن إنسان عادي يسأل الله، وليس إنساناً كاملاً وصل الذات الإلهية - كما زعم - وأخذ شريعته الفردية «أما بعد، فإني أحمد لك الله الذي لا إله غيره، وأشكره ولا أكفره، وأسأله لي ولك عافية الدين والدنيا».

محمد ﷺ لم يعلمه بشر ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣) بالمقابل علمه قادر عظيم ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (النجم: ٥)، لذلك لا يستغرب الإعجاز فيما جاء به. وكان التعليم بالوحي وفيه زيادة علم ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقِّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)

لكن هنالك مصدر معرفة أشار إليه محمود في كتابه الرسالة الثانية وإن لم ينسبه لنفسه صراحةً. هذا المصدر هو الفهم عن الله «من رسول الرسالة الثانية؟؟ هو رجل آتاه

(١) من دقائق حقائق الدين. ص ١٣.

الله الفهم عنه من القرآن، وأذن له في الكلام..». قال هو رجلٌ «بصيغة النكرة» فعلى الناس أن تبحث بين ملايين الرجال لتجد هذا الرجل. لماذا لا تكون امرأة؟ «والأصل في الإسلام المساواة التامة بين الرجال والنساء»^(١). ولعل هذا مما يكشف محاولة تسويغ إفراغ القرآن من قواعد اللغة العربية في بعض تفسيرات محمود وأنه يفتح الباب لفوضى عارمة لا يمكن السيطرة عليها بأية حال، ولا يمكن التنبؤ بما ينتج عنها من مشاكل في كل مناحي الحياة. لكن كيف يكون التحقق من الله قد أتى هذا الرجل «أو قل هذه المرأة» الفهم عنه، وكيف أنه قد أذن له في الكلام؟.

هنالك سؤال آخر مهم هو كيف نعرف هذا الرجل؟ عند محمود الوضع مختصر إلى النصف تقريباً، النساء لسن داخلات في الأمر، البحث محصور في الرجال فقط «كيف نعرفه؟ حسناً! قالوا إن المسيح لقد قال يوماً لتلاميذه: «احذروا الأنبياء الكذبة!!» قالوا: «كيف نعرفهم؟؟».. قال: «بما رهم تعرفونهم»»^(٢).

هذا النص به عدة مشاكل:

كلمة «قالوا»، من هم الذين قالوا ومتى وأين؟ هل يعقل أن نتحدث عن رسول جديد آتاه الله الفهم عنه في القرآن وأذن له بالكلام في «هذا الأمر الخطير» بناءً على أقاويل من قوم مجهولين؟

لم يكن محمود دقيقاً وهو يقتبس من الإنجيل، النص يختلف «اِحْتَرِزُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَذِبَةِ الَّذِينَ يَأْتُونَكُمْ بِثِيَابِ الْحُمَلَانِ، وَلَكِنَّهُمْ مِنْ دَاخِلِ ذُنَابٍ خَاطِفَةٍ!»^{١١} مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ». (متى ٧: ١٥-١٦). إن عدم الدقة في نقل نص يمكن الحصول عليه من الكتاب المقدس - متوفر في أي كنيسة - لهو أمر خطير، ويجعل موثوقية أي نص مرتبط بالفهم عن الله موضع شكوك يصعب حصرها.

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢٦

(٢) الرسالة الثانية ص ١٦



من هو متى؟ البشرية لا تعرفه على وجه اليقين. وإنجيله محل شك كبير في نسبته إلى كلمة الله. كيف لمثل هذا النص أن يكون حجة على القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨) كان المسيح رسولاً إلى بني إسرائيل «فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَمْ أُرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الصَّالَةِ» (متى ١٧: ٢٤). ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِعَايَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٤٥ - ٤٩) وكان القرآن أكثر دقة وهو يقول عن نفسه ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل: ٧٦) كيف يترك المسلمون كتاباً مهيمناً على التوراة والإنجيل ويفصل بينها عند الاختلاف وهو هدى ورحمة لهم ويذهبون ويستدلون بكتاب محل شك؟. الطريف في الأمر أن معظم الآيات أعلاه مما نزل من القرآن بمكة.

السؤال المهم هل يكون البحث عن هذا الرجل بين ملايين الرجال، حتى إذا وجدته أبحث بعدها عن ثماره ثم أعود وأستمع إليه بأذن واعية؟ أم يجب أن يكون العكس صحيحاً أنظر في مليارات الثمار وأتحقق منها ثمرة ثمرة فإذا وجدت ضالتي بحثت عن صاحبها حتى أجده؟.

الفاجعة الكبرى أن المسيح في نص متى أعلاه كان يتحدث عن ثمار الأنبياء الكذبة، فلو كانت الثمار هي وسيلتنا لمعرفة رسول الرسالة الثانية، لأصبح هذا الرسول من ضمن هؤلاء الأنبياء الكذبة، فليُنظر الناس من يتبعون.

هذه الرسالة الموجهة للمجتمع البشري كله، وقد جاءت في هذا الوقت الحاضر بالذات، بمناسبة استعداد الأرض لظهور أمة المسلمين «والذي يهمننا هنا أن نقرر أن وقتنا الحاضر وقت تنهياً فيه الأرض لظهور أمة المسلمين.. وهذه الأمة هي أمة الرسالة الثانية»^(١) «ثم بفضل تطور المجتمع البشري خلال هذه المدة الطويلة، مما جعله مستعداً لتفهم التشريع المتطور من الشريعة إلى السنة..»^(٢). لكن كيف يتأتى ذلك لمحمود وهو يتوجه بخطاب محدود ومقصود على المتصوفة السالكين المجودين؟ «وأوضح أن كل ذلك لا يتأتى إلا بالعبادة المجودة والتي يفرض السالك فيها على نفسه قيام الليل اتباعاً لسنة النبي الكريم عليه أفضل السلام وأتم التسليم»^(٣) كيف تتأتى له العالمية من بعد ذلك وهو موغل في المحلية؟ خاصة وأنه كان محدود الحركة في وطنه السودان، حيث إنه قضى أغلب وقته بين موطنه في رفاعة ومقر إقامته في أم درمان، وزيارته لبعض المدن السودانية مثل عطبرة وكسلا وبورتسودان والأبيض وغيرها. ولم يعرف عنه أنه غادر وطنه واتصل بشعوب أخرى ولو على سبيل الحج والعمرة.

لقد حاول تلاميذ محمود نفخ الروح العالمية في هذه الدعوة «إن الدعوة الإسلامية الجديدة، التي تبشر بالرسالة الثانية من الإسلام، هي دعوة عالمية، وكوكبية، ولكن وطنها الأم هو السودان، ثم سائر بلاد المسلمين، ثم باقي بلدان العالم. ولقد كان ما جاءت به هذه الدعوة هو من الجدة بحيث أصبحت دعوة غريبة في وطنها، وبين أهلها.. ولقد يكفي أن نعلم أن ما تدعو إليه هذه الدعوة هو الإسلام، في مستواه العلمي،

(١) الرسالة الثانية ص ٦.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٦.

(٣) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه ص ٩.



حيث تلتقي جميع الأديان، وحيث تنتهي العقيدة التي تفرق الناس على قاعدة «كل حزب بما لديهم فرحون»^(١)

الإعلان الإلهي في القرن السابع كان للناس جميعاً منذ اللحظات الأولى للدعوة ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، ثم يأتي تلاميذ محمود في القرن العشرين فيبدأون نشر دعوتهم جغرافياً من الداخل السوداني إلى العالم مروراً بالعالم الإسلامي. هذه الدعوة لها هدف واحد هو إلغاء العقائد كلها «أي إلغاء العقول الطبيعية»، وذلك في حال تمت برمجة البشر كما يبرمج الإنسان الآلي. وستلغى العقائد لأنها قامت على قاعدة «كل حزب بما لديهم فرحون»، من يقول للتلاميذ هذه ليست قاعدة، هذه آية من سورة المؤمنون المكية ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٣). من يقول لهم أن هذه الآية من القرآن المكي الذي قامت على أساسه دعوتهم؟، لقد كان محموداً ضعيفاً في منهجيته، وهنا يتبارى تلاميذه ليظهروا ضعف منهجيته كذلك.

هذه المشاكل من العسير معها لأي باحث عن الحقيقة وعن الإيمان كأخطر قرار في حياة الإنسان أن يسلم بأي حجة تبرز تحت معاني سياق من هو رسول الرسالة الثانية من الإسلام.

حياته الفكرية

الواضح أن محموداً قد تأثر في بدايات حركته الفكرية بالمدرسة الصوفية، والصوفية الفلسفية على وجه التحديد؛ فقد طبعت هذه المدرسة بطابعها كل كتابات

(١) الغرابة في الدعوة الإسلامية الجديدة. ص ٢. ط ١ سبتمبر ١٩٧٥ م - رمضان ١٣٩٥ هـ.

محمود وزودته بتلك العبارات الغائمة والجمل ذات الدلالات الفضفاضة غير المحددة وطمغت منهجيتها على اتجاه فكره ونظرياته ومصطلحاته التي تكررت في كتبه المختلفة! والحقيقة التي يجب أن تسجل هي براعته في استخدامها وكأنه صاحبها ومبدعها الأول! مع ملاحظة أنه يكررها في الكتاب الواحد عدة مرات ناهيك عن الكتب المختلفة مع الإسهاب في الحديث. ونجد أن محموداً يرفض المنهج التقليدي بمسلماته وتقديساته ويعتبره من خلال كتبه لا يمثل أساساً لبناء مشروعه، فهو تجميدي ثابت حسب رؤيته، والواضح أن محموداً يعتقد أنه يمتلك مشروعاً فكرياً يغاير المشاريع الفكرية الأخرى، عبر عنه في كتابه الرسالة الثانية «انظر مقدمة كتاب الرسالة الثانية الطبعة الرابعة» وأن مشروعه هذا للمتأمل لم يولد من فراغ، فهو متأثر بمناهج سبقت، ويظهر ذلك في تعاطيه مع القرآن الكريم من زاوية المكي والمدني ومن الزاوية التأملية دون الرجوع لكتب من سبقه وهو غير متخصص. كما يعتمد محمود تضخيم الشخصية ويدعي أن مشروعه هو الوحيد القادر على تغيير المجتمع ويصور نفسه كمنقذ ومحرر وأن ما جاء به هو جديد - رغم استنساخه وجمعه للكثير من أفكار من سبقوه - وكثيراً ما يستخف بالمفكرين لعدم قدرتهم على فهم ما جاء به ويصفهم بعدم المواكبة بل وحتى القضاة غير مؤهلين فنيا لمحاكمته! وكذلك تجدر الإشارة إلى أن للأستاذ نزعة صوفية متجذرة، مع ما يصاحب التصوف من شطحات فكرية يصعب فهمها! ويستعمل محمود كلمات متعارف عليها بين الفقهاء ورجال المسلمين والمثقفين والعامّة، ولكنه يعطيها معنى خاصاً. وهو ما يخلق سوء التفاهم بينه وبين معارضيّه. فهم يفهمون كلامه كما هو متعارف بينهم، بينما هو لا يعني ما يعنون!

أهم مصطلحات محمود

الرسالة الثانية من الإسلام: «الإسلام كما جاء به القرآن ليس رسالة واحدة وإنما هو رسالتان: رسالة في طرف البداية أو هي مما يلي اليهودية، ورسالة في طرف النهاية أو هي مما يلي المسيحية، وقد بلغ المعصوم كلتا الرسالتين، بما بلغ به القرآن،



وبما سار السيرة ولكنه فصل الرسالة الأولى بتشريعه تفصيلاً وأجمل الرسالة الثانية إجمالاً، اللهم إلا ما يكون من أمر التشريع المتداخل بين الرسالة الأولى والرسالة الثانية»^(١).

الإنسان الكامل: هو صاحب مقام الاسم الأعظم «الله» فالله اسم على الإنسان الكامل^(٢).

المسيح المحمدي: يخلف الذات الإلهية في تدبير الوجود وفي سوقه إليه.. ثم أن المسيح مما يلي الخلائق موصوف بصفات العظمة لأنه مدبرها المستغنى عنها كالقهر والمهيمن^(٣) إذن المسيح المنتظر: ليس عيسى الإسرائيلي كما يظن غالبية المسلمين اليوم، وإنما هو رجل من أمة النبي محمد ﷺ.

الإسلام والإيمان: يفرق محمود الأمة إلى قسمين، أمة المؤمنين وأمة المسلمين. فأمة المؤمنين هي أمة على معنى الإسلام في البداية، وشريعتها تقوم على الرسالة المدنية. وأما أمة المسلمين هي أمة على معنى الإسلام في النهاية، وشريعتها تقوم على رسالة مكة.

الشريعة الفردية: وتكون بلا وساطة فتكون لصاحبها شهادته وتكون له صلاته وصيامه وزكاته وحجه، ويكون في كل أولئك متأسياً بالمعصوم في الأصالة. وشريعته الفردية فوق الشريعة العامة بما لا يقاس^(٤).

الشهود الذاتي: الشهود الذاتي لا يتم بواسطة وقد كان تخلف جبريل عن النبي ﷺ لأنه لا مقام له هناك^(٥).

(١) الرسالة الثانية من الاسلام، ص ١٠٧.

(٢) أدب السالك - محمود محمد طه - ص ٨ - طبعة ١٩٨٢ م.

(٣) الموالد الثلاثة - محمود محمد طه - ص ٣٣.

(٤) رسالة الصلاة صفحة ٣٩.

(٥) رسالة الصلاة، صفحة ٣٩.

الأصيل: «ترك التقليد في هذه الدنيا لا يتم إلا لرجل واحد هو صاحب المقام المحمود»^(١).

صاحب المقام المحمود: «وصاحب المقام المحمود... الإنسان الكامل... المسيح المحمدي هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وعلمه وقدرته ليس بجارحة ولا بواسطة وإنما هو يعلم بذاته ويقدر بذاته متخلقاً في ذلك بأخلاق الله»^(٢).
الحقيقة الوجودية: «ليس في الوجود إلا الله... والمخلوقات هي مظاهر قدرته... هي قدرته مجسدة... وقدرته ليست غيره، وإنما هي عند التناهي ذاته.. والمخلوقات هي الله... والإنسان طليعتها في ذلك»^(٣).

تجويد العبادة عند السالك: ليس له تعريف محدد في كتب محمود.

محاكمات محمود

قُدِّم محمود للمحاكمة بالردة مرتين الأولى عام ١٩٦٨م حينما رفعت عليه دعوى بالردة احتساباً أمام محكمة الخرطوم الشرعية، ودعاوى الحسبة من اختصاص المحاكم الشرعية. والسبب الأساسي الذي جعل المدعين يرفعان هذه الدعوى أمام المحاكم الشرعية هو أن المحاكم الجنائية لم تكن تقبل مثل هذه القضايا فالبلاد آنذاك كانت تحكم بالقوانين الوضعية فلا حدود ولا قصاص.

والمحاكمة الثانية كانت في عام ١٩٨٥م حيث قدم محمود وأتباعه للمحاكمة بجريمة الردة لأنه أصدر المنشورات والكتب التي تُهاجم فيها الشريعة الإسلامية التي أعلنت وطبقت في السودان عام ١٩٨٣م ووصفها بعدم الصلاحية للقرن العشرين، وذكر أن الصلاحية في شريعته ودينه الجديد الذي يدعو له.

فحكمت محكمة أول درجة على محمود وأتباعه بالإعدام على أن تكون لهم

(١) أدب السالك في طريق محمد، الإخوان الجمهوريون، ط ١ / ١٩٨٢م، ص ٧٥.

(٢) أدب السالك في طريق محمد، ص ٥٥.

(٣) أسئلة وأجوبة، محمود محمد طه، ط ١ يناير ١٩٧٠م، درمان، ص ٥٢.



التوبة إلى ما قبل تنفيذ العقوبة، وقد أيد هذا الحكم بواسطة محكمة الاستئناف الجنائية بالخرطوم والتي من اختصاصها النظر في تأييد أحكام الإعدام بصورة نهائية، حسب أمر تكوينها وأمهلأتابعه مدة شهر للاستتابة وتم تأييد حكم الإعدام حدًا للردة على محمود بواسطة الرئيس الأسبق جعفر النميري ثم أمهلأتابعه ثلاثة أيام فقط بدلاً عن شهر. وتم فعلاً تنفيذ حكم الإعدام على محمود.

الحكم الأول

صدر الحكم الشرعي الأول بردة محمود من محكمة الاستئناف العليا الشرعية في يوم الاثنين ١٨ / ١١ / ١٩٦٨ م برئاسة القاضي: توفيق أحمد الصديق عضو محكمة الاستئناف العليا الشرعية، وأصدرت المحكمة حكمها - القضية رقم ١٠٣٥ / ١٩٦٨ م مرفوعة من الأستاذين الأمين داود وحسين محمد زكي - بعد أن عزز المدعيان شهادتهما وشهادة من شهدوا على المدعى عليه بالردة ومنهم من سمع منه أقوالاً تدل على الردة عن الإسلام وبعد أن أطلعت المحكمة على بعض الفقرات من الكتيبات التي ألفها المدعى عليه، كان الحكم بردة محمود وأمرت المحكمة بتوبته من جميع أقواله وأفعاله التي أدت لردته.

محكمة الردة الثانية

عقدت المحكمة الجنائية رقم «٤» بأم درمان جلستها برئاسة القاضي حسن إبراهيم المهلاوي لمحاكمة محمود وبعض أتباعه وأصدرت حكمها في ٨ / ١ / ١٩٨٥ م وجاء في بعض حشياتها إن المتهمين يدعون فهماً جديداً للإسلام غير الذي عليه المسلمون اليوم وفي اعتقادهم أنه بهذا الفهم الجديد المتطور للإسلام تكون حلول مشاكل البشر وهم بفهمهم الجديد هذا يفرقون بين الشريعة والسنة ويفرقون بين أصول القرآن وفروعه ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يتطرق إليه الشك أبداً بأن الشريعة التي طبقها الرسول الأعظم محمد ﷺ في القرن السابع لا تملك حلاً لمشاكل القرن العشرين.

وجاء في أقوال المتهم الخامس محمود في يومية التحري وقد تليت بالمحكمة

عليه وأقر بها، وفيها: «لكننا نقول أن الشريعة على تمامها وكمالها حين طبقها المعصوم في القرن السابع لا تملك حلاً لمشاكل القرن العشرين، إنما حل مشاكل القرن العشرين في السنة وليس في الشريعة، والسنة هي عمل النبي ﷺ في خاصة نفسه والشريعة هي تكليف للأمة».

إنها دعوة إلى تطور الشريعة لبلوغ السنة في اعتقادهم والسؤال الذي يطرح نفسه من الذي أعطى الناس الحق ليطوروا الشريعة بأفهامهم البشرية وهل الحق في هذا الفهم لمجموعة معينة؟ أم لأي من المسلمين أن يفهم هذا الفهم، أو أي فهم جديد آخر ليتطور هو الآخر، وليصبح المسلمون أمام شريعة تتطور يوماً بعد يوم وعصرًا بعد عصر، فيصبح الإسلام الذي نطبقه اليوم لا يصلح لجيل الغد وإنما يتطور بحسب ظروف مجتمعهم وأحوالهم وما لضابط على ثبات التشريع حتى تستقر الحياة في المجتمع ...

واعترف المتهمون جميعًا اعترافًا واضحًا بمسئوليتهم عن المنشور الصادر وتوزيعه وقررت المحكمة إدانتهم بناء عليه وعلى اعترافهم وحكمت عليهم جميعًا بالإعدام شنقًا حتى الموت، على أن يكون لهم الحق في التوبة والرجوع عن دعوتهم إلى ما قبل تنفيذ الحكم. ورفعت الأوراق لمحكمة الاستئناف للفحص والتأييد، ثم صدر قرار محكمة الاستئناف الجنائية بالخرطوم في ١٥ / ١ / ١٩٨٥ م بتأييد حكم الإعدام على محمود وأتباعه. بعد أن رأت المحكمة ثبوت رده ووجوب قتله مع أعوانه، كما قررت المحكمة اعتبار طائفة الجمهوريين طائفة كافرة مرتدة تعامل معاملة طوائف الكفر في كافة المعاملات وأمرت بمصادرة كل كتب ومطبوعات محمود وكتب الجمهوريين من جميع المكتبات بغرض إبادة مع منع تداولها وطبعها في كافة المطابع وحظرت نشاط الجمهوريين في كافة البلاد ثم أمرت برفع الأوراق للسيد رئيس الجمهورية للتأييد.

أيد الرئيس الأسبق جعفر النميري قرار محكمة الاستئناف بإعدام محمود حدًا للردة ب خطاب بث في جميع الأجهزة الإعلامية المرئية والمسموعة والمقروءة، وأمهل أتباعه ثلاثة أيام للتوبة وحدد يوم الجمعة ١٨ / ١ / ١٩٨٥ م لتنفيذ حكم الإعدام بساحة



العدالة بسجن كوبر في الخرطوم بحري. وتم بالفعل في صبيحة ذلك اليوم تنفيذ الحكم على محمود بالإعدام شنقاً حتى الموت حداً للردة وحضر التنفيذ جموع غفيرة من المسلمين بلغت عشرات الآلاف.

ومنح أتباع محمود محمد طه فرصة المناقشة لأن الإسلام يحرص على رجوع المرتد لحظيرة الإسلام ولو بالإكراه لأن في عودته خيراً كثيراً له. فتاب المتهمون الأربعة معه وهم «تاج الدين عبد الرازق الحسن، وخالد بابكر حمزة، ومحمد سالم بعشر، وعبد اللطيف عمر حسب الرسول» وقدموا إقراراً أمام المحكمة بهذه الصيغة:

«أنا المحكوم عليه بالإعدام للردة عن الإسلام أعلن بهذا توبتي لله العلي القدير ورجوعي عن أفكاري وآرائي التي أخذتها عن الكافر المرتد محمود محمد طه الذي ضللتني بفكره وأخرجني عن ملة الإسلام حتى أماته الله شنقاً بسجن كوبر صباح الجمعة ٢٦ ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ، والحمد لله الذي أنعم علي بالعودة بدين الله وشرعة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم أفضل الصلاة والتسليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والحمد لله رب العالمين». وقررت المحكمة شطب الإدانة والعقوبة لهم وأمرت بإطلاق سراحهم فوراً^(١).

أتباع محمود محمد طه

لم تقنع فكرة محمود العقول ذات المستوى العالي. لقد كان تلاميذه يقومون بنشاط دعوي وفكري مكثف في جامعة الخرطوم كأكبر معقل العلم في ذلك الزمن. لم يعر أساتذة جامعة الخرطوم وطوال أكثر من عقدين من الزمن، دعوة محمود أدنى اهتمام، من حيث مناقشة فكره على نطاق واسع، أو دراستها عبر الأطروحات الأكاديمية لطلاب الدراسات العليا. حدث ذلك رغم الاهتمام البالغ الذي أظهره محمود تجاه جامعة الخرطوم؛ ودلالة ذلك كتابته عدة كتب عن الجامعة وأحداثها، ودفاعه المستميت

١ - للاستزادة: الطعن الدستوري وتعليق د. المكاشفي طه الكباشي. انظر كتاب الردة لمحاكمة محمود محمد طه بالسودان - دار الفكر - الخرطوم ١٩٨٧.

عن مديرها.

المتفحص لتابعي محمود في السبعينات والثمانينيات من القرن العشرين لا يكاد يجد فيهم عددًا مقدّرًا، أو ظهورًا بارزًا من حملة الشهادات العليا مثل الماجستير والدكتوراه. الناظر إلى الصور الفتوغرافية أو الأفلام التي صورت للأستاذ على قلتها يتبين بوضوح أعمار الذين أحاطوا بمحمود، ويمكنه أن يستنتج مستوياتهم التعليمية في ذلك الوقت. لقد كانوا معظمهم صغارًا غصًا شبابهم، يقلون كثيرًا في أعمارهم عن محمود. هذا الوضع أتاح للأستاذ خطف ألبابهم بسهولة، وكانت لكلماته مهما كان مستواها فعل السحر في نفوسهم.

في اللحظات العصبية من حياة محمود كانت حوله أربع شخصيات من تلاميذه، حكم عليهم بالإعدام مع أستاذهم وهم:

المتهم الأول: تاج السر عبد الرازق - ٣٥ سنة - يعمل بمصنع النسيج السوداني.

المتهم الثاني: خالد بابكر حمزة - ٢٢ سنة - طالب بجامعة القاهرة - فرع الخرطوم.

المتهم الثالث: محمد سالم بعشر - ٣٩ سنة - موظف بشركة الجزيرة.

المتهم الرابع: عبد اللطيف عمر - ٥١ سنة - مصصح بجريدة الصحافة.

المتهم الخامس: محمود محمد طه - ٧٦ سنة - مهندس.

لقد كأن محمودًا يفوق أكبرهم سنًا بخمسة وعشرين عامًا «أي ربع قرن من الزمان». وكان يفوقهم جميعًا من حيث التأهيل الأكاديمي. وقد ظهر ذلك جليًا في سير المحاكمة حيث كأن محمودًا مصرًا على أفكاره أثناء المحاكمة، ودافع عن أفكاره بكل عناد، وبعد ذلك رفض الرجوع عنها عند الاستتابة، وأخيرًا لاقى الموت أمام آلاف الحضور في الباحة الخارجية لسجن كوبر. لقد كان التلاميذ على العكس من ذلك تمامًا، حيث ظهروا بشكل باهت في المحكمة، وبعد النطق بالحكم ظهروا مذعورين ويرتجفون من الخوف في جلسات الاستتابة. لقد تراجعوا جميعًا عن أفكار محمود ووصفوها بالضلالة والمخالفة للدين. المسيح أنكره بطرس ثلاث مرات عشية المحاكمة، ثم فر هو



ومعه التلاميذ جميعًا وتركوا معلمهم يواجه مصيره وحده. لقد كأن محمودًا مولعًا بالإنجيل «المحرف بكل تأكيد»، ها هو اليوم تجري عليه سنة ما أحبه من إنجيل محرف. هذا السلوك المخزي المنسوب لتلاميذ المسيح صار قدوة لتلاميذ محمود،. لقد استقبل آلاف البشر الموت أثناء محاكمات لمعتقداتهم، منهم صوفيون كانوا بمثابة القدوة لمحمود مثل الحلاج، وكانوا من الشجاعة بمكان، لم يتنازلوا عن معتقداتهم، ولم يتزحزحوا عنها قيد أنملة.

أعطت أحداث بدايات الاستجابة للدعوة الجمهورية ومن بعدها أحداث النهاية مؤشرات سلبية لمستقبل الدعوة الجمهورية. قال شارل جنيير عن أتباع المسيح «قد جذب إلى دعوته بضع مئات من أهل الجليل السذج»^(١). لقد كان للاختفاء المفاجئ للمسيح وبصورة عنيفة على الصليب الأثر الأبلغ على هؤلاء التلاميذ السذج على حد تعبير شارل جنيير، حيث لم يتحملوا الهزيمة التي حلت بدعوتهم «كان من شأن فضيحة الصלב - وهذا التعبير يرجع إلى القديس بولس - أن تضع - فيما يبدو - حدًا لمحاولة عيسى. فلقد قام للتبشير بأحداث لم تتحقق، ثم مات، وتشتت أتباعه في زعر شديد، وذهبوا إلى حد التنكر للأمل الذي غرسه في قلوبهم فندموا على الخطأ الذي وقعوا جميعًا فيه، أو لعنوه»^(٢). لو قدر استتابة جميع تلاميذ محمود المماثلين لتلاميذ المسيح هؤلاء؛ وفي تلك اللحظات العصبية فإنه من المتوقع أن تفعل الغالبية العظمى «إن لم يكن كل التلاميذ» ما فعله الأربعة الذين تنكروا لمحمود. إنه من سوء حظهم أن هذه الأحداث موثقة في أفلام بالصورة والصوت، وقد بثها تلفزيون السودان، وتوجد مقاطعها في الوسائط الإلكترونية حاليًا. لقد كان صوت الجمهوريين عاليًا أيام عسلهم مع النميري، وما أن انقلب عليهم حتى تلاشوا من الحياة كأنهم لم يكونوا، ولاذ كبار قادتهم بخارج

(١) المسيحية نشأتها وتطورها. شارل جنيير. ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود. دار

المعارف. ط ٢٠٠٨. ص ٥٦

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها، ص ٦١.

السودان، ولجأت أهم عناصرهم مثل الأستاذة أسماء محمود محمد طه والأستاذ حينها عمر القراي «الدكتور حاليًا» إلى الولايات المتحدة الأمريكية. حاليًا «العام ٢٠٢٠م» خلت الساحة من مهدد للفكرة ولأعضائها، بل أصبحت القوة بيدهم وصار الجمهوريون يتمثلون بشعر المتنبي حين قال:

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا.

كان الجمهوريون يراهنون علنًا أن زعيمهم لن يموت حتى يقيم دولته، وتعم فكرته الآفاق، وقد زخرت أشعارهم وأفكارهم بهذا المعنى، ولذلك فقد أُصيبوا بصدمة عنيفة من جراء الإعدام، وبدوا مذهولين وكأنهم غير مصدقين لما وقع، رغم أنهم رأوه رأي العين، وهتف أحدهم «وما صلبوه وما قتلوه ولكن شُبَّهَ لهم» وقد توقفوا عن الجدل العلني منذ ذلك اليوم وأعلن بعضهم عن رده عن الفكر الجمهوري، كما أعلن بعضهم أنه قد بدأ يعيد النظر في إيمانه وولائه لتلك الأفكار.

لقد تفرق شمل الجمهوريين في السودان بعد مقتل محمود فلجاً أكثرهم إلى بلاد الغرب - وعلى وجه الخصوص - الولايات المتحدة الأمريكية ومن ثم انحسر نشاطهم ولم تعد لهم قائمة... غير أنهم في الآونة الأخيرة - ٢٠١٩ - ٢٠٢٠م - بدؤوا في جمع شملهم استعدادًا لمعاودة نشاطهم، فأعلنوا عن مولد حزبهم في ثوبه الجديد برئاسة الابنة الكبرى للأستاذ، ومن ثم طالبوا بتسجيل حزبهم كواحد من الأحزاب السياسية السودانية التي يحق لها العمل في الساحة السياسية، غير أن طلب التسجيل رفض بحجة أن الحزب هو حزب عقائدي يعمل على هدم الاسلام!! والبعض يرى أن من حقهم تسجيل حزبهم لأن الأفكار والعقائد الهدامة ماتت بموت صاحبها؛ وقول هذا البعض يتناقض لأن الأفكار والعقائد الهدامة هي روح الحزب فإذا ما ماتت هذه الأفكار بالفعل فعلى الجمهوريين إذن استخراج شهادة وفاة الحزب لا تسجيله.

أبرز رموز الجمهوريين داخل السودان وخارجه

يلاحظ الوجود المكثف للجمهوريين في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي لجأ



إليها كثير منهم بعد إعدام زعيمهم محمود محمد طه، وقد فتحت لهم الجامعات الأميركية أبوابها، فنالوا فيها الشهادات العالية، وكشف أحد الصحفيين أن عددًا من الجمهوريين عملوا مترجمين ضمن القوات الأميركية العاملة في العراق إبان الاحتلال، وقد تمّ استقطاب العديد من أتباع محمود محمد طه في الولايات المتحدة، وكشف بعض الصحفيين السودانيين أن الوقف الوطني للديمقراطية الذي توفر ميزانيته الحكومة الأميركية الفيدرالية، عبر وزارة الخارجية، والذي أنشئ عام ١٩٨٣م في عهد الرئيس رونالد ريغان، حيث أوكل إليه أن يقوم علناً بتنفيذ العمليات التي كانت «CIA» تنفذها سرّاً، قد مول هذا الوقف منظمات ومراكز وشخصيات سودانية ذات صلة بالحزب الجمهوري منها مركز الخاتم عدلان بالخرطوم الذي كان يديره د. الباقر العفيف المعروف بانتماؤه للجمهوريين.

يرى د. شوقي بشير أن دعوةً بهذا التعقيد الفكري، والتصميم الحركي، جديرة بأن تصبح محط أنظار أعداء الإسلام في كل مكان، ولذلك فقد رشحوها بديلاً لحركات الدعوة الإسلامية في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وعملوا على تلميعها وانتزاع شهادات التزكية لها من مختلف الأوساط الفكرية الاستشراقية وأوساط عملاء اليسار الماركسي المستخدمين أميريكياً في الوقت الحالي.

وظل معظم الجمهوريين بالخارج على ارتباط بالسودان، سواء عبر الكتابات أو الزيارات، ومن أبرز هؤلاء:

١- أسماء محمود محمد طه: وهي ابنة صاحب الفكرة الجمهورية، تخرجت في كلية القانون بجامعة الخرطوم وعملت مستشارة بديوان النائب العام، وهي متزوجة من الجمهوري د. النور حمد، وكانت تعيش بالولايات المتحدة، قبل أن تستقر حالياً بالسودان، وتسعى لتسجيل الحزب الجمهوري كحزب سياسي، وهي التي يتوقع أن تقود الحزب الجمهوري في السودان بعد تسجيله رسمياً.

٢- د. النور حمد: حاصل على دكتوراه التربية في التربية الفنية في جامعة إلينوى،

وماجستير التربية الفنيّة من جامعة ميامي، ودبلوم الفنون الجميلة من كليّة الفنون الجميلة والتطبيقية في السودان. درّس في جامعات شرق واشنطن، ومانسفيلد، في الولايات المتحدة الأميركية، وعمل رئيساً لقسم التربية الفنية في جامعة قطر. نُشرت له دراسات متنوّعة في الدوريات الأكاديمية المحكّمة في الفكر والتعليم والسياسة. وقد ألّف عدّة كتب في الفكر والثقافة والسياسة وحرّر كتباً أخرى.

وهو عضو في عدّة منظمات علمية وثقافية، وتتركز اهتمامات حمد البحثية في تيارات الروحانية المماثلة للتصوّف الإسلامي، كما تشمل اهتماماته البحثية الخصائص الثقافية للسودان.

عمل الدكتور النور حمد باحثاً في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بالدوحة، ومشرفاً علمياً على الموقع الإلكتروني للمركز، ومسؤولاً عن قسم التحرير، ومديراً لتحرير مجلة «سياسات عربية» التي يصدرها المركز، وهو متزوج من الابنة الكبرى لمحمود محمد طه «أسماء».

٣- د. محمد أحمد محمود: المحاضر في قسم الأديان المقارنة بجامعة تفتن الأمريكية، بوستون، وهو صاحب كتاب:

«Quest for Divinity - A Critical Examination of the Thought of Mahmud Muhammad Taha, Syracuse University Press, ٢٠٠٦»

وترجمته: «في السعي إلى الذات العليا.. دراسة نقدية في فكر محمود محمد طه»، عن مطبعة جامعة سيراكيوز، في ديسمبر ٢٠٠٦، ضمن سلسلة التاريخ الفكري والسياسي الحديث للشرق، ويقع في ٢٩٦ صفحة من القطع المتوسط، تناول فيه حياة محمود محمد طه، حيث كشف عن علاقة الاستمرار والانقطاع بين مشروع طه الفكري والمصادر التراثية «خاصة الصوفية» والحديث التي تأثر بها. وتناول نظريته الصوفية عن الصلاة ومنهجه في تفسير القرآن، وموقفه في مسألة التخيير والتسيير، وبرنامجه الحداثي في ما يدعي أنه إصلاح جذري لرسالة الإسلام السياسية والاجتماعية «ما أطلق عليه الرسالة



الثانية من الإسلام»، ورؤاه في تحديث الشريعة وموقف الإسلام من العلم «خاصة نظرية التطور» ومن الفنون.

٤- د. أحمد المصطفى دالي: ولد عام ١٩٥١ بالحديثة بوسط السودان، دخل كلية العلوم بجامعة الخرطوم في عام ١٩٦٩، وتخرج فيها في عام ١٩٧٥، أما دراساته العليا فكانت بالولايات المتحدة، حيث تحصل على ماجستير العلاقات الدولية بجامعة أوهايو عام ١٩٩٣، ثم نال شهادة الدكتوراه عن مناهج وطرق التدريس بالجامعة نفسها عام ١٩٩٧.

كان يلقب بخليفة محمود محمد طه، وكان من أبرز المتحدثين الجمهوريين في الجامعات السودانية في حقبة الثمانينيات من القرن الماضي إبان دراسته الجامعية، قبل انتقاله للولايات المتحدة الأمريكية، وقد جاء في التسعينيات إلى واشنطن العاصمة، وأقام في منطقة جامعة جورجتاون، ثم غادر إلى ولاية تكساس، وهو متزوج من ابنة محمود محمد طه الصغرى «سمية».

٥- الدكتور عبدالله أحمد النعيم: عمل أستاذا للقانون في كلية الحقوق بجامعة «إيموري» بمدينة أتلانطا بولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو الذي ترجم كتاب «الرسالة الثانية» لمحمود محمد طه إلى الإنجليزية، وله العديد من المؤلفات باللغتين العربية والإنجليزية. وكانت حصيلة مشروعه البحثي عن علاقة الدين بالدولة والسياسة محل جدل وحوار في العديد من الأوساط الأكاديمية المعنية، وقد تضمن كتابه الذي صدر عن دار ميريت بالقاهرة تحت عنوان «الإسلام وعلمانية الدولة» بعض الآراء الغريبة للنعيم، مثل أنه يرى أن الشريعة الإسلامية إيجابية ولها مستقبل زاهر، ويعبر عن ذلك بقوله: «إن الشريعة لها مستقبل، وهذا المستقبل يكمن في الدولة العلمانية وليس في الدولة الإسلامية. ونظريتي في ذلك أن فكرة الدولة الإسلامية ما هي إلا فكرة نشأت بعد الاستعمار وكانت نتاج العلوم السياسية الأوروبية والقضاء الأوروبي. وهذا ما لا يتماشى مع طبيعة الشريعة الإسلامية ولا مع تاريخ المجتمع الإسلامي».

حيث يرى أن الشريعة التي ولدت في القرن السابع الميلادي لا تتماشى صورتها الأصلية بكل بساطة مع واقع الحياة في القرن الحادي والعشرين. وعلى المرء أن يعيد صياغتها من جديد، لأن تطبيق الشريعة الذي ينادي به المتشددون في الوقت الحاضر يتعارض مع القانون الدولي المعاصر، وهو عين ما يراه محمود محمد طه صاحب الفكرة الجمهورية.

وللنعم كذلك كتاب بعنوان «مستقبل الشريعة الإسلامية» يرفض فيه فكرة الدولة الإسلامية في الوقت الحاضر رفضا باتا، ويرى أنها تناقض التقاليد الإسلامية، ويقول عن ذلك: «لقد كان هناك فصل دائم بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، حيث كان الأمراء والسلطين حكاما سياسيين ولم تكن لهم سلطة دينية. كما أن الشريعة تطورت في ميادين الفقهاء المستقلة وكان هذا التطور بعيدا عن نفوذ الدولة. وكانت الدولة كلما تحاول استقطاب رجال الدين كانت تفسد عليهم أخلاقهم، وكانت تخلق صراعا واضطهادا للأقليات الدينية من المسلمين والديانات الأخرى».

٦- د. عمر أحمد القراي: من مواليد مدينة عطبرة، بشمال السودان، تخرج في جامعة الخرطوم في الاقتصاد والاجتماع، وحصل على درجة الماجستير في الاقتصاد الزراعي من جامعة الخرطوم، كما حصل على ماجستير آخر في الدراسات الدولية من جامعة أوهايو بالولايات المتحدة، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة أوهايو في التربية - تخصص علم المناهج، وكان عنوان رسالته للدكتوراه «مشاكل وآفاق تعليم حقوق الإنسان في العالم العربي الإسلامي - مصر حالة دراسة» وحصل عليها عام ٢٠٠٠م.

عمل بوزارة المالية والتخطيط وبنك الادخار السوداني ومركز القاهرة لحقوق الإنسان، ودرّس في معاهد وجامعات أمريكية، وعمل كأستاذ مشارك بجامعة الأحفاد للبنات بالسودان، حيث كان يدرّس طالبات الماجستير في معهد دراسات المرأة والنوع، كما عمل في منظمات عالمية وتعاون مع مراكز دراسات وبحوث ومنظمات نسوية داخل وخارج السودان. عمل مستشارا خاصا في مجال التعليم والمرأة وحقوق الإنسان ويسكن



حاليا في الخرطوم وقد تم تعيينه مديرا للمناهج والبحث التربوي؛ ولعله أراد أن يستغل موقعه لتسكين الفكر الجمهوري في مناهج الطلاب بعد أن رفض عند الكبار؛ فبدأ يتحدث بعد تعيينه عن حذف الآيات القرآنية من المناهج بحجة عجز الطلاب صغار السن عن استيعابها!

من أقوال عمر القروي في مقاطع فيديو تم تداولها على نطاق واسع وحقت مئات الآلاف من المشاهدات مايلي:

- قوله: عبادة الأصنام في وقت من الأوقات كانت هي ما يرضي الله!! وكانت «مرادة ومرضية» لذلك ربنا حمى الأصنام التي كانت في مكة من أن يكسرها أبرهة الحبشي!! وتعدد الآلهة في أوقات تكون صحيحة والفرار عن مشاركة من يعبدون الشمس في وقت ما يدخل صاحبه النار.
- قوله: ليس لله اسم لأنه لا يحتاج إلى اسم ويتسمى في كل زمان بأسماء مختلفة.
- قوله: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع هو قول الله تعالى الذي ورد في التوراة وما ورد في القرآن من أنه لم يسترح أيضا هو قول الله تعالى.
- قوله: لا يشترط لدخول الجنة والنجاة من النار أن تكون مسلماً، وفي الجنة يوجد البوذيون وأصحاب الكجور والوثنيون والنصارى واليهود طالما كانوا صادقين في أعمالهم.
- قوله: نحن في صراع مع الله تعالى حول العلم، ونهاية كمال الإنسان هو كمال الله سبحانه وتعالى.
- قوله: القرآن الكريم لم يأت باللغة العربية لأن الله تعالى ليس عربياً حتى يتكلم باللغة العربية.
- قوله: الشريعة ليست صالحة لكل زمان ومكان وإنما تصلح للقرن السابع الميلادي وما يشبهه، وهي غير صالحة لزماننا هذا، خاصة بعد الحرب العالمية

الثانية.

- قوله: الدولة التي نسعى لها مستوى الدين فيها لا يقوم على العقيدة الإسلامية.
- طعنه في القرآن الكريم حيث يقول بتهكم في معنى حديثه: «أحسن أكون مخلوق من فرد ولا أكون مخلوق من طين».
- يطعن في ما ثبت في القرآن الكريم ويجزم أن بني آدم أصلهم من «القرود»!
- ما يردده القرآن المكي «إنساني» لأنه يُخاطب بيا أيها الإنسان ويا أيها الناس، والمدني تستدل به داعش وهو الذي ثبتت به الأحكام مثل الجهاد والقوامة والولاية.. وقوله القرآن المكي أحسن من المدني.
- قوله: مقلداً شيخه محمود محمد طه: القرآن المكي ويُسميه [الإنساني] ينسخ القرآن المدني.
- قوله: أعتبر وجود الآيات القرآنية والأحاديث في المناهج العلمية غير صحيح.
- قوله: طالما الأطفال لا يؤمرون بالصلاة قبل سبع سنين فلماذا يحفظون القرآن الكريم؟!؟
- افتراءه على الرسل وزعمه أنهم لم يصفوا الله الوصف الصحيح لذلك نزه الله نفسه عن وصف الرسل له.
- تليسه لجعل ما تقوم به داعش من قتل وإرهاب هو ما كان يفعله النبي محمد ﷺ ومحاولته الواضحة في التليس في هذا الجانب.
- قوله: الصحابة كانوا مسلمين الإسلام البدائي وليس الإسلام النهائي وسيأتي من هم أفضل منهم قدرًا.
- وصفه الخلفاء الراشدين كابي بكر وعمر رضي الله عنهما بأنهم «دكتاتوريون».
- ويقول أيضًا «وليس في الشريعة الإسلامية دستور، لأنها لا توفر حق الحياة وحق الحرية لكل مواطن، فقد أحكمت الشريعة القتل في المشركين، لا يدفع عنهم إلا إذا قبلوا الدخول في الإسلام».. ويقول أيضًا: «ولما كان ذلك المجتمع يقوم على عرف حكم



شيخ القبيلة فقد جاءت الشريعة بحكم الفرد - الخليفة - مجارة للواقع».

٧- د. الباقر العفيف: تخرج في جامعة الخرطوم، ثم أكمل تعليمه فوق الجامعي بالمملكة المتحدة، وعمل أستاذا للغة الإنكليزية بجامعة الجزيرة بوسط السودان في الفترة «١٩٨٨ - ١٩٩٠م»، وعمل في كثير من المنظمات العالمية بأمريكا وبريطانيا، كما كان المسئول الإقليمي للحملات بمنطقة الشرق الأوسط بالأمانة الدولية لمنظمة العفو الدولية بلندن «٢٠٠١-٢٠٠٥م»، وأيضا عمل خيرا بمعهد السلام الأمريكي «٢٠٠٥-٢٠٠٦م»، وعمل أستاذاً لعلوم الشرق الأوسط بجامعة الميتروبوليتان بمانشستر «١٩٩٦-٢٠٠١م»، شارك بالكتابة في عدد من الدوريات العربية والمراكز الحقوقية فنشرت له مجلة رواق عربي، ومركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ودعي لعدد كبير من المؤتمرات العالمية التي تناقش قضايا حقوق الإنسان وتقارب الأديان. ومنذ العام ٢٠٠٧م يعمل مديراً لمركز الخاتم عدلان للاستنارة والتنمية البشرية بالخرطوم. من مؤلفاته: كتاب ما وراء دارفور: الهوية والحرب الأهلية في السودان، باللغة الإنجليزية، ترجمة: محمد سليمان، ونشره مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، بجانب كتاب حقوق الإنسان في فكر الإسلاميين، ونشره مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان كذلك.^(١)

الاختلاف حول تقييم محمود

يعتبر الكاتب الفلسطيني سامي الذيب في كتاب عنه بعنوان «محمود محمد طه بين القرآن المكي والقرآن المدني». أنه أكبر مصلح عرفه العالم الإسلامي، ولولا التضييق عليه لنجح في تقديم نسخة معاصرة للإسلام تتفق مع المواثيق والمعاهدات الحقوقية الدولية، بعيداً عن النسخة الحالية التي كانت سبباً في انتشار العنف والإرهاب

(١) بتصرف، الحزب الجمهوري في السودان.. الواقع ومحاولات التأثير، محمد خليفة

صديق - كاتب سوداني، الاثنين ٣ مارس ٢٠١٤، خاص بالراصد

الذين ضربا العالم. ويوضح أنه تحدث في كتابه الجديد عن تاريخ هذا الرجل وتراثه الفكري من الألف إلى الياء، كما أشار إلى المتسببين بمقتله وإلى محاولة إخفاء تراثه التي تحالف فيها الأزهر ورابطة العالم الإسلامي السعودية وجماعة الإخوان المسلمين. وأشاد الباحث الفلسطيني بأفكار المفكر السوداني وخاصة بأفكاره عن المرأة واعتبر أنه المفكر الإسلامي الوحيد الذي أعطى المرأة المسلمة حقوقها بعيداً عن الآراء التي تنتقص من قدرها، وتعتبرها ناقصة عقل ودين ولا تساوي الرجل في أي شيء. في حين رأى عمرو عبد المنعم، الباحث في التاريخ الإسلامي والفتوى، أن طه كان يدعو إلى دين جديد بعيد كل البعد عن الدين الإسلامي، وأكد أن الدين ليس فيه أصول وفروع، والقرآن ليس فيه ما هو صالح وما هو فاسد بل كله صالح لكل زمان ومكان وفقاً لما جاء في القرآن نفسه وفي السنة النبوية. وأوضح أن المفكر السوداني عبث في الدين الإسلامي، فأحلّ ما لم يحله الله مثل ترك الصلاة والزكاة، وحرم ما لم يحرمه الله مثل تعدد الزوجات والطلاق لهذا كان الحكم عليه بالردة عن الإسلام قراراً أجمع عليه الجميع، ومنهم الأزهر. وعندهم أن الحزب الجمهوري في السودان حزب منحرف عن الإسلام، عمد مؤسسه إلى إفراغ المصطلحات الإسلامية من مدلولاتها الشرعية ووظف حياته لهدم الإسلام وتحريف أصوله وسلك طريقاً ينأى بأتباعه عن الدين الصحيح بتليبس الحق بالباطل مستفيداً من أفكاره ومستعيناً بمصادر أخرى غير إسلامية من الفلسفات الإغريقية، وتابع غلاة الصوفية في المناداة بوحدة الوجود وألبسها طابعاً علمياً لتجد سبيلها إلى نفوس الشباب وبعض المنبهرين ببريق العلم، وانتهى أمره بأن غالى فيه أتباعه واعتقدوا بأنه المسيح المنتظر. وكتب الدكتور شوقي بشير عبد المجيد بحثاً قيماً ضخماً من مجلدين كبيرين، بعنوان: «فرقة الجمهوريين بالسودان وموقف الإسلام منها»، نال به درجة الدكتوراه في جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

وكتب الدكتور الأمين داود عليه رحمة الله تعالى كتباً كثيرة حول محمود محمد طه وأفكاره الضالة ومن هذه الكتب: «نقض مفتريات محمود محمد طه، دجال السودان، الاختلاط في منهج مسيلمة الكذاب».



وكتب الأستاذ حسين محمد زكي كتابًا فند فيه افتراءات محمود محمد طه وأكاذيبه، والكتاب بعنوان «القول الفصل في الرد علي محمود محمد طه».

ومن الكتاب أيضًا: عبد الله حسن زروق في كتابه «قضايا التصوف الإسلامي» والأستاذ النور محمد أحمد في كتابه «الفكر الجمهوري تحت المجهر» وهناك العديد من المقالات حول نقض مفتريات محمود محمد طه في الصحف العالمية والمحلية المختلفة، وعلى رأس هذه المقالات ما كتبه الأستاذ عطية محمد سعيد وما كتبه السيد الصادق المهدي في جريدة الشرق الأوسط^(١). وغيرهم كثيرون مما لا يسع المجال لذكرهم. ولقد صدرت الفتاوى من مختلف الجهات العلمية في السودان أو في العالم حول ردة محمود محمد طه.

الفتاوى الصادرة ضد محمود

أولاً: مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة

والذي أنشئ عام ١٩٦١ بموجب القانون ١٠٣ المتعلق بتطوير الأزهر، على أن يرأسه شيخ الأزهر، وأن يكون له أمين عام ويضم عدة لجان مثل: لجنة القرآن ولجنة البحوث الفقهية ولجنة إحياء التراث الإسلامي ولجنة الدراسات الإسلامية، وتقوم لجنة البحوث الفقهية بتقنين الشريعة الإسلامية على المذاهب المختلفة كما يقوم المجمع

(١) كتب الصادق المهدي مقالاً في جريدة الشرق الأوسط تحت عنوان: «أهل الهوى» وقد بين في مقاله: أن الجمهوريين يتفقون مع البابية والبهائية والقاديانية في مسائل أساسية يقوم عليها بنیان عقيدتهم، وعدد تلك المسائل في الآتي: المسألة الأولى: الإيمان برسالة بعد رسالة سيدنا محمد ﷺ. المسألة الثانية: المناداة بنسخ الشريعة. المسألة الثالثة: إلغاء الجهاد. المسألة الرابعة: مهاندنة ومخادعة الحكام، انظر: جريدة الشرق الأوسط عدد الجمعة ١٩ / ٤ / ١٩٨٢ م وكتاب: «فرقة الجمهوريين في السودان وموقف الإسلام منها» ج ١ ص ٣٦١ للدكتور شوقي بشير مطبوع علي الآلة الكاتبة، وللصادق المهدي أيضًا بحث عن الجمهوريين بعنوان: «الطاھوية النسخية» أشار إليه أحد الكتاب في مقال بجريدة السياسة السودانية عدد ٣٠٣ بتاريخ ٤ رمضان ١٤٠٧ هـ الموافق ٢ / ٥ / ١٩٨٧ م.

ببحث القضايا التي تهم العالم الإسلامي وإصدار البحوث التي تتضمن رأى الإسلام في هذه القضايا ويعقد مؤتمراً عاماً يُدعى إليه علماء العالم الإسلامي كل عام لمناقشة هذه البحوث.

وقد أصدر هذا المجمع فتوى في حق محمود هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

١٩٧٢/٦/٥ م.

الأزهر - مجمع البحوث الإسلامية

مكتب الأمين العام

السيد الأستاذ - وكيل وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالسودان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد

فقد وقع تحت يدي لجنة الفتوى بالأزهر الشريف كتاب الرسالة الثانية من الإسلام تأليف محمود محمد طه طبع في أم درمان الطبعة الرابعة عام ١٩٧١ م ص. ب ١١٥١

وقد تضمن هذا الكتاب أن الرسول ﷺ بعث برسالتين فرعية وبرسالة أصلية، وقد بلغ الرسالة الفرعية، وأما الأصلية فيبلغها رسول يأتي بعده، لأنها لا تتفق والزمن الذي فيه الرسول

وبما ان هذا كفر صراح ولا يصح السكوت عليه فالرجاء التكرم باتخاذ ما ترونه من مصادرة هذا الفكر الملحد والعمل على إيقاف هذا النشاط الفكري الهدام خاصة في بلدكم الإسلامي العريق.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

دكتور: محمد عبد الرحمن بيصار

«صورة طبق الأصل»

كذلك من المجمعات الفقهية التي تؤدي دوراً فاعلاً في عمليات الاجتهاد في



عصرنا الحالي.

ثانياً: المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة

والذي أنشأته رابطة العالم الإسلامي شعوراً منها بضرورة وجود الاجتهاد الجماعي لمعالجة القضايا العامة في حياة الأمة، وكذلك القضايا المستجدة التي تتكاثر كل يوم وتتطلب بيان حكم الله فيها، وقد تم تأسيس أول هيئة لهذا المجمع في شهر ذي القعدة ١٣٩٣ هـ وذلك بناء على قرار المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الخامسة عشرة، المنعقدة من ١٧ ذي القعدة ١٣٩٣ هـ إلى ١٦ ذي الحجة ١٣٩٣ هـ على أن يكون أعضاؤه من العلماء الراسخين الأتقياء من جميع أقطار العالم الإسلامي وقد أصدر هذا المجمع فتوى في حق محمود بالنص الآتي: (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

رابطة العالم الإسلامي الرقم: ٥/ ١٧ / ٢٦٣١

الأمانة العامة

التاريخ: ٥ ربيع أول ١٣٩٥ هـ

مكة المكرمة

حضرة صاحب المعالي الأخ الدكتور/ عون الشريف قاسم

وزير الشؤون الدينية والأوقاف.

الموقر،،،

أفيد معاليكم بان من ضمن القضايا الإسلامية التي ناقشها المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته السادسة عشر قضية «محمود محمد طه» السوداني الذي ادعى الرسالة، وأنكر ختم الرسالة وأنه المسيح المنتظر، كما أنكر الجزء الثاني من

(١) الفتاوى الصادرة في حق محمود محمد طه - منقولة بالنص من كتاب الردة ومحكمة محمود محمد طه في السودان. للدكتور المكاشفى طه الكباشى ص ١٦٥ - ١٦٦ - دار الفكر - الخرطوم.

الشهادة إلى آخر ما جاء في ادعاءاته الباطلة.

وبعد مناقشة الموضوع من جميع جوانبه أصدر المجلس التأسيسي حكمه بالإجماع بارتداد المذكور عن الإسلام تأييداً لما حكمت المحكمة الشرعية العليا بالخرطوم، وإنه يجب على المسلمين أن يعاملوه معاملة المرتدين، كما يجب مصادرة كتبه أينما وجدت ومنع طبعتها.

أرجو من معاليكم التكرم بنقل هذا القرار إلى حكومتكم الموقرة، وبذل مساعيكم الحميدة لدى المسؤولين فيها للمساهمة معنا في تنفيذه وخاصة وقد صدر عن مجلس يضم لجنة من العلماء والزعماء الممثلين عن معظم الشعوب الإسلامية في العالم وأنتهز هذه الفرصة للإعراب عن صادق شكري وتقديري لتعاونكم الدائم مع الرابطة فيما يرفع شأن الإسلام والمسلمين.

وتفضلوا بقبول فائق التحية والاحترام

الأمين العام

محمد صالح القزاز

«صورة طبق الأصل»



أهداف الحزب الجمهورى

حدد محمود الأهداف التي يسعون إليها بما يلي:

- إيجاد الفرد البشري الحر «الذي يفكر كما يريد، ويقول كما يفكر ويعمل كما يقول».
- إقامة ما يسمى بالمجتمع الصالح «وهو المجتمع الذي يقوم على المساواة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية».
- المساواة الاقتصادية: وهي تبدأ بالاشتراكية، وتتطور نحو الشيوعية.
- المساواة السياسية: وهي تبدأ بالديمقراطية النيابية المباشرة وتنتهي بالحرية الفردية المطلقة، حيث يكون لكل فرد شريعته الفردية.
- المساواة الاجتماعية: حيث تمحى فوارق الطبقة واللون والعنصر والعقيدة.
- محاربة الخوف. «والخوف من حيث هو الأب الشرعي لكل آفات الأخلاق ومعاييب السلوك «ويعنى هنا مخافة الله» ولا تتم كمالات الرجولة للرجل وهو خائف، ولا تتم كمالات الأنوثة للأنثى وهي خائفة في أي مستوى من الخوف وفي أي لون من ألوانه، فالكمال والسلامة من الخوف»^(١).

عودة للبدايات

يقول محمود «ثم نظرت موضوع الدعوة إلى الإسلام فإذا أنا لا أعرف عنها بعض ما أحب أن أعرف...» إلى أن يقول: «وبينما أنا في حيرة من أمري إذ قبض الله – مسألة «فتاة رفاعة» تلك المسألة التي سجنتم فيها عامين اثنين... لقد شعرت حين استقر بي المقام في السجن أنني جئت على قدر من ربي فخلوت إليه»^(٢)...

(١) رسالة الصلاة، ص ٦٢.

(٢) الكتاب الثاني من سلسلة: رسائل ومقالات، محمود محمد طه ، ط ١، مايو ١٩٧٣م، ص ٢، ٣.

إن حادث رفاعة هذا الذي يشير اليه محمود يكشف عن جهله بالإسلام. وخلاصة الأمر أن محموداً هاجم قانوناً سنه الإنجليز في أوائل عام ١٩٤٦م يمنع عادة الخفاض الفرعوني. وقد اقتيدت سيدة سودانية إلى السجن بموجب ذلك القانون لأنها خفضت إحدى البنات خفاضاً فرعونياً مخالفة بذلك للقانون. فمحمود إذن كان يدافع عن عادة جاهلية «الxfافض الفرعوني» وليست إسلامية.

بالإضافة إلى جهله في ذلك الوقت بالإسلام فإن من وراء الحدث أيضاً دوافع شخصية - نعى حبه لذاته وتطلعاته للزعامة - وبيان ذلك أن «محموداً» فشل في كسب التأييد الشعبي لحزبه الصغير بالحجة والبرهان - لدرجة أن «المحتل» - الإنجليز - لم يكن يتعامل معه بوصفه رئيساً لحزب بل كمواطن يثير الشغب ضد الحكومة - فلم يكن أمامه سوى إثارة العواطف حتى يضمن تأييداً شعبياً عن هذا الطريق الذي لا يميز فيه بين حق وباطل!! إن أنانية محمود وتطلعه للزعامة يكشف عنها أحد أبنائه من الجمهوريين «القياديين»... يقول ذلك القيادي ويدعى محمد خير علي محيسي في كتابه «محمود محمد طه بين الأصالة والشك»: «إنني أعرف محموداً لا يريد منافساً أبداً حتى ولو لم يقصد القيادي منافسته بل إن وضعه الطبيعي هو الذي جعله محل ثقة الأعضاء... ومحمود يحث الأعضاء على مقاطعة هؤلاء المنافسين الغافلين»^(١) ومما يؤكد أنانية محمود وتطلعه للزعامة أنه لم يكن يهتم «بالاستقلال» كحدث بقدر ما هو يهتم بأن يجرى ذلك الحدث على يديه، حيث إنه لم يكن يأبه لمساعي الحركة الوطنية الجادة لتحقيق الاستقلال، وما ذلك إلا لأن وزنه السياسي والشعبي لم يؤهله للمشاركة في هذه المساعي التي كللت بجلاء المستعمر عن البلاد... ولما كان محموداً يريد للأحداث أن تجرى من بين يديه لجأ إلى هذه المحاولات الفردية الهامشية كحادث «فتاة رفاعة» رغم أنه كان يعلم أن هذا الذي فعله ربما يكون له الأثر السيء بالنسبة

(١) محمود محمد طه بين الأصالة والشك، محمد خير علي محيسي ، أكتوبر ١٩٨٢م،



لقضية الاستقلال، يقول محمود: «كان من المنتظر بداهة، لدى الإنجليز أن يقاوم السودانيون هذا القانون بأشد من مقاومتهم للاستعمار نفسه، وذلك للحساسية المرتبطة بهذا القانون، وعندما يقع رد الفعل بهذه الصورة يسهل عليهم أن يصوروا للعالم بأن الشعب السوداني شعب متخلف همجي وهو من ثم لم يتأهل بعد للاستقلال - هذا ما أراده الإنجليز فعلاً من وراء سن قانون الخفاض الفرعوني»^(١) هذا ما قاله محمود فهل معنى ذلك أن محمودًا كان يريد أن يذلل للإنجليز مهمتهم، ومن ثم يسهم في إجهاض مساعي الحركة الوطنية!! وهل كان يريد أن يؤكد أن الشعب السوداني شعب همجي ومن ثم لم يتأهل بعد للاستقلال كما أراد الإنجليز!؟

محمود لم يكن يهتم بالقضية الوطنية - كما ذكرنا - بقدر ما يهتم بأن يكون هو وحده الشخص الذي يصنع هذه القضية ويكيف مجرياتها وليس أحدٌ سواه؛ محمود أولاً ثم القضية الوطنية ثانياً.

كل ذلك أورث محمود شعوراً بالكراهية المفرطة للطائفية وأحزابها - إذ إنه كان يرى في الطائفية الصخرة التي تتحطم عليها أحلامه وآماله... لقد تحطمت بالفعل آمال محمود التي تعلق بالسيطرة السياسية وحل محلها شعور بالنقص كان له دوره في مسار «الفكرة الجمهورية» أو قل «الفكرة المحمودية» والتي برزت في بداية أمرها سياسية بحثه قبل أن تدخل في مرحلتها الثانية - نعني تطبيعها بطابع ديني.

لقد أوضح محمود أن دخوله إلى السجن أعطاه فرصة للخلوة بربه لمدة عامين؛ ويبدو أن شعوره بالنقص كان يلازمه فذهب يبحث عن ذاته عله يجد في بحثه ما يرفع عنه وطأة هذا الشعور. ولعله لم ينسَ خلال بحثه عن ذاته أن يحاول إيجاد أجوبة معقولة لعدد من الأسئلة التي تدور في ذهنه من مثل: لماذا فشل هو كشخص مثقف في اعتلاء كرسي القيادة السياسية؟! ولماذا حظيت الطائفية بالولاء والتأييد الشعبي؟!؟

(١) معالم علي طريق تطور الفكرة الجمهورية خلال ثلاثين عامًا «١٩٤٥م-١٩٧٥م»، الإخوان الجمهوريون - الكتاب الأول، ط ١، مايو ١٩٧٦م، ص ٣٧-٣٨

وما هي حقيقة الدين؟! وما هو السبيل إلى السيطرة على الشعب الذي رفض الانقياد اليه وفضل أن ينقاد إلى الطائفية الجاهلة المتخلفة؟!!

هكذا بدأ محمود رحلة البحث عن الذات فماذا وجد؟! فلنستمع إليه وهو يحدثنا عن هذا في إحدى رسائله حيث يقول: «حبسني العمل لغاية هي أشرف من المعرفة... غاية ما المعرفة الا وسيلة اليها... تلك الغاية هي نفس التي فقدتها بين ركام الأوهام والأباطيل... إلى أن يقول: فهل تريدون أن تعلموا أين أنا من ذلكم الآن؟! إذن فاعلموا: إني قد أشرفت على تلك الغاية ويوشك أن يستقيم أمري على خير ما أحب»^(١).

هذا ما يقوله محمود: وكأن محمودًا يزعم -بلا حياء- أن نفسه التي بات يبحث عنها هي نفس الله!! تعالى الله علوًا كبيرًا.

يقول محمود: «نفس كل منا نفسان: نفس دنيا ونفس عليا... فأما النفس الدنيا فهي الحيوان... وأما النفس العليا فهي الإنسان الكامل، الذي قلنا أن فينا جرثومته... وما ترقينا إلا رفع أنفسنا نحو أنفسنا العليا ونفسنا من نفسه تبارك وتعالى»^(٢).

فالنفس العليا التي ذهب محمود يبحث عنها هي الإنسان الكامل، الذي هو عند محمود الله!! سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا... والدليل على ذلك قوله: «ليس في دنيا الإنسان الكامل غير الله لأنه هو الله» تعالى الله علوًا كبيرًا.

ولعل هذه النظرية يمتد جذرها في أغوار الماضي... فقد عثرنا في بحثنا عن أصلها على جذر سامي وآخر آريّ تشابك مع جذر مانويّ فيخرج جذر هيليني يوحّد بين الجذرين وتتفرع منه فروع عند كل من السبئية والاسماعيلية الباطنية «إخوان الصفا». تلك الفروع التي تورق وتثمر عند كل من الحلاج ومحي الدين بن عربي، ومن

(١) الكتاب الثاني من سلسلة رسائل ومقالات، محمود محمد طه، ص ٣.

(٢) القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري، محمود محمد طه، ط ١، يناير ١٩٧١م،

السودان، ص ٧٤-٧٥.



بعده صدر الدين القنوني وعبد الكريم الجيلي... وتتلاقح هذه الأطوار التي قطعتها نظرية الإنسان الكامل لتظهر النظرية من جديد في هذا العصر من خلال «الفكرة الجمهورية» التي تعلن في صراحة وجرأة: أن «الله المشار اليه في القرآن الكريم بين دفتي المصحف هو صاحب الاسم الأعظم... هو الإنسان الكامل».

نعود لنكمل الحديث عن مسار «الفكرة الجمهورية» قبل أن نشعر في تحليل معتقداتهم تحليلًا علميًا وموضوعيًا ينطلق من ثوابت الكتاب الكريم والسنة المطهرة، ونقول: بعد أن أظهر محمود هذه الأقوال المنحرفة بدأ يهاجم المؤسسات الدينية الإسلامية الرسمية القائمة على نشر رسالة الاسلام ومنها وزارة «الشئون الدينية» و«الجامعة الإسلامية» و«القضاء الشرعي» وقد توهم أنه بالقضاء على هذه المؤسسات يخلو له الجو لنشر رسالته الجديدة كما يدعي.

مما يشار اليه هنا أن محكمة الخرطوم الشرعية كانت قد أصدرت في الثامن عشر من فبراير عام ١٩٦٨م حكمًا غيائياً بردة محمود أمرته فيه بالتوبة في جميع الأقوال والأفعال، كذلك أصدر المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة حكمه بالإجماع بارتداده كما أفتى الأزهر بأن ما ورد في كتاب الرسالة الثانية هو كفر صراح ولا يصح السكوت عليه، غير أن حكم المحكمة لم ينفذ!! بل إن نشاط الجمهوريين ظل يتواصل دون توقف وما ذلك إلا لأن الحكومة السودانية لم تكن تقدر خطورة هذا الفكر الهدام؛ هكذا سارت الأمور حتى أطل عهد مايو تحت قيادة الرئيس جعفر محمد نميري عام ١٩٦٩م.

وجد محمود وجماعته في مايو ضالتهم التي كانوا ينشدون فمايو تعني لهم سقوط الطائفية في هوة لا قرار لها، ولذلك سارع الجمهوريون لتأييد مايو التي تحول بين الطائفية والاستثثار بالسلطة مما سيتيح لهم أكبر قدر من حرية الحركة ونشر دعوتهم دون منازع؛ يقول الجمهوريون «كان خطنا الثابت في مناهضة الطائفية وتوعية الشعب بتزييفها للدين وأطماعها في الحكم، فالتقت بنا مايو على هذا الخط لتدراً خطر

الطائفية»^(١).

هكذا بدأ الجمهوريون يقدمون القرابين «لمايو» ويدافعون عنها وعن خطها السياسي، غير أن الجمهوريين لم ينعموا «بمايو» كما كانوا يبتغون فيها هي «مايو» تضعهم فجأة أمام الشريعة الإسلامية في سبتمبر ١٩٨٣م بديلاً للقوانين العلمانية التي كانت تحكم البلاد؛ ومنذ ذلك الوقت كان الفراق بين «مايو» و«الجمهوريين» وكانت المواجهة. وما ذلك إلا لأن الجمهوريين نذروا أنفسهم لمحاربة الشريعة الإسلامية. يقول الجمهوريون: «إن سلطة مايو أخذت تسير في الظلام منذ إعلانها قوانين سبتمبر ١٩٨٣م»^(٢)، بل إن معارضة محمود والجمهوريين للقوانين الإسلامية أخذت طريقها للقضاء حيث رفع محمود وجماعته عددًا من القضايا الدستورية ضد هذه القوانين. ثم كانت نهاية المطاف ذلك المنشور الذي أصدره الجمهوريون في الخامس والعشرين من مايو ١٩٨٤م تحت عنوان: «هذا... أو الطوفان» وقد طالب الجمهوريون في هذا المنشور بما يلي:

أولاً: إلغاء قوانين سبتمبر ١٩٨٣م.

ثانياً: حقن الدماء في الجنوب واللجوء إلى الحل السياسي والسلمي.

ثالثاً: إتاحة فرص التوعية والتربية لهذا الشعب حتى ينبعث فيه الإسلام في مستوى السنة «أصول القرآن» فإن الوقت هو وقت السنة لا الشريعة «فروع القرآن».

وظاهر هذه البنود لا يكشف عن حقيقتها وهي الدعوة إلى دين محمود الجديد ورسائله الجديدة أو ما أسماه «بالرسالة الثانية من الإسلام» والتي هي جسر العبور إلى نظريته في الإنسان الكامل؛ ولذلك فإن هذا المنشور يعتبر خروجاً صريحاً على الإسلام وهذا أمر لا يغيب على أي باحث له إلمام بمصطلحات الجمهوريين تلك التي وردت في

(١) لماذا نؤيد سلطة مايو، الإخوان الجمهوريون، ط ١، مايو ١٩٧٩م، ص ٦

(٢) في ذكرى الفداء العظيم، المنشورات التي واجهت الإمام المزعوم!! وقوانينه الجائرة،

الإخوان الجمهوريون، يناير ١٩٨٦م، ص ٤.



كتبهم ومنشورهم «هذا أو الطوفان»، ومن بينها «أصول القرآن» و«فروع القرآن»، و«السنة والشرعة» غير أن البعض الذي يجهل حقيقة هذه المصطلحات ذهب إلى أن المنشور لا يعدو أن يكون منشورًا سياسيًا ومن ثم يرى أن إعدام محمود لم يكن بسبب رده وإنما كان اغتيالًا سياسيًا.

ولعل بنود هذا المنشور تزداد وضوحًا بعد أن نفصل القول في معتقدات الجمهوريين.

الأصالة والتقليد عند محمود والجمهوريين

لقد تناولت كتب محمود باستفاضة، ما أسماه «بالأصالة والتقليد» عنده هو أداء العبادات المفروضة بكيفية وكمها كما بلغنا عن رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام. فصلاة التقليد - على سبيل المثال - هي عند الجمهوريين الصلاة المفروضة المشروعة التي يعرفها قاطبة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وهكذا الشأن في سائر العبادات... أما «الأصالة» فهي أن يترك السالك «التقليد» بعد إن يكون قد جود العبادة وأتقنها فتكون للعبد السالك في تلك المرحلة صلاته الخاصة به وزكاته وصيامه وحجه الخاص به أيضًا. أي أن العبد يترك «صلاة التقليد» - الصلاة المشروعة - إلى صلاة لا كيف لها ولا كم أسماها محمود بـ «صلاة الأصالة».

الذي يهمننا من هذه المقدمة هو أن «صاحب الفكرة الجمهورية» محمود هو أول من زعم أنه انتقل من مرحلة التقليد إلى مرحلة الأصالة ولذلك سمعنا وقرأنا أن زعيم الجمهوريين لا يصلي الصلاة التي يعرفها المسلمون وإنما يصلي صلاة الأصالة لأنه أصبح أصيلاً... وكل صاحب موقف حيال «الفكر الجمهوري» سواء بالانحياز له أو بالوقوف ضده لا يخفى عليه ذلك الأمر فهو من الأمور الواضحة وضوحًا لا خلاف عليه.

وانطلاقاً من هذا الفهم بدأ أتباعه يجاهدون للوصول إلى ذلك المقام الموعد «الأصالة» ويبدلون في ذلك النفس والنفس.

أنانية محمود

هذا هو الخط العام للفكر الجمهوري والذي خدع به محمود الأصحاب والأتباع، ولكن حينما تتضارب المصالح الشخصية يحدث التضارب في الأفكار!! فماذا حدث!؟

تجراً أحد أتباع محمود «من القياديين» ممن يتطلعون للمرتبة أو قل «للوهم»



الذي مناهم به محمود «مرتبة الأصالة» فزعم أنه بلغ المرتبة المرتجاة، فشق الأمر على محمود ووقع في حيرة أربكته حيناً من الدهر غير أنه وجد مخرجاً له بتأليف كتيب تحت عنوان «التقليد والأصلاء والأصيل» مَيَّز فيه بين فئات ثلاث: أولها فئة العامة وهذه الفئة تقع داخل دائرة التقليد. والثانية فئة الخاصة وهؤلاء هم الجمهوريون الذين يزعم محمود أنهم يقعون داخل دائرة الأصلاء. ثم دائرة لا يوجد داخلها غير شخص واحد هو «الأصيل». وما دعاه إلى ذلك هو أن ينفرد بهذه الدائرة دون منافس يقول محمود: «ترك التقليد في هذه الدنيا لا يتم إلا لرجل واحد هو صاحب المقام المحمود»^(١). ويقول: «وهذا هو المعنى الذي يسقط به التقليد وتحقق صلاة الأصالة - الصلاة الفردية - وهذا الأمر لا يتم على كماله في هذه الحياة الدنيا إلا لرجل واحد هو صاحب المقام المحمود الذي تحدثنا عنه أما كل من عداه فهم يحققون أصالتهم وفرديتهم داخل إطار تقليد النبي»^(٢)!!.

لقد حسم محمود إذن القضية وتقهقر عن أصل فكرته وحدد أن ترك التقليد إلى الأصالة لا يتم إلا لرجل واحد أما أتباعه وتلاميذه فهم يحققون الأصالة في إطار تقليد النبي ﷺ أي لا يتركون التقليد البتة - فترك التقليد لرجل واحد هو صاحب المقام المحمود كما يزعم محمود؛ وهذا الأمر قد أكده سعيد شايب وهو الرجل الثاني بعد محمود في لقاء مع إحدى الصحف السودانية بقوله «إنه لا يوجد اليوم بين الجمهوريين من يحلم بترشيح نفسه لمقام خلافة محمود - المقام المحمود»!!^(٣). فالأدلة تقودنا حتى هذه المرحلة إلى أن صاحب الفكرة الجمهورية «محمود» يزعم أنه صاحب المقام المحمود!! الأمر الذي أصبح عقيدة راسخة عند أصحابه من الجمهوريين!! ويبقى

(١) أدب السالك في طريق محمد، ص ٧٥.

(٢) أدب السالك في طريق محمد، ص ٧٥.

(٣) حوار أجرته صحيفة الأيام السودانية مع سعيد شايب حول الفكر الجمهوري بتاريخ ٢٥

ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ، الموافق ٦ يناير ١٩٨٦ م.

سؤال وهو: ما هو تعريف صاحب المقام المحمود عند الجمهوريين؟
تقول الفكرة الجمهورية: «صاحب المقام المحمود... الإنسان الكامل...
المسيح المحمدي هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وعلمه وقدرته ليس بجارحة
ولا بواسطة وإنما هو يعلم بذاته ويقدر بذاته متخلقاً في ذلك بأخلاق الله»^(١).
هنا وفي هذا النص عدة أمور يمكن إثباتها:

أولاً: إن صاحب المقام المحمود هو الإنسان الكامل وهو أيضاً ما يسمى بالمسيح
المحمدي؛ فهذه مترادفات كما هو واضح من النص.
ثانياً: وبما أننا أثبتنا مقدماً أن محموداً يزعم أنه صاحب المقام المحمود فهو من ثم
يزعم أنه الإنسان الكامل وأنه ما يسمى بالمسيح المحمدي.
ثالثاً: وإن زعم ذلك كما أثبتنا فإنه من ثم يدعي الألوهية!! كيف!! يقول محمود بلا
حياء: «الله المشار اليه في القرآن بين دفتي المصحف هو صاحب الاسم الأعظم هو
الإنسان الكامل»^(٢).

النتيجة إذن واضحة وضوحاً تاماً وهي ادعاء محمود للألوهية!! ولكن يبقى
سؤال في ذهن البعض وهو كيف يدعي محمود الألوهية والنبوة في ذات الوقت؟! ونقول
رداً على ذلك: إن الذي ليس فيه اختلاف هو كلام الحق عز وجل لأنه من عند الله تعالى
أما ما دونه فقد نجد فيه اختلافاً كثيراً خاصة حينما تكون الأفكار تلفيقية. والفكرة
الجمهورية من هذا النوع - أي تم تلفيقها من فلسفات قديمة وشطحات بعض من جانب
طريق الحق ومن ثم لا تجد بينها رابطاً متيناً يجعلها مقبولة ومعقولة لمن يطلع عليها؛
والذي يبحث عن العلاقة بين ادعاء محمود للألوهية وادعائه للنبوة؟! يجد بعد بحث في
كتب محمود أن الرجل حاول أن يزيل التناقض بعبارات جاء فيها: «الداعي إلى الله في

(١) أدب السالك في طريق محمد، ص ٥٥.

(٢) أدب السالك في طريق محمد، ص ١٠.



دعوتنا هذه هو الله!!^(١) تعالى الله علوًا كبيرًا.

الأمر واضح الآن: فالرجل يؤمن «بوحدة الوجود» فالخالق والمخلوق - كما ورد في كتبه - لا يختلفان اختلاف نوع بل يختلفان اختلاف مقدار... فالوجود عنده وحدة واحدة خالقه ومخلوقه والكل يسير نحو الكمال الذي لا تحده حدود ولذلك تجده يتحدث في كتبه عما أسماه «الله المحدث والله المطلق» تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا. فالله المحدث حسب زعمه هو الإنسان الكامل!! رسول الرسالة الثانية من الإسلام!! وهو في ذات الوقت يتصف بكل صفات الذات الإلهية!! تعالى الله علوًا كبيرًا. ويفصل محمود القول في الإنسان الكامل فيقول «فالله اسم علم على الإنسان الكامل الذي بين الذات المطلقة في إطلاقها وبين جميع الخلق... فأسماء الله الحسنى إنما هي من حق الإنسان الكامل في المكان الأول ثم لا تكون في حق الذات الصرفة المطلقة الا عند التناهي»!!^(٢).

ويقول: «وإبداء ذات الله لخلقه إنما يتم عن طريق تقييد الإنسان الكامل للمطلق فهو في كل لحظة يقيد من المطلق ما به يزيد علمه وتتجدد عبوديته وتتسع حياته»^(٣). ويقول: «ولما كان الإنسان الكامل هو قيد الذات بالصورة التي ذكرناها فإن كل الوجود مستمد منه»^(٤).

ويقول: «القرآن كما هو بين دفتي المصحف قد صدر عن - الإنسان الكامل - الحقيقة المحمدية»^(٥).

ويقول: «الإنسان الكامل هو الله الحادث فالاسم الله إنما هو علم على هذا وأما

(١) راجع: محمود محمد طه بين الأصالة والشك، محمد خير علي محيسي، ص ١٠.

(٢) أدب السالك، ص ٨٠.

(٣) أدب السالك، ص ٨.

(٤) أدب السالك، ص ٢٧.

(٥) أدب السالك، ص ٥٤.

في حق الذات القديمة المطلقة إنما هو إلا إشارة، والله الحادث قامت به كل أسماء الله الحسنى الواردة في الكتب السماوية عامة والواردة في القرآن خاصة وهو إنما تأهل لهذا المقام بفضل الله ثم بفضل تخليه عن إرادته للإرادة الواحدة حتى لقد أصبح بوقاً تنفخ فيه كمالات المطلق من الصفات والأسماء وعلى قمته الصفات النفسية - الحياة - العلم - الإرادة - القدرة - السمع - البصر - الكلام - فصار حياً حياة الله، وقادراً قدرة الله وسميعاً سمع الله وبصيراً بصر الله ومتكلماً كلام الله وصار الله^(١). تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

أما يدل كل ذلك أن محموداً يقول بألوهية الإنسان؟!!

يقول محمود: «محمد ليس نبياً وإنما هو النبي وخاتم النبيين والمسيح ليس رسولاً وإنما هو الرسول وخاتم الرسل ورسالته رسالة ولاية وليست رسالة نبوة وبها تختتم الولاية»^(٢).

وعلى هذا فخاتم الرسل عند محمود ليس الرسول المصطفى محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام وإنما هو المسيح، والمسيح هنا لا يعني به عيسى بن مريم عليه السلام، وإنما يعني به ما أسماه «بالمسيح المحمدي». ومقام الولاية عند محمود أرفع درجة من مقام النبوة. يقول محمود وتحت عنوان «مقامات النبي والأدب معه»: «ومن المعرفة المعينة على الأدب معه وعلى محبته المعرفة بأنه صاحب ثلاثة مقامات: هي مقام النبوة في الوسط ومن أسفله الرسالة ومن أعلاه الولاية»!!.

هذه بعض النتائج التي توصل إليها محمود وهي نتائج مفارقة للدين في جملته وتفصيله لا يتوصل إليها إلا من يحمل تصوراً للدين غريباً عن أهل الإسلام؛ بل وحتى عن أهل الكتاب في بعض الجوانب؛ فالنتائج الخاطئة لا تستتج إلا من مقدمات خاطئة، ومن بين هذه المقدمات الخاطئة تصور محمود للدين! فماذا يعني الدين بالنسبة للأستاذ؟!.

(١) أدب السالك، ص ٤٨

(٢) أدب السالك، ص ٤٨



تصور محمود للدين

يقول محمود: «هنالك الاسلام الخاص الذي أرسل الله به الرسل وخاطب البشر وشرع فيه الشرائع وأقام التكليف، وإنما سمي هذا بالإسلام الخاص لأن الخطاب بالإسلام العام يتوجه إلى جميع عناصر الوجود. وفي هذا لا تقع المعصية... ففي شريعته من عصي فقد أطاع في معنى ما قد عصى.. وأما الإسلام الخاص ففيه تقع المعصية وتقع الطاعة والحكمة في شرع الإسلام الخاص هي إخراج الناس مما أراد الله إلى ما يرضى»^(١).

والدين الخاص - بمفهوم الفكرة الجمهورية - لم يبدأ ببعث الرسل صلوات الله عليهم وسلامه وإنما بدأ بالوثنيات البدائية التي صاحبت النشأة البشرية الأولى في الأزمان السحيقة، يقول محمود: «بدأ ظهور هذه الفكرة الواحدة في الوثنيات البدائية المتفرقة ثم أخذت تتقلب في مراقي التطور حتى ظهور الوثنيات المتقدمة واضطرد بها التقدم حتى ظهرت صور ديانات التوحيد الكتابية بظهور اليهودية وظهور النصرانية ثم توج ذلك ببعث محمد وإنزال القرآن الكريم، وهذه الفكرة الواحدة ذات شكل هرمي قاعدته أحط الوثنيات التعددية وأكثرها تعديداً وقمته عند الله حيث الوحدة المطلقة، والاختلاف بين القاعدة والقمة اختلاف مقدار وليس اختلاف نوع، وهذه الفكرة الواحدة نبتت في الأرض كما نبتت الحياة بين الماء والطين»^(٢).

ويقول أيضاً: «مر وقت كانت عبادة الصنم مرضية عند الله وذلك بحكم الوقت»!!^(٣) وبذلك فهو يتبنى ويذهب إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد، كما

(١) القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري، ص ١٦٧.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٠٠.

(٣) القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري، ص ١٦٨.

تدرج نحو الكمال في علومه وصناعته..

وعلماء الأديان يقولون ببطلان هذا المذهب، ويذكرون أن عقيدة الخالق هي أقدم ديانة ظهرت في البشرية، ولا يمكن أن تنفك عنها كل الجماعات والأقوام. أما الوثنية فهي حالة طارئة، أو مرض أصاب البشر عندما خرجوا عن طاعة الخالق، وهذه النظرية تسمى بنظرية «فطرية التوحيد وأصالته» التي انتصر لها جمهور من علماء الأجناس، وعلماء الإنسان، وعلم النفس.

ويقول: «لم يكن لهذا الدين رسل غير بدائه العقول، وكان وثنيًا تعدديًا ولكنه كان بداية الدين، بداية الإسلام»^(١)!! كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا. فالدين في «الفكرة الجمهورية» مجرد «فكرة» بدأ ظهورها في الوثنيات القديمة... وأن هذه «الفكرة» نبتت في الأرض!! وما تقول به «الفكرة الجمهورية»، من أن الدين فكرة نبتت في الأرض ليس هو بالأمر الجديد وإنما هو قول من أنكر الألوهية ووحى السماء وحاول من ثم إيجاد تفسير مادي للدين، والجديد الذي تطالعنا به -الفكرة الجمهورية- هو محاولة صاحبها «محمود» إيجاد سند لهذا التفسير المادي من نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة، بل إن هذا التفسير لديها هو قمة العلم بدقائق حقائق الدين!!.

ويبدو أن الفكرة الجمهورية وهي تتناول قضية الدين - الإسلام - إنما تتناولها تحت تأثير مباشر لنظرية النشوء والارتقاء التي اقترنت باسم «دارون» ووضع أسسها العالم الفرنسي «لامارك»... هذه النظرية نجد بصماتها واضحة في مقولات «الفكرة الجمهورية»... فالدين في الفكرة الجمهورية يتطور تبعًا لتطور الفرد البشري والذي ترجع الفكرة أصله إلى ذرة غاز الهيدروجين!!

الدين يتطور - بمفهوم محمود - من أحط الوثنيات وحتى يبلغ ديانات التوحيد والتي اختتمت ببعث المصطفى ﷺ، ودور الدين المتطور هذا ينحصر في الانتقال بالإنسان على مكث من النقص إلى الكمال حتى يبلغ في نهاية المطاف الكمال المطلق!!

(١) رسالة الصلاة، ص ٢٦.



ولكن محمودًا لا يضع حدًا لتطور الدين برسالة خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، وإنما يزعم أن الإسلام رسالتان: رسالة أولى تم تبليغها وتفصيلها، ورسالة ثانية تنتظر التفصيل وسيتم لها ذلك حين يجيء رجلها وتجيئ أمتها وهذه الرسالة الثانية هي التي يبشر بها محمود وأتباعه!!.

والسالك من أمة الرسالة الثانية «أمة محمود» يبلغ في نهاية المطاف المقام المحمود - وهو مقام الإنسان الكامل - والذي هو في الفكرة الجمهورية الله تعالى علوًا كبيرًا. غير أن محمودًا كما ذكرنا ناقض أصل فكرته حينما زعم أن الذي يتحقق له «المقام المحمود» هو رجل واحد وذلك الرجل هو محمود حسب زعمه!!.

كما يزعم أن الدين لم ينزل من السماء وإنما نبت من الأرض، والتوحيد هو تطور طبيعي للتعدد، يقول محمود ^(١): وزمان ظهور إبراهيم الخليل متأخر عن زمن نشوء المجتمع بما لا يقاس، وما أوردناه إلا لندلل على أن عقيدة التوحيد قد جاءت متأخرة كثيرًا عن نشأة المجتمع وفي حين ان المجتمع يمكن أن ينشأ بدون عقيدة التوحيد، فإنه لا يمكن أن ينشأ بدون شريعة الحلال والحرام، ولا تقوم شريعة الحرام والحلال إلا على عقيدة: وقد كنت هذه التي نشأت عليها شريعة الحرام والحلال البدائية عقيدة تعدد، وهى في وقتها قد كانت هذه مرادة من الله، وهذا يعنى أن بداية عقيدة التوحيد قد نشأت في الأرض في مضمار مرحلة الانتقال المشتركة بين دين الإسلام العام ودين الإسلام الخاص، وقد اعتقد البشر في مرحلة الانتقال هذه في الآلهة المتعددة، وكان لكل أسرة إله، بل قد كان لكل فرد من أفراد الأسرة إله، وكان آلهة صغار الأسرة يخضعون لإله كبيرها، كما يخضع صغار الأسرة لكبيرها، ثم إن آلهة الأسرة الصغيرة تخضع لإله الأسرة الكبيرة، وحين تنشأ الحروب بين قبيلتين من القبائل البدائية وتنهزم فيها قبيلة أمام قبيلة وتخضع لها، فإن آلهة القبيلة المغلوبة قد يخضعون لآلهة القبيلة الغالبة، هذا يجري في أغلب الأحيان، وبجريانه تقل أهمية آلهة كانوا قبلًا معبودين

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، محمود محمد طه، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٩

ومقدسین ومع قلة أهميتهم يبدأ سقوطهم واختفاؤهم وتتحول عبادتهم لآلهة أكبر منهم هم في الغالب الأعم آلهة الأقوياء والمطاعين من كبراء القبائل... وهكذا دواليك.... هذه الصورة تعطي حركة التطور نحو توحيد الآلهة كنتيجة للصراع الذي به توجه الإرادة الهادية التي سميناها دين الإسلام العام سير البشر من التعدد إلى الوحدة. ثم يقول: فكأن بدايات التوحيد نشأت في مضمار دين الإسلام العام ولكن اكتمالها بمجيء الكلمة «لا إله إلا الله» قد كان نتيجة قفزة تمثلت في إمامة السماء بالأرض فيما سمي بالوحي، وهو اتصال الملك بالبشر ليوحي إليه تعليماً معيناً في تأكيد التوحيد، وفي التسامي به عما كان عليه الأمر من قبل في الأرض، وفي توجيه التشريع الذي كان نشأ في الأرض قبل عقيدة التوحيد الموحدة من السماء هذا يسوقنا في استطراد بسيط إلى تصحيح خطأ شائع، وهو الزعم بأن الدين قد نزل من السماء والحق أن الدين نبت في الأرض وألمت به أسباب السماء، فهدبته، ونقته، ووجهته.. في تسام مقصود به أن تلحق الأرض بأسباب السماء، فإن رب الأرض، ورب السماء واحد». ومحمود جاء بكل بساطة ليصحح هذا الخطأ الشائع.

مما يشار إليه أن كتاب «تطوير شريعة الأحوال الشخصية» يهديه إلى النساء إلى أكبر من استضعف في الأرض على حد تعبيره، يقول محمود: «الإهداء... إلى أكبر من استضعف في الأرض، ولا يزال.... إلى النساء، ثم إلى سواد الرجال وإلى الأطفال.... بشاركم اليوم فإن موعود الله قد أظلكم» ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» ثم يقول في مقدمة هذا المنشور بعد ذكر الآيات القرآنية في الشهادة والميراث، ثم يعقب عليها بثناء خبيث للقرآن وعدله، علي سبيل التعمية والاستدراج ليجهز عليها بأقبح أنواع الذم والعدوان - وأن هذه الآيات التي وصفت النساء بالقصور عن مساواة الرجال في الشهادة أو عدم مساواتهم في الميراث بأنه عدل يناسب القاصر وهو العدل الذي يبرره «حكم الوقت» «فقد كانت المرأة في القرن السابع قاصرة عن شأو الرجال وليس القصور ضربة لازب وإنما هو مرحلة تقطع مع الزمن والصيرورة إلى الرشد حتم».



ونريد أن نسأل محمودًا من أين له العلم بأن الله شرع شرعه مؤقتًا؟ وأنزل أحكام دينه طارئة على عبادته، وأن محمدًا الذي أرسله الله رحمة للعالمين بشريعته السمحة ودينه الخاتم إنما جاء بحكم الوقت لأهل القرن السابع فقط، وهكذا يتمادى محمود في بهتانه ويخوض خوضا بكل استهتار وعدم حياء يعيث فسادًا اتباعًا لسنة سلفه من المشركين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلُونَ﴾ (فصلت: ٢٦)، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِلَهٌ إِنْكَ افْتَرَيْنَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (الفرقان: ٤)، وقد وصف الله هذه الدعوى بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

المعرفة والتأويل واللغة

يستعيد محمود محمد طه في نسقه المعرفي التصورات الصوفية حول المعرفة الكشفية التي تتجاوز العقل الإنساني، حيث يقرر: «بالممارسة العملية يجيء العلم الوهبي في مقابلة العلم الكسبي وهذا العلم الوهبي هو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، واتقوا الله يعني اعملوا بالشرعية وهي العلم الكسبي ويعلمكم الله العلم بالإضافة إلى النص القرآني الوهبي أو العلم اللدني لأنه من لدن الذات بلا واسطة»^(١)

الوارد في الاقتباس أعلاه يورد محمود محمد طه نصوصاً قرآنية أخرى يرى فيها سنداً لتصوراته مثل ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِزِّنَا وَعِلْمَيْنَهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥) ليؤكد أن هذا العلم اللدني يؤخذ من الله بلا واسطة. ويعبر محمود محمد طه عن تصوره للغة بعبارة موجزة «اللغة أواني تصب فيها المعاني حسب ممارسة السامع وحسب ممارسة المتكلم»^(٢) يبدو أن طه يحاول من خلال اختزال اللغة إلى مجرد وسيط / شفرة بين السامع والمتكلم أن يخلص إلى أن التجربة الدينية هي تجربة فوق لغوية فطالما أن اللغة تجيء من العالم - وفهم الرسالة اللغوية ناتج عن الخبرات الثقافية للمتلقي - بينما تجيء التجربة من ورائه - أي العالم - فاللغة الإنسانية المحدودة غير صالحة لمقاربة المطلق أو كما عبر النفري المتصوف «كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة». بناء على هذا التصور للغة أسس محمود محمد طه نظريته للحروف والتي يشرحها بعبارات كالتالي: «الحروف على ثلاثة مراتب رقمية وهي تتكون من الثمانية والعشرين حرفاً التي تشتمل عليها الأبجدية في اللغة العربية وأما الحروف الصوتية فهي

(١) تعلموا كيف تصلون، محمود محمد طه، «د.ن»، ١٩٧٢م ص ٢٣.

(٢) سلسلة محاضرات التبسيط، محمود محمد طه، ١٩٧٧م المحاضرة الرابعة.



لا حصر لها وذلك لأنها تنتج عن حركة المتحركات وأما الحروف الفكرية فهي ملكوت كل شيء وهي كلمات الله التي قال عنها ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ﴾ (الكهف: ١٠٩) إذا كانت هذه هي نظرة طه للحروف فمن الطبيعي أن تكون الكلمات التي تكونها الحروف مجرد إشارات للمعاني ﴿فَبَلَّ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩).^(١) فهي توجه إليها ولا تعطيها وإنما تؤخذ المعاني من الله بحسب التوجه إليه وتمام الحضور معه وذلك هو توحيده^(٢)

عبر هذا التصور الذي تكاد تُسمع فيه أصداء أقوال ابن عربي يصل محمود محمد طه إلى فض العلاقة بين المنطوق اللفظي والدلالة، إن المنطوق يؤدي إلى مفهوم بدلالة الألفاظ لكن هذا المفهوم قد يخالف الدلالات «الحقيقية» للنص وهذه الدلالة الحقيقية ليست ناتجة عن منطوق النص بل ناتجة عما يمكن أن نطلق عليه ما وراء النص. يؤكد محمود محمد طه هذه الفكرة في عدة مناسبات يقول «يظن كثير من كبار العلماء أن القرآن هو اللغة العربية وذلك خطأ شنيع وهو خطأ جعلهم يلتمسون معاني القرآن في اللغة العربية فانحجبوا بالكلمات وهم يظنون أنهم على شيء واللغة أساساً نشأت بدوافع الحاجة اليومية في الحياة الجسدية فهي مهما تطورت فإنها تعجز كل العجز عن تحمل معنى كلام الله وهي على خير حالاتها لا تقوم منه إلا مقام الرمز والإشارة»^(٣). بلغة أخرى طالما أن اللغة هي تعبير عن مجموعة من القوانين الاجتماعية بدءاً بالمستوى الصوتي وانتهاءً بدلالات اللغة فإن هذه القوانين تستمد قدرتها على القيام بوظيفتها من الإطار الثقافي وهو ما يعتبره محمود محمد طه - كما رأينا في الاقتباس السابق - دليلاً

(١) القرآن ومصطفى محمود، ص ٤٨.

(٢) أسئلة وأجوبة، ص ٧٢.

(٣) الإسلام، محمود محمد طه، أمد زمان ١٩٦٨. ص ١٥.

على عجز اللغة الإنسانية عن تحمل دلالات النص الإلهي القادم من خارج هذا الإطار. يؤكد طه في موضع آخر «من خصائص القرآن إنه لا يفهم عن طريق اللغة وحدها وإنما يفهم عن طريق التوحيد واللغة إنما تأخذ مدلولاتها من المعاني التي يفيضها. هكذا وعلى الضد من تصورات أخرى تفترض التوحيد على من جودوا التوحيد»^(١) شفافية القرآن بمعنى إنها تعتقد إنه إذا حاز القارئ على الكفاءة اللغوية المطلوبة باللغة العربية فإنه يستطيع أن يحوز عندئذ على كل الدلالات التي قصدها الخطاب القرآني فإن النص عند محمود محمد طه يتكلم لغة الرموز وهي لغة تتكاثر منها دلالات غير محدودة «هذا القرآن ليس له معنى واحد هو ما تعطيه اللفظة العربية وإنما معانيه لا تحصى ولا تستنفد»^(٢). لذلك يكون هدف المجاهدات والرياضات الصوفية والتحقق بالتوحيد هو تسليح القارئ بالقدرة على فك هذه الرموز إنه - أي القارئ - يدخل في حوار لا ينتهي مع الدالات التي جردت المدلولات وحولتها إلى أسماء للمجهول لا يمكن بناؤها للمعلوم إلا بممارسة هذه الإجراءات.

يستدعي محمود محمد طه نصوصاً قرآنية يبرهن بها على تصوراتهِ حول المسيح المحمدي خاتم الولاية فنص مثل ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (البقرة: ٢١٠)، يصبح بعد تأويله دالاً على عودة المسيح المحمدي ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ الإشارة هنا إلى الكافرين والمنافقين والمعنى وما ينتظرون قوله ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني الإنسان الكامل يعني الحقيقة المحمدية، قوله ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ يعني يأتيهم مجسداً في الدم واللحم وتلك إشارة

(١) القرآن ومصطفى محمود، ص ٨٥.

(٢) القرآن ومصطفى محمود، ص ٢١.



لمجيء المسيح قوله ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ إشارة لساعة مجيئه قوله ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١) إشارة إلى الكمالات التي بها تملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، كما تصبح ليلة القدر دالة ليس فقط على تنزل القرآن بل أيضاً على تنزل المسيح المحمدي من برزخه إلى الأرض، لحظة مجيء اسم الله الأعظم مجسداً في الأرض هي ليلة القدر التي يتوقف فيها الجولان بين البرزخ والملكوت، وإنما يتوقف الجولان لأن لحظة المجيء إنما هي أصل الزمن وهذه اللحظة الحاضرة هي المعبر عنها بالساعة «يسألونك عن الساعة أيان مرساها» (الأعراف: ١٨٧) والساعة هذه هي لحظة المجيء هذا وفيها يستقر المقام المحمود على وجه الأرض وتلتقي لحظتئذ العوالم الثلاثة الملكوت والبرزخ والملك^(٢). لا شك أن الناظر لهذه التأويلات من خارج النظام المعرفي الذي يتحرك داخله محمود محمد طه سيصطدم بغرابة هذه التأويلات غير المؤسسة على السياق واللغة وسيقول إنها تحتاج إلى تأسيس، إلى إثبات صحتها غير أن هذا الاعتراض لا معنى له داخل هذا النظام المعرفي^(٣).

(١) القرآن ومصطفى محمود، ص ٤٥.

(٢) الموالد الثلاثة، الأخوان الجمهوريون، ص ٤-٥.

(٣) الخطاب الجمهوري دراسة في المعرفي والسياسي عند محمود محمد طه، أشرف عثمان محمد الحسن، بحث لنيل درجة الماجستير في العلوم السياسية، جامعة الخرطوم كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، شعبة العلوم السياسية، إشراف / د. محمد عثمان أبو ساق ماي-٢٠٠٣.

القرآن الكريم وعلومه (١)

أنزل الله كتابه العزيز القرآن الكريم متمماً ومكملاً ومهيماً على كل ما سبقه من كتب ورسالات، كتاب حجة وإقناع ختمت به الرسالات، ثم صدق الله وعده في حفظه - دون سائر الكتب - نبراساً هادياً إلى آخر الزمان ومعجزة حية باقية للأجيال المتعاقبة من البشر. ولا بد لنا أولاً أن نتعرف على هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ من خلال نصوصه، ونرى من ثم هل يستطيع هذا الكتاب أن يمدنا بتعريف دقيق عن نفسه. منذ البداية وفي أول سورة بعد سورة المفتوح بل وفي أول آية بعد الحروف المقطعة في بداية سورة البقرة، عرّف القرآن نفسه بأنه كتاب وأنه هدى للمتقين الذين من صفاتهم أنهم يؤمنون بالرسالات وبالغيب ويطيعون الصلاة، ويؤدون زكاة المال وذلك كله يؤدي للفلاح المطلق ﴿الْم﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ (البقرة: ١ - ٥).

«الكتاب من [ك ت ب] وهو أصل صحيح في اللسان العربي يعني جمع أشياء بعضها مع بعض، لإخراج موضوع متكامل، بدلالة قوله تعالى ﴿وَقَالُوا أَأُطِيعُ الْأَوَّلِينَ أَمْ كَتَبْنَا فِيهِ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٥) (٢). وقد اهتم القرآن بالكتاب اهتماماً بالغاً لدرجة أن هذه الكلمة «بمختلف اشتقاقاتها ومعانيها» ذكرت في القرآن بصيغة كتاب ٢٥٥ مرة، وكتب ٦٠ مرة، وكاتب ٨ مرات. وكانت في افتتاحية ٢٢ سورة، مما يؤكد مدى اهتمام القرآن بمسألة الكتاب. كان لتعبير «أهل الكتاب» نصيب كبير في القرآن حيث ذكر في ٥٥ موضعاً، مما يلفت النظر إلى أهمية الحوار معهم ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا

(١) محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، عبد الإله كنه، تحت الطبع، ٢٠١٨م.

(٢) الكتاب والقرآن رؤية جديدة. محمد شحرور، ط ٢ دار الساقي بيروت ٢٠١٣. ص ٥٣.



وَالْهَكْمَ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٦٦﴾ (العنكبوت: ٤٦) . ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (آل عمران: ٦٤).

وهو كتاب أنزله الله «بالحق» ولم يكتبه البشر كحال التوراة والإنجيل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ (البقرة: ١٧٦)، التوراة والإنجيل نزلتا من الله «ولكنهما ضيعتا» ﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾﴾ (آل عمران: ١ - ٣)، وهو كتاب حق غير مفترى بواسطة الرسول ﷺ ﴿الْم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ (السجدة: ١ - ٣)، لم يكتبه الناس بأيديهم ثم ينسبونه لله ليتاجروا به كما فعل أهل الكتاب، فلهم الويل والعذاب الأليم من ممارساتهم هذه ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة: ٧٩)، لأنه تنزيل من عزيز لا يسمح لأحد أن يتدخل في مشيئته، وهو حكيم صاغ الكتاب بمنتهى الحكمة بحيث يفوق قدرات البشر ﴿حَمْ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ (الجاثية: ١ - ٢)، ﴿حَمْ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ (الأحقاف: ١ - ٢). ﴿حَمْ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾﴾ (غافر: ١ - ٤)، ﴿أَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ (الزمر: ١)، لذلك تركه المؤمنون الأوائل على حاله، ولم يسعوا لتأويله كله وخاصة المتشابه منه، أو تعديله ليسهل فهمه، بل تركوه لمن بعدهم على حاله يوم نزل؛ يخرج لكل جيل معانٍ لم يدركها الأولون من قبل ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ (آل عمران: ٧)، لأنهم كانوا يدركون أن كلمات الله في الكتاب لن تتبدل ﴿وَأَنزَلْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ (الأنعام: ١١٤ - ١١٥).

لقد نزل هذا الكتاب في ليلة «أي فترة» مباركة، فيها يُفَرَّقُ الحق من الباطل ﴿حَم﴾^١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ (الدخان: ١ - ٦)، فَرَّقَ الكتاب الحق من الباطل لأنه هو نفسه الحق ﴿الْمَرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد: ١)، وهو كتاب مبارك ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩) ﴿(ص: ٢٩).

وفوق إنه مبارك، هو مصمم ليؤدي به الرسول ﷺ واحدة من مهامه ألا وهي إنذار الناس ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٢)، وهو كتاب آياته محكمة رغم ما به من التفصيل؛ الجمع بين الأمرين عادة ما يخل بالكلام، ولكن لما حدث هذا في القرآن زاده ألقا وجمالا وجعله معجزا ﴿الرَّكِتَابِ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ وَتُرُفُّصَلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)، ﴿حَم﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ وَقُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ (فصلت: ١ - ٣). القرآن معجز لأن هذا التفصيل كان على علم وهو هدى ورحمة، وليس عبثا أو خبط عشواء ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) ﴿(الأعراف: ٥٢).



وصف الكتاب بأنه أحسن الحديث حيث يتكرر فيه ذكر الأشياء دون أن يخل ذلك بنظامه، بل يزيد التكرار فيه المعاني جمالاً ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّدًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر: ٢٣). ولم ينزل في قرطاس حتى لا يتهم الرسول ﷺ بالسحر ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾﴾ (الأنعام: ٧). ذلك لأن القرطاسة مرض أصاب أهل الكتاب من قبل، حيث جعلوا كتبهم قرطاس يخفونها عن يشاؤون ويبدونها حسب مصالحهم ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قِرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُمِمَتْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ (الأنعام: ٩١). لقد وجب على المؤمنين أن يحمداوا الله على مثل هذا الكتاب الذي ليس به عوج ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾﴾ (الكهف: ١).

فصل الله علاقة الكتاب بالمؤمنين والحكمة من ذلك. هذا الكتاب هو الذي دعا به إبراهيم ربه لكي ينزله على رسول هذه الأمة المسلمة المنحدرة من ذريته حتى يتلوه على مسامعهم ويعلمهم إياه ويزكي به نفوسهم ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة: ١٢٧ - ١٢٩)، فاستجاب الله الدعاء وبعث رسوله ﷺ في هذه الأمة، التي سوادها الأعظم كان أمياً يتخبط في جاهليته وضلالاته الخاصة به، مع ذلك لم تأخذ بنصيب كبير من معتقدات وأساطير الأمم الضالة في ذلك الزمان ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ (الجمعة: ١ - ٢).

هذه الأمة لم تفعل كما فعلت يهود التي أخذت من الأمم التي تفاعلت معها أسوأ ما عندها من معتقدات؛ حيث أنهم وقبل أن تجف أقدامهم بعد من ماء البحر الذي فلقه الله لهم، حتى حنوا للشرك الذي عرفوه في مصر الفرعونية المشهورة بتعدد الآلهة ﴿وَجَوْرَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ (الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩).

ولم يكن الرسول ﷺ قبل بعثته يعرف شيئاً من هذه الكتب الضالة خاصة التوراة والإنجيل. لقد ترجمت هذه الكتب للعربية بعد بعثة النبي ﷺ بقرون ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ (الشورى: ٥٢ - ٥٣). ولم يكن ﷺ يتوقع نزول كتاب إليه ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص: ٨١). لربما بدأ بتأليف شيء ما قبله؛ وذلك من رحمة الله على أمة الإسلام ليكون الكتاب نقيًا وعلى حاله كما كان عند النزول محفوظًا دون تحريف. الأمر نفسه ينطبق على الذين آمنوا به أول وهلة، لم يكن لديهم كثير علم فعلمهم الرسول ﷺ الكتاب، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (البقرة: ١٥١). فأخرجهم بالكتاب من الظلمات إلى النور بإذن الله وإلى الطريق القويم ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ (إبراهيم: ١)، لذلك حثهم الله على الإيمان بالكتاب كله، أي كل الكتب التي أوحاها الله إلى رسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ



وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ (النساء: ١٣٦)، ودعاهم للتمسك الشديد به مع إقامة الصلاة حتى يحفظ الله لهم أجرهم ويكونوا من الصالحين، ويكون هذا من معايير الصلاح إلى يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿١٧٠﴾ (الأعراف: ١٧٠). ويتأتى هذا بالتلاوة الحقة المتدبرة للكتاب ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٢١﴾ (البقرة: ١٢١). وهم في ذلك درجات متفاوتة كل حسب كسبه في الدين، منهم السابق بالخيرات ومنهم المقتصد ومنهم الظالم لنفسه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثَرَأَوْرْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ (فاطر: ٢٩ - ٣٢). وكانت قمة السبق بالخيرات عند المجتمع المسلم الأول في المهاجرين والأنصار، لذلك أثبتته الله في الكتاب ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ لَكُمْ فَوَلَّيْكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ (الأنفال: ٧٥). فمدحهم الله في آياتٍ تتلى أبد الدهر ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحشر: ٩ - ١٠). وتاب الله عليهم في أعظم المواقف حينما اتبعوا الرسول ﷺ في ساعة العسر ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن

بَعْدَ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ (التوبة: ١١٧).

أنزل الله الكتاب لكي يتعبد الرسول ﷺ به الله مخلصاً له الدين ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (الزمر: ٢). ومن أهم صنوف العبادة هي الصلاة والذكر ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْغُرُوثَ وَالْمُنَكِرَ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٥). وأنه ليس موكولاً عليك هداية الناس، فهم أحرار في أن يهتدوا أو يضلوا ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر: ٤١). فلا يكن في نفسك حرج من إعراضهم ﴿الْمَصَّ﴾ (الأنعام: ١٠٥) ﴿إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِشُنَيْذِرٍ بِهِ ۖ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١ - ٢)، فاحكم بينهم بما أراك الله ولا تحاول الدفاع عن الخائنين؛ أي لا تكون بمثابة المحامي عنهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ (النساء: ١٠٥).

الأسرة التي تمثل أهم وحدة في بناء المجتمعات البشرية والصالح منها خاصة، الله فيها أحكام، لذلك ضمنها في الكتاب ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۚ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْعَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾ (النساء: ١٢٧)، بعد الوصية في اليتامى والضعفاء شرع الله في الكتاب لأحكام الطلاق، وأكد على أن المعروف وعدم الإضرار هو كلمة السر في صلاح أي مجتمع ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ



عَلَيْكُمْ ﴿٢٣١﴾ (البقرة: ٢٣١)، من أجل كل هذا لابد للمؤمنين أن يعتزوا برسولهم ﷺ ويكون أولى في أنفسهم من أي شيء في الحياة الدنيا ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ﴿١﴾ (الأحزاب: ٦).

أوضح القرآن إن رسالة محمد ﷺ لها علاقة مع ممارسة أهل الكتاب مع كتبهم ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة: ١٥ - ١٦)، جاءهم رسول يهدي إلى سبل السلام ومعه كتاب يُبَيِّنُ ما أُخْفِيَ من الكتب السابقة عمداً أو تحريفاً. كان كتاب موسى ﷺ تاماً حينما نزل ولكن أيدي أهل الكتاب عبثت به «كتبوه في مدى ألف عام يضيفون ويحذفون حسب أهوائهم» فبقيت منه بين أيدينا اليوم نسخة عنصرية دنيوية لا علاقة لها بالرجوع إلى الله ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَنَقَصَ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥١﴾﴾ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه وأتقوا لعلكم ترحمون ﴿١٥٢﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٣﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ (الأنعام: ١٥٤ - ١٥٧). ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِمُحْسِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الأحقاف: ١٢). جاء الكتاب مصدقاً لما صح من الكتب السابقة ومهيماً عليها، أي مصححاً للأغلاط فيها ﴿إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا

جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ (المائدة: ٤٨).

لم تجد الجن ومن الوهلة الأولى بُدًّا من الإيمان بهذا الكتاب حينما سمعت الرسول ﷺ يتلوه ﴿قَالُوا يَتَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الأحقاف: ٣٠)، ربما كانوا من أمة موسى ﷺ «بل نرجح ذلك لأنهم كانوا على علم وإيمان بكتابه». وبالمقابل جحد أهل الكتاب الحق وهم يعلمون ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ بِشِمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ (البقرة: ٨٩ - ٩٠).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (البقرة: ١٠١). هنا كان موقف الجن من الكتاب أفضل من موقف أهل الكتاب، وهذا أمر يتسق مع رفضهم من قبل الانصياع لكتابتهم الذي أنزل عليهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَيَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (آل عمران: ٢٣)، من شدة رفضهم لهذا للكتاب وعداوتهم للدين شهدوا زورًا لصالح للكافرين وجعلوهم أهدي من الذين آمنوا سبيلاً ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ (النساء: ٥١ - ٥٢). رغم إعراضهم هذا، أمر القرآن بمجادلتهم بالتي هي أحسن ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا



الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قُتِلُوا أَمْثَلُ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَالْهَيْكَلُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ (العنكبوت: ٤٦).

نَزَلَ كِتَابٌ عَزِيزٌ مِنَ اللَّهِ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَخْطُ بِيَمِينِهِ الْكُتُبَ «أَيُّ يُولَفُهَا» مِنْ قَبْلُ، وَلَنْ يَكُونَ مَصِيرُهُ كَمَا حَدَثَ لِلْكِتَابِ السَّابِقَةِ الَّتِي تَدَخَّلَتْ فِيهَا الْأَقْلَامُ بِالْبَاطِلِ لِتَغْيِيرِ فِيهِ مَا تَشَاءُ. وَأَوَّلُ مَنْ يَمْسِكُ قَلَمَهُ عَنِ التَّدْخُلِ فِي الْكِتَابِ وَلَوْ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ فَقَطْ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ نَفْسُهُ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتِ بِفِرْعَوْنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَايَ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ (يونس: ١٥). بَلْ هُوَ كِتَابٌ مَحْفُوظٌ فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (العنكبوت: ٤٧ - ٥١). جَاءَهُمُ الْمُنْطَقُ وَالْحُجْجُ الْبَالِغَةُ وَهُمْ لَا يَزَالُونَ يَجَادِلُونَ وَيَطْلُبُونَ بِالْآيَاتِ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ كِتَابٌ مَعْجَزٌ يُتْلَى عَلَيْهِمْ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ.

خَاطَبَ الْكِتَابُ كُلَّ الَّذِينَ حَافِلُوا تَحْرِيفَ الْقُرْآنِ «يَلْحَدُونَ فِيهِ» مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا كَانَ حَالُهُمْ مَعَ كُتُبِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَقَالَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَعْرِفُهُمْ، وَتَحَدَاهُمْ بِفَعْلٍ مَا يَشَاوِرُونَ لِأَنَّهُمْ سَيَصْطَدِمُونَ بِكِتَابِ عَزِيزٍ مُحَصَّنٍ ضِدَّ الْبَاطِلِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥٢﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٥٣﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٥٤﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ (فصلت: ٤٠ - ٤٣). وَكُلٌّ مِنَ الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَبِالْكِتَابِ حُجَّتُهُ

«داحضة» واهية باطلة لأن هذا الكتاب جاء بالمعايير المنضبطة والمتسقة مع سنن الله في الكون والهادية للبشرية «الميزان» ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ (الشورى: ١٥ - ١٧). وعلى الرسول ﷺ أن يستمر في بيان الذي اختلفوا فيه «وما أكثره» مستعيناً بالكتاب ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (النحل: ٦٤) وأن يجعل اعتماده على الله فقط ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ (الأعراف: ١٩٦ - ١٩٧). وسيكون الرسول ﷺ الشهيد على كل الأمم يوم البعث بما معه من كتاب ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْقَالًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ (النحل: ٨٠). كما كانت محتويات هذا الكتاب هي معايير الهداية في الدنيا، فإن كتاباً آخر غاية في الدقة سيكون معيار الشهادة يوم القيامة ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ (الكهف: ٤٩). لأن العدل هو المقصود ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٧٧﴾ تَظْلَمُ﴾ (الأنبياء: ٤٧). دقة في الكتاب والميزان.

المشركون لا يكتفون بالكفر، بل يحاولون أن يضلوا الرسول ﷺ نفسه، لكن الكتاب هو عاصمه من ضلالهم ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ



يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ (النساء: ١١٣).

عصم الله الرسول ﷺ من ضلال المشركين، وأنزل الله في الكتاب إن على المؤمنين اعتزال الذين يهزؤون بآيات الله حتى يعصمهم منهم ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِتَّكُمُ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ ﴿١٤٠﴾ (النساء: ١٤٠). فلا مناص بعد من قتالهم إذا ما استمروا في كفرهم وعدوانهم على الدين وقتالهم للمؤمنين ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ (التوبة: ٣٦).

لقد ناقش هذا الكتاب أحوال المؤمنين الموحدين، وأهل الكتاب والمشركين، وما هو عليه الناس إلى هذا اليوم ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠﴾ (الأنبياء: ١٠). لذلك تتالت الآيات بالأوصاف الدقيقة لهذا الكتاب: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ (يونس: ١)، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿١﴾ (يوسف: ١)، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ (الحجر: ١)، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢﴾ (الشعراء: ١ - ٢)، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ (النمل: ١)، ﴿طَسَمَ﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢﴾ (القصص: ١ - ٢)، ﴿الْم﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٢﴾ (لقمان: ١ - ٢). ثم كان الوصف الأعظم للكتاب بأنه لم يفرط في شيء. هذا الوصف لم يتجرأ أي كتاب قبل القرآن ولا بعده أن ينسبه لنفسه، وما برز كتاب خصم ومنازع له يصف نفسه بالكمال ويصف القرآن بغير ذلك ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ (الأنعام: ٣٨). هذا الادعاء لا يمكن أن يصدر إلا من اثنين أحدهما بشرٌ أحمق لا يعرف

قدر نفسه؛ والثاني إلهٌ قديرٌ وعظيمٌ خلق كل شيء ويعلم سره، فضمّن علمه في كتاب يطبق حجمه البشر حتى حفظته الصبية دون العاشرة من العمر. ودراسة هذا الكتاب ستبين للناس صدق هذا الادعاء أو كذبه.

تعريف معنى القرآن في القرآن^(١)

الاسم الأشهر للكتاب الذي نزل على محمد ﷺ هو «القرآن». هذا الاسم ورد في القرآن سبعة وستين مرة. لا بد لنا من استعراض المعاني التي ارتبطت بكلمة قرآن ونرى كيف خاطب الله الناس عبر خطابه للنبي محمد ﷺ فيه.

أنزل الله القرآن في شهرٍ محددٍ هو شهر رمضان حسب التقويم القمري ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وفي ليلة مباركة اسمها ليلة القدر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ (القدر: ١ - ٥)، وأكد الله على أن هذا التنزيل منه وحده ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٣٣﴾﴾ (الإنسان: ٢٣)، ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ (النمل: ٦)، وهو قول ثقيل ومهيب لما يحتويه من معاني وتكليف ومسئوليات أمام الناس وأمام الله ﴿الْبَاقِيَ الْمُرْتَلِ ﴿١﴾﴾ ﴿فَرَأَىٰ إِلًا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصَفَهُ ۖ وَأَوْتَقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزَدَ عَلَيْهِ وَرَقًا ۚ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ (المزمل: ١ - ٥) هذا القول المهيب، الثقيل جادل الكفار في طريقة نزوله مفرقًا، وطالبوا بنزوله جملة واحدة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً

(١) محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، عبد الإله كنه، تحت الطبع، ٢٠١٨م.



كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ
نَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ (الفرقان: ٣٢ - ٣٣).

هذا القرآن لا تطيق الجبال الراسيات نزوله عليها جملة واحدة ﴿لَوْ أَنْزَلْنَاهُ هَذَا
الْفُرْقَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ (الحشر: ٢١)، فكان أن أنزله الله مفرقًا ترفقًا بالناس وتثبيتًا
لِلرَّسُولِ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦﴾﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا
لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾﴾ (الإسراء: ١٠٦ - ١٠٩)، فخروا
للأذقان بكاء وخشوعًا للرب الرحيم المنان. الله شاهد «وهو أعظم شاهد» على نزول هذا
القرآن الذي تتلوه يا محمد ﷺ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ
عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ (يونس: ٦١). لذلك لا تعجل على
القرآن قبل أن ينتهي وحيه إليك ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يُفْقَضَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾، ولا تحرك لسانك من أجل
الحفظ حتى لا يفوتك شيء، فقد تكفل الله بحفظه وإظهار معانيه من بعد لكل الناس
على مر الزمن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا
جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٢﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٣﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٤﴾﴾ (القيامة: ١٦ - ١٩).

بعد أن علم الله آدم الاسماء كلها؛ علم ذريته البيان وعلمهم القرآن ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ
الْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ (الرحمن: ١ - ٤) وجعله ميسرًا لهم ﴿وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾﴾ (القمر: ١٧) سرُّ هذا اليسر يكمن في أن القرآن في ذاته
واضح للغاية «مبين» ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ﴿١﴾﴾ (الحجر: ١). وهو
قرآن مثاني تتكرر فيه الآيات والمعاني ليرسخ الإيمان ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنْ

أَلَمْثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ (الحجر: ٨٧). وهو أحسن الحديث الذي له تأثير عظيم على الناس وتظهر بذلك علامات في جلودهم ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَّشَ عُرْمَتَهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيَتْ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر: ٢٣). أي حديث غير حسن فهو ليس من الله، ولا يمكن لأحسن الحديث أن يكون إفتراءً وتأليفًا من بشرٍ مهما كانت قدراته الذاتية ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (يونس: ٣٧). ولا توجد به اختلافات أو تناقضات لأنه من لدن حكيم خبير ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢). فأقسم الله بمواقع النجوم ليبين مكانة القرآن السامية، وعلى المعاني التي تبين للمؤمنين قدره في أنه كريمٌ ومحفوظٌ من النجاسات كلها ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ الْجُودِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (الواقعة: ٧٥ - ٨٠) ولشدة عظمة القرآن وضعه الله قبل أن ينزل على لناس في لوح محفوظ بعنايته سبحانه وتعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ (البروج: ٢١ - ٢٢).

خاطب القرآن الرسول ﷺ وطالبه بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ وَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (النحل: ٩٨ - ١٠٠). لأن الشيطان حاول تخريب الوحي والعبث به مع كل الأنبياء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ (الحج: ٥٢ - ٥٣).



٥٢ - ٥٣). ولا بد للرسول ﷺ أن يكثر من تلاوة هذا القرآن ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٩١ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ٩٢ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٩٣ ﴿(النمل: ٩١ - ٩٣)، وكذلك يفعل المؤمنون اقتداء به ﷺ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة: ١٢١).

ولكثرة تلاوة الرسول ﷺ للقرآن صادفها الجن فآمنوا بدين الإسلام بعد انقضائها مباشرة ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ٢ ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ٣ ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ٤ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ٥ ﴿(الجن: ١ - ٥)، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ٦ ﴿(الأحقاف: ٢٩).

خاطب القرآن المؤمنين حينما اشترى منهم أنفسهم، وبين الوعد الحق الموجود من قبل في التوراة والإنجيل ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ٧ ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ٨ ﴿(التوبة: ١١١). ولكن هذا الشراء غير موجود في التوراة والإنجيل الحاليين فكان الرد من القرآن ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٩ ﴿وَأَنَّهُ وَلَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ١٠ ﴿(النمل: ٧٦ - ٧٧).

ومن ضمن مهام الرسول ﷺ أنه جاء ليبين لأهل الكتاب كثيرا مما أخفوا من هذه الكتب ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ١١ ﴿(المائدة: ١٥). وجعل القرآن هدى للطريق القويم وبشرى

للمؤمنين ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ (الإسراء: ٩)، ﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ (النمل: ١ - ٣) أدبهم الله بعدم السؤال عما لا يعنهم أثناء نزول القرآن، لأن الإجابة قد تسوهم والقرآن سيحجب عنها حين ينزل الوحي ﴿بِخَالِدِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١١﴾ (المائدة: ١٠١). وطلب منهم الإصغاء الجيد والوعي للقرآن حين يُقرأ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٣٦﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

جاء القرآن للتذكير ومخاطبة العقول وليس للمعجزات المادية ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٣١﴾ (الرعد: ٣١).

أعطيت اليهود المعجزات المادية مثل عصا موسى عليه السلام التي ابتلعت الحيات وفلقت البحر، وما أن أنجاهم الله إلا وطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٢٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٢٩ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝١٣٠ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝١٣١ * وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِّمَّا قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۝١٤٢﴾ (الأعراف: ١٣٨ - ١٤٢). ولما غاب عنهم عبدوا العجل ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمِيزُوا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ۝١٤٨﴾ (الأعراف: ١٤٨). والنصارى جاءهم عيسى عليه



السلام بالمعجزات المادية ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (آل عمران: ٤٩) ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَضْمِينَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَزَّلْتُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (المائدة: ١١٢ - ١١٥) فجعلوا منه بعد كل ذلك إلهًا، ولم يكتفوا بهذا بل أشركوا معه الروح القدس فأصبحوا ثلاثة آلهة ففضى الله بكفرهم ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَسْتَهْوَ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ (المائدة: ٧٢ - ٧٣). هنا يكمن الفرق بين المسلمين الذين نزل عليهم القرآن هدىً من الله ومحفوظاً بوعده منه، ولم يتعرض للتغيير حتى بواسطة الرسول الذي نزل عليه القرآن، واليهود والنصارى الذين حرفوا كتبهم فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً. ولم تعصمهم الآيات المادية من الانزلاق ناحية الكفر.

عجز المشركون عن تغيير الرسول ﷺ والقرآن، فاستمر القرآن بالتذكير، وعندها أسقط في يدهم، لجأوا إلى حماية معتقداتهم بعدم السماع للقرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ إِنَّا أَلْعَاؤُ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ (فصلت: ٢٦). فهم سادرون في الغي والكفر والشقاق ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ (ص: ١ - ٢). لماذا لا يتدبرون القرآن ولو من باب البحث العلمي المحايد ليحكموا على محتواه

بالدليل والبرهان والبصيرة ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤).
 لن يستطيعوا التدبر الذي يقتضي الإصغاء الواعي، الذي لا يتوافر لهم لأنهم لا يستمعون
 للذكر إلا وهم يلعبون ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾
 لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ
 وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٢٣﴾ (الأنبياء: ٢ - ٣). عِلِمَ الله ما في قلوبهم في رد محتوى القرآن لغير
 الوحي مثل السحر ففند حججهم في القرآن نفسه ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (٢٤) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتِ
 رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَكَلَّا عَلَى أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا ﴿٢٥﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ
 نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٢٦﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا
 يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ (الإسراء: ٤٥ - ٤٨).

أمر الله الرسول ﷺ بالصلاة وربطها بالقرآن لعل الله أن يبعثه مقامًا محمودًا يوم
 القيامة ﴿اقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ
 مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ
 أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ
 وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ (الإسراء: ٧٨ - ٨١).

عُرِفَ القرآن بأسماء أخرى مثل الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ
 لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١). ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ
 وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ
 عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ﴾ (آل عمران: ٣ - ٤) وبالروح ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ
 تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
 مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢) وبالذكر ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ



﴿مُتِّينٌ﴾ (يس: ٦٩) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ (الطلاق: ١٠).

ويكون بذلك قد عرف القرآن نفسه تعريفاً كاملاً وشافياً ووافياً. ذلك لأنه القرآن الميسر للذكر يعرف نفسه لكل طالب لهذا الأمر بكل سهولة ويسر.

الوحي^(١)

ما هو الوحي الذي جاء للنبي محمد ﷺ؟ «الوحي هو الإشارة والكتابة والكلام الخفي، وكل ما ألقى إلى الغير يقال أنه الوحي إليه. ويقال وحي للشيء المكتوب»^(٢). تقول دائرة المعارف الأمريكية «الوحي هو توصيل الحق من الله إلى الناس، ويقال كذلك عن الحق الذي وصل إلى الناس وخاصة في الكتب المقدسة»^(٣). تعريف تاج العروس أدق وأقرب لبعض المعنى الوارد في القرآن «ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبياء الله ورسله وحيًا، وذلك قد يكون برسول مشاهد، ترى ذاته، ويسمع صوته كتبليغ جبريل كلام الله، أو بإلقاء في الروح أو بالإلهام»^(٤). يمكن للوحي أن يكون نوعاً من الاتصال بين البشر فيما بينهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ١١٢). أو يعبر عن لغة الإشارة لفاقدي المقدرة على النطق ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (مريم: ١٠ - ١١). لقد ترسخ مفهوم الوحي وتعريفه بصورة أعمق عندما تناول القرآن هذا المصطلح ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ

(١) محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، عبد الإله كنه، تحت الطبع، ٢٠١٨م.

(٢) لسان العرب. طبعة بيروت ١٩٥٦م. مجلد ١٥. ص ٢٧٩.

(٣) Encyclopedia Americana، ١٩٥٩، Vol ٢٣، P٤٤٠.

(٤) تاج العروس. بيروت ١٩٦٦. ج ١٠. ص ٣٨٤-٣٨٥.

إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾
(الشورى: ٥١).

التعريف الأدق حسب ما جاء في القرآن هو اتصال الله بخلقه، مثل الاتصال بالرسول ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿١٣٢﴾ فَصَصْنَاهُمْ (النساء: ١٦٣). الاتصال بالرسول له صورة واحدة من لدن نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ آخر رسول جاء للناس، لقد أوحى الله لخلقه من غير الرسل مثل الملائكة ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿١٤﴾ (الأنفال: ١٢ - ١٤)، وأم موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذْخِفِيهِ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧﴾ (القصص: ٧) ﴿قَالَ فَذُوقُوا سَوْءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ ﴿٣٨﴾ (طه: ٣٦ - ٣٨). والحواريين ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١١١﴾ (المائدة: ١١١).

أوحى الله لغير العاقل مثل النحل وهي حشرة ضئيلة ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ (النحل: ٦٨)، والجماد مثل الأرض ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ ﴿١﴾ (الزلزلة: ١ - ٥). بل مضى القرآن ليبين الوحي الذي عم الكون كله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَفَضَّهْنِ سَمْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿١٢﴾ (فصلت: ١١ - ١٢).

من هذه الآيات يتضح أن الوحي ليست له صورة ذهنية واضحة من حيث كيفيته



أو لغته وإنما لكل وحي طبيعته الخاصة به حسب الموحى إليه، لكن الوحي للرسول صلوات الله عليهم واحد ويختلف عن بقية أنماط الوحي الأخرى.

أرسل الله قبل محمد ﷺ رسلاً وأوحى إليهم ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الشورى: ٣). طلب القرآن من الناس سؤال أهل العلم عن حقيقة الوحي الذي جاء للرسول السابقين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٧)، وطلب منهم البحث عن مكنون هذا الوحي بالتنقيب في آثار الأرض عن مصائر الأقوم السابقين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ١٠٩). ولكنه لم يدع البشرية في ظلام الجهل وتولى الإجابة بأن التوحيد هو محور ما كان من أمر الوحي ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥). وحذرهم الوحي من الشرك الذي يحبط العمل ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥). وهو ما جاء به كل الرسل ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣). لذلك جعلهم أئمة للناس ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٣). وأمر النبي ﷺ باتباع إبراهيم عليه السلام لأنه جاء بالحنيفية الخالصة ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٣).

قص الوحي على النبي ﷺ أحسن القصص عن الأمم السابقة ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ (يوسف: ١ - ٣)، وذلك عكس الإسفاف الذي بين يدينا اليوم من روايات التوراة التي حكى الكثير عن الخمر ومضاجعة النساء، كما جمعت ذلك «أي الخمر والزنا» في قصة لوط عليه السلام مع ابنتيه (تكوين ١٩: ٣٠-٣٨). وبعد أن حكى القرآن قصة يوسف عليه السلام على الرسول ﷺ قال له ذلك من أنباء الغيب الذي جاء به الوحي ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٢﴾ (يوسف: ١٠٢). ونفس الشيء ينطبق على أنباء مريم ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤﴾ (آل عمران: ٤٤). وبالجمله فإن كل أنباء الغيب كانت بعيدة عن علمه ﷺ وعلم قومه ولولا الوحي لما علمها ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ٤٩﴾ (هود: ٤٩). ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ (الشورى: ٥٢). والدليل على عدم علم قومه بذلك هو إن التاريخ لم يحفظ لنا شعراً ولا نثراً يبين معرفتهم بهذه القصص، رغم وفادة العرب قاطبة لمكة سنوياً في الموسم واستعراضهم لمقدراتهم الفكرية في شكل الشعر والأدب والخطابة.

أرسل محمد ﷺ إلى أمة مشركة مثلها مثل كثير من الأمم السابقة ليتلو عليهم الوحي ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ٣٠﴾ (الرعد: ٣٠). فعجبوا من أحد يدعي أنه مرسل بوحى من الله ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ٢٦﴾



(يونس: ٢)، فكان الله شهيداً بين معسكري الكفر والإيمان وجعل الوحي بالقرآن لينذر الناس ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: ١٩). ولا يستطيع الرسول ﷺ أن يدعي الوحي كذباً لأن العاقبة وخيمة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (الأنعام: ٩٣)، وطمان الله الرسول ﷺ أن الذي جاءه حق من ربه، وهو ليس ممن يفترون على الله الكذب في موضوع الوحي؛ ومضمون الوحي الذي جاءك هو الكتاب الحق الذي يصدق الكتب السابقة ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ (فاطر: ٣١). فاستمسك به لأنك على الطريق المستقيم ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ (الزخرف: ٤٣).

القوى المشتركة تحاول أن تضل الرسول ﷺ عن الوحي لولا أن ثبته الله ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ ولولا أن ثببتك لقد كدت تتركن إليهم شيئاً قليلاً ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ (الإسراء: ٧٣ - ٧٥)، لذلك أمر ﷺ باتباع الوحي وأن يعرض عن المشركين وفتنهم ﴿أَتَسْمِعُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الأنعام: ١٠٦) وأن ينذرهم بالوحي الذي يفيد الذين يرفعون أسماعهم أما المعرضون لن يفيدوا منه لأنهم كالصم الذين لا يسمعون ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأنبياء: ٤٥) ولو شاء الله لأذهب عنه هذا الوحي الذي ثبته ﷺ من قبل، وحينها لن يجد من يسنده ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُذْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ (الإسراء: ٨٦). لذلك كان إقرار النبي ﷺ بهداية

الوحي له واضحاً ﴿قُلْ إِنْ ضَلَّكَ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (سبأ: ٥٠).

هذا الوحي الذي يُتلى الآن هو كلام الله الذي لا يتغير ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٧) ﴿(الكهف: ٢٧)، فلا يعجل بالقرآن لأن هذا الكلام الثابت لن يفوته ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)، فزاده الله علماً بالصلاة، وإصلاح سلوك الناس بالذكر إيجاباً، والنهي عن الفواحش والمنكرات سلباً ﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِابْتِغَاءِ الْوَلَدِ الْخَيْرِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (١٥) ﴿(العنكبوت: ٤٥). نعمة الحلال والحرام البينين من أجل النعم التي جاء بها الوحي، لأنها تميز سلوك البشر من سلوك الحيوان ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥) ﴿(الأنعام: ١٤٥). فكل الذي جاء به الوحي على لسان الرسول ﷺ هو الحق وليس الضلال والغواية والهوى ﴿وَالْتَجَمَّ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا صَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَطُوقُ غَنَىٰ ۚ﴾ (١٤٥) ﴿(النجم: ١ - ٥).

القرآن بين إن الوحي من الله وحده، ونزل به جبريل عليه السلام الروح الأمين «في مسار آمن منذ أن فارق اللوح المحفوظ وطوال الرحلة حتى وصوله إلى قلب محمد ﷺ» ولم يتعرض لتحريف من قوى الشياطين ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۚ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ۚ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَرُولُونَ﴾ (١١٢) ﴿(الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢). لأن السماء قد حرست ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ (٨) ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانُ يَحْدُثُ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا﴾ (٩) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٠) ﴿(الجن: ٨ - ١٠)، وقد تأكد عدم تسع الشياطين للملا الأعلى لأنهم



سيقذفون من كل جانب ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۖ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۖ﴾^(٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۖ إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۖ﴾^(٨) (الصفافات: ٦ - ١٠)، ومن ينجو من عمليات القذف ويخطف شيئاً مما يحدث في السماء فإن هنالك شهاباً ثاقباً أي نجم مضيقاً يحرقه. إنه وحيٌّ صادقٌ ليسير بالمؤمنين على طريق التوحيد بعيداً عن الشرك. ويعلمهم العبادة الحقة ويعلمهم الحلال والحرام. وأن ينذر المشركين من عواقب الشرك والوخيمة، حتى لا تكون لهم الحجة بعد الوحي الذي جاء لكل الأنبياء والرسل ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ﴾^(٩) (النساء: ١٦٥).

هذه الآيات تضافرت في اتساق رائع لتنبئ عن الطريق الواضح الذي سلكه القرآن «أو الوحي» من اللوح المحفوظ وقد تسلمه الروح الأمين، وسلك به طريقاً آمناً في السماء، وخالياً من تداخلات الجن والشياطين، ثم وصله إلى قلب محمد ﷺ. وهو وحيٌّ حقٌّ، وليس هذيان مصروع كما يقول بعض المستشرقين. لقد كان محمد ﷺ يستمع بهدوء وتركيز شديدين من أجل حفظه، وزاد على التركيز محاولة تحريك اللسان بالقرآن للتأكيد على مسألة الحفاظ الفوري، مما يجعل هذه الصورة التي نقلها لنا القرآن بدقة ووضوح تتناقض مع استنتاج حالة الهذيان والصرع التي أُتِّهِمَ بها ﷺ. إن صورة الوحي في القرآن واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار. وهكذا يتحدث القرآن فيعرف نفسه ويعرف الكتاب والوحي، حتى تكون الصورة واضحة في أذهان الناس فيعرفون منهج كل من يتكلم عنهم.

إن المعرفة بطبيعة القرآن والوحي كما جاءت في القرآن نفسه، لهو أمر مهم حتى يتسنى لأي دارس لفكر محمود أن يحدد بدقة مدى قربته أو بعده من معاني القرآن الكريم. ويعرف كذلك خلفية ما جاء به محمود أوحى هو أم غير ذلك؟ ويتعرف كذلك تقسيمه للقرآن من حيث النزول في مكة والمدينة، ومن حيث الناسخ والمنسوخ، ومدى تأثير

ذلك على فهم القرآن الكريم، واستنباط الأحكام.



أصول التفسير وعلوم القرآن

إن القرآن كلام الله سبحانه أودع فيه الهدى والنور، وأبان فيه لا علم والحكمة، فأقبل العلماء ينهلون من معينه... وأقبلت طائفة على تاريخ نزوله، ومكية ومدنية، وأول ما نزل وآخر ما نزل، وأسباب النزول، وجمعه وتدوينه وترتيبه، وناسخه ومنسوخه، ومجمله ومبينه، وأمثاله وقصصه وأقسامه، وجدله، وتفسيره.

تعريف علوم القرآن

علوم القرآن مركب إضافي، مكون من كلمتين، كلمة «علوم» و«قرآن» وهذا يقتضي تعريف كل كلمة لوحدها.

تعريف «علوم» هي جمع علم، والعلم في اللغة نقيض الجهل^(١)، وهو مصدر مرادف للفهم والمعرفة والإدراك، ويراد به إدراك الشيء على حقيقته، ثم نقل بمعنى المسائل المختلفة المضبوطة ضبطاً علمياً والمتعلقة بعلم ما، ومن أحسن ما قيل في كلمة العلم أنها أشهر من أن تعرف^(٢).

أسماء القرآن الكريم وصفاته

للقرآن الكريم أسماء وصفات كثيرة، وردت في بعض الآيات والأحاديث، وكثرت هذه الأسماء والصفات.

ومن اسماء القرآن الكريم^(٣):

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين «المتوفى:

٣٩٥هـ»، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ١/ ٤٠.

(٢) علوم القرآن.. فن مدّون، الصادق عوض الفاضل، مقال منشور على موقع شبكة الهداية الإسلامية، <http://alhidaya.net/node/>.

(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي «المتوفى: ٧٩٤هـ»، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١/ ٢٧٣.

١ - قد سماه الله تعالى «القرآن» فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

٢ - سماه الله تعالى «الكتاب» فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠).

٣ - سماه الله تعالى «الفرقان» فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١).

٤ - سماه الله تعالى «الذكر» فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

٥ - سماه الله تعالى «التنزيل» فقال تعالى: ﴿وَلَهُ نُتَنَزِّلُ رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٢).

ومن صفات القرآن الكريم:

١ - المبارك قال الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٢).

٢ - هدى ورحمه قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (لقمان: ٣).

٣ - الكريم قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٧).

٤ - الحكيم قال الله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس: ١).

٥ - الفصل قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ (الطارق: ١٣).

علوم القرآن كـ«فن مدون»

وتعريف علوم القرآن كفن مدون بأنه مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وجمعه، وقراءاته، وتفسيره وناسخه ومنسوخه، واسباب النزول، ومكية ومدنية،



ونحو ذلك.

نزل جبريل على النبي ﷺ في غار حراء بصدر سورة «اقرأ»، وذهب النبي ﷺ إلى زوجته خديجة يرتجف فؤاده وأخبرها بما حدث في الغار، ثم أمر بأن يصدع بما أمر به. فدعا الناس إلى الاسلام، وأقبل أصحابه على القرآن الكريم يتلونهم حق التلاوة، ويجمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم فكانوا يقرؤونه ويسألونه فيما يعرض لهم فيبينه لهم ﷺ وبهذا ندرك أن علوم القرآن نشأت منذ وقت مبكر في الاسلام بل منذ أشرقت شمس الاسلام، ذلكم أن حفظ القرآن وتلاوته وتدبره وتفسيره من أهم علوم القرآن الكريم^(١).

ثم أعقب عهد النبي ﷺ عهد الصحابة، وكان الصحابة يتعلمون علوم القرآن مشافهة، ولم يعرف عندهم تدوين لعلوم القرآن لعدة أسباب: أولها: أن أغلب الصحابة كان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة. ثانيها: أن أدوات الكتابة لم تكن متوافرة عندهم. ثالثها: نهاهم النبي ﷺ أول الأمر عن كتابة شيء غير القرآن.

وقد اشتهر كثير من الصحابة بتفسير القرآن منهم الخلفاء الاربعة وابن عباس، وابن الزبير، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري وعائشة رضي الله عنهم أجمعين.

أما في عهد التابعين رحمهم الله تعالى فقد كانت هناك ثلاثة مدارس، مدرسة مكة، ومدرسة المدينة، ومدرسة الكوفة، وكنت قد أشرت إلى ذلك في سلسلة أصول التفسير ومناهج المفسرين.

ولم يكن تفسير هؤلاء وغيرهم من الصحابة والتابعين مقتصرًا على علم التفسير بمعناه الخاص، بل كان يشمل مع هذا علم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم

(١) البرهان في علوم القرآن، ١/ ٣٣.

الناسخ والمنسوخ، وعلم المكي والمدني، ونحو ذلك، كما لم يكن شاملاً للقرآن الكريم، ولا مدوناً، وإنما كان بالرواية والتلقين^(١).

عصر التدوين

وكان أول من دونه في هذه المرحلة يزيد بن هارون السلمي المتوفي سنة ١١٧ هـ وشعبة ابن الحجاج المتوفي سنة ١٦٠ هـ ووكيع بن الجراح المتوفي سنة ١٩٧ هـ وسفيان بن عيينة المتوفي سنة ١٩٨ هـ.

ثم دون التفسير مستقلاً وأصبح قائماً بنفسه، وأشهر من دونه على هذا النحو يحيى بن سلام المصري المتوفي ٢٠٠ هـ ثم ابن ماجه المتوفي ٢٧٣ هـ، ابن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠ هـ، واليسابوري المتوفي سنة ٢٣٤ هـ في أسباب النزول، وألف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفي سنة ٢٢٤ هـ في الناسخ والمنسوخ، وفي القراءات وألف ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ في مشكل القرآن.

وألف محمد بن خلف بن المرزبان المتوفي سنة ٣٠٩ هـ الحاوي في علوم القرآن، وألف أبوبكر السجستاني المتوفي ٣٣٠ هـ في غريب القرآن، وألف محمد بن علي الأذفوي المتوفي سنة ٣٨٨ هـ الاستغناء في علوم القرآن.

ثم تتابع التأليف بعد ذلك فألف أبوبكر الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣ هـ في اعجاز القرآن، وعلي بن ابراهيم بن سعيد الحوفي المتوفي سنة ٤٣٠ هـ في إعراب القرآن، وألف الماوردي المتوفي سنة ٤٥٠ هـ في أمثال القرآن، وألف العز بن عبد السلام المتوفي سنة ٦٦٠ هـ في مجاز القرآن، والفي علم الدين السخاوي المتوفي سنة ٦٤٣ هـ في علم القرآن. وألف شيخ الاسلام ابن تيمية في «جزء مقدمة في التفسير»^(٢).

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٣، التفسير والمفسرون، الدكتور محمد السيد حسين الذهبي «المتوفى: ١٣٩٨ هـ»، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ١/ ١٢٣.

(٢) دراسات في علوم القرآن الكريم، أ. د. فهد بن عبدالرحمن بن سليمان الرومي، مرجع سابق، ١/ ٣٧.



خصائص القرآن الكريم

وقد خصه الله تعالى بخصائص كثيرة:

أولاً: حفظه في الصدور، فقد كلف الله تعالى الأمة بحفظه كله بحيث يحفظه عدد كثير ثبت بالتواتر وإلا أثمت الأمة، وليس هذا الكتاب غير القرآن، فالتوراة والإنجيل ترك لأهلها أمر الحفظ فاكثفوا بالقراءة دون الحفظ.

ثانياً: اتصال السند: إن أغلب من يتعلمون تلاوة القرآن إنما يتعلمونها عن طريق السماع، وتلقاه القراء عن طريق السماع عن مشايخهم، وهكذا لا تنقطع هذه الطريقة إلى أن تصل طبقة السند إلى التابعين ثم الصحابة ثم رسول الله ﷺ.

ثالثاً: إن الله تعالى تعهد بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)

رابعاً: لا يمسه إلا المطهرون، طهارة القلب من الكفر والشرك فلا يمسه القرآن كافر ولا يمكن من ذلك، طهارة البدن من الحداثين الأكبر والأصغر، طهارة اللباس فينبغي أن تكون ثيابه طاهرة نقية وأن تطيب طهارة الفم فينبغي أن ينظف فمه ويستاك ويخلل أسنانه اقتداء بسنة رسول الله ﷺ^(١).

المقصود بجمع القرآن الكريم

يطلق «الجمع» ويراد به ثلاثة أمور:

الأمر الأول: جمعه بمعنى حفظه في الصدور.

الأمر الثاني: جمعه بمعنى كتابته وتدوينه كله حروفاً وكلمات، وآيات وسور.

الأمر الثالث: جمعه بمعنى تسجيله صوتياً.

(١) فقه قراءة القرآن الكريم، أبو خالد سعيد عبد الجليل يوسف صخر المصري، الناشر: مكتبة

جمع القرآن في العهد النبوي

سأتناول جمع القرآن بمعنى كتابته وتدوينه في عهد النبي ﷺ كان القرآن الكريم شغل الصحابة شاغل لهم في سرهم وعلايتهم في سفرهم وفي حضرهم فحفظوا كلامه واثمروا بأوامره وانتهوا بنواحيه واعتبروا بقصصه وتأدبوا بأدبه.

فمنهم من كان يحفظ القرآن كله عن ظهر قلب ويدونه على صفحات صدره، ومنهم من كان يحفظ بعضه حسب وقته وفراغه، ومنهم من كان يدونه على الصحف من الرقاع والعسب واللخاف وذلك خوف ضياعه ونسيانه، ولذلك رأينا الذين حفظوا القرآن وأكملوه كله في حياته ﷺ أو بعد وفاته كانوا جمعا غفيرا من الرجال والنساء.

والحفاظ من الرجال منهم أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وسعد وابن مسعود وأبو هريرة وابن عمر وابن عباس وعمرو بن العاص، لم يكن القرآن قاصرا على الرجال بل تقاسم النساء الحفاظ مع الرجال تماما خاصة بعد أن خاطب القرآن النوعين سواء بسواء، فمنهن من كانت تحفظ القرآن كله، ومنهن عائشة وحفصة وأم سلمة وأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصارية، وقد أشار إلى ذلك الحافظ السيوطي في إتقانه وقد عد بعض العلماء أكثر من سبع عشرة امرأة.

وقد روى عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه شيء من القرآن يدعو بعض من كان يكتب فيقول: «ضعوا هذه في السورة التي فيها كذا وكذا»^(١).

وإن لم تكن أدوات الكتابة ميسرة للصحابة في ذلك الوقت، وكانوا يكتبونه على ما تناله أيديهم من العسب، وهو جريد النخل، واللخاف، وهي الحجارة الرقيقة، والرقاع، وهي

(١) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع «المتوفى: ٤٠٥هـ»، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ—



القطعة من الجلد أو الورق، والكرانيف وهي أطراف العصب العريضة^(١).

مميزات الجمع في عهد رسول الله ﷺ:

١/ كتب القرآن على الأحرف السبعة وسيأتي الكلام عن الأحرف السبعة، فقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه»^(٢).

٢/ أجمع العلماء على أن هذا الجمع كان مرتب الآيات، أما ترتيب السور ففيه خلاف.

٣/ بعض ما كتب في هذا العهد نسخت تلاوته وظل مكتوباً حتى توفي رسول الله ﷺ، ودليل ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن - عشر رضعات معلومات يحرم من. ثم نسخن بخمس معلومات. فتوفي رسول الله ﷺ، وهو مما يقرأ في القرآن»^(٣).

٤/ لم يكن القرآن مجموعاً في مصحف واحد، بل كان مفروقاً في الرقاع واللخاف وغيرها قال زيد بن ثابت رضي الله عنه، قبض رسول الله ﷺ ولم يكن القرآن قد جمعه في شيء^(٤).

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ١٢٤.

(٢) المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي «المتوفى: ٢٣٥هـ»، المحقق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ٦/ ١٣٨.

(٣) الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني «المتوفى: ١٧٩هـ»، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ٨٧٧/٤، حديث رقم ٢٢٥٣.

(٤) دفع الشبهات حول القرآن الكريم، الشيخ ياسر عبد ربه، بحث منشور على موقع صوت السلف، <http://www.salafvoice.com>.

لَمْ يَجْمَعْ الْقُرْآنُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَصْحَفٍ وَاحِدٍ

أولاً: أن الله تعالى أَمَّنْ رَسُولَهُ ﷺ مِنَ النِّسْيَانِ بقوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يُعَلِّمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ (الأعلى: ٦ - ٧) (١).

ثانياً: كان يترقب ورود الناسخ والمنسوخ.

ثالثاً: أن القرآن نزل منجماً ولم ينزل جملة واحدة في ثلاثة وعشرين عاماً.

رابعاً: إن ترتيب آيات القرآن وسوره ليس حسب ترتيب نزوله، ولو جمع في مصحف واحد حينذاك لكان عرضة للتغيير كلما نزل شيء من القرآن (٢).

جمع القرآن في عهد أبي بكر

توفي النبي ﷺ والقرآن الكريم لم يجمع في مصحف واحد مكتوب، وإنما كان متفرقاً في الصدور والألواح ونحوها من وسائل الكتابة، حيث لم تكن ثمة دواع في حياته ﷺ استدعت جمع القرآن في مصحف واحد وبعد أن تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة كان هناك من الأسباب والبواعث، التي دفعت الصحابة رضي الله عنهم إلى القيام بجمع القرآن في المصحف، وكان من أولى تلك الدوافع لحوق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى الذي ترتب عليه انقطاع الوحي، فكان ذاك المصباح الجلل من البواعث المهمة التي دفعت الصحابة لجمع القرآن.

ثم كانت واقعة اليمامة التي قتل فيها عدد كبير من الصحابة، وكان من بينهم عدد كبير من القراء، مما دفع عمر رضي الله عنه إلى أن يذهب إلى أبي بكر ويطلب منه الإسراع في جمع القرآن وتدوينه، حتى لا يذهب القرآن بذهاب حفاظه، وهذا الذي فعله أبو بكر رضي الله عنه، بعد أن تردد في البداية في أن يعمل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ولا شك أن وقعة اليمامة كانت من أهم الأحداث التي حملت الصحابة على تدوين القرآن

(١) دفع الشبهات حول القرآن الكريم، الشيخ ياسر عبد ربه.

(٢) دفع الشبهات حول القرآن الكريم، الشيخ ياسر عبد ربه.



وحفظه في المصاحف^(١).

وقد دلت عامة الروايات على أن أول من أمر بجمع القرآن من الصحابة، أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعه، وإني لأرى أن تجمع القرآن»، قال أبو بكر: قلت لعمر: «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟» فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، «كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ»، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: «كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ؟» فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف، والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨). آخرهما، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر^(٢).

وقد يطرأ سؤال لماذا وقع اختيار أبي بكر على زيد بن ثابت لجمع القرآن الكريم

(١) جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق، بحث منشور على موقع: طريق الإسلام على

الانترنت <https://ar.islamway.net/article>

(٢) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٤٦٧٩، ٦/ ٧١.

دون غيره من الصحابة ؟ فأقول: إن مرد ذلك يرجع إلى أسباب منها:

١/ أنه كان شاباً يافعاً، وهذه الصفات تؤهله للقيام بمثل هذا العمل الصعب، كما أن الشاب لا يكون شديد الاعتداد برأيه، فعند حصول الخلاف يسهل قبوله النصح والتوجيه.

٢/ أن زيدا كان معروفاً بوفرة عقله، وهذا ما يؤهله لإتمام هذه المهمة.

٣/ أن زيدا كان يلي كتابة الوحي في عهد رسول الله ﷺ، فقد شاهد من أحوال القرآن ما لم يشاهده غيره.

٤/ أنه لم يكن متهماً في دينه، فقد كان معروفاً بشدة الورع والامانة وكمال الخلق والاستقامة في الدين.

٥/ أنه كان حافظاً للقران الكريم عن ظهر قلب، وكان حفظه في زمن النبي ﷺ وفق العرضة الأخيرة.

فقد روى أنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن، قال أبو عبد الرحمن السلمي، قرأ زيد بن ثابت على رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وإنما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت، لأنه كتبها لرسول الله ﷺ وقرأها عليه وشهد العرضة الأخيرة، وكان يقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمد عليه أبو بكر عمر في جمع القرآن وولاه عثمان كتابة المصاحف.

جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قدم على عثمان رضي الله عنه، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية واذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ذلك لأنهم أعاجم يخطئون بقراءة القرآن فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا في اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا المصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى



عثمان فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فأكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا السحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة ومصحف أن يحرق، قال زيد رضي الله عنه: آية من الله الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣) فألحقناها في سورتها في المصحف^(١).

وكتبت المصاحف على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، لقد تعمد الصحابة كتابة هذه المصاحف بالخط الذي يكون أكثر احتمالا للأحرف، وقد وفقوا لذلك لعدم وجود النقط والشكل، وهكذا فإن الأصل في عمل عثمان أن يكون مستجمعا كافة الأحرف السبعة في مصاحفه، وأن عثمان ومن معه لا يفرطون في شيء أوحى به الله إلى رسوله ﷺ.

روى ابن أبي داود أن سويد بن غفلة الجعفي قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول: يا أيها الناس لا تغلو في عثمان ولا تقولوا له إلا خيرا «أو قولوا له خيرا» في المصاحف وإحراق المصاحف فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعا، فقال ما تقولون في هذه القراءة، فقد بلغني أن بعضهم يقول إن قراءتي خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفرا، قلنا فما ترى؟ قال نرى أن نجتمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا يكون اختلاف، قلنا فنعم ما رأيت، واستنسخت سبعة

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٩٨٧، ٦/١٨٣.

مصحف فأرسل عثمان بسة منها إلى الآفاق واحتفظ لنفسه بواحد منها هو مصحفه الذي يسمى «الإمام» ولقد تلقت الأمة ذلك بالطاعة وأجمعت الصحابة على هذه المصاحف ولقد جردت المصاحف العثمانية مما ليس من القرآن كالشروح والتفاسير، فمن الصحابة من كان يكتب في مصحفه ما سمع تفسيره وإيضاحه من النبي ﷺ مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ (البقرة: ١٩٨)، فقد قرأ ابن مسعود وأثبت في مصحفه: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ» فهذه الزيادة للتفسير والإيضاح، وبهذا قطع عثمان رضي الله عنه دابر الفتنة وحصن القرآن من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور، وجمع عثمان للقرآن هو المسمى بـ«الجمع الثالث» واتبع زيد بن ثابت والثلاثة القرشيون معه طريقة خاصة في الكتابة ارتضاها لهم عثمان وقد سمي العلماء هذه الطريقة بـ«الرسم العثماني للمصحف» نسبة إليه وهو رسم لا بد من كتابة القرآن به لأنه الرسم الاصطلاحي الذي توارثته الأمة منذ عهد عثمان رضي الله عنه^(١).

ومن أمثلة ما استدل محمود محمد طه الآية: «وَرَبُّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا» (مريم:

٨٠) على الفردية أنها جوهر الإنسان.

وأن الإنسان هو الغاية ليصل إلى درجة الله الواحد، وأن الإسلام والقرآن رسائل

لتحقيق فردية الله تعالى وحرية المطلقة^(٢).

أقوال المفسرين في الآية:

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ١/١٤٦.

(٢) الرسالة الثانية من الإسلام، محمود محمد طه، ص ٢٢.



قال الطبري: قوله «وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ» ماله وولده. وعن قتادة، في قوله «وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ» قال: ما عنده، وهو قوله «لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا» وفي حرف ابن مسعود: ونرثه ما عنده. وقال ابن زيد، في قوله «وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ» قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها «وَيَأْتِينَا فَرْدًا» قال: فردا من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير^(١).

قال السعدي: «وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ» أي: نرثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فردا، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان «وَيَأْتِينَا فَرْدًا» فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين^(٢).

قال ابن كثير: «ونرثه ما يقول» أي: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولدا، زيادة على الذي له في الدنيا؛ بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال: «وَيَأْتِينَا فَرْدًا» أي: من المال والولد. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «ونرثه ما يقول»، قال: نرثه

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «ونرثه ما يقول» قال: ما جمع من الدنيا، وما عمل فيها، قال: «وَيَأْتِينَا فَرْدًا» قال: فردا من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

قال القرطبي: ونرثه ما يقول أي نسلبه ما أعطيناه في الدنيا من مال وولد. وقال ابن عباس وغيره: أي نرثه المال والولد بعد إهلاكنا إياه. وقيل: نحرمة ما تمناه في الآخرة من مال وولد ونجعل له غيره من المسلمين. ويأتينا فردا أي منفردا لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره^(٣).

أسباب النزول

تعريف سبب النزول: هو ما نزلت الآية أو الآيات مُتَحَدِّثَةً عنه، أو مُبَيِّنَةً لِحُكْمِهِ

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٤٩/١٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ٤٩٩/١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤٨/١١.

أيام وقوعه^(١).

من خلال هذا التعريف يمكننا أن نُحدّد أركانه فيما يلي:

١- ما نزل من القرآن بسبب حادثة ما؛ لِيُبين حُكم الله فيها؛ مثل: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (البقرة: ٩٩).

فسببها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال ابن صوريا الفطيويني للنبي ﷺ: «يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية، فتتبعك بها، فأنزل الله الآية»^(٢).

٢- الحادثة التي كانت سبباً في نزول الآيات مثل هذه الحادثة، قد تكون خصومة؛ كالخلاف الذي وقع بين الأوس والخزرج؛ بسبب دسيصة شاس بن قيس اليهودي، حتى أوشك الفريقان أن يقتتلا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقَانًا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ (آل عمران: ١٠٠).

٣- زمن وقوع الحادثة للاحتراز عن الآية، أو الآيات التي تنزل ابتداءً من غير سبب، بينما هي تتحدث عن الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلية؛ كبعض قصص الأنبياء السابقين، أو أممهم.

٤- حُكم الله الذي نزلت به الآية؛ مثل: ما نزل في حُكم الحائض في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

حيث يروى أن اليهود إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها، ولم يُجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ - فأُنزل الله تعالى هذه الآية، فقال الرسول ﷺ - : «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»^(٣).

(١) مناهل العرفان ١/ ٩٩.

(٢) تفسير الطبري، ١/ ٣٥٠، وأسباب النزول؛ للواحدي، ص ٢٧.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب (٢)، رقم (٣٠٢/٢٤٦)، وسنن الترمذي، كتاب

التفسير، باب (٢)، رقم (٢٩٧/٨٥).



فوائد أسباب النزول

- ١ - الاستعانة على تفسير القرآن.
- ٢ - بيان وجه الحكمة الباعثة على التشريع، ومعرفة مقاصد الشريعة، وإدراك مُراعاة الشرع لمصلحه الأمة أفراداً وجماعات.
- ٣ - تخصيص الحكم بالسبب عند مَنْ يرى أَنَّ العبرة بخصوص اللفظ، لا بعموم السبب.
- ٤ - تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم وتثبيت الوحي.
- ٥ - الوقوف على بلاغة القرآن الكريم؛ حيث مراعاة الكلام لمقتضى الحال.
- ٦ - أن تكون الأمة أكثر صلة بالله، وأقوى تعليق به^(١).

الناسخ والمنسوخ

تعريف النَّسخ

النَّسخ في اللغة مصدر للفعل الثلاثي: نسخ، يقال: نسخت أنسخ نسخاً، ويأتي بمعان: الإزالة - والإبطال - والنقل والإثبات، والتحويل والتبديل^(٢):

ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ (الحج: ٥٢)؛ يقول العلامة الشنقيطي في أضوائه: «..لأنَّ النَّسخ هنا هو النَّسخ اللغوي، ومعناه: الإبطال والإزالة، من قولهم: نسخت الشمس الظل، ونسخت الريح الأثر»^(٣).

النَّسخ في الاصطلاح هو رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخ عنه، أو رفع حكم شرعي بمثله مع تراخيه عنه^(٤).

(١) البرهان؛ الزركشي، ١٩٩/٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ٤٢٥/٥.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٢٨٨/٥.

(٤) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي ١١٥/٣.

تعريف الناسخ

الناسخ: اسم فاعل من نسخ ينسخ فهو ناسخ، والناسخ حقيقة هو الله تعالى؛ فهو الذي ينسخ ما شاء بما شاء؛ كما قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٦).

وقد يطلق الناسخ على النص الذي رفع به الحكم السابق، سواء كان آية أو حديثاً قولياً أو فعلياً أو تقريرياً من النبي ﷺ.

تعريف المنسوخ

المنسوخ: اسم مفعول من الفعل الثلاثي نسخ، نُسخ - بالبناء على المجهول - نسخاً، فهو منسوخ.

والمراد: الحكم الشرعي الذي رُفع بدليل شرعي متراخ عنه؛ كمصابرة الواحد للعشرة، فهذا حكم منسوخ بمصابرته لاثنين، كما في سورة الأنفال.

شروط النَّسخ

تنقسم شروط النَّسخ إلى شروط متفق عليها، وشروط مختلف فيها:

شروط النَّسخ المتفق عليها:

- أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً: إذ الأحكام العقلية لا نسخ فيها؛ فالانتقال من البراءة الأصلية إلى التكليف لا يُعدُّ نسخاً؛ لأن هذه البراءة أمرٌ عقلي لا شرعي.
- أن يكون الدليل الدال على ارتفاع الحكم شرعياً: «ارتفاع الحكم بموت المكلف أو جنونه ليس بنسخ، وإنما هو سقوط التكليف جملة».
- أن يكون الناسخ متراخياً عن الخطاب المنسوخ حكمه: أي: تفصل بينهما مدة؛ فإن المقترن كالشرط والصفة والاستثناء لا يسمى نسخاً، وإنما هو تخصيص؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَىٰ الْآيِلِ﴾ (البقرة: ١٨٧)، فليس ذلك نسخاً للصوم نهائياً.
- ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين، أو بزمان مخصوص: مثاله: «قوله



ﷺ: «لا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس»، فإن الوقت الذي يجوز فيه أداء النوافل التي لا سبب لها: مؤقتٌ، فلا يكون نهيه عن هذه النوافل في الوقت المخصوص نسخاً لما قبل ذلك من الجواز؛ لأن التوقيت يمنع النسخ^(١).

شروط النسخ المختلف فيها:

• أن يكون الناسخ أقوى من المنسوخ أو مثله، فإن كان أضعف منه لم ينسخه؛ لأن الضعيف لا يزيل القوي.

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله تعالى: «واشترط الجمهور أن يكون أقوى من المنسوخ، أو مماثلاً له، فلا يُنسخ المتواتر عندهم بالآحاد، وإن كان ثابتاً، والأرجح أنه لا يشترط أن يكون الناسخ أقوى أو مماثلاً؛ لأن محل النسخ الحكم، ولا يشترط في ثبوته التواتر»^(٢).

• أن يكون نسخ القرآن بالقرآن والسنة بالسنة.

• أن يكون قد ورد الخطاب الدال على ارتفاع الحكم بعد دخول وقت التمكن

من الامتثال.

• أن يكون الخطاب المنسوخ حكمه مما لا يدخله الاستثناء والتخصيص.

• أن يكون الناسخ والمنسوخ نصين قاطعين.

• أن يكون الناسخ مقابلاً للمنسوخ مقابلة الأمر بالنهي، والمضيّق بالموسّع.

• أن يكون النسخ ببدل.

قال الإمام الآمدي رحمه الله تعالى بعد ذكر الشروط الخمسة الأخيرة -

المختلف فيه: «فإن ذلك كله مختلف فيه، والحق أن هذه الأمور غير معتبرة»^(٣).

(١) أصول الفقه الميسر، د. شعبان محمد إسماعيل، ٢/ ٢٣٠.

(٢) الأصول من علم الأصول، ابن العثيمين، ص ٥٤.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، ٣/ ١٢٦.

مناهج المفسرين

مما لا شك فيه أن علماء التفسير قد بذلوا جهداً مشكوراً في خدمة كتاب الله عز وجل، فبينوه للأنام، وقربوه للأفهام.. ومع هذه العناية العظيمة، وذلك الاعتصام فعلماء التفسير ليسوا سواء ؛ فلكل مفسر منهم - رضي الله عنهم - مناهج يسير عليه في بيانه لكتاب الله عز وجل.

ونورد بعض مناهج كبار المفسرين:

١- تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل آي القرآن»: عقيدة الطبري هي عقيدة السلف الصالح رضي الله عنه وعنهم، ويذكر الروايات بأسانيدھا ولا يحكم عليها غالباً بصحة أو ضعف، ويذكر في تفسيره الأحكام الفقهية مع بيان الراجح منها ويهتم بالقراءات في تفسيره، ولكنه يورد أخباراً وقصصاً من الإسرائيليات ينبه على بعضها ويسكت عن طائفة منها، وله اهتمام باللغة والنحو والشعر في تفسيره، وبالجملة فهو من أجل التفاسير المأثورة وأعظمها قدراً.

٢- تفسير الزمخشري «الكشاف»: من أئمة المعتزلة ؛ قال عنه الإمام الذهبي: «كن حذراً من كشافه»!! أي من تفسيره ؛ وذلك لأنه ينتصر لمذهبه، فيدفعه ذلك إلى تأويل الآيات وتحريفها ليقم منها دليلاً على صحة مذهب المعتزلة ؛ وهم من الفرق الضالة في هذه الأمة. وهو يتعرض للمسائل الفقهية بغير توسع، وهو حنفي غير متعصب لمذهبه، وقد ذكر في تفسيره الأحاديث الموضوعة في فضائل السور في آخر تفسير كل سورة!!

٣- تفسير ابن الجوزي «زاد المسير في علم التفسير»: عقيدة ابن الجوزي فيها اضطراب في كتبه! فهو يثبت بعض الصفات، ويؤول بعضها، وهو يميل في الغالب إلى مذهب المفوضة الذين يقولون: نقرأ آيات الصفات فقط دون أن نفهم المعنى أو نسأل عن الكيفية؟! وعقيدة السلف هي: فهم المعنى وتفويض الكيفية إلى الله لأنها من الغيب، أما المعنى فيفهم من كلام العرب ولغتهم. وابن الجوزي ينقل أقوال السلف في التفسير بدون إسناد ويرتبها ترتيباً حسناً ويهتم بالقراءات واللغة والنحو والشعر، ولكنه ينقل عن



السدى وغيره قدرًا من الإسرائيليات.

٤- تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»: مؤول أشعري العقيدة، يعتمد في نقله على أئمة الأشاعرة فيما يتعلق بالعقيدة، وقد رد على المتصوفة وبيّن ضلالهم في مواضع من الكتاب. يكثر من إيراد الأحاديث بغير إسناد غالبًا مع عزوها إلى المصدر الذي أخذ منه. وله اهتمام بالمسائل الفقهية وأدلتها، يرجح بالدليل دون تعصب لمذهبه المالكي، ويذكر قليلًا من الإسرائيليات، وله اهتمام بغريب القرآن واللغة والشعر.

٥- تفسير النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»: النسفي من غلاة الأشعرية المؤولة، اختصر تفسيره من تفسير «البيضاوي» و«الكشاف» مجتنبًا اعتزال الزمخشري. ويتنصر النسفي لمذهبه الحنفي! يذكر قليلًا من الإسرائيليات ولا يعقب عليها، وينبه على وجوه الإعراب والقراءات بغير تطويل.

٦- تفسير ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»: عقيدته هي عقيدة السلف الصالح رضي الله عنهم، ويهتم في تفسيره بتصحيح الروايات وتضعيفها ويسوق الآثار بالأسانيد وهو يفسر القرآن بالقرآن ثم بالسنة ثم بفهم السلف الصالح، ويحذر من الإسرائيليات، ويندر أن يسوق شيئًا منها بغير تنبيه عليه، وهو أجود وأيسر كتاب تفسير بالمأثور بين التفاسير المطبوعة وقد رزقه الله قبولًا وانتشارًا.

القرآن المكي والمدني

إن مما يساعد على فهم القرآن وتفسيره معرفة القرآن المكي والمدني؛ لذلك اهتم به الصحابة حيث كانوا يعملون بما تعلّموه من القرآن.

تعريف القرآن المكي والمدني

١- القرآن المكي: هو الذي نزل به الوحي على رسول الله - ﷺ - قبل الهجرة وإن كان بغير مكة.

٢- القرآن المدني: هو الذي نزل به جبريل على محمد - ﷺ - بعد الهجرة، وإن كان بمكة، كالذي نزل في حجة الوداع.

خصائص القرآن المكي

الغالبُ في القرآن المكي من حيث الموضوع الاهتمام بما يلي:

- ١- الدعوة إلى توحيد الإله الذي أنكره المشركون.
- ٢- التحذير من الشرك كدعاء غير الله.
- ٣- إبطال عبادة الأولياء بدعوى تقربهم بها إلى الله، وطلب شفاعتهم عند الله.
- ٤- الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، وبعث الناس من قبورهم للحساب.
- ٥- التحدي للعرب - رغم فصاحتهم - أن يأتوا بسورة مثل هذا القرآن.
- ٦- إيراد قصص المكذبين الغابرين: كقوم نوح، وهود، وقوم صالح، وشعيب، وموسى، وغيرهم.
- ٧- الحث على الصبر.
- ٨- جهاد المشركين بالقرآن، وجدالهم بالحسنى.
- ٩- إقامة الأدلة الكونية والعقلية على توحيد الربوبية الذي يستلزم منه توحيد الألوهية.
- ١٠- يمتاز القرآن المكي غالباً في أسلوبه بوجود ألفاظ شديدة القرع على المسامع تقذف حروفها الوعيد والعذاب^(١).

خصائص القرآن المدني

الغالبُ في القرآن المدني من حيث الموضوع الاهتمام بما يلي:

- ١- الدعوة إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله؛ لأن المسلمين هاجروا إلى المدينة وأقاموا دولة الإسلام فيها، فهم بحاجة للدفاع عن دينهم ودولتهم.
- ٢- بيان أحكام الإسلام: مثل حكم الربا الذي أعلن الله الحرب على فاعليه.
- ٣- الحكم في الحدود: كحدِّ الزنا والسرقه وغيرها من الحدود التي تضمن الأمن والاستقرار في المجتمع.

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ١/ ٥٠.



- ٤ - فضح المنافقين وكشف دخيلتهم وذكر أوصافهم: كقول الله تعالى في كشف نفاقهم.
 ٥ - إسكات أفواه أهل الكتاب من اليهود وغيرهم ومجادلتهم لإقامة الحجة عليهم.
 ٦ - تحقيق النصر للمؤمنين في غزواتهم مع أعدائهم^(١).

هل ينقسم القرآن إلى قرآنين «القرآن المكي» و«القرآن المدني»

لم يرد في القرآن أي إشارة إلى ما نزل من القرآن بمكة أو بالمدينة. ورد اسم مكة في القرآن مرة واحدة ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الفتح: ٢٤)، وهي تتناول قضايا القتال حين فُتِحَتْ مكة. ثم ورد اسم مكة بصيغة بكة مرة واحدة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦)، أما المدينة بمعنى تلك البقعة التي هاجر إليها النبي ﷺ وعاش فيها، ومات ودفن فيها، فقد ذكرت اربعة مرات في القرآن، وكلها تحدثت عن قضايا النفاق وخذلان الأعراب للرسول ﷺ. ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة: ١٠١)، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: ١٢٠)، ﴿لَيْنَ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعْنَتِكَ يَا إِلَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (الأحزاب: ٦٠)، ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ١ / ٥٠.

أَلَا عَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
(المنافقون: ٨).

لم يرد عن النبي ﷺ أنه تحدث عن قرآن مكي أو مدني «لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك، لأنه لم يرد عن النبي ﷺ بياناً للمكي والمدني. وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان، كيف وهم يشاهدون الوحي والتزيل، ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عياناً! «وليس بعد العيان بيان»^(١) وقد أورد الزرقاني عن القاضي أبوبكر في «الانتصار» إذ يقول ما نصه: «ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول، لأنه لم يأمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النسخ والمنسوخ، فقد يُعرف ذلك بغير نص الرسول»^(٢)

أما أول من جمعه وصنفه كعلم فقد كان جماعة من العلماء «أفرده بالتصنيف جماعة، منهم مكي والعز الديري» ولا يقتصر تصنيف النزول على ما نزل بمكة والمدينة فحسب «قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري في كتاب «التنبيه على فضل علوم القرآن»: من أشرف علوم القرآن، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلاً، وما نزل نهاراً، وما نزل مشيعاً، وما نزل مفرداً، والآيات المدنيات في السور المكية،

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن. محمد عبد العظيم الزرقاني. تحقيق الدكتور نواف

الجراح. دار صادر بيروت. ط ١. ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م. ص ١٢٢.

(٢) مناهل العرفان، ص ١٢٢.



والآيات المكيات في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى الحبشة، وما نزل مجملًا، وما نزل مفصلاً، وما اختلفوا فيه، فقال بعضهم مدني وبعضهم مكّي. فهذه خمسة وعشرون وجهاً^(١). «وقال ابن العربي في كتابه الناسخ والمنسوخ: الذي علمناه على الجملة من القرآن أن منه مكياً ومدنياً، وسفرياً وحضرياً، وليلياً ونهارياً وسمائياً وأرضياً، وما نزل بين السماء والأرض، وما نزل تحت الأرض في الغار. أما ما رواه الطبراني عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة مكة، والمدينة، والشام» فيه غفير بن معدان، وهو ضعيف. فهذا حديث لا يؤخذ به، وكل هذا مجرد اجتهد علماء وهو نتاج أعمال الفكر فيما بين أيديهم من نصوص تراثية موروثة من الصحابة والتابعين. هذا الاجتهاد يتحدث عن «ما نزل من القرآن» من حيث الجهة وزمن النزول وصيغة حاله عند النزول على خمسة وعشرين وجهاً كما عدها القاضي أبوبكر.

وعند الحديث عن المكّي والمدني هنالك نقطتان مهمتان:

الأولى: لم يكن قصد العلماء من معرفة ما نزل من القرآن بمكة والمدينة، تقسيم القرآن إلى قرآنين منفصلين «قرآن مكّي» و«قرآن مدني» كما فعل محمود. وهي في النهاية اصطلاحات «اعلم أن الناس في المكّي والمدني اصطلاحات ثلاثة» «وقال الجعبري: «لمعرفة المكّي والمدني طريقان: سماعي وقياسي، فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسي: قال علقمة عن عبد الله كل سورة فيها يأبها الناس فقط أو كلا أو أولها حروف تهج سوى الزهراوين والرعد في وجه أوفيهما قصة آدم وإبليس، سوى الطولى فهي مكية، وكل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حدٌّ فهي مدنية»^(٢)

(١) الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. مكتبة مصر. ص ١١.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، سابق، ص ١٣٣.

الثانية: أن معظم القرآن - ليس كله - نزل في مكة والمدينة، لكن هنالك قرآن نزل في غير هاتين الجهتين. بل هنالك سور مختلف عليها أهي مكية أم مدنية. فوق ذلك هنالك آيات مكية وسط سور اعتبرت مدنية، ونفس الشيء حدث لآيات مدنية وسط سور مكية.

اتفق العلماء على عشرين سورة مدنية وقال أبو الحسن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ: «المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكّي باتفاق»^(١). وقد عد هذه السور المختلف عليها في أبيات شعر أوردتها السيوطي^(٢):

هذا الذي اتفقت فيه الرواة له	وقد تعارضت الأخبار في آخر
فالرعد مختلف فيها متى نزلت	وأكثر الناس قالوا الرعد كالقمر
ومثلها سورة الرحمن شاهدها	مما تضمن قول الجن في الخبر
وسورة للحواريين قد علمت	ثم الت غابن والتطيف ذو النذر
وليلة القدر قد خصت بملتنا	ولم يكن بعدها الزلزال فاعتبر
وقل هو الله من أوصاف خالقنا	وعوذتان ترد البأس بالقدر
وذا الذي اختلفت فيه الرواة له	وربما استثنت أي من السور
وما سوى ذاك مكّي تنزله	فلا تكن من خلاف الناس في حصر
فليس كل خلاف جاء معتبراً	إلا خلافٌ له حظ من النظر

وتكون بذلك السور الاثني عشر المختلف فيها هي: الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، الناس.

إذن تصنيف السور إلى مكّي ومدني لم يكن بتوقيف إلهي أو هدي نبوي، بل هو وضع اصطلاحى جاء به العلماء، وفوق ذلك لم تنزل كل السور في مكة والمدينة، مع مراعاة الوضع الخاص للسور المختلف فيها أمكية هي أم مدنية.

(١) الإتقان ص ١٤

(٢) الإتقان، ص ١٥.



الخلاف بين المكي والمدني ليس اختلاف في مستوى المخاطبين، لأن الخطاب التكليفي خطاب عام، وانما خص به المؤمنون تشريفا لهم ولأنهم أقرب إلى الاستجابة بما حققته قلوبهم من الإيمان فخطاب المؤمنين من باب الخصوص الذي أريد به العموم فكما أن الخطاب للرسول خطاب لأُمته ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٩﴾ (التحریم: ٩)، فالنبي ﷺ لم يجاهد الكفار والمنافقين وحده، وإنما يجاهدهم بالمؤمنين، فالخطاب وإن كان خاصا بالنبي ﷺ ولكنه عام يدخل تحته المؤمنون.

لم يختلف محمود في تصنيفه القرآن على أنه «مكي» أو «مدني» عن اصطلاحات علماء الأمة السابقين كالسيوطي والزرقاني والزرکشي وغيرهم. إلا أنه أعطى الأمر بعداً فلسفياً وتفسيراً باطنياً، لعل ذلك يرجع إلى الفهم الذي أخذه من الله، ومن الأذن الذي أعطيه للكلام في القرآن. قال محمود «ولقد نشأ الإسلام بين القريتين: مكة والمدينة: بدأ في مكة، فلما انهزم فيها هاجر إلى المدينة، حيث انتصر. وما كان له أن ينتصر في مكة، ولم ينتصر. ﴿وَلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ٥٣﴾ (العنكبوت: ٤٣) ما انتصر الإسلام، وإنما الإيمان. ولقد جاء القرآن مقسماً بين الإيمان والإسلام، في معنى ما جاء إنزاله مقسماً بين مدني ومكي». (١). لم يذكر محمود دليلاً أو شاهداً أو قرينة تدل على هزيمة الإسلام في مكة. وذكر آية - دون أن ينسبها إلى سورتها - ليدل على أن الله ضرب بهذا الوضع «أي هزيمة مكة وانتصار المدينة» مثلاً لا يفهمه إلا العالمون مثله. وربما هذا الفهم كان قد استغلق على كل الأمة الإسلامية حتى جاء محمود وأخرجه للناس. هذه الآية من سورة العنكبوت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ

كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴿العنكبوت: ٤١ - ٤٣﴾، الآية تتحدث عن ضعف العقائد الفاسدة التي هي أوهى من بيت العنكبوت. ما علاقة هذه الآية بالمكي والمدني؟ ثمة إشارة إلى قوله «في معنى جاء إنزاله مقسمًا بين مدني ومكي». هنا محمود يتحدث عما نزل من القرآن في جهتين جغرافيتين، ولا يتحدث عن قرآن مكي مختلف ومنفصل عن قرآن مدني.

أراد محمود أن يلغي أشهر اصطلاحين «المكان، والزمان أي قبل وبعد الهجرة» في تقسيم المدني والمكي «والاختلاف بين المكي والمدني ليس اختلاف مكان النزول ولا اختلاف زمان النزول»^(١) لقد أراد أن يعتمد أحد أوجه التقسيم وهو «القياس» الذي ذكره الجعبري من قبل «إنما هو مستوى المخاطبين. فأيها الذين آمنوا خاصة بأمة معينة. وأيها الناس فيها شمول لكل الناس»^(٢) لكن محمودًا تجاوز نداء الناس في سورة الحجرات وهي مدنية بإجماع العلماء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣) ثم قال «إذا اعتبرت قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة: ١٢٨) - وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي النَّاسَ لِرُءُوفٍ رَحِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ (الحج: ٦٥) وأدركت فرقًا، فاعلم أنه الفرق بين المؤمن والمسلم، وهو مستوى كل من الخطابين». ولكن محمودًا وقع في المحذور حينما

(١) الرسالة الثانية، ص ١١٠.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١١٠.



استدل بآيات كلها مدنية تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨ - مدنية). ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة ١٤٣ - مدنية). أو إن كانت ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥ - مدنية).

بعد ذلك أراد محمود أن يجعل من آيات المدينة آيات عنف وآيات مكة آيات سلم «الإسماع» «وورد خطاب المنافقين في المدينة، ولم يرد في مكة، مع أن زمن النزول في مكة ثلاثة عشرة سنة، وفي المدينة عشر سنوات، أو يقل، وذلك لم يكن بمكة منافقون. وإنما كان الناس إما مؤمنين، أو مشركين، وما ذلك إلا لأن العنف لم يكن من أساليب الدعوة بل كانت آيات الإسماع هي صاحبة الوقت يومئذ ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥) وأخواتها، وهن كثر»^(١).

آية الإسماع هذه لم يردّها محمود «كعادته» لا إلى سورتها ولا إلى سياقها وهي من سورة النحل المكية ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥ - ١٢٦) بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّادِقِينَ ﴿١٢٦﴾ (النحل: ١٢٥ - ١٢٦) الآية التالية لها وهي مكية لم تكن إسماعاً كاملاً، بل كانت فيها فسحة للرد بالمثل في حال العقوبة، فلو كانت العقوبة قتلاً لصار الرد مثلها ولا تنفي ساعتها الإسماع. ومثلها آيتي سورة الشورى ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠ - ٤١ مكية)

هنا في الأصل أن تقابل السيئة بسيئة مثلها في السوء، والعفو فضيلة لها أجراها عند الله، وللمظلوم أن ينتصر لنفسه، والانتصار غير محدد. وفي مكة نزلت ﴿أَكْفَارُكُمْ حَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (١٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ﴾ (١٤) ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ (١٥) (القمر: ٤٣ - ٤٥ - مكية) وقد هزم كفار مكة في بدر، وجاءت هذه الواقعة تصديقاً للحديث الطويل الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص «... فقال: تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح... الحديث» رواه أحمد في مسنده، وحسنه الألباني، إلا أن ابن حجر العسقلاني كان قد أنكره. محمود بمنهجه الضعيف لم يورد هذه الأدلة التي تخالف ما ذهب إليه من أحكام عن العهد المكي، ثم راح بعد ذلك من تبعه من تلاميذه - بمنهج أضعف من منهج محمود - ينسبون هذا الحديث - الذي كان في مكة - إلى العهد المدني، ويجعلونه من أصول التطرف الديني. ولقد تغافل محمود عن آيات إسماع «حسب تعبيره» في القرآن المدني ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤) (آل عمران: ٦٤ - مدنية) ﴿تَأْتِمُرُ النَّاسُ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤) (البقرة: ٤٤ - مدنية) ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنِ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٣) (البقرة: ٢٥٣ - مدنية) والصفح عن المنافقين والاستغفار لهم، رغم كيدهم للمسلمين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (المنافقون: ٥ - مدنية). محمود يظهر



هنا عدم المنهجية بصورة واضحة من حيث الانحياز المعيب لآيات معينة في القرآن المكي لأنها تخدم غرضه في جعلها هي فقط آيات إسماع.

تحدث محمود عما سميت بآية السيف وقال إنها سبب النفاق «وحين تمت الهجرة إلى المدينة، ونسخت آيات الإسماع، وانتقل حكم الوقت إلى آية السيف ونظائرها، ﴿فَإِذَا أُنْصِلَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَقَعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ٥ - مدنية)». هذا المصطلح «آية السيف» لا أصل له في القرآن والسنة بل هو اجتهد بشر، لكن مع ذلك لم يلتفت محمود إلى الإسماع الموجود في الآية التالية للآية المسماة من علماء الدين وليس من الله بـ «آية السيف» ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَعَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦ - مدنية) يجب توفير الحماية الشخصية للمشارك «مثل ما تفعل المواثيق الدولية في وقتنا الحاضر» حتى يسمع كلام الله - القرآن - وهو آمن على نفسه، ثم يبلغ مأمنه سالمًا، أي إسماع هذا كان في القرن السابع الميلادي؟!، الذي لا نجد له نظيرًا في قرن محمود «القرن العشرين» ولا في القرن الحالي «القرن الحادي والعشرين». ثم مضى قائلاً «ودخل الخوف في ميدان الدعوة، واضطرت النفوس إلى التقية، أسرت أمرًا وأعلنت غيره، ودخل بذلك النفاق بين النفوس»^(١). آية السيف نزلت في السنة التاسعة من الهجرة والنفاق نشأ منذ أن وطئت أقدام النبي ﷺ أرض المدينة، وكان في أوضح صوره في غزوة أحد في السنة الثانية للهجرة ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَيْتَوَا كُلَّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٤﴾ (آل

عمران: ١٢١ - ١٢٢ - مدنية) ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴿١٥٤﴾﴾ (آل عمران: ١٥٤ - مدنية) ثم بعد ذلك موقف المنافقين في قضية بني النضير ﴿* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَیْنُ أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ (الحشر: ١١ - مدنية) وموقفهم من بعد ذلك في غزوة بني المصطلق ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ يَقُولُونَ لَیْنُ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ (المنافقون: ٧ - ٨ - مدنية) وهكذا نجد مفارقة كبيرة وواضحة بين طرح محمود وسياقات القرآن ووقائع التاريخ، سببها الضعف البائن في منهجية محمود.

لا تخلو الآيات المكية من صور للتهديد والوعيد ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوْنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ (التكاثر: ٣ - ٨ - مكية) ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ (المسد: ١ - ٥ - مكية) ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَاءَ هَقُّهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنِّي



هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوْ أَحَۢهُ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴿ (المدثر: ١١ - ٢٩ - مكية) ﴾ وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿٣٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿٣١﴾ مَنَاجِلَ الْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿٣٢﴾ عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿٣٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٣٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٥﴾ سَنَنْسِفُهُ عَلَى الْخُرُومِ ﴿٣٦﴾ ﴿ (القلم: ١٠ - ١٦ - مكية). أخيراً لم يحدث محمود الناس عن مصير القرآن المدني هل يتعبد به تلاوة وصلاة؟ هل يسحب من المصاحف عند طباعتها؟ أم يكتب أمام كل سورة أو آية عبارة «مدنية منسوخة» أو «مدنية منتهية الصلاحية».

السنة وعلوم الحديث

تعريف السنة

السنة في اللغة: السَّيْرَةُ، حَسَنَةٌ كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً. وَسَنَنْتُهَا سَنًّا وَاسْتَنَنْتُهَا: سِرْتُهَا، وَسَنَنْتُ لَكُمْ سُنَّةً فَاتَّبِعُوهَا. وَفِي الْحَدِيثِ: مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً يُرِيدُ مَنْ عَمَلَهَا لِيُقْتَدَى بِهِ فِيهَا، وَكُلُّ مَنْ ابْتَدَأَ أَمْرًا عَمِلَ بِهِ قَوْمٌ بَعْدَهُ قِيلَ: هُوَ الَّذِي سَنَّهُ.^(١) أما السنة في اصطلاح المحدثين «المشتغلين بعلم الحديث» فهي: أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وصفاته الخلقية والخلقية وسيره، ومغازيه وبعض أخباره قبل البعثة مثل تحنثه في غار حراء، ومثل حسن سيرته؛ لأن الحال يستفاد منها ما كان عليه من كريم الأخلاق ومحاسن الأفعال؛ كقول خديجة أم المؤمنين له ﷺ: «كلا والله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»، ومثل أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وأنه عُرف بالصدق والأمانة، وما إلى ذلك من صفات الخير وحسن الخلق، فمثل ذلك يُنتفع به في إثبات نبوته ﷺ كثيرا. والسنة بهذا المعنى مرادفه للحديث النبوي عندهم.^(٢)

تعريف الحديث

وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَأَصْلُهُ: ضِدُّ الْقَدِيمِ، وَقَدْ اسْتُعْمِلَ فِي قَلِيلِ الْخَبَرِ وَكَثِيرِهِ؛ لِأَنَّهُ يُحَدَّثُ شَيْئًا فَشَيْئًا. وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ حَجَرٍ فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ: الْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ فِي عُرْفِ الشَّرْعِ: مَا يُضَافُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَكَأَنَّهُ أُريدَ بِهِ مُقَابَلَةُ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ قَدِيمٌ.^(٣)

(١) لسان العرب، ابن منظور، ط «٣» ١٤١٤ هـ، دار صادر - بيروت، ج ١٣، ص ٢٢٥.

(٢) الحديث والمحدثون، محمد محمد أبو زهو، ط ١٣٧٨ هـ، دار الفكر العربي - القاهرة. (ص ١٠).

(٣) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، السيوطي، جلال الدين، تحقيق، أبو قتيبة نظر

محمد الفاريابي، دار طيبة للنشر ب ت. «ج ١، ص ٢٩».



نشأة علم الحديث

نشأ علم الحديث أو علم أصول الحديث في عهد أصحاب رسول الله ﷺ، إذ لم تكن لهم بهذا العلم حاجة في عهد رسول الله ﷺ، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتلقون حديث رسول الله ﷺ منه مباشرة. ومن لم يسمع منه ﷺ كان يأخذ حديثه من ممن سمعه من الصحابة، فقد كانوا يصدقون بعضهم البعض وذلك لأنهم عدول أي مستقيمين على الطريق وعلى المحجة البيضاء التي وضعهم عليها رسول الله ﷺ، وفوق هذا كله تعديل الله لهم من فوق سبع سماوات إذ قال تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠). وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

وأول من بدأ في التثبت من رواية الحديث هو الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه وذلك خوفاً منه على أخذ الرواية عن كل من هبّ ودبّ، فالنبي ﷺ هو المشرع لهذه الأمة فحديثه ﷺ هو دين فالدين يجب أن لا يؤخذ إلا عن الثقات الورعين الذين يخافون الله. وقد ورد عن أبي بكر الصديق حرصه عن التحقق في رواية الحديث ما ذكره صاحب كتاب السنة ومكانتها حيث يقول «قال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ» في ترجمة أبي بكر الصديق: «كَانَ أَوَّلُ مَنْ اخْتِطَاطَ فِي قَبُولِ الْأَخْبَارِ». ثم روى الذهبي من طريق ابن شهاب عن قبيصة أن العدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث. قال: «مَا أَجِدُ لَكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ شَيْئًا، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ لِكَ شَيْئًا»، ثُمَّ سَأَلَ النَّاسَ فَقَامَ الْمُغِيرَةُ فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِيهَا السُّدُسَ». فَقَالَ لَهُ: «هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟» فَشَهِدَ مُحَمَّدُ بْنُ

مَسْلَمَةً بِمِثْلِ ذَلِكَ فَأَنْفَذَهُ لَهَا أَبُو بَكْرٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ^(١).

وفيما جاء عن عمر بن الخطاب في الثبوت في الرواية عن الرسول ﷺ قوله: «وَرَوَى أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ الْجَرِيرِيِّ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ أَبَا مُوسَى سَلَّمَ عَلَى عُمَرَ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَرَجَعَ فَأَرْسَلَ عُمَرُ فِي أَثَرِهِ فَقَالَ: «لِمَ رَجَعْتَ؟» قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «إِذَا سَلَّمَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُجِبْ فَلْيَرْجِعْ». قَالَ: «لَتَأْتِيَنِي عَلَى ذَلِكَ بَيِّنَةٌ أَوْ لَأَفْعَلَنَّ بِكَ فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى مَمْتَقِعًا لَوْنُهُ وَنَحْنُ جُلُوسٌ، فَقُلْنَا: «مَا شَأْنُكَ؟» فَأَخْبَرَنَا وَقَالَ: «فَهَلْ سَمِعَ أَحَدٌ مِنْكُمْ؟» فَقُلْنَا: «نَعَمْ كُلُّنَا سَمِعَهُ» فَأَرْسَلُوا مَعَهُ رَجُلًا مِنْهُمْ حَتَّى أَتَى عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ» ^(٢).

علم الإسناد

الإسناد في اللغة: مصدر أَسْنَدَ. تقول: أَسْنَدَ في الجبل: صَعِدَ فيه. وَالسَّنْدُ لُغَةٌ: ما قابلك من الجبل، وعلا عن السفح. فالإسناد في اللغة: هو عملية الصعود في ذلك السند. وفي الاصطلاح: حكاية طريق المتن. وقال بعض العلماء: «هو رفع الحديث إلى قائله» ومعناها واحد.

وطريق المتن يسمى: السَّنَد، وهم الرواة الذين نقلوا ذلك المتن. وَسُمِّيَ سَنَدًا، لاعتماد الحفاظ عليه في الحكم على المتن بالصحة أو الضعف، مثال ذلك: قول الإمام البخاري في صحيحه: «حدثنا مسدد، قال: حدثنا يحيى، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» فالمتن قوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ...» الحديث. والسند هم رواة المتن: مسدد، يحيى، شعبة، قتادة، أنس. والإسناد هو قول البخاري: حدثنا مسدد، قال: حدثنا يحيى، عن شعبة، عن

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، ط «٣» ١٤٠٢ هـ، المكتب

الإسلامي، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان. «ص ٦٦»

(٢) السنة ومكانتها في التشريع، «ص ٦٧».



قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ.

والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ظاهرة، حيث إن عملية الصعود من أسفل الجبل إلى أعلاه يتطلب التدرج في الصعود شيئاً فشيئاً إلى أن يصل إلى أعلاه، وكذلك إسناد الحديث إلى قائله يبدأ الراوي به من شيخه ثم شيخ شيخه... وهكذا يرتقي من شيخ إلى آخر حتى يصل إلى منتهاه^(١).

ويعتبر الإسناد مما اختصت به أمة محمد ﷺ، فلا تجد ملة أو أمة في الدنيا نقلت كل ما يختص بنبي أو رسول لها عن طريق الإسناد فكل كتبهم وتواريخهم نقلت ودونت من غير سند يُقويها. أما المسلمون فقد أولوا الإسناد ونقد رجاله اهتماماً بالغاً لم يسبق له مثيل في الامم، وذلك لأن ما يُنقل عن النبي ﷺ هو دين وتشريع لهذه الأمة فمادام الأمر كذلك فلا تهاون ولا تساهل فيما يُنقل عن النبي ﷺ بل فحص وتمحيص لكل صغيرة وكبيرة عن رسول الله ﷺ.

وجاء في كتاب شرف أصحاب الحديث ما نصه: «أخبرني أبو بكر محمد بن المظفر بن علي الدينوري المقرئ قال حدثنا إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكي قال سمعت أبا العباس محمد بن عبد الرحمن الدغولي السرخسي يقول سمعت محمد بن حاتم بن المظفر يقول أن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم أسناد وإنما هي صحف في أيديهم وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل مما جاءهم به أنبياءهم وتمييز بين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوا عن غير الثقات وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثقة المعروف في زمانه المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتى تنهاى أخبارهم ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ والأضبط فالأضبط والأطول مجالسة لمن فقه ممن كان أقل مجالسة ثم يكتبون الحديث من

(١) عناية العلماء بالإسناد وعلم الجرح والتعديل، صالح بن حامد بن سعيد الرفاعي، الناشر -

عشرين وجها وأكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطوا حروفه ويعدوه عدا فهذا من أعظم نعم الله تعالى على هذه الأمة نستوزع الله شكر هذه النعمة ونسأله التثبيت والتوفيق لما يقرب منه ويزلف لديه ويمسكنا بطاعته إنه ولي حميد. ^(١)

حجية السنة النبوية

إن السنة النبوية حجة لا غبار عليها وذلك لإيماننا التام بمحمد ﷺ نبياً مرسلًا من عند الله تبارك وتعالى، فمقتضى إيماننا بالرسول محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم يقتضي إيماننا بكل ما جاء به والتصديق بكل ما صدر عنه وإلا فلا فائدة من الإيمان به رسولاً دون الصدق والتسليم بما جاء به من عند ربه. فقد عُرف عنه ﷺ الصدق والامانة في الجاهلية قبل أن يُبعث، فكيف به بعد أن بُعث إلى الناس كافة وقد عصمه ربه عن الكذب وسوء الخلق قبل البعثة فمن باب أولى أن يكون أكثر صدقاً وأمانة وعصمة بعد أن أُرسِل.

يقول باجمعان: «وحجية السنة متفق عليها عند المسلمين». قال الشوكاني: «اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال، وتحريم الحرام». ثم قال: «والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية لا يخالف في ذلك إلا مَنْ لا حظَّ له في دين الإسلام».

أدلة حجية السنة

وهناك أدلة كثيرة على حجية السنة سأذكر بعضاً منها:

١ - دليل العصمة: وهي أن الله تعالى عصم نبيه مِنْ تَعَمُّدٍ مَا يُخِلُّ بالتبليغ إجماعاً بدلالة المعجزة، ومن السهو والغلط فيه على الصحيح. وقد أثبت الله لرسوله العصمة في كتابه الكريم حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ

(١) شرف اصحاب الحديث، سابق «ص ٤٠».



تَفَعَّلَ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ، وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾
(المائدة: ٦٧)

٢- أن الله - سبحانه وتعالى - كما عصم رسوله أن يخطئ، عصم حديثه أن يحرف عليه شيء؛ فتكفل الله تعالى بحفظ هذا الدين كتاباً وسنةً، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩). والذكر في الآية يشمل القرآن والسنة.

٣- لقد هيا الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة الإسناد لحفظ الدين، منذ عهد الصحابة، فقد روى مسلم في مقدمة صحيحه، بسنده عن مجاهد، قال: جاء بُشَيْرُ الْعَدَوِيِّ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ. فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ، فجعل ابن عباس رضي الله عنه لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه. فقال: يا ابن عباس! ما لي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله ﷺ، ولا تسمع. فقال ابن عباس - رضي الله عنه -: «إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بأذاننا. فلما ركب الناس الصعب والذلول، لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف» وهكذا حفظ الله الدين منذ عهده الأول، إلى أن تقوم الساعة؛ فهياً سبحانه وتعالى الإسناد؛ فكشف به العلماء السابقون وضع الزنادقة وغيرهم للأحاديث المكذوبة، في فترة كتابة الأحاديث، وما زال العلماء يكشفون كذب المستشرقين وأذناهم من المسلمين وغيرهم، بواسطة الأسانيد.

٤- الإيمان بالرسول ﷺ؛ فمقتضى الإيمان بالرسول ﷺ، الإيمان بكل ما جاء به.

٥- أن القرآن الكريم بيّن أن وظيفة الرسول ﷺ أن يعلم الناس الكتاب والسنة؛ حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

قال الإمام الشافعي: «فذكر الله الكتاب، وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من

أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة: سنة رسول الله ﷺ.

٦- أننا أمرنا عند الاختلاف بالتحاكم إلى سنة رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ١٠)، قال ابن كثير - في تفسير هذه الآية: «أي مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، أي: هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُودُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩).^(١)

علاقة السنة بالقرآن الكريم

ترتبط السنة بالقرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً لا تنفك عنه أبداً، وذلك لأن الرسول ﷺ هو المبين لما في القرآن من كلام أشكل على الصحابة الكرام فهمه، فالنبي ﷺ هو المفسر والمبين لما أجمل أو أطلق ولم يقيد في القرآن الكريم، وفعله هذا ﷺ سنة واجبة الاتباع بنص الكتاب وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر: ٧).

جاء في كتاب منهاج المحدثين ما نصّه: «السُّنَّةُ مرتبطة بالقرآن ارتباطاً وثيقاً، فقد تكون:

* مفصلة لمُجْمَلِه: كبيانها لكيفية الصلاة، ففي الحديث: «صلوا كما رأيتموني أصلي» حيث تحديد الوقت والعدد والكيفية، ونحو بيانها لكيفية الحج، ففي الحديث: «خذوا عني مناسككم»، وأيضاً المسائل المتعلقة بالزكاة والصيام.

(١) السنة النبوية ومكانتها، سابق، ص ٣٨ - ٤٤.



﴿مُقَيَّدَةٌ لِمَطْلَقِهِ: وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨)، قِيدَتِ السُّنَّةُ الْقَطْعَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى بِقَطْعِ الْيَدِ مِنْ مِفْصَلِ الْكَفِّ...، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمِيرَاثِ يَقْسَمُ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾ (النساء: ١١) قِيدَتَهُ السُّنَّةُ بِأَنَّهُ لَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ، وَأَنَّ تَكُونَ الْوَصِيَّةَ لغيرِهِ فِي حُدُودِ الثَّلَاثِ.

﴿وَقَدْ تَكُونُ مُخَصَّصَةً لِعَامَةٍ: وَمِنْ الْأَحْكَامِ الَّتِي جَاءَتْ عَامَةً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمِيرَاثُ فِي: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (النساء: ١١)، خَصَصَتِ السُّنَّةُ بِأَنَّ الْقَاتِلَ لَا يَرِثُ، وَلَا يَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ وَالْعَكْسُ، وَقَوْلُهُ ﷺ: «نَحْنُ الْأَنْبِيَاءُ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ»، وَمِنْهُ أَيْضًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي الزَّوْجِ: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ (النساء: ٢٤) خَصَصَتِ السُّنَّةُ بِأَنَّهُ: «لَا تَنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا، وَلَا عَلَى خَالَتِهَا، وَلَا عَلَى ابْنَةِ أَخِيهَا، وَلَا عَلَى ابْنِ أُخْتِهَا، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ قَطَعْتُمْ أَرْحَامَكُمْ، وَقَوْلُهُ: «يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحَرِّمُ مِنَ النَّسَبِ».

﴿وَقَدْ تَكُونُ مُوَضَّحَةً لِمَشْكِلِهِ: كَتَوْضِيحِ الشَّجَرَةِ فِي: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤) بِأَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَكَتَوْضِيحِ التَّثْبِيتِ فِي: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: ٢٧) بِأَنَّ ذَلِكَ فِي الْقَبْرِ حِينَ يُسْأَلُ الْمُؤْمِنُ.

﴿وَقَدْ تَكُونُ مُوَضَّحَةً لِمَبْهَمِهِ: فَلَمْ يَفْهَمْ الصَّحَابَةُ الظُّلْمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢) فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ - ذَلِكَ لِلصَّحَابَةِ أَنَّ الْمَرَادَ «الشَّرْكَ»، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

وَهُنَاكَ أَحْكَامٌ أَتَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ - وَلَمْ يَذْكُرْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَجْمَلَةً أَوْ مَفْصَلَةً

أو مبهمة أو عامة أو خاصة أو مطلقة أو مقيدة، ومن ذلك تحريم لحوم الحُمُر الأهلية، وتحريم كل ذي ناب من السباع، وتحريم كل ذي مخلب من الطير، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في الزواج... إلخ، وتحليله لحوم الضب والأرانب^(١).

أقسام الحديث النبوي من حيث القبول والرد

لقد قسّم علماء علم الحديث النبوي الشريف حديث النبي من حيث قبوله والعمل به أو رده وعدم العمل به إلى ثلاثة أقسام هي: الحديث الصحيح، والحديث الحسن، والحديث الضعيف.

و سوف نتناول كل قسم من هذه الأقسام الثلاث بالتعريف والشرح، حتى يتبين للقارئ ما يمكن الاعتماد عليه والاحتجاج به من الأحاديث النبوية وما لا يُقبل ولا يُحتج به.

أولاً: الحديث الصحيح

تعريفه:

هو الحديث المسند الذي اتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه ولا يكون حديثاً شاذاً ولا معللاً.

ومن هذا التعريف تبين لنا أن شروط الصحيح خمسة:

- ١ - اتصال السند.
- ٢ - عدالة الرواة.
- ٣ - الضبط.
- ٤ - عدم الشذوذ.
- ٥ - عدم العلة.

(١) منهاج المحدثين في القرن الأول الهجري وحتى عصرنا الحاضر، علي عبد الباسط مزيد،

الناشر - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ب ت. «ص ٣٢ - ٣٣»

شبكة الألوكة - قسم الكتب



ولنأخذ في شرح هذه الشروط لنكون على بينة من التعريف.

١- معنى اتصال السند: أن يكون كل راو سمع ما رواه من الذي فوقه مباشرة بحيث لا يكون هنا راو محذوف.

٢- العدالة: ملكة تحمل على ملازمة التقوى والمروءة.

والتقوى: هي امتثال الأمور واجتناب المنهيات من كفر أو فسق أو بدعة وذلك بأن لا يفعل كبيرة ولا يصبر على صغيرة.

٣- الضبط:

وهو قسمان:

١- ضبط صدر.

٢- ضبط كتاب.

فالأول: هو أن يحفظ ما سمعه من شيخه بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء من حين سماعه إلى حين أدائه وروايته. والثاني: هو محافظته على كتابه، وصيانتها عن أن يتطرق إليه تغيير ما من حين سماعه فيه وتصحيحه إلى أن يؤدي منه ويروي، ولا يعيره إلا لمن يثق فيه ويتأكد من أنه لا يغير فيه والمراد بالضبط: الضبط التام منه فلا تقبل رواية سيئ الحفظ ولا المغفل الذي يكثر غلطه كأن يرفع الموقوف، ويصل المرسل، ويصحف الرواة فإنه حديثه لا يكون صحيحاً.

٤- عدم الشذوذ:

الشاذ: هو ما خالف فيه الثقة من هو أوثق منه.

٥- عدم العلة:

العلة: هي الأمر القادح في الحديث سواء أكانت هذه العلة جلية ظاهرة كالإرسال

الظاهر وهو أن يروي عن عرف عند الناس عدم اجتماعه به، ولم يسمع منه شيئاً.

فالحديث الذي اجتمعت فيه هذه الشروط التي وضحناها لك هو الحديث الصحيح.

حكم الحديث الصحيح:

حكم الحديث الصحيح أنه مقبول، وحجة ويجب العمل به.^(١)

الحسن

قال الترمذي: هو ما لا يكون في إسناده مُتَّهَم، ولا يكون شاذاً.^(٢) والحسن حجة كالصحيح، ولذلك أُدرج في الصحيح.^(٣)

الحديث الضعيف

تعريفه

عرفه ابن الصلاح بأنه هو: «كل حديث لم تجتمع فيه صفات الحديث الصحيح ولا صفات الحديث الحسن».^(٤)

حكم الحديث الضعيف رواية وعملاً

الحديث الموضوع أو الساقط أو الذي لا أصل له لا تجوز روايته إلا مقترناً ببيان وضعه، أو سقوطه، أو أنه لا أصل له، ومن روى شيئاً من ذلك من غير بيان، وهو يعلم، فهو آثم أشد الإثم كما أنه لا يجوز العمل بالموضوع، وما شاكلة قط لا في الحلال والحرام، ولا في باب الترغيب والترهيب، والقصص والمواعظ، ولا في التفسير؛ لأنه مختلق مكذوب فمن عمل به، فقد زاد في الشرع ما ليس منه. أما الضعيف الذي لم يصل إلى حد السقوط والوضع، وهو الضعيف المحتمل فقد اختلفت فيه أنظار العلماء وإليك آراءهم في هذا:

قال ابن الصلاح: «يجوز رواية ما عدا الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة، من غير اهتمام ببيان ضعفها فيهما سوى صفات الله تعالى وأحكام الشريعة من الحلال

(١) الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، سابق «ص ٢٢٤».

(٢) الديباج المذهب، سابق، «ص ٢٠».

(٣) الديباج المذهب، «ص ٢٤».

(٤) تحقيق القول بالعمل بالحديث الضعيف، سابق، «ص ٢١».



والحرام وغيرهما، وذلك كالمواعظ والقصص، وفضائل الأعمال، وسائر فنون الترغيب والترهيب، وسائر ما لا تعلق له بالأحكام والعقائد»^(١).

(١) الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، سابق «ص ٢٧٧».

مفهوم السنة عند محمود

واستشهاده بالأحاديث النبوية لإثبات حقيقة وصحة رسالته

يقول محمود عن مفهوم السنة عنده في كتابه الإسلام وإنسانية القرن العشرين: «السنة على خلاف ما يُعرّفها الفقهاء، هي عمل النبي في خاصة نفسه - هي تكليفه هو الفردي»^(١) وذلك في حديثه عن أنّ الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين. حيث يدعي أن الرسالة الأولى كانت في حق محمد ﷺ فقط ولم يطبقها غيره فهي ليست واجبة في حق الصحابة رضوان الله عليهم.

وهذا كلام باطل لا يسنده شرع ولا منطق، ومعروف أن الصحابة رضوان الله عليهم هم أكثر الناس تطبيقاً لسنة النبي ﷺ، وقد نقلت إلينا سيرهم الطاهرة تمسكهم بسنة النبي ﷺ في كل ما جاءت به السنة المطهرة من قول وفعل وتقرير، فهم الذين نقلوا إلينا السنة كاملة عن صاحبها عليه أفضل الصلاة والتسليم، وقد نُقلت هذه السنة إلى الأمة الإسلامية تواتراً عن النبي ﷺ وعن صحابته الكرام إلى أن وصلت إلى محمود الذي يدعي أنها أي السنة ليست واجبة في حق الصحابة وليسوا مكلفين بها. فكيف يُعقل أن يهتم الإنسان بأمر ليس مطلوباً منه وغير مكلف به أن يشغل به نفسه ويحرص على أن ينقله إلى غيره.

وكلامه هذا وادعائه الباطل غير الصحيح والمتهجم على السنة وأنها غير واجبة في حق الصحابة، يتنافى ويتعارض مع كلام الله الذي أنزله على طليعة هذه الأمة وعلى أزواج النبي ﷺ في شأن السنة التي أمر الرسول بتبليغها لأمته وعلى رأسهم الصحابة الكرام، وزوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين. وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ

(١) الإسلام برسالته الأولى لا يصلح للقرن العشرين، «ص ٤».



كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ (الجمعة: ٢). وفي قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْتَ مَا يُتَىٰ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿٣٤﴾ (الأحزاب: ٣٤). ومثل هذه الآيات كثيرة في كتاب الله عز وجل.

و في تفسير معنى الحكمة في آية سورة الجمعة، يقول الشوكاني: «وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ: الْقُرْآنُ، وَبِالْحِكْمَةِ: السُّنَّةُ، كَذَا قَالَ الْحَسَنُ. وَقِيلَ: الْكِتَابُ: الْخَطُّ بِالْقَلَمِ، وَالْحِكْمَةُ: الْفِقْهُ فِي الدِّينِ، كَذَا قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ»^(١). ويقول الزحيلي في تفسير آية الجمعة أيضًا: «والله سبحانه هو الذي أرسل في العرب الأميين، حيث كان أكثرهم لا يقرأ ولا يكتب، أرسل فيهم رسولاً من جنسهم، فهو أمي مثلهم، يتلو عليهم آيات القرآن، ويظهرهم من الشرك، وينمي الخير فيهم، ويعلمهم القرآن والسنة ومعالم الشريعة، وإن كانوا من قبل مجيئه لفي خطأ واضح، بعيد عن الحق. فالكتاب في الآية: الوحي المتلو وهو القرآن، والحكمة: السنة ومعالم الشريعة، أي أحكام الدين والقرآن»^(٢).

ويستشهد محمود بأحاديث المصطفى ﷺ في صدق ما ذهب إليه من أن السنة والتي هي الشريعة عنده لم يكلف بها الصحابة، فهي مدخرة لأمة الرسالة الثانية التي بُعث هو لنشرها لأهل القرن العشرين. حيث يستشهد بحديث: «واشوقاه لإخواني الذين لما يأتوا بعد! قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي! واشوقاه لإخواني الذين لما يأتوا بعد! قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي! واشوقاه لإخواني الذين لما يأتوا بعد! قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي! قالوا: من إخوانك يا رسول الله؟ قال: قوم يجيئون في آخر الزمان للعامل منهم أجر سبعين منكم! قالوا: منا أم منهم؟ قال: بل منكم! قالوا: لماذا؟ قال: لأنكم تجدون أعواناً

(١) فتح القدير، الشوكاني اليمني، ط ١، ١٤١٤ هـ، دار إبن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق،

بيروت. ج ٥، ص ٢٦٨

(٢) «التفسير الوسيط، ج ٣، ص ٢٦٥٣».

على الخير ولا يجدون على الخير أعوانا». ثم يقول محمود مستشهدا بالحديث: إخوانه هؤلاء هم الذين ندعو نحن إليهم اليوم بما أسمىناه: «الدعوة الإسلامية الجديدة» وهي دعوة تبشر «بالرسالة الثانية من الإسلام»^(١).

وهذا الحديث الذي أورده محمود في رسالته لا يوجد في كتب الحديث بهذا اللفظ مما يدل على أنه من الموضوعات، إذ أنه يفضل عمل العامل من أمة القرن العشرين على عمل سبعين من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين نصرُوا دين الله بأموالهم وأنفسهم، وقد أثنى عليهم رب العزة والجلال، وبشّر من بشّر منهم بالجنة، ورضي عنهم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

أما الحديث الصحيح الذي ورد عن النبي ﷺ فنصه هو: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبَرَةَ، فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» قَالُوا: أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ» فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهُمٌ بِهِمْ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَلَا لِيَذَادَنَّ رَجُلًا عَنْ حَوْضِي كَمَا يَذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ فَيَقَالَ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا»^(٢)، هذا هو الحديث الصحيح الذي ورد عن النبي ﷺ ليس فيه ذكر لأفضلية عمل أهل القرن العشرين على عمل الصحابة رضوان الله عليهم.

(١) «الإسلام وإنسانية القرن العشرين، ص ٤».

(٢) مسلم، ح ٢٣٩، ج ١، ص ٢١٨. وابن ماجه «ح ٤٣٠٦، ج ٢، ص ١٤٣٩



ولقد بين الرسول ﷺ فضل أصحابه الكرام على سائر الناس في العمل، وأن أي أحد من الناس مهما بلغ عمله وإنفاقه لن يبلغ ما بلغه أصحابه من العمل والإنفاق، وذلك في حديثه الشريف الذي يرويه عنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه حيث يقول: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَسْبُوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»^(١).

يقول النووي في شرح الحديث: «وَمَعْنَاهُ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ ثَوَابُهُ فِي ذَلِكَ ثَوَابَ نَفَقَةِ أَحَدِ أَصْحَابِي مُدًّا وَلَا نِصْفَ مُدٍّ قَالَ الْقَاضِي وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا قَدَّمَ نَاهُ فِي أَوَّلِ بَابِ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ عَنِ الْجُمْهُورِ مِنْ تَفْضِيلِ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ عَلَى جَمِيعِ مَنْ بَعْدَهُمْ وَسَبَبِ تَفْضِيلِ نَفَقَتِهِمْ أَنَّهَا كَانَتْ فِي وَقْتِ الصَّرُورَةِ وَضِيقِ الْحَالِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ وَلَئِنْ إِنْفَاقَهُمْ كَانَ فِي نُصْرَتِهِ ﷺ وَحِمَايَتِهِ وَذَلِكَ مَعْدُومٌ بَعْدَهُ وَكَذَا جِهَادُهُمْ وَسَائِرُ طَاعَتِهِمْ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةِ الْآيَةِ هَذَا كُلُّهُ مَعَ مَا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالتَّوَدُّدِ وَالْخُشُوعِ وَالتَّوَاضُّعِ وَالْإِيثارِ وَالْجِهَادِ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَفَضِيلَةِ الصُّحْبَةِ وَلَوْ لَحْظَةً لَا يُوزَانُ بِهَا عَمَلٌ وَلَا تُنَالُ دَرَجَتُهَا بِشَيْءٍ وَالْفَضَائِلُ لَا تُؤْخَذُ بِقِيَاسِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ قَالَ الْقَاضِي وَمِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ مَنْ يَقُولُ هَذِهِ الْفَضِيلَةُ مُخْتَصَّةٌ بِمَنْ طَالَتْ صُحْبَتُهُ وَقَاتَلَ مَعَهُ وَأَنْفَقَ وَهَاجَرَ وَنَصَرَ لَا لِمَنْ رَأَاهُ مَرَّةً كَوْفُودِ الْأَعْرَابِ أَوْ صَحْبِهِ آخِرًا بَعْدَ الْفَتْحِ وَبَعْدَ إِعْزَازِ الدِّينِ مِمَّنْ لَمْ يُوجَدْ لَهُ هِجْرَةٌ وَلَا أَثَرٌ فِي الدِّينِ وَمَنْفَعَةُ الْمُسْلِمِينَ»^(٢).

ويستشهد محمود بالحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة، عن رسول الله ﷺ حيث يقول ﷺ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(٣).. ويناقض

(١) مسلم، ح ٢٥٤١، ج ٤، ص ١٩٦٧

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ج ١٦، ص ٩٣

(٣) مسلم، ح ١٤٥، ج ١، ص ١٣٠. وابن ماجه، ح ٣٩٨٦، ج ٢، ص ١٣١٩

محمود نفسه في استشهاده بهذا الحديث، فيقول إنّ سنة النبي ﷺ هي الرسالة الثانية التي اندثرت فجاء هو ليحييها وينشرها بين الناس وهي رسالة أمة آخر الزمان التي بُعث بها، حيث يقول: «الرسالة الثانية من الإسلام» هي هذه السنة التي اندثرت، ونحن الدعاة لبعثها.. نحن العاملون على إحيائها.. نحن الغرباء.. إلخ»^(١).

فكيف لشيء أن يندثر وهو أصلاً غير معمول به، ومن المعلوم أن الشيء المندثر هو ما كان شاهداً على عصره ومباشرٌ ومعمولٌ به في زمانه، فإن كان كما يقول أن السنة كانت في حق الرسول وحده ولم تكن مطلوبة من الصحابة فمن أين جاء هو بها؟ أمن استكشافاته الآثارية؟ أم أوحى إليه بها؟

يقول القاضي عياض في شرح حديث بدا الإسلام غريباً: «روى ابن أبي أويس عن مالك أن معناه: في المدينة، وأن الإسلام بدأ بها غريباً ويعود إليها. وظاهر الحديث العموم، وأن الإسلام بدأ في آحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر، ثم سيلحقه النقص والاختلاف حتى لا يبقى - أيضاً - إلا في آحادٍ وقلةٍ غريباً كما بدأ. وأصل الغربة البُعدُ، وبه سُمي الغريبُ بُعد داره، وسُمي النفي تغريباً لذلك. وورد تفسير الغريب في الحديث: «قال: همُ النَّزاع من القبائل». قال الهروي: أراد بذلك المهاجرين الذين هجروا أوطانهم إلى الله، وسمى الغريب نازعاً ونزيعاً لأنه نزع عن أهله وعشيرته وبُعد عن ذلك»^(٢).

ويُفاضل محمود في كتابه الرسالة الثانية بين الإسلام والإيمان، فيقدم الإسلام في الدرجة على الإيمان، فيجعل الإسلام درجة أعلى من الإيمان، ويستشهد في ذلك بحديث جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان، حيث يدعي أن علماء الإسلام لم يفهموا مقصود الحديث حيث جعلوا الإحسان أعالي درجة من الإيمان والإيمان أعلى درجة من الإسلام، ولكن الحقيقة عنده غير ذلك إذ يقول: «والناس اليوم

(١) الإسلام وإنسانية القرن العشرين، ص ٥

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق، يحيى إسماعيل، ط ١، ١٩٩٨م، دار الفوفاء للطباعة والنشر، مصر.



لا يملكون القدرة على التمييز الدقيق بين الإسلام والإيمان، فهم يعتقدون أن الإيمان أكبر من الإسلام، وقد ورطهم في هذا الخطأ عجزهم عن الشعور بحالة الوقت، ذلك بأن الوقت الذي كان فيه هذا الفهم صحيحًا انقضى، وأقبل وقت تطور فيه فهم الدين وانتقل من مستوى الإيمان إلى مستوى الإسلام»^(١)

وحديث جبريل عليه السلام كما رواه عمر بن الخطاب هو: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْخُفَاءَ الْعُرَاءَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(٢).

فهذا الحديث الشريف يبين للناس درجات الترقّي في الإسلام كما جاء بها جبريل عليه السلام من ربه جلّ في علاه، وبينه الرسول ﷺ الصحابة الكرام رضوان الله عليهم بأن من كان معهم قبل لحظات هو جبريل أمين الوحي عليه السلام جاءهم ليعلمهم دينهم الذي ارتضاه الله لهم، فبين لهم ما هو الإسلام، وكيف يكون الإنسان مسلمًا،

(١) «الرسالة الثانية، ص ١٠».

(٢) مسلم، ح ٨، ج ١، ص ٣٦.

وبماذا يرتقي من درجة الإسلام إلى درجة الإيمان، ثم إلى الدرجة الأعلى وهي درجة الإحسان التي لا يصلها إلا الأتقياء الأنقياء الذين يستحضرون عظمة الله ويراقبونه في حركاتهم وسكناتهم، لا يصرفهم شيء ولا يشغلهم شاغل عن ربهم عندما يكونون في حضرة رب العزة تبارك وتعالى.

فيأتي محمود مفترياً على الله وعلى رسوله بالقول أن علماء المسلمين بما فيهم الصحابة رضوان الله عليهم لم يفهموا مقصود الحديث، وأنه هو صاحب الرسالة الثانية الذي أُعطي الفهم الثاقب وكُشف له عن أسرار الإسلام وفهمه على أصوله الذي أرسل به محمد ﷺ، ليبينه لأمة آخر الزمان التي هو رسولها صاحب الرسالة الثانية التي يُبشر بها.

يقول القاضي عياض في شرحه الحديث: «ففرّق بين الإسلام والإيمان، وقال مثله في حديث ضمام النجدي، ثم ذكر بعد هذا حديث وفد عبد القيس وفيه: «أتدرون ما الإيمان؟» ففسّره بما فسّر به الإسلام في الحديثين الأولين، فسّر مجرد الإيمان الذي هو التصديق والذي محله القلب، وفسّر الإسلام الذي هو العمل الظاهر من شهادة اللسان وأعمال البدن والذي بمجموعها يتم الإيمان والإسلام، إذ إقرار القلب وتصديقه دون نطق اللسان لا ينجي من النار، ولا يستحق صاحبه اسم الإيمان في الشرع، وإذ نُطق اللسان دون إقرار القلب وتصديقه لا يغني شيئاً، ولا يسمى صاحبه مؤمناً، وهو النفاق والزندقة، وإنما يستحق هذا الاسم من جمعهما، ثم تمام إيمانه وإسلامه بتمام أعمال الإيمان المذكورة في الحديثين، والتزام قواعده وهو المراد بإطلاق اسم الإيمان على جميع ذلك في حديث وفد عبد القيس، فقد أطلق الشرع على الأعمال اسم الإيمان، إذ هي منه، وبها يتم، ولكن حقيقته في وضع اللغة: التصديق، وفي عرف الشرع: التصديق بالقلب واللسان، فإذا حصل هذا حصل الإيمان المنجي من الخلود في النار، لكن كماله المنجي من دخولها رأساً بكمال خصال الإسلام.



وبهذا المعنى جاءت زيادته ونقصانه على مذهب أهل السنة، ولهذه المعاني يأتي اسم الإيمان والإسلام في الشرع مرة مفترقاً ومرة متفقاً، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤)، . وقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (الذاريات: ٣٥ - ٣٦) وذلك أن الإيمان إذا كان بمعنى التصديق، والإسلام بمعنى الاستسلام، صح أن يكون الإسلام بالجوارح وأعمال الطاعات إيماناً وتصديقاً، وصح أن يكون الإقرار باللسان عن تصديق القلب استسلاماً، فأطلق اسم كل واحد منهما على الآخر، بخلاف إذا اختلفا ففارق الباطن الظاهر، والنطق والعمل العقد والنية، فيسمى الظاهر إسلاماً، ولا يسمى إيماناً، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤).

وقوله: «ما الإحسان» وفسره في الحديث بما معناه الإخلاص ومراقبة الله في السر والإعلان. وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه، ومتشعبة منه.^(١)

يُشَبَّه محمود الله سبحانه وتعالى بمخلوقه الإنسان، تعالى الله علواً كبيراً وتنزه عن الشبيه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فيقول في ادعائه الباطل هذا مستشهداً بحديث أورده مبتوراً «إن الله خلق آدم على صورته». فيقول: «وقرينة الشبه قائمة بيننا وبينه تعالى، فإنه تعالى عالم، ومريد، وقادر، وكذلك الإنسان خلقه الله عالماً، ومريداً، وقادراً، ومن أجل هذه القرينة، فإننا نعرف الله، ولولاها فما أمكن أن نعرفه.»^(٢) والحديث

(١) إكمال المعلم، سابق «ج ١»، ص ٢٠٣-٢٠٥.

(٢) «أسئلة وأجوبة»، ص ١٦، ط يناير ١٩٧٠م.

أخرجه البخاري في صحيحه وهذا نصه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَيْكَ، النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، جُلُوسٌ، فَاسْتَمَعَ مَا يُحْيُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحْيِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَادَوْهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ»^(١).

فالحديث يبين أن صورة آدم التي خلق عليها هي نفس صورة ذريته من بعده ولكن طول أبنائه ظل يتناقص عن طول آدم إلى أن وصل إلى ما نحن عليه اليوم، ولكن من يدخل الجنة يدخلها على طول أبو البشر آدم عليه السلام. فليس المقصود من الحديث تشبيه البشر بخالقهم في صفاته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وحاشا لنبيه الكريم أن يشبه ربه بمخلوقه. فآدم لم يكن عالمٌ من مبتدأ أمره كما يزعم محمود، وإنما علمه الله تعالى من علمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١). فالإنسان ليس بعالم ابتداءً وإنما يكتسب العلم مما وجود به الله عليه من العلم، فلو كان الإنسان عالمًا كما يزعم محمود لما احتاج إلى الرسل الذين يوحى إليهم ليعلموه ويعرفوه بربه وبكيفية عبادته سبحانه وتعالى، وحتى الملائكة المقربون لا يعلمون شيئاً ما لم يُعلمهم ربهم، ولذلك قالوا: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢). وكذلك القدرة فالإنسان ليست له القدرة إلا ما أقدره الله عليه، وكذلك الإرادة فأرادة الإنسان متوقفة على إرادة الله تعالى فما لم يأذن الله بذلك فليست هنالك إرادة ومشية. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٩). يقول الخطابي في شرح معنى الحديث: قوله: «خلق الله آدم على صورته» الهاء: وقعت كناية

(١) «البخاري، ح ٦٢٢٧، ج ٨، ص ٥٠».



بين اسمين ظاهرين، فلم يصلح أن تصرف إلى الله عز وجل لقيام الدليل على أنه ليس بذی صورة سبحانه «ليس كمثله شيء»، فكان مرجعها إلى آدم، والمعنى أن ذرية آدم إنما خلقوا أطوارا كانوا في مبدأ الخلقة نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم صاروا صوراً أجنة إلى أن تتم مدة الحمل، فيولدون أطفالاً وينشئون صغاراً إلى أن يكبروا، فيتم طول أجسامهم. يقول: إن آدم لم يكن خلقه على هذه الصفة، لكنه أول ما تناولته الخلقة وجد خلقاً تاماً طوله ستون ذراعاً^(١).

ويتحدث محمود عن حسن الخلق، فيقول: «وما هي الأخلاق؟ هي في سباحتها العليا، حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة!». ويستشهد على ذلك بحديث عن النبي ﷺ حيث يقول: ولذلك قال المعصوم: «حسن الخلق خلق الله الأعظم». ثم يشرح الحرية الفردية المطلقة بقوله: ومن حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة، ترك ما لا يعينك، ومما لا يعينك اللحظة المقبلة، واللحظة الماضية، ولا يعينك إلا اللحظة الحاضرة^(٢). والحديث الذي استشهد به في كلامه الفلسفي هذا حديث غير صحيح، ولذلك لا تعليق على هذه الفلسفة إذ إنه لا فائدة من ذلك. وأما عن صحة الحديث يقول الألباني «حديث حسن الخلق خلق الله الأعظم، إنه موضوع» وذلك في كتابه سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة^(٣). وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد^(٤). وقال عن الحديث: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عمرو بن الحُصين وهو متروك. وهكذا يتبين لنا عدم الدقة فيما يستشهد به من أحاديث نبوية ما دام أنها تخدم غرضه وهدفه في جمع من أضلهم الله حوله والتقوي بهم في نشر ضلاله ونبوته الكاذبة.

(١) أعلام الحديث، سابق «ج ٣»، ص ١١٤٥.

(٢) «الإسلام»، ص ٤٧.

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ناصر الدين الألباني، ح ٣٤٩٠، ج ٧، ص ٤٨٦.

(٤) مجمع الزوائد، الهيثمي، ح ١٢٦٥٦، ج ٨، ص ٢٠.

أورد محمود في كتابه الرسالة الثانية حديث قدسي يستشهد به على أن الإنسان سائر في طريقه في الحياة الدنيا ليسمو بروحه للقاء ربه في نفسه، ويكون بذلك عند محمود قد وصل إلى درجة الكمال المطلق الذي يبشر به الناس في رسالته، حيث يقول: «وليس السير إلى الله بقطع المسافات، وإنما هو بتخلق العبد بأخلاق الرب، والله تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ ﴿٦﴾» (الانشقاق: ٦). أردت أو لم ترد لقاءه، وأين يكون لقاءه؟ أفي أرضه أم في سمائه؟ لقد قال جلّ من قائل «ما وسعني أرضي ولا سمائي، وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن» فأنت إذن إنما تلقاه فيك. وبه لا بك^(١). هكذا يستشهد محمود بهذا الحديث الذي فيه قلب المؤمن هو الذي يسع الله وليس قلب المسلم الذي هو أعلى درجة عند محمود من المؤمن في تناقض عجيب لآرائه وقناعاته في تصنيفه للأمة إلى مسلمين ومؤمنين حيث يجعل المسلمين عنده أعظم درجة من المؤمنين. وأما عن درجة صحة الحديث القدسي الذي اتخذه شاهداً لما ذهب إليه من حلول الله في قلب عبده المؤمن. جاء في كتاب أسنى المطالب: «ما وسعني سمائي ولا أرضي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن». ذكره الغزالي، قال العراقي: لم أجد له أصلاً، وقال ابن تيمية: هو مذكور في الأسراريات، وليس له إسناد، وفي هذا الحديث نزغة من كلام أهل الحُلُول، وإذا صحَّ كان معناه: أن قلب المؤمن يسع ويقبل كل ما ورد من عند الله، ويسلم للأقدار فيتسع قلبه، ولا ينفر من شيء خالف هوى النفس، بل يحملها على الصبر والرضى^(٢) وقال عنه الإمام السخاوي: «ما وسعني

(١) الرسالة الثانية، «ص ٤٢».

(٢) أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، محمد بن محمد دوريس، الحوت الشافعي «ت ١٢٧٧»، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ط ١، ١٤١٨ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. ح ١٢٨٩، ص ٢٥٢.



سَمَائِي وَلَا أَرْضِي، وَلَكِنِّي وَسَعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، ذكره الغزالي في الإحياء بلفظ: قال الله لم يسعني، وذكره بلفظ: ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع، وقال مخرجه العراقي: لم أر له أصلاً، وكذا قال ابن تيمية: هو مذكور في الإسرائيليات، وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ، ومعناه: وسع قلبه الإيمان بي ومحبتني ومعرفتني وإلا فمن قال إن الله تعالى يحل في قلوب الناس، فهو أكفر من النصارى الذين خصوا ذلك بالمسيح وحده. (١)

ويتحدث محمود عن الصلاة كوسيلة يتعرف بها المسلم على نفسه، ويستشهد في ذلك بأحاديث واهية ينسبها إلى النبي ﷺ وذلك في كتابه «رسالة الصلاة» حيث يقول: «.. فلكنما نحن من فرط ما تحتوشنا دواعي الغفلة قوم نيام.. نحن بحق قوم نيام ألم يقل المعصوم «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»؟؟ بلى!! وإن لنا إلى الانتباه لوسيلة أخرى غير وسيلة الموت، وقبل وسيلة الموت، وتلك هي وسيلة الصلاة الواعية، الصحيحة، الرشيدة.. وقد أمرنا بها المعصوم حين أمرنا «موتوا قبل أن تموتوا» يعني ارفعوا حجاب الغفلة عنكم بالاطلاع على حقائق الأمور المركوزة وراء الظواهر، الآن، وذلك بوسيلة الصلاة، قبل أن يجري عليكم ذلك بوسيلة الموت، فيما بعد فيكون الأوان قد فات، والندم قد وقع، ولات حين مندم..» (٢). الحديث الأول الذي ذكره «الناس نيام... إلخ»، قال عنه الشوكاني: «قال في المختصر: لم يوجد إلا معزواً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه» (٣) هكذا نجد محمود دائماً يستشهد بأحاديث لا أصل لها أو هي من أقوال الصحابة وحكمهم، فيرفعها إلى النبي ﷺ، دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن صحة ما يستدل به من أقوال وأحاديث رسول الله ﷺ، والحال أنه يدعي أنه صاحب رسالة، فهذا

(١) المقاصد الحسنة، ح ٩٩٠، ص ٥٨٩.

(٢) «رسالة الصلاة»، ص ٧-٨.

(٣) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، سابق، «ص ٢٥٦».

مما يدل على كذبه وادعائه الباطل على رسالته الواهية. فلو كان دقيقاً في إدعائه لتحري وبحث عن صحة ما يستدل به عن صدقه وحقيقة رسالته، ولكنه أحد الكذابين إذ أنه ينقل كذباً أو ما لا أصل له من الأحاديث فيجعلها دليلاً على كذبه. وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»^(١)

وأما الحديث الثاني الذي استدل به «موتوا قبل أن تموتوا» قال عنه العجلوني: «قال الحافظ بن حجر: هو غير ثابت. وقال القارئ: هو من كلام الصوفية، والمعنى: موتوا اختياراً بترك الشهوات، قبل أن تموتوا اضطراراً بالموت الحقيقي.»^(٢) هكذا نجد محمود يرفع أقوال الصوفية على أنها أحاديث شريفة، يضل بها الجهلاء الذين لم ينالوا حظاً من المعرفة بأمور دينهم، مما يُقيهم شرّ وفتنة مثل هؤلاء في إضلال الناس.

السنة عند محمود

ماذا تعني «السنة» لدى محمود حيث جاء في المنشور «إن الوقت هو وقت السنة لا الشريعة» «فروع القرآن»؟ إذا كانت «الفكرة الجمهورية» قد زعمت أن الرسالة الثانية من الإسلام -رسالة محمود والجمهوريين- تقوم على أصول القرآن - القرآن المكي... فإنها من جانب آخر تقرر أن هذه الرسالة ليست سوى بعث سنة النبي ﷺ. يقول محمود في هذا المعنى: «حين بشر المعصوم ببعث الإسلام، إنما بشر به في معنى بعث السنة وليس في معنى بعث الشريعة»^(٣). ومما يتبادر إلى الذهن أن الجمهوريين يعنون بالسنة هنا ما أجمعت عليه الأمة الإسلامية من أن السنة هي: قول النبي ﷺ وفعله وإقراره... ولكن!! ليس هذا هو معنى السنة في الفكرة الجمهورية... فالسنة التي يعرفها أهل القبلة هي عند محمود والجمهوريين شريعة «أمة المؤمنين» أمة البعث الأول... أما «السنة» التي يسعى محمود إلى بعثها لتكون شريعة لأمة «الرسالة الثانية» فهي عمل

(١) «ابن ماجه، ح ٤١، ج ١، ص ١٥».

(٢) كشف الخفاء، سابق «ج ٢، ص ٣٥٠».

(٣) الرسالة الثانية من الاسلام، ص ٥.



النبي ﷺ في خاصة نفسه!!.

يقول محمود «إن مما ألفت الناس أن سنة النبي هي قوله، وإقراره وفعله... والحق أن هذا خطأ فإن قول النبي وإقراره ليس سنة وإنما هما شريعة وأما عمله في خاصة نفسه... فهو سنة...»^(١).

لعل الفرق الآن اتضح بين السنة والشريعة في «الفكرة الجمهورية» فالسنة عند محمود هي وحي الله تعالى لنبيه المصطفى والذي أمره أن يعمل به في خاصة نفسه - أي نبوته - كما يزعم محمود... وأما الشريعة فهي الوحي الذي أمره بتبليغه - أي هي رسالته... إذن بعث هذه السنة - في الفكرة الجمهورية - يعني بعث شريعة النبي ﷺ الخاصة به، والتي هي موضوع نبوته لتكون شريعة عامة لأمة المسلمين - أمة محمود محمد طه - التي تنتظرها البشرية!! وهذا يعني أن شريعة الأمة المرتقبة تجيء في مستوى يفوق مستوى رسالته ﷺ للأمة... فمستواها هو مستوى شريعة النبي ﷺ الخاصة به!! فالنبي وحده هو الذي ينتمي للأمة المرتقبة - أمة المسلمين - لأنه هو وحده المسلم بين أمته - أمة البعث الأول!! حسب مفهوم محمود وأتباعه.

(١) الرسالة الثانية، ص ١٩.

تحليل التشريع الجمهوري من منظور إسلامي

ظنَّ الجمهوريون أن الرسالة الثانية «التشريع الجمهوري» هي الطريق الموصل إلى الإنسان الكامل، ومن ثم يزعمون أن الانتقال من مرحلة الإنسان إلى مرحلة الإنسان الكامل يتطلب الانتقال من الرسالة الأولى إلى الرسالة الثانية التي يبشرون بها، وهذا الانتقال - بزعمهم - هو تطوير للتشريع الإسلامي حيث يتم نسخ القرآن المدني «فروع القرآن» بالقرآن المكي «أصول القرآن» - أي إلغاء القرآن المدني والعمل بالقرآن المكي!! فالقرآن المكي في «الفكرة الجمهورية» هو وحده الذي يقرر مبدأ الحرية والمسئولية والمساواة وهو مبدأ تتطلع إليه البشرية اليوم.

إن هذا الذي تدعيه «الفكرة الجمهورية» يكشف عن جهل تام بحقيقة الإسلام وتشريعه! إذ كيف يتم تطوير التشريع الإسلامي بإلغاء القرآن المدني الذي يتضمن كل أحكام التشريع الإسلامي العملية! إن هذا - على وجه الدقة - لا يعني تطوير التشريع الإسلامي، وإنما يعني الغاءه. أمر آخر وهو «أن من مميزات التشريع الإسلامي وخصائصه أنه يجمع بين الأصالة والثبات، وبين المرونة والتطور. فالأصالة والثبات في الأصول والأهداف والتطور في الفروع والوسائل فبالمرونة يستطيع أن يتكيف ويلتزم كل وضع جديد، وهو بثبات أصوله وأهدافه يستعصى على الذوبان والميوعة والخضوع لكل تغير خطأ أو صواب»^(١)، ولعل هذا يفسر لنا اشتغال النصوص الإسلامية على نصوص قطعية وأخرى ظنية، فالنصوص القطعية هي التي تمثل الأصالة والثبات، في حين أن النصوص الظنية تمثل المرونة والتطور، ونصوص القرآن الكريم كلها قطعية من جهة الوجود - أي ثبوتها لله تعالى من غير تحريف أو تبديل - وهذا قول يقتضيه الإيمان الصحيح. أما من حيث دلالتها فإنها تنقسم إلى قسمين: نص قطعي الدلالة على حكمه ونص ظني الدلالة على حكمه. فالنص قطعي الدلالة هو ما دلَّ على معنى متعين فهمه

(١) المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية، د. شعبان محمد اسماعيل، الجزء

الاول - دار الأنصار - القاهرة ط ١، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، ص ٣٤.



منه، ولا يحتمل تأويلًا، ولا مجال لفهم معنى غيره، أما النص ظني الدلالة فهو ما دل على معنى ولكن يحتمل التأويل والصرف عن هذا المعنى إلى معنى غيره... أما نصوص السنة المطهرة، فمنها ما هو قطعي الورود ومنها ما هو ظني الورود، وكل واحد منها قد يكون قطعي أو ظني الدلالة^(١)؛ ومنطقة القطعيات لا يدخلها الاجتهاد، أما منطقة الظنيات، فإنها تتسع للاجتهاد البشري. ولذا نجد مجال الاجتهاد واسعًا لأن معظم أحكام التشريع الاسلامي تقع داخل هذه المنطقة كما إن الاجتهاد يمتد إلى ما لا نص فيه. هكذا نجد أن نصوص التشريع الاسلامي يمكن لها استيعاب كل تطور في كل زمان ومكان لما لها من مرونة مما يفسح المجال واسعًا للاجتهاد البشري، الذي يهتدى بما جاء في الفقه الاسلامي من قواعد تيسر مهمة المجتهد من مثل الاجماع والقياس والاستحسان وغير ذلك. وهذا يعني أن الشريعة الاسلامية تحمل عناصر تكيفها وملاءمتها لأي تطور في ذاتها وليست هي ناقصة تحتاج إلى التطور من خارجها أو نسخها كما يزعم محمود والجمهوريون.

(١) علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، دار القلم للطباعة والنشر ط ٢، ١٣٩٨ هـ، ١٩٨٧ م، ص ٣٤-٤٢.

تخريج أحاديث كتاب الرسالة الثانية

حَدِيث «بَدَأَ الْإِسْلَامَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مُخْتَصَرًا، وَهُوَ بِتَمَامِهِ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَحَسَنَهُ. ^(١)

حَدِيث «أَمَرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِمْ» لَهُ طَرَقُ كُلِّهَا ضَعِيفَةٌ، بَلْ هُوَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ مِنْ كَلَامِ عَلِيٍّ ^(٢).

حَدِيث «انْمَا بَعَثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْإِخْلَاقِ» قَالَ الزَّرْكَشِيُّ: «ذَكَرَهُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ بِإِسْنَادٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: ابْنُ عَبْدِ الْأَرْبِ هُوَ مُتَّصِلٌ مِنْ وَجْهِهِ صِحَّاحٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ» ^(٣)

حَدِيث «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحَاسِبُوا وَزَنُوهَا قَبْلَ أَنْ تَوَزنُوا وَتَهَيَّؤُوا لِلْعَرَضِ الْأَكْبَرِ» هُوَ مِنْ كَلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ. ^(٤)

حَدِيث «الدين المعاملة» اسْتَشْهَدَ بِهِ مُحَمَّدٌ فِي كِتَابِهِ الرِّسَالَةَ الثَّانِيَةَ فِي حَدِيثِهِ عَنِ الْعِبَادَةِ، ^(٥) هَذَا الْحَدِيثُ لَا وَجُودَ لَهُ فِي كُتُبِ السَّنَةِ. فَهُوَ مِنْ خِيَالَاتِهِ الَّتِي يَنْسِبُهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

حَدِيث «مَا وَسَّعَنِي سَمَائِي وَلَا أَرْضِي، وَلَكِنِّي وَسَّعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»، ذَكَرَهُ الْغَزَالِيُّ فِي الْإِحْيَاءِ بَلْفُظٍ: قَالَ اللَّهُ لَمْ يَسْعِنِي، وَذَكَرَهُ بَلْفُظٍ: وَوَسَّعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ اللَّيِّنِ الْوَادِعِ، وَقَالَ مَخْرَجُهُ الْعِرَاقِيُّ: لَمْ أَرْ لَهُ أَصْلًا، وَكَذَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ: هُوَ

(١) «المغني عن حمل الاسفار، ص ٤٩».

(٢) أسنى المطالب، ص ٧٣

(٣) «اللاآلىء المشورة، ص ٩٨».

(٤) «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، ج ٦، ص ٢٤٣١».

(٥) الرسالة الثانية، ص ٤٠.



مذكور في الإسرائيليات، وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ^(١).

حديث «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». وفي أخرى: «حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ» أو قال: «لجاره». وفي أخرى قال: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ...» الحديث. أخرجه البخاري ومسلم. ووافقهما الترمذي والنسائي على الرواية الأولى^(٢).
حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». - ضعيف. - رواه: ابن أبي عاصم في «السنة»، وابن بطة في «الإبانة»، والبخاري في «شرح السنة»، والخطيب في «تاريخ بغداد»؛ كلهم من طريق نعيم بن حماد، وقد ضعفه بعضهم^(٣).

حديث «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». قال العراقي: رواه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين. قلت: قال الدارقطني محمد هذا يضع الحديث وقال ابن عدي هو ممن يتهم بالوضع^(٤). حديث «نية المرء خير من عمله» لا أثر له في كتب السنة عموماً، ولكن أورده البيهقي في شعب الإيمان من كلام ابن الإعرابي حيث يقول: وَأَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْحُسَيْنِ بْنَ أَحْمَدَ بْنَ زَكَرِيَّا الْأَدِيبَ، بِهِمْدَانٌ، سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ يَحْيَى ثَعْلَبِي، يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ، يَقُولُ: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ لَا يَدْخُلُهَا الْفَسَادُ، وَالْعَمَلُ يَدْخُلُهُ الْفَسَادُ^(٥).

حديث «إن لم تخطئوا وتستغفروا فسيأتي الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر

(١) المقاصد الحسنة، ح ٩٩٠، ص ٥٨٩.

(٢) جامع الأصول، ح ٢٣، ج ١، ص ٢٣٩.

(٣) «تخريج أحاديث في ظلال القرآن، ح ٦٦٤، ص ٣٤٥».

(٤) «تخريج أحاديث الإحياء، ح ٢٣٥٦، ج ٤، ص ١٥٣٥».

(٥) شعب الإيمان، ح ٦٤٤٧، ج ٩، ص ١٧٦.

لهم»^(١). الحديث أخرجه الحاكم بلفظ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّكُمْ لَا تُخَطُّونَ لَأَتَى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُخَطُّونَ يَغْفِرُ لَهُمْ» وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»^(٢).

حديث «من آمن فقد آمن بقضاء وقدر، ومن كفر فقد كفر بقضاء وقدر، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(٣). جاء في كتاب تخريج أحاديث الإحياء «قال رسول الله ﷺ - اعملوا فكل ميسر لما خلق له لما قيل له يا رسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل» ورواه الطبراني من حديث ابن عباس وعمران بن حصين بلفظ قال رجل يا رسول الله أنعمل فيما جرت به المقادير وجف به القلم أو شيء نستأنفه فقال بل بما جرت به المقادير وجف به القلم قال ففيم العمل قال اعملوا الخ ورجاله ثقات وروى الشيخان من حديث علي قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي - ﷺ - فقعدا وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على ما كتب فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(٤).

حديث «يا داوود إنك تريد وأريد... إلخ»^(٥). هذا الحديث زيادة أوردها صاحب كتاب نواذر الأصول في أحاديث الرسول^(٦)، بعد أن ذكر الحديث والذي نصه: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتَخَارَتَهُ رَبَّهُ وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاُهُ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ لِمَنْ تَرَكَ التَّدْبِيرَ فِي أَمْرِهِ

(١) الرسالة الثانية، ص ٥٧.

(٢) المستدرک علی الصحیحین، ح ٧٦٢٢، ج ٤، ص ٢٧٤.

(٣) الرسالة الثانية ص ٧٢.

(٤) تخريج أحاديث الإحياء، ح ٣٣٨٣، ج ٥، ص ٢١٤٧.

(٥) الرسالة الثانية، ص ١٠١.

(٦) نواذر الأصول، الحکیم الترمذی، ج ٢، ص ١٠٧.



وفوضه إلى ولي الأمور الذي دبر له ذلك وقدره قبل أن يخلقه، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تُرِيدُ وَأُرِيدُ وَيَكُونُ مَا أُرِيدُ فَإِذَا أَرَدْتُ مَا أُرِيدُ كَفَيْتَكَ مَا تُرِيدُ وَيَكُونُ مَا أُرِيدُ وَإِذَا أَرَدْتُ غَيْرَ مَا أُرِيدُ عَنِيتُكَ فِيمَا تُرِيدُ وَيَكُونُ مَا أُرِيدُ». قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حُمَيْدٍ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: حَمَّادُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ وَهُوَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ الْمَدِينِيُّ وَلَيْسَ هُوَ بِالْقَوِيِّ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ»^(١).

حديث «تخلقوا بأخلاق الله إن ربي على سراط مستقيم»^(٢). والحديث نصه كما جاء في كتاب الإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء «عن عثمان بن عفان قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِثَّةَ خُلُقٍ وَسَبْعَةَ عَشَرَ خُلُقًا، مَنْ أَتَى اللَّهَ بِخُلُقٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». جزء ابن المهتدي. حدثنا عمر بن شاهين إملاء: حدثنا أحمد بن القاسم بن نصر الشاعر: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، عن عبد الواحد بن زيد، عن عبد الله بن راشد مولى عثمان بن عفان، عن عثمان بن عفان قال لنا أبو حفص بن شاهين: قال لنا أحمد بن القاسم: سئل إسحاق بن أبي إسرائيل: ما ذي الأخلاق؟ قال: يكون في الإنسان حياء، يكون منه سخاء، يكون منه تسامح، هذا من أخلاق الله عز وجل». وقال صاحب الإيماء: «رواه أبو داود الطيالسي وأبو يعلى والبزار ومداور أسانيدهم على عبد الواحد بن زيد قال ابن عبد البر: أجمعوا على ضعفه. وقال الألباني: ضعيف جدًا»^(٣)..

حديث «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقَتْلَ... إلخ»^(٤). الحديث صحيح فقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه^(٥)، وأخرجه ابن ماجه في سننه^(٦)،

(١) سنن الترمذي، ح ٢١٥١، ج ٤، ص ٢٤.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٠٨.

(٣) الإيماء على زوائد الأمالي والأجزاء، ح ٤٢٤٧، ج ٥، ص ٢٣، السلسلة الضعيفة، ٣١٩٨.

(٤) الرسالة الثانية، ص ١١٠.

(٥) صحيح مسلم، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل ح ١٩٥٥، ج ٣، ص ١٥٤٨.

(٦) سنن ابن ماجه، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ح ٣١٧٠، ج ٢، ص ١٠٥٨.

وأخرجه كذلك أبو داود في سننه^(١).

حديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله... إلخ»^(٢). الحديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه^(٣)، وأخرجه كذلك الإمام مسلم في صحيحه^(٤)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده^(٥).

حديث «خولكم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تطعمون وأكسوهم مما تلبسون»^(٦). الحديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه بالنص التالي: باب المعاصي من أمر الجاهلية «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلَفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعَيُّوهُمْ»^(٧). وأخرجه الإمام أحمد في مسنده^(٨)، ومسلم^(٩).

حديث «الناس شركاء في ثلاث الماء والكلاء والنار» ص ١٧٥ الرسالة الثانية. الحديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في مسنده بلفظ «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: الْمَاءِ وَالْكَالِ وَالنَّارِ»^(١٠)، وقال إسناده صحيح. وأخرجه أبو داود في سننه^(١١)، وصححه

(١) سنن أبي داود، باب النهي عن تصب البهائم، «ح ٢٨١٥، ج ٣، ص ١٠٠».

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٣٠.

(٣) صحيح البخاري، باب أمرت أن أقاتل الناس «ح ٢٥، ج ١، ص ١٤».

(٤) صحيح مسلم، باب الأمر بقتال الناس «ح ٢٠، ج ١، ص ٥١».

(٥) مسند أحمد، باب مسند أبي هريرة «ح ٨٥٤٥، ج ١٤، ص ٢٢٢».

(٦) الرسالة الثانية ص ١٥١.

(٧) صحيح البخاري، «ح ٣٠، ج ١، ص ١٥».

(٨) مسند أحمد، باب حديث أبي ذر الغفاري «ح ٢١٤٣٢، ج ٣٥، ص ٣٤١».

(٩) صحيح مسلم، باب إطعام المملوك مما يطعم «ح ١٦٦١، ج ٣، ص ١٢٨٢».

(١٠) مسند أحمد، باب أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ، «ح ٢٣٠٨٢، ج ٣٨، ص ١٧٤».

(١١) سنن أبي داود، «ح ٣٤٧٧، ج ٣، ص ٢٧٨».



الألباني.

حديث «الناس لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم»^(١). الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده حيث يقول: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَسْتَهَيِّنَ أَقْوَامٌ فَخَرَهُمْ بِرِجَالٍ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عِدَّتِهِمْ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا التَّنَّ»^(٢)، وقال: حسن الإسناد. وأخرجه الترمذي في سننه^(٣)، وقال حديث حسن صحيح.

ويتضح جهل محمود بالسنة حيث يستدل في كتبه ويورد في منشوراته أحاديث لا أصل لها ومما يورده وليس من حديث الرسول ﷺ وهذه بعض النماذج:

- * «ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن» قال شيخ الاسلام ابن تيميه: هو مذكور في الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ.
- * الصلاة معراج العبد إلى ربه. «لا أصل له».
- * الصلاة صلة بين العبد وربّه «لا أصل له».
- * «يا داؤود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد. فإن سلمت لم أريد أكفيك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد». ليس له أصل في الأحاديث القدسية.
- * «لهفي على إخواني... إلى قوله الذين يحيون سنتي بعد اندثارها»، كذب مفضوح وهناك أحاديث مستقيمة بعيدة عن هذا المنحى.
- * يا عيسى عظ نفسك فإن اتعظت فعظ وإلا فاستحي مني. «لا أصل له».
- * لا يعرف الله إلا الله ولا يدخل في ملكة إلا ما يريد. «لا أصل له».

(١) الرسالة الثانية، ص ١٩١.

(٢) مسند أحمد، باب مسند أبي هريرة رضي الله عنه، «ح ٨٧٣٦، ج ١٤، ص ٣٤٩».

(٣) سنن الترمذي، باب في فضل الشام واليمن، «ح ٣٩٥٦، ج ٦، ص ٢٢٩».

- * من آمن فقد آمن بقضاء وقدر ومن كفر فقد بقضاء وقدر. «لا أصل له».
- * كل ما يخطر ببالك فالله بخلاف ذلك. «لا أصل له».
- * الدين المعاملة. «لا أصل له».
- * «الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا» ليس من كلام النبي ﷺ وعزاه القشيري إلى سهل التستري.
- * موتوا قبل ان تموتوا - «لا أصل له».
- * حبيب إلى من دياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة لم يرد من أى طريق صحيح وفيه لفظ ثلاث لأن الصلاة ليست من الدنيا.
- * تخلقوا بأخلاق الله - ليس له أصل.
- * نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم. «لا أصل له».
- * نية المرء خير من عمله - في إسناده يونس بن عطية متروك الحديث لكذبه.
- * سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفوح - ليس من كلام النبي ﷺ ونحسبه من نسج محمود.
- * قولني شريعة وعملي طريقة وحالي حقيقة - من وضع بعض الصوفية وليس له أصل من حديث النبي ﷺ.
- * وكان رسول الله ﷺ يقول: «رجعنا من الجهاد الأكبر قيل وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال جهاد النفس» لا أصل له.
- * كنت كنتراً مخفياً فأحببت ان أعرف فخلقت الخلق حتى عرفوني. لا أصل له.



التصوف النشأة والتطور

التصوف في اللغة: تصوف فلان صار من الصوفية. والتصوف: طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل لتزكوا النفس وتسمو الروح^(١). وقد وقع الاختلاف في أصل هذه الكلمة «تصوف»، فقيل: إنها مشتقة من الصوف وذلك لأن الصوفية خالفوا الناس في لبس فاخر الثياب فلبسوا الصوف تقشفاً وزهداً، وقيل، أنه من الصفاء، وذلك لصفاء قلب المريد، وطهارة باطنه وظاهره عن مخالفة ربه، وقيل: أنه مأخوذ من الصفة التي ينسب إليها فقراء الصحابة المعروفون بأهل الصفة، ويرى غيرهم أنه لقب غير مشتق، ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية، ولا قياس وأنه لقب، ومن قال باشتقاقه من الصفاء والصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي، وكذلك من الصوف، لأنهم لم يختصوا به^(٢).

والصوفية أنفسهم لا يقبلون تفسير كلمة تصوف على نحو أنهم كانوا يرتدون الصوف وهم يجمعون على أن الكلمة يمكن تفسيرها بمعنى «الصفاء»^(٣).

ويرى ابن الجوزي: «أن النسبة إلى صوفي قد تكون مشتقة من صوفية نسبة إلى الغوث بن مرة، ويذكر أن أمه كان لا يعيش لها ولد، فعلمت للغوث هذا صوفة وجعلته ربيب الكعبة، حسب نذر نذرته إذا ما عاش لها هذا الغوث، وأطلق هذا الاسم على

(١) انظر: المعجم الوسيط: أخرجه، إبراهيم مصطفى وآخرون - مادة صوف - مجمع اللغة العربية، دار الدعوة للتأليف والنشر والتوزيع، أستانبول، تركيا، ١٩٨٩م - ج ١، ص ٥٢٩.

(٢) المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، الطبعة السابعة، ٢٠١٤م، ج «٣»، ص «٩٨٩»..

(٣) الحركة الصوفية في الإسلام، د. محمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية - مصر - ١٩٩٥م - ص «١٢».

الصوفية فيما بعد»^(١). وهو رأي غريب انفرد به ابن الجوزي.

معنى التصوف

وأما معنى التصوف فقليل: «هو إرسال النفس مع الله على ما يريده»^(٢). وقيل: «التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق»^(٣). وأيضًا: «صوفي من صفا قلبه»^(٤)، وقيل: «الصوفي من يرى دمه هدرًا، وملكه مباحًا»^(٥). وتنسب مجموعة من التعاريف لأئمة التصوف منها: «التصوف جلوس مع الله بلا هم» و«التصوف طرح النفس في العبودية والخروج من البشرية والنظر إلى الحق بالكلية» و«التصوف هو أن تتخلى عن كل ما في دماغك، وتجد بكل ما في يدك، ولا تجزع لشيء أصابك» وكذلك قيل في الصوفية هي: «أن لا تملك شيئًا ولا يملكك شيء»^(٦).

والتصوف بهذه المعاني أو بعضها موجود منذ الصدر الأول للإسلام، فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعها، آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف وتتضمن بعض هذه التعريفات السمات الظاهرة للصوفي من حيث الزهد عن مظاهر الدنيا وزخرفها، غير أن الصحابة في زمنهم لم يعرفوا باسم الصوفية، وإنما أشتهر بهذا اللقب فيما بعد من عرفوا بالزهد والتفاني في طاعة الله، ولعل ذلك في «القرن الثاني الهجري»^(٧).

نشأة التصوف وتطوره

أول من سمي بالصوفي: أبو هشام الصوفي، المتوفى سنة ١٥٠ هـ «مائة وخمسون

(١) الحركة الصوفية في الإسلام، محمد علي أبو ريان، سابق - ص «١٣».

(٢) دائرة المعارف، البستاني، - «م/٦ - ص ١٣٣».

(٣) الرسالة القشيرية - القشيري - ص «١٤٩».

(٤) الحركة الصوفية في الإسلام، محمد علي أبو ريان، سابق - ص «١٩».

(٥) القشيري - الرسالة القشيرية - ص «١٤٩».

(٦) الحركة الصوفية في الإسلام، محمد علي أبو ريان، سابق - ص «١٩-٢٤».

(٧) تلبس إبليس - ابن الجوزي - ص «١٤٧».



هجرية»، وفي هذا القرن وما بعده تولدت بعض أبحاث الصوفية، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التي تواضعوا عليها، وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتزايد كلما تقادم العهد عليها، وبمقدار ما اقتبسه القوم من المحيط العلمي الذي يعيشون فيه تطورت هذه الأبحاث والنظريات. وقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء، مما كان له الأثر الأكبر في هذا التطور الصوفي، غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر، بل وكونوا فلسفة خاصة بهم، حتى أصبحنا نرى بينهم رجالاً أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة، مما أثار عليهم جمهور أهل السنة، وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفي، ويؤيدون التصوف الذي يدور حول الزهد، والتقشف، وتربية النفس، وإصلاحها... ومازال أهل السنة يحاربون التصوف الفلسفي حتى كادوا يقضون عليه في نهاية القرن السابع الهجري. ومن ذلك الوقت دخل في التصوف رجال من غير أهله، تظاهروا بالورع والطاعة، وتحلو بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع، فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأميين يشرفون على الطريق، ويتولون تربية الأتباع والمريدين، ووقفت تعاليم الصوفية عند دائرة محددة، هي دائرة الأوراد والأذكار، وإن تعدتها فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة في الفقه والتفسير والحديث^(١).

وقد قال بعضهم أن أصل التصوف لا علاقة له بالإسلام مطلقاً وهو أجنبي عنه كاسمه، فلذلك لا يفتش عن مصادره ومأخذه في القرآن والسنة وإرشاداتهما بل يبحث عنها في الفكر الأجنبي وهو رأي أكثر السلفيين^(٢).

(١) التفسير والمفسرون - الفصل الخامس - مذكرة - مادة التصوف، تصوير - كلية أصول الدين - جامعة أم درمان الإسلامية «٢٠٠٦م» - «ج ٢ - ص ٢٥١».

(٢) التصوف المنشأ والمصدر - إحسان إلهي ظهير - إدارة ترجمان السنة - لاهور باكستان - ط «١» - ١٩٧٤م - ص «٤٩».

الطريق الصوفي والمقامات والأحوال

إن الصوفية لهم طريق روحي يسرون فيه وهذا الطريق قد جربه المتصوفة فثبتت ثماره عن طريق التجربة أيضاً، وجوهر الطريق الصوفي هو ما أسماه الصوفية: «المقامات والأحوال»^(١).

ويدعي أهل التصوف بأن التصوف يقوم في جوهره على أساسين:

«الأول: التجربة الصوفية، حيث المعرفة فيها معاشة لا متأملة ويغمر صاحبها شعور عارم بقوى تضرم فيه، تغمره كفيض من النور الباهر، أو يغوص فيها كالأموح العميقة، ويبدو له أيضاً أن قوى عالية قد غزته، وشاعت في كيانه الروحي، وتسمى واردات ونفحات علوية، وفي مرتبة أدنى خواطر، أما الأساس الثاني: ويقوم في توكيد المطلق أو الوجود الواحد الأحد الذي يضم في حصته كل الموجودات، وفي الإمكان الاتصال به اتصالاً متفاوتاً في المراتب حتى يصل المرء إلى مرتبة الاتحاد التام، بحيث لا يبقى إلا هو، ومن هنا كان طريق التصوف سلماً صاعداً ذا درجات نهايتها عند الذات العليا، وكان سفرًا في معارج ذروة للاتحاد»^(٢).

والتصوف في جوهره معرفة في محيط ما وراء الطبيعة، وعليه فإن من شروطه:

لا بد في التصوف من شرط جوهري هو «التأثير الروحي» أو بتعبير أدق «البركة» وهي لا تتأتى إلا بواسطة «شيخ»^(٣)، ومن هنا كانت السلسلة، وهي بركات تنتقل من شيخ إلى مرید يوشك أن يصبح شيخاً فيؤثر بدوره في مرید أو مریدين... والتصوف لا يتعلم بواسطة الكتب، بل إن ما كتبه كبار المشايخ أنفسهم لا يستخدم إلا كحافز مقو للتأمل،

(١) المنقذ من الضلال - الغزالي - مع أبحاث في التصوف، بقلم/ د. عبد الحليم محمود - ط «٨» - دار الكتب الحديثة - ١٩٧٤م - ص «١٨٧».

(٢) التصوف والباراسيكولوجي - د. عبد الستار عز الدين الراوي - ط «١» - ص «١٧» -

«١٨».

(٣) عند المتصوفة: من لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً، ويشترط في الشيخ أن يكون مخلصاً صادقاً، وأن يكون سالماً. أنظر الرسالة القشيرية، ص «١٩٩».



والإنسان لا يصير بمجرد قراءته متصوفاً، على أن ما كتبه كبار المتصوفة لا يفهمه إلا من كان أهلاً لفهمه ولأجل أن يسير الإنسان في طريق التصوف لابد له من: استعداد «فطري خاص»^(١) لا يغني عنه اجتهاد أو كسب.

الانتساب إلى «سلسلة» صحيحة، إذ أن «البركة» التي تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هي الشرط الأساسي الذي لا يصل الإنسان بدونه إلى أي درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها.

ثم يأخذ الصوفي، الطيب الفطرة، الذي باركه الشيخ في الجهاد الأكبر والتأمل الروحي وبالذكر: أي استحضار الله في كل ما يأتي وما يدع، وفي تركيز الذهن في الملاء الأعلى فيصل موقفاً من درجة إلى درجة، حتى يصل إلى أعلى الدرجات، وهي حالة تسمو على حدود المؤمن فيصبح ربانياً، ذلك هو الصوفي الحقيقي^(٢).

وللصوفية نظرتان إلى الطريق الذي يسلكونه إلى الله:

الأول: طريق العروج من عالم الظاهر إلى عالم الحقيقة أو عالم السماء.

الثاني: تحول باطن وتغير في الصفحات وتهوؤ من النفس يمكنها الاتصال بالله^(٣).

فالصوفية إذاً على حد تعبير الغزالي: «أرباب أحوال لا أصحاب أقوال»^(٤).

طبقات الأولياء ورجال الطريق

وقد تحدث الصوفية عن طبقات الأولياء ورجال الطريق وأصحاب المملكة

الروحية، وكل طبقة لها لقب خاص من أهل الأحوال والمقامات التي يظهرون عليه.

(١) لتكون الرياضة نافعة لابد أن تكون نفس المريد مستعدة لهذا الحديث ملائمة له. انظر: «الرازي - شرح الإشارات - ص «١١٢».

(٢) المتقذ من الضلال - الغزالي - مع أبحاث في التصوف، بقلم/ د. عبد الحليم محمود - دار الكتب الحديثة - ١٩٧٤م - ص «٢٥٨-٢٥٩».

(٣) التصوف والباراسيكولوجي - د. عبد الستار عز الدين الراوي - سابق - ص «٣٥-٣٧».

(٤) المتقذ من الضلال - الغزالي - ص «٣١».

وجاء بيان حقيقة «القطب الغوث الجامع»، تفسير بعضهم^(١):

إن «الغوث» هو الذي يكون مدد الخلائق بواسطته في نصرهم.. حتى يقول: إن مدد الملائكة وحيثان البحر بواسطته.

يقول ابن تيمية: «ومن طبقاتهم «النجباء» و«النقباء» و«الأبدال» و«الأقطاب» و«الأوتاد» ومنهم واحد هو «الغوث» وأنه مقيم بمكة، ويقول بعضهم: إن الخضر هو مرتبة، وأن لكل زمان خضرًا، فإن لهم في ذلك قولين - وهو كله باطل لا أصل له في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا قاله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا من المشايخ المتقدمين»^(٢).

وتأتي أهمية هذا الجزء من الكتاب عن التصوف «للحضور الكبير للتصوف في العالم الإسلامي، فما من بلد إلا ولهم فيه وجود، وهم في بعضها السواد العظيم، ونعني بذلك كل من انتسب إلى التصوف ولو ظاهرًا بالاسم، فإن من المتيقن أن الذين يدركون حقيقة هذا الفكر من الصوفية أنفسهم قليلون، وأما أكثرهم فلا يعرفون منه إلا الموالد والذكر، دون القضايا الفلسفية التي تمثل أصول الفكرة»^(٣)، وهذا الأمر سبب كاف في تقديرنا وكذلك لأن البعض ربط أفكار محمود بالتصوف وهو أمر جلي وظاهر في مصطلحاته التي يستخدمها وأهمها الإنسان الكامل.

«ولقد كان لثناء الإمام ابن تيمية على بعض أئمة التصوف أثرًا في المعظمين لعلمه واجتهاده، حملهم على التشكيك في صحة نسبه الأقوال المنحرفة إلى أولئك الأئمة، وترجيح عدالتهم وصحة طريقهم، وأيدوا بناءً على ذلك صحة تقسيم التصوف إلى:

(١) التصوف الإسلامي رياضة روحية خالصة - د. سعيد مراد - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - بدون تاريخ - ص «٢٢٤».

(٢) زيارة المقبور والاستنجد بالمقبر - شيخ الإسلام ابن تيمية - دار ابن المبارك للنشر والتوزيع - ط «١» - ١٤١٤هـ - ص «٣٩».

(٣) منهج في دراسة التصوف - لطف الله بن عبد العظيم - مجلة البيان العدد رقم «١٩٩» - إبريل - مايو - ٢٠٠٤م - ص «١٢».



معتدل: وهم رجال القشيري والغزالي وغيرهم.

وغالٍ: يمثلُه الذين ثبت عنهم القول بالحلول.

وقد استفاد المتصوفة من موقف الإمام ابن تيمية لتخفيف حدة النقد، وبعضهم جعله من المتصوفة لأجل موقفه هذا، وبالعكس آخرون فزعموا أنه لا خلاف بين المتصوفة والسلفية.^(١)

وفي تحليل موقف ابن تيمية لابد من ملاحظة أن ثناءه لم يكن على الفكرة الصوفية، بل على بعض الأئمة، وليس كلهم، ثم لم يكن ثناءه عليهم بإطلاق، بل بكلمات صدرت عنهم تؤكد وجوب التقيد بالكتاب والسنة، ومن موقف كهذا لا يمكن انتزاع تركية للفكرة والمذهب، فالثناء لا يلزم منه تصحيح المذهب، وقد كان هذا مذهب، فردوده على المتصوفة وغيرهم من الفرق لم يكن يمنعه من التنويه والإشادة بما أصابوا فيه.

ومما يؤكد أن ابن تيمية لم يقصد بثنائه على بعض الأئمة تركية المنهج الصوفي: ردوده على الكثير من الذين بينوا حقيقة التصوف من أئمتهم، فالفكرة الصوفية كانت محل نقد الإمام في قولهم: بالتشبه بالإله، والغناء، والحلول، والاتحاد، والوحدة.^(٢) والحق أن «للإسلام أصولاً وأحكاماً معلومة متميزة من التزم بها فهو كامل الإسلام، فإن أخل بشيء من أحكامه نقص ذلك من إسلامه بقدر ذلك، من غير أن ينتفي عنه وصف الإسلام، وإن أخل بأصله عامداً عن علم ورضا وأظهر ذلك انتفى عنه الوصف كلياً، فإن لم يُظهر فهو منافق ليس له إلا اسم الإسلام الظاهر»^(٣) أهـ ومنه يتبين أن الإسلام في أصوله وأحكامه وخصائصه ثابت لا يتغير، والمنتسبون إليه يتغيرون ويختلفون، فمنهم الكامل ومنهم دون ذلك، ومنهم المفرط، ومنهم من ليس

(١) منهج في دراسة التصوف - لطف الله عبد العظيم - سابق - ص «١٤».

(٢) الفتاوى - ابن تيمية - «مرجع سابق» - «ج ٥ / ص ٤٨٥».

(٣) منهج في دراسة التصوف - لطف الله عبد العظيم - سابق - ص «١٢».

له من الإسلام إلا الاسم.

«ولا ينكر أحد أثر التصوف والمتصوفة على الدعوة الإسلامية في السودان، فكم تاب على أيديهم من عاصٍ، وكم حفظ القرآن على أيديهم، وكم زكوا من أنفس وهذبوا من أخلاق، فلنذكر لهم هذا، بجوار ما نذكر من سقطات وشطحات.»^(١)

(١) أثر التصوف على الدعوة الإسلامية في السودان، د. عاطف بابكر جميل الإمام، - «ص «ز» في المقدمة» - رسالة دكتوراة - إشراف / د. عبد الله عبد الحي أبو بكر - جامعة القرآن الكريم - ٢٠٠٤ م.



التجديد والاجتهاد

لما كان هناك خلط بين حرية الاجتهاد وحرية الفكر والتعبير وأفكار محمود التي وصفها البعض بالاجتهاد، كان لابد من وقفه لتعريف الاجتهاد والمجتهد وشروطه ومجالاته حتى لا تختلط الأمور وتضيع عصمة الدين باسم الاجتهاد، فالاجتهاد لا يعنى تحريف الدين والمروق عنه أو إضافة الغريب عليه، بل هو ولاء لقيمه وتعميق لفهم عقيدته وقياس للواقع بمعاييره لذلك نجد الإسلام يحض عليه خصوصاً إذا طال الأمد وتراكمت العادات والتقاليد وسيطرت على المجتمع فقد قال ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها.» رواه أبو داود عن أبي هريرة.

تعريف الاجتهاد لغة

الاجتهاد في اللغة: مأخوذ من الجَهد والجهد بفتح الجيم وضمها وهو الطاقة، وقد ورد في لسان العرب: الجهد الطاقة وجهد يجهد جهداً أي جد، والاجتهاد والتجاهد بذل الوسع والمجهود. والاجتهاد: بذل الوسع في طلب المر، وهو افتعال من الجهد^(١) ويفهم أن الاجتهاد لغة: هو بذل الجهد في تحصيل أمر من الأمور التي تستلزم كلفة ومشقة فقط.

الاجتهاد اصطلاحاً

هو است فراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي^(٢).

من هو المجتهد؟

المجتهد هو الفقيه الذي يستفرغ وسعه لتحصيل حكم شرعي ولا بد ان يكون له ملكه يقتدر بها على استخراج الأحكام الشرعية من مآخذها، وعلى هذا فإن له من دراية

(١) القاموس المحيط. الفيروز آبادي. ج ١ ص ٢٩٧.

(٢) تحصيل ظن: لبيان ان المجتهد فيه إنما هو للظنيات أما القطعيات فلا إجتهد فيها.

بالأحكام الشرعية، من غير أن يكون له قدرة على استنباطها من الأدلة لا يسمى مجتهدًا، وللمجتهد في الإسلام منزلة رفيعة، فهو قائم مقام النبي ﷺ بوصفه وارث لعلم النبوة ومبلغًا إياه إلى الناس وبوصفه معلمًا ومرشدًا للامة، فقد جاء في الحديث قول الرسول ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم».. ومنصب الاجتهاد من أسمى المناصب الدينية والدنيوية، لأن صاحبه يتكلم مبيّنًا حكم الله سبحانه وتعالى ولقد كان الصحابة والتابعون يفهمون نصوص الشرع ويدركون مقاصده بحكم سليقتهم العربية وتعلمهم على مصدر الشرع وهو النبي ﷺ فلم يكونوا بحاجة إلى قواعد تضبط لهم فهم النصوص واستنباط الأحكام، ولكن بعد أن طرأ على الناس ما أفسد سليقتهم العربية وبعد الناس عن إدراك مقاصد الشرع، كان لابد من وضع ضوابط لاستنباط وشروط للاجتهاد، وذلك تعظيمًا للاجتهاد ومنعًا لمن يحاول أن يدنس بين المجتهدين ممن ليس أهلاً للاجتهاد، فيقول على الله بغير علم ويفتى في دين الله بما ليس فيه. (١)

شروط قبول الاجتهاد

وتتمثل في ثلاث شروط ينبغي توفرها في من يتصدى للاجتهاد وبدونها لا يقبل اجتهاده حتى وإن كان قادرًا على الفهم والاستنباط وهي:

الإسلام: وهو شرط أساسي حيث أن الاجتهاد عبادة والإسلام شرط لصحة العبادة كما إن أساس الاجتهاد في الإسلام الإيمان بالوحي وبصدق الموحى إليه وهو المصطفى ﷺ فلا يقبل الاجتهاد من كافر وإن كان قادرًا على استنباط الأحكام.

التكليف: النضج العقلي هو أساس الاجتهاد وبالتالي فلا بد من أن يكون المجتهد بالغًا وعاقلاً حتى يتمكن من فهم النصوص فهماً صحيحاً يتمكن معه من الاستنباط وذلك لا يتم لمجنون أو لمن ليس بالبالغ.

(١) الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، د. عبد المجيد السوسوه الشرفي، ص ٥٩ - ٦٠



العدالة: وهى كذلك شرط لقبول فتوى المجتهد فلا يمكن قبول فتوى الفاسق والعمل بها. والعدالة كما عرفت هي ملكة في النفس تحمل صاحبها على اجتناب الكبائر، وترك الإصرار على الصغائر، والبعد عما فيه خرم للمروءة.

شروط صحة الاجتهاد

ومنها معرفة القرآن الكريم ومعرفة اللغة وفهم مفرداتها ومركباتها، وأن يكون المجتهد عارفاً بأسباب نزول الآيات والناسخ والمنسوخ منها، ولا يشترط فيه حفظ القرآن بل يكفي أن يكون عارفاً بآيات الأحكام من حيث دلالتها ومواقعها كما يشترط فيه - المجتهد - معرفة السنة المصدر الثاني للشريعة، وهى الشارحة للقرآن ولا يلزمه حفظ جميع الأحاديث وإنما يكفي أن يعرف أحاديث الأحكام بحيث يكون قادراً على الرجوع إليها عند الاستنباط، ثم معرفة اللغة العربية ومعرفة أصول الفقه الذي هو عماد الاجتهاد وأساسه الذي تقوم عليه أركانه. يقول الرازي: «إن أهم العلوم للمجتهد علم أصول الفقه»، ومن شروط صحة الاجتهاد معرفة مقاصد الشريعة للالتزام بالأهداف العامة التي قصد التشريع حمايتها والتي تدور حول حفظ مصالح الناس المتمثلة في الحفاظ على الدين والنفس والعقل والنسب والمال ومراعاة مصالح العباد. ثم معرفة مواقع الإجماع حتى لا يجتهد أو يفتي بخلاف ما وقع عليه الإجماع وأخيراً معرفة أحوال العصر حيث يتمكن المجتهد من تكييف الوقائع التي يجتهد في استنباط الأحكام لها ويأتي حكمه عليها سليماً وفهمه لها صحيحاً ولا يتم ذلك إلا بدراسة الظروف الاجتماعية المحيطة والعوامل المؤثرة في الواقعة حتى تأتي فتواه معالجة للواقع القائم. يقول بن القيم: «فمعرفة الناس أصل يحتاج إليه المجتهد وإلا أفسد أكثر مما أصلح فعليه أن يكون عالماً بالأمر والنهي وطبائع الناس وعوائدهم وأعرافهم والمتغيرات الطارئة في حياتهم فالفتوى قد تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال»^(١).

(١) الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي - عبد المجيد السوسوه الشرفي، ص «٥٩-٧٠» بتصرف.

مجالات الاجتهاد

الاجتهاد قائم إلى يوم القيامة؛ وهو باب فتحه الله سبحانه وتعالى، فالاجتهاد هو الذي يمنح التشريع إمكانية البقاء ولن يخلوا زمان من مجتهد فطريق معرفة الأحكام الشرعية هو الاجتهاد وبدونه تعطل الشريعة وتندرس الأحكام. ولكن هنالك مجالات محددة للاجتهاد لا يخرج عنها فإله سبحانه وتعالى قد أكمل دينه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣). وبذلك يكون الدين من حيث قواعده الكلية ومبادئه العامة التي يقوم عليها ويحتاجها الناس قد اكتملت ولا مجال للزيادة فيها أما الجزئيات فالبعض منها مضمن في نصوص الكتاب والسنة والبعض ترك للاجتهاد على ضوء نصوص الكتاب والسنة.

يقول الشاطبي: «فلم يبقى للدين قاعدة يحتاج إليها في الضروريات والحاجيات والتكميليات إلا وقد بينت غاية البيان، نعم يبقى تنزيل الجزئيات على تلك الكليات مدلولاً إلى نظر المجتهد فإن قاعدة الاجتهاد أيضاً ثابتة في الكتاب والسنة، فلا بد من عملها ولا يسع تركها إذا ثبت في الشريعة أشعرت بأن ثم مجال للاجتهاد، ولا يوجد ذلك فلا فيما لا نص فيه»^(١).

إذن في القضايا التي تتطلب الاجتهاد هي تلك التي لا نص فيها ويمكن أن نلخصها في الآتي:

- أ. القضايا العامة التي سبق لأسلافنا أن اجتهدوا فيها ولكن تعددت آراءهم واختلفت اجتهاداتهم وصارت حاجة الأمة اليوم إلى انتقاء وترجيح أحد تلك الأقوال.
- ب. القضايا المستجدة ذات الطابع العام أو المعقدة أو المتشعبة في عصرنا اليوم

(١) الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي د. عبد الحميد السوسوة الشرفي ص ١٠٨. كتاب



خصوصاً بعد اكتشاف الخريطة الجينية والعالم مقبل على تلاعب بالوراثيات «الجينات» وهناك الاستنساخ وزراعة الأعضاء كل هذه المسائل تتطلب من المجتهد في هذا العصر أن يكون مطلعاً عليها وعلى المشاكل التي تنجم عنها لإيجاد الحلول الإسلامية لها، حتى أن البعض يقول أن الاجتهاد الفردي ليس كافياً لمجابهة قضايا العصر التي نعيشها اليوم ولا بد من شورى بين ذوى الرأي من المجتهدين وقد تكونت مجامع فقهية تؤدي مثل هذه الأدوار منها على سبيل المثال:

مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة

والذي أنشئ عام ١٩٦١ بموجب القانون ١٠٣ المتعلق بتطوير الأزهر، على أن يرأسه شيخ الأزهر، وأن يكون له أمين عام ويضم عدة لجان: لجنة القرآن ولجنة البحوث الفقهية ولجنة إحياء التراث الإسلامي ولجنة الدراسات الإسلامية، وتقوم لجنة البحوث الفقهية بتقنين الشريعة الإسلامية على المذاهب المختلفة كما يقوم المجمع ببحث القضايا التي تهم العالم الإسلامي وإصدار البحوث التي تتضمن رأي الإسلام في هذه القضايا ويعقد مؤتمراً عاماً يدعى إليه علماء العالم الإسلامي كل عام لمناقشة هذه البحوث.

كذلك من المجمعات الفقهية التي تؤدي دوراً فاعلاً في عمليات الاجتهاد في عصرنا الحالي.

المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة

والذي أنشأته رابطة العالم الإسلامي شعوراً منها بضرورة وجود الاجتهاد الجماعي لمعالجة القضايا العامة في حياة الأمة، وكذلك القضايا المستجدة التي تتكاثر كل يوم وتتطلب بيان حكم الله فيها، وقد تم تأسيس أول هيئته لهذا المجمع في شهر ذي القعدة ١٣٩٣ هـ وذلك بناء على قرار المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الخامسة عشرة، المنعقدة من ١٧ ذي القعدة ١٣٩٣ هـ إلى ١٦ ذي الحجة ١٣٩٣ هـ على أن يكون أعضائه من العلماء الراسخين الأتقياء من جميع أقطار العالم الإسلامي.

مفهوم الألوهية

يتبادر إلى الأذهان أن مفهوم الألوهية مفهوم مطلق ومتفق عليه بين الديانات، والحقيقة إن هذا المفهوم قد اعتراه تطوير وتبدل كبير عبر الأزمنة والعصور، وتتجلى أهمية تناول هذا الموضوع في أن للأستاذ تصورًا فلسفيًا للإله أقرب لبشرية الإله من كونه إلهًا مطلقًا متعالياً فوق التصور البشري، فهم يتصوره موجودًا ماديًا يطلق عليه اسم «الإنسان الكامل» والله جل وعلا مغاير لهذا التصور تمامًا، ومن ثم فلا مجال للتصور البشري لينشئ صورة عن ذات الله إلا عبر كلامه. فكل التصورات البشرية إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء. فإذا كان الله - سبحانه - ليس كمثله شيء توقف التصور البشري إطلاقًا عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى. فلنكن نعرف الله سبحانه وتعالى علينا أن نتعرف على قوانينه الماثلة في الكون والنفس، فإذا كان الله - سبحانه - ليس كمثله شيء، توقف التصور البشري إطلاقًا عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى. ومتى توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته العلية فإنه يتوقف تبعًا لذلك عن تصور كفاءات أفعاله جميعًا؛ ولم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله «السنن / القوانين» وهذا هو مجال الإنسان في الروحانية والتعبد والتعرف إلى الله والتواصل معه كما جاء بذلك الدين الإسلامي.

معنى الإله في اللغة

أَلَهٌ بالفتح إلهة، أي عَبْدَ عِبَادَةٍ. والاهة أيضًا: اسمٌ للشمس. والآلهة: الأصنام، سَمَّوْها بذلك لاعتقادهم أَنَّ العبادة تَحُقُّ لها، وأسماءُهم تَتَّبِعُ اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه. والتَّأْلِيَةُ: التعبد. والتَّأْلَهُ: التَّنَسُّكُ والتَّعَبُّدُ....
وتقول: أَلَهٌ يَأْلُهُ أَلهًا، أي تَحَيَّرَ؛ وأصله وَلَهَ يَوْلُهُ وَلَهًا. وقد أَلِهْتُ على فلانٍ، أي



اشتدَّ جزعي عليه، مثل ولهُتُ^(١). إن مادة إلاه من يتأله: يتعبد. وهو عابد متأله.^(٢)

معنى الإله في الاصطلاح

اسم الله هو: «علم دال على الإله الحق دلالة جامعة لمعاني الأسماء الحسنى كلها. والإلهية: هي أحديةٌ جمع جميع الحقائق الوجودية، كما أن آدم عليه السلام أحدية جمع جميع الصور البشرية».^(٣)

التوحيد:

معنى التوحيد في اللغة

وَحَدَ الله توحيدًا. وله الوجدانية. وأَحَدَ ربك، وتوَحَّدَ الله تعالى بالربوبية.^(٤) وأيضًا يعرفها الجرجاني في اللغة: الحكم بأن الشيء واحد، والعلم بأنه واحد.^(٥)

معنى التوحيد في الاصطلاح

تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الإفهام، ويتخيل في الأوهام والأذهان، وهو ثلاثة أشياء: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوجدانية، ونفي الأنداد عنه جملة.^(٦)

والمدقق إذا درس مفهوم الإله بموضوعية وإخلاص في القرآن الكريم يستطيع أن يميز الصفات الفريدة التي يختص بها الله، ولا يشاركه فيها غيره من آلهة مزعومة وهذه

(١) الصحاح، الجوهري، سابق - ج ١ - ص ٢٠.

(٢) أساس البلاغة، الزمخشري، سابق ٢٠: ٢٠٠٤.

(٣) التعريفات، «الجرجاني»، علي بن محمد بن علي، ضبط نصوصها/ محمد علي أبو العباس، مكتبة القرآن، القاهرة، ٢٠٠٣ م. ص ٤٠.

(٤) أساس البلاغة - كتاب الواو - فصل وحد - ١١.

(٥) التعريفات، الجرجاني - سابق - باب التاء - ص ٢٣.

(٦) التعريفات، الجرجاني - سابق - باب التاء - ٢٣.

بعض تلك الصفات:

الإله الحق خالق وليس مخلوقا.

الإله الحق واحد لا شريك له، وليس متعددا، ولا والدا، ولا مولودا.

الله منزّه عن تصورات الخلق فلا تدركه الأبصار في الدنيا.

الله أزلي لا يموت، ولا يتغير، ولا يحل ولا يتجسد في شيء من مخلوقاته.

الله صمد بذاته، غني عن خلقه، لا يحتاج إليهم، والمخلوقات في حاجة إليه.

الله متفرد بصفات الجلال والكمال والجمال التي لا يشاركه فيها ولا يشابهه فيها أحد من خلقه، فليس كمثله شيء^(١)

ويمكننا أن نستخدم هذه المعايير والصفات وغيرها مما تفرد الله وحده في دحض

ورفض أية آلهة مزعومة ودليلنا قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ

إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (المؤمنون: ٩١ - ٩٢).

وفي هذا يقول المستشرق جيب: يستند اللاهوت الإسلامي دائما إلى أوضاع

قصوى، فلا يجوز أن يوجد في الكون أي فاعل آخر، من أي نوع، ما عدا الله، لأن وجود

فاعل يقتضي إمكان فعل مستقل عن الله، ويوجب من ثم تحديد قدرة الله المطلقة تحديدا

نظريا، لا شيء إذا يتصل إيجابيا بأي شيء...، أما في مجال الأخلاق فلا يجب على الله،

ولا يمكن أن نتصور أي علاقة بينه وبين أفكارنا، أنه يثيب ويعاقب كما يشاء، ولا يسأل

عما يفعل^(٢).

وبصورة عامة يؤمن المسلم بأن الرسل وصفوا الله بصفات الكمال، ونزهوه عن

النقائص المناقضة للكمال، ونزهوه عن أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال،

(١) رسالة واحدة فقط، د. ناجي بن إبراهيم العرفج، ط١، «١»، السعودية، ١٤٢٤ هـ: ١٣.

(٢) علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، جيب، ترجمة: د. عادل العوا، منشورات عوايدات،

بيروت، ط١، ١٩٧٧ م، ص١٣٣.



وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل، ونفوا عنه التمثيل، فأتوا بإثبات مفصل ونفي مجمل، فمن نفي عنه لما أثبتته لنفسه من الصفات كان معطلاً، ومن جعل هذه الصفات مثل صفات المخلوقين كان ممثلاً، والمعطل يعبد عدماً، والممثل يعبد صنماً^(١).

(١) الجواب الصحيح، ابن تيمية، مرجع سابق، ٤ / ٢٣٠

العقل في الفكر الإسلامي

تأتي هذه المقدمة في إطار بيان أهمية العقل ودوره في الاستدلال على مسائل العقيدة وقد تنوعت تعريفات العقل اللغوية بحسب الاختلاف في سياق الكلام الذي يرد فيه. والمتأمل في أحكام ونصوص الشريعة الإسلامية لن يرى أي أثر للالزامات بين العقل والنص على مدى تاريخ التشريع الإسلامي، وعلى النقيض سوف يجد التوافق والانسجام العظيم بين النص والعقل، ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يعطي العقل ويسمح له بمساحة واسعة جداً من خلال مصادر تشريعه الأخرى سوى القرآن والسنة كالاتجاه والقياس والاستحسان والاستقراء والاستصلاح وغيرها.. وحتى نصوص القرآن والسنة فإنه لا يمكن فهمها الفهم الصحيح وتفسيرها وتأويلها إلا من خلال العقل والتفكير الصحيح والفهم العميق. فالعلاقة بين النص والعقل هي علاقة تلازم وتلاحم، ولا انفكاك بينهما وان كلا منهما مفتقر إلى الآخر، لأن استخراج الأحكام الشرعية، من الأدلة السمعية لا يتم إلا بإعمال العقل فيها. والمعلوم أن النص هو الأصل فهو المتبوع والعقل هو التابع، كما أن العقل مقيد بقواعد كلية ومبادئ عامة في نظره واستدلاله.

تعريفات العقل

إطلاق «العقل» على الحجا والنهي؛ وهو القوة المهيأة لقبول العلم؛ وهو ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات؛ وهو ضد الحمق؛ وهو ما يقابل الغريزة التي لا اختيار لها؛ وهو ما يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان. ويشير إليه كل خطاب شرعي رفع التكليف عن العبد لعدم أهليته العقلية الإدراكية كما يطلق العقل على العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة المهيأة لقبول العلم. ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٥٣) (العنكبوت: ٤٣)، وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل ففيه إشارة إلى هذا المعنى من العقل نحو



قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١). ويطلق العقل على إدراك الأشياء على حقيقتها؛ وعلى الثبوت في الأمور؛ وتمييز الحسن منها من القبيح. ومنه قولهم: عقل الشيء يعقله عقلاً: أي فهمه. ويطلق العقل أيضاً على الحبس والمنع والإمساك؛ والعقل الذي يحبس نفسه ويمسكها ويردّها عن هواها. يقال رجل عاقل: أي جامع لأمره ورأيه.^(١)

العقل في الإسلام

حظي العقل بمكانة خاصة في الإسلام حيث يعتبر أحد الكليات الخمس في الدين التي أوجب الشارع الحكيم حفظها، ومن ضيع هذه الكلية فقد ضيع معلوماً من الدين بالضرورة. كما أن الإسلام يُعد أيضاً التفكير مقصد من مقاصد الشريعة، والمتأمل في الآيات التي تحتوي عبارات التفكير، التذكر، والعقل، والتدبر قد يجد جهداً في حصرها. يقول بن عاشور: إن إصلاح التفكير من أهم ما قصده الشريعة الإسلامية في إقامة نظام الاجتماع من طريق صلاح الأفراد. وبهذا ففهم وجه اهتمام القرآن باستدعاء العقول للنظر والتذكر والتعقل والعلم والاعتبار وأن ذلك جرى على هذا المقصد فأنبأنا عن استقرار اهتمامه والإفصاح عنه بكلام رسوله^(٢). وقد زود الله عز وجل الإنسان بملكة العقل التي ضمنها الله سبحانه طاقة يستطيع معها كسب المعرفة وإدراك حقائق الأشياء على ماهي عليه. فالتأمل في الوحي القرآني يلاحظ حرص الشارع الحكيم على تربية

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار الرشاد الحديثة، بيروت، ط ٢، «بدون ت»، ج ١١، ص ٤٥٨-٤٥٩. والمعجم الوسيط، دار عمران، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٠م، ج ٢، ص ٦٤٠. ومجمل اللغة، ابن فارس، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر للطباعة، بيروت، «بدون ط»، ١٩٦٤م، ص ٤٧٤. ومعجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر للطباعة، بيروت، «بدون ط أوت»، ص ٣٥٤.

(٢) أصول النظام الاجتماعي، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، «بدون ط أوت»، ص ٥٢.

العقل وتنمية قدراته، حتى يحسن القيام بما أناطه الله به من وظائف كالتعرف على الخالق عز وجل وجوداً وصفات، دون تجاوز ذلك بمحاولة التفكير في ذاته سبحانه فذلك مما لا طاقة للإنسان به ويفوق حدود مداركه العقلية. وكذلك التمييز بين ما هو خير جالب للمنفعة والمصلحة وبين ما هو شر جالب للضرر والمفسدة، وتحسين ما يراه الشرع حسناً وتقبيح ما يراه قبيحاً. وأيضاً اكتساب القدرة على الفهم السليم الواعي لأوامر الوحي ونواهيه. وقد اهتم الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم ﷺ بتربية الجانب العقلي في الإنسان.

والناظر في كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ يلاحظ بوضوح هذا الجانب في عديد من نصوص الوحي الداعية إلى أعمال النظر العقلي والتدبر في آيات الله بنوعيتها المسطورة في المصحف والمنظورة الماثورة في هذا الكون. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَأَخْتَلَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ (الجن: ٣ - ٥)، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٦﴾ (فصلت: ٥٣).

وجعل الله عز وجل العقل مناط تشريف وتكريم الإنسان، فجعله سبباً لتمييزه عن سائر الحيوانات المحرومة من هذه الخاصية، كما جعل الله عز وجل هذا العقل أيضاً مناط تكليف الإنسان وجعله المعول الأساسي في فهم أحكام الشريعة، والمرشد لكيفية تنزيلها وتطبيقها في واقع المجتمعات. «والعقل هو مناط التكليف بإجماع المسلمين»^(١)، يقول القرطبي: فأوجب الله التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، والعقل أقرب

(١) ملحة الاعتقاد، العز بن عبد السلام، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٤١٤ هـ،



إلى ربه من جميع المجتهدين بغير عقل^(١). فالإسلام هو دين العقل، ودين البحث والنظر والفكر، وعقيدته تعدُّ أن العقل مع نصوص الوحي أساسان لبناء الجانب الإيماني ولا تعارض بينهما لأن كل منهما منحة من الله، ومنح الله لا تتعارض. ومن آيات الإسلام الكبرى أنه في دعوته إلى الإيمان بالله، لم يقهر العقل بالخوارق القاهرة، بل خاطبه ودعاه وأيقظه وناقشه، وجعله يشارك في عملية الإيمان الواعية الجديرة بالإنسان الذي كرمه الله بالعقل والبصيرة، وأنه كما أطلقه يتدبر آيات الله في الكون ليهتدي إلى الحق في خلق السماوات والأرض والحياة والإنسان، ويعمل بمقتضى هذا الحق، ويجاهد في سبيل إحقاقه، فكذا أطلقه ليفهم حكمة التشريع ليهتدي إلى الحق ويعمل بمقتضاه^(٢).

العقل والوحي

يقول الراغب الأصفهاني مبرزاً العلاقة بين العقل والوحي الذي يمثله الرسول ﷺ مبيناً دور حاجة كل منهما للآخر: الله - عز وجل - رسولان إلى خلائقه: أحدهما من الباطن وهو العقل، والثاني من الظاهر وهو الرسول ﷺ، ولا سبيل لأحد بالانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن. فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر، ولولاه لما كانت تلزم الحجة، ولهذا أحال الله بين من يشكك في وحدانيته وصحة نبوءة أنبيائه على العقل، وأمر أن يفرع إليه في معرفة صحتها، فالعقل قائد والدين مسدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً^(٣). فالعقيدة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، «بدون ط أوت»،

ج ١٠، ص ٢٦١

(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، ط ٦، ١٩٨٢م، ج ١،

ص ٨٨-٨٩.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١،

١٩٨١م، ص ١٢٤.

الإسلامية ترى أن العقل ليس منفصلاً عن الوحي، فهناك علاقة تلازم بينهما وتكامل، ولا ترى لأحدهما نفعاً دون الآخر، فلا وجود لحقيقة علمية أو عقلية إلا وهي موافقة لنصوص الوحي، فالعقل والوحي كلاهما منحة من الله، ومنح الله لا تتعارض. إن عزل العقل عن الدين لا يمكن معه بلوغ الحقائق الإيمانية، ولقد عجزت كل النظريات العلمانية أو الفلسفية القائمة على التجريد العقلي الخالية من البعد الديني الروحي، عن الإجابة عن المسائل الإيمانية الغيبية، وتحديد حقيقة أمرها، مما يسقط شعاراتهم المرفوعة، ويبرز تهافتها وتهاونها وفشلها. فلا أهل العلم الذين رفعوا شعار: «العلم يغني عن الدين» ولا أهل الفلسفة الذين رفعوا شعار: «الفلسفة تغني عن الدين»، بقادرين على إيصال الإنسان لمعرفة خالقه الحقيقي وخالق الأكوان جميعاً ومدير أمرها، وأيضاً غير قادرين على رسم الحياة المثلى للإنسان وإكسابه القيم والمثل والمبادئ والسلوك الرفيع الذي تتحقق به إنسانية الإنسان، فالعقل مستقلاً لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأشياء دون جزئياتها، أما الوحي فإنه يعرفنا بكليات الأشياء وجزئياتها، لأن الوحي هو حجة الله على عباده يوم الحساب، قال تعالى: ﴿تَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥) ولذلك عدّ القرطبي أن: هذه الآية دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن العقل يُحسن ويُقبح، ويبيح ويحظر^(١). فالشرع عصمة للعقل، والعقل نبراس للشرع؛ يقول ابن القيم: العقول المؤيدة بالتوفيق ترى أن ما جاء به رسول الله ﷺ هو الحق الموافق للعقل والحكمة.. والعقول المضروبة بالخذلان، ترى المعارضة بين العقل والنقل، وبين الحكمة والشرع^(٢). ويقول الأصفهاني: فالعقل لا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ١٠، ص ٢٣١.

(٢) الفوائد، ابن القيم، ص ٢٥٤.



يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين معناه ويدرك وتفهم مقاصده إلا بالعقل، فالعقل هو الأساس والشرع كالبناء، فلا قيمة للأساس ما لم يكن عليه بناء، ولن يثبت البناء ما لم يكن مرتكزا على أساس متين.. وأيضا مثل العقل والشرع كالسراج، فالشرع هو الزيت والعقل هو السراج، فإن لم يكن هناك زيت فلن ينتفع بالسراج، وإن لم يكن هناك سراج فلن يضيئ الزيت. فالشرع نور والعقل نور، وكلاهما مكمل للآخر. ﴿تُورَى عَلَى نُورٍ﴾ (النور: ٣٥).^(١)

الإسلام دين العلم والعقل

الإسلام هو الدين الذي أتاح للعقل هذا القدر العالي من حرية التفكير، لأنه دين القراءة التي نزلت بها أول آية من وحيه وتشريعاته في قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ (العلق: ١ - ٥)، وهو دين القلم والمعرفة، وفضل أهل العلم على أهل الجهل عظيم ومعلوم يدركه أهل العقول السليمة، قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝١﴾ (الزمر: ٩)، وقد أقسم سبحانه وتعالى بالقلم: ﴿بِالْقَلَمِ ۝١ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝٢﴾ (القلم: ١).

كما اهتم الوحي الكريم بتربية العقل ليتدبر في حكمة الله من خلق البشر، وأنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون هذا الخلق من غير هدف، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. فحكمة الله سبحانه وتعالى وكماله يباين أن يكون خلق البشر لمجرد العبث الذي لا طائل وراءه؛ فالإنسان استخلفه الله في هذه الأرض وحمله مسؤولية القيام بما استخلفه فيه؛ وكل من تحمل مسؤولية لا بد أن يسأل عنها.. وأن يجازي على نتائج عمله فيها. قال

تعالى مصداقاً لذلك ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١)، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٣٠). فالحكمة من خلق الله للإنسان لا يمكن أن نصل إليها إلا عبر الإيمان بالبعث واليوم الآخر، ولا مجال للقول إذن بأن حياة الإنسان تنتهي بموته وفنائه، وأنه لا وجود لحياة أخرى بعد هذه الحياة، كشأن قول الكثير من الضالين قديماً وحديثاً.. وقد حكى القرآن الكريم عن هؤلاء ودعوتهم الضالة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجنانية: ٢٤)، فهؤلاء يعتبرون أن لا حشر للأجساد ولا للأرواح بعد الموت لأن من فات مات، وليس معنى الموت عندهم إلا الفناء والعدم والزوال. وقد بينت نصوص الوحي الغاية من خلق الإنسان ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، ثم بينت الغاية والهدف من خلق الحياة والموت: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: ٢)، فالوحي بمثل هذه الآيات يضع العقل أمام أمر لا يستطيع له ردّاً أو إنكاراً: وهو الاعتراف بوجود حياة أخرى يتحقق فيها العدل ويتم فيها الجزاء على العمل الصالح والعمل السيئ. والعقل السليم يأبى على الإنسان أن تكون حياته بدون هدف ويعيش سنين عمره كسائر الآلات الصناعية ثم يطوي الموت صفحة وجوده دون تأمل في جزاء عمله في الدنيا، فالوحي الكريم كما وضع عقل الإنسان أمام حقيقة عدم عبثية الله في خلقه للحياة والإنسان ليصل به إلى حقيقة اليوم الآخر، فإنه يضع - هذا العقل - أيضاً أمام عدم حكمة أن يكون مصير الإنسان هكذا هملاً دون حساب ومما



يدلل على هذه التوجيهات التربوية العقلية للوحي لإثبات الحساب الأخروي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢) (الأنعام: ١٣٢)، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا النَّسِيَّاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢١) (الجاثية: ٢١).

وقد وصل الوحي الكريم بالإنسان إلى أن يدرك بعقله أن حكمة الله وعدله يبيان المساواة بين مصير الفاجر والبر، والمسيء والمحسن. وهكذا يمكن أن نستخلص أن الدين قد اهتم بالعقل وجعله مناط التكليف لدى الإنسان، كما جعله وسيلة فهم نصوص الوحي وما اشتملت عليه من أحكام مختلفة؛ والعقل هو المسؤول عن كيفية تطبيق هذه النصوص، لأنه وسيلة فهم كل من النص والواقع المزمع إنزال النص فيه. والإنسان إذا ما فقد هذه الملكة العقلية تسقط عنه أهلية التكليف كما ظهر لنا تناسب التوجيهات العقلية التي وردت في نصوص الوحي الخاصة والعامة، لبدايتها ويسرها، حيث عملت هذه التوجيهات منذ بدء نزول الوحي على تفريغ عقل الإنسان من كل معتقد أو تصور لا يتفق مع الدين والفطرة؛ لملئه بما يتوافق مع العقيدة الصحيحة، والتصورات السليمة للخالق والكون والإنسان والحياة.

مفهوم الفلسفة

تجيء هذه المقدمة عن الفلسفة لارتباطها بما سنتناوله من أفكار فلسفية لدى محمود محمد طه ومنشأ هذه الكلمة «الفلسفة» يرجع للكلمة المعربة عن اليونانية، فهي لفظ يوناني نشأ أول ما نشأ في اليونان وأصلها الوضعي مركب من كلمتين يونانيتين هما: «فيلو»، أو «فيل» ومعناها: المحبة، أو الإيثار «سوفيس»، أو «سوفيا»، ومعناها: الحكمة فهذا هو أصل الكلمة وسبب تسميتها.

وبذلك يتبين لنا أن الفلسفة باعتبار الوضع الأصلي تعرف بـ: «محبة الحكمة، أو إيثار الحكمة».

ويعرّف الفيلسوف بأنه: محب الحكمة، أو المؤثر للحكم^(١).

مر مصطلح «الفلسفة» بعدة أطوار واختلف تعريفها باختلاف هذه الأطوار كما أنه اختلف باختلاف الفلاسفة الذين وضعوا لها حدودًا وتعريفات. ومن أهم هذه التعريفات عند الفلاسفة ما يلي:

البحث عن الحقيقة.

حب المعرفة.

وعرفها الكندي بقوله: هي علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان.

وعرفها في موضع آخر بقوله: هي علم الحق الأول الذي هو علة كل حق.

وعرفها الفارابي بقوله: إنها العلم بالموجودات بما هي موجودة. وعرفها أيضًا بقوله: علم بمقدار الطاقة الإنسية. وكذلك بالعلم الوحيد الجامع الذي يضع أمامنا صورة

(١) المدرسة الفلسفية في الإسلام بين المشائية والإشراقية، أ. د محمد إبراهيم الفيومي ضمن أبحاث ندوة «نحو فلسفة إسلامية معاصرة» ص ٧٥، والموسوعة الميسرة في الأديان والأحزاب والمذاهب المعاصرة، نشر الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف د. مانع الجهني ٢/ ١١٠٨ - ١١٠٩.



شاملة للكون.

وعرفها ابن سينا بقوله: الحكمة: استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعلمية على قدر الطاقة الإنسانية^(١). وصارت الفلسفة تُعنى بالعقل، وتقدمه على النقل، بل أصبح العقل عند الفلاسفة إلهاً ومصدرًا للتلقي. وعلى هذا فإنه يمكن تعريف الفلسفة فيقال: هي النظر العقلي المتحرر من كل قيد وسلطة تُفرض عليه من الخارج، بحيث يكون العقل حاكمًا على الوحي، والعرف، ونحو ذلك^(٢).

نشأة الفلسفة

نشأت الفلسفة واشتهرت في بلاد اليونان، بل وأصبحت مقترنة بها على الرغم من وجود الفلسفات في الحضارات المصرية، والهندية، والفارسية القديمة. وما ذلك إلا لاهتمام فلاسفة اليونان بنقلها من تراث الشعوب الوثنية، وبقايا الديانات السماوية، وربما استفادوا من حكمة لقمان عليه السلام فجاءت فلسفتهم خليطاً بين نزعات شتى. وقد نضجت الفلسفة على يد أفلاطون ومن بعده أرسطو وغيرهما^(٣). ودخلت ديار الإسلام في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي وذلك في عهد الخليفة العباسي المأمون. وقد سبق العرب فلاسفة الغرب بالاتصال بالفلسفة اليونانية؛ إذ إنها لم تصل إلى الغرب إلا في القرنين الميلاديين الثاني عشر والثالث عشر معتمدين على ما خلفه الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام الذين تخصصوا في دراستها أو في نقلها من النص السرياني، أو اليوناني إلى اللسان العربي، ثم نقلت إلى لسان الغرب.

(١) المدرسة الفلسفية في الإسلام ص ١٢٤-١٢٦.

(٢) الموسوعة الميسرة ١١٠٩/٢.

(٣) المدرسة الفلسفية في الإسلام بين المشائية والإشراقية ص ٧٥-٧٩، والموسوعة

الميسرة ١١٠٩/٢.

أشهر الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام

الكندي: وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق الكندي المتوفي سنة ٢٦٠هـ ويطلق عليه فيلسوف العرب.

الفارابي: المتوفي سنة ٣٣٩هـ ويطلق عليه المُعَلِّم الثاني بعد المعلم الأول وهو أرسطو.

ابن سينا: ويطلق عليه الشيخ الرئيس المتوفي سنة ٤٢٨هـ

وهؤلاء الثلاثة لم يربط بينهم تاريخ واحد في فترة زمنية محددة، وإنما ربط بينهم مدرستهم الفلسفية، واهتمامهم البالغ بفتح نافذة على تراث الشرق والإغريق. وهم على تتابعهم التاريخي حملوا مسؤولية الترجمة، والشرح، والتأليف في الفلسفة وطرح القضايا الجديدة على العقل الإسلامي^(١).

غاية الفلسفة، وموضوعها، وأقسامها

كانت غاية الفلسفة في بداية أمرها محبة الحكمة، ثم تصرف فيها بعض الفلاسفة؛ فصار الغاية منها الجدل لذات الجدل. ومن الفلاسفة كالفارابي مثلاً من يرى أن الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها، والغرض المقصود من تعلّمها ليس شيئاً غير إصلاح النفس^(٢). أما موضوعاتها فتكاد تنحصر في: العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية والعلوم الإلهية والعلوم المنطقية.

وتختلف أقسام الفلسفة بحسب موضوعاتها فهناك:

الفلسفة الحسية: وهي تتحصل بالحواس، وموضوعها عالم الطبيعة.

الفلسفة النظرية العقلية: وهي تتم بالاستدلال البرهاني، أو النظر الاستنباطي.

الفلسفة الإشراقية: وتسمى المشرقية، من الإشراق - أي إشراق النفس واستعدادها.

وهذه تنال بالحَدَس، والإلهام، وموضوعها العلوم الإلهية.

(١) المدرسة الفلسفية في الإسلام سابق، ص ٧٥-٧٩.

(٢) - انظر المدرسة الفلسفية في الإسلام ص ٧٥، و١٤١، و١٥١-١٥٢.



افتراق الفلاسفة

من بعض الأمور التي يتضح من خلالها افتراق الفلاسفة:
 أن آراء الفلاسفة فردية ليس لها معيار ثابت؛ فهي تختلف باختلاف الفيلسوف،
 وبيئته، وثقافته، ورؤيته وزاوية بحثه؛ فالمادي يبحث في الحقيقة المادية، والفيلسوف
 الميتافيزيقي يبحث في الحقيقة الميتافيزيقية، وهكذا...
 أن الحقيقة في أدوار الفلسفة غير ثابتة؛ فلكل فيلسوف وجهته، وكل فيلسوف
 يناقض غيره فثقافة الفيلسوف وبيئته، وأستاذه، وتيارات مُجْتَمَعِهِ كل أولئك لهم تأثيرهم
 في رؤية الفيلسوف، وصنع عقليته.

كثرة اضطراب الفلاسفة وشكهم

مذهب متقدمي الفلاسفة في الإلهيات والشرائع

الفلاسفة المتقدمون كأرسطو وغيره من أجهل الناس في الشرائع والأمور
 الإلهية، وأكثرهم اضطرابًا وتناقضًا، وأكثر كلامهم فيها خَبَطَ عَشْوَاءَ؛ لأنهم لم يستضيئوا
 بأنوار الرسالة، ولا كانت عندهم شريعة.

يقول ابن تيمية: للمتفلسفة في الطبيعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف
 الإلهيات؛ فإنهم من أجهل الناس بها، وأبعدهم عن معرفة الحق فيها.
 وكلام أرسطو معلمهم فيها قليل كثير الخطأ؛ فهو لحم جمل غثٌ على رأس جبل وعِرٍ؛
 لا سهل فيرتقى، ولا سمين فيقلَى^(١).

نماذج من ضلالات بعض الفلاسفة

يقولون: بقدّم العالم.

يقولون: بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات.

يقولون: بأن منزلة الفيلسوف كمنزلة النبي، وربما فضل بعضهم الفيلسوف على النبي.

يقولون: بحشر الأرواح دون الأجساد.

يقولون: بأن الجنة والنار أمثال مضروبة وخيالات؛ لتفهم العوام، وضبطهم دون أن يكون لها حقيقة في الخارج.
يرون: أن العقل مقدم على الوحي.



كتاب الرسالة الثانية من الإسلام

طبع لمحمود في يناير ١٩٦٩م بعنوان الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين وهو عنوان لمحاضرة أقيمت في ثمانية أماكن وأقيمت في الجامعة لأول مرة يوم ٧/٩/١٩٦٨م كما تبين ذلك مقدمة الكتاب^(١) ويقول الكتاب إن عنوانه الغريب مقصود.... ونحن نعلم أن المحتوى الذي أنبت عليه المحاضرة غريب... غريب على الشريعة الإسلامية... ولكنه ليس غريباً على الإسلام وهو إنما لم يقل من قبل لأن وقته لم يجئ.. وإنما جاء الآن.. والغربة في الدين مدعاة لصحته.. أكثر مما هي مدعاة خطأ..»^(٢).

من هنا بدأت غربة دعوة محمود باعترافه هو، تلك الغربة التي جعل منها مدعاة لصحة ما جاء به، وأصبح يقيم ندوات والمحاضرات وينشر الكتب التي تمتلئ بالكثير من ما يخالف الدين.

سيكون مرجعنا في هذا الجزء، الطبعة السادسة لكتاب «الرسالة الثانية من الإسلام» التي صدرت في نوفمبر ١٩٨٦م الموافق ربيع الأول ١٤٠٧هـ أي بعد انتقال محمود للآخرة. وسنحرص عند الاقتباس منه أن نورد علامات الترقيم كما جاءت في الكتاب قدر الإمكان. في هذه الطبعة توجد مقدمتان الأولى مقدمة الطبعة الرابعة والثانية مقدمة الطبعة الثالثة. وقد اعتذر محمود عن انشغاله حينما صدرت الطبعة الثانية دون أن يكتب لها مقدمة «هذه مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب «الرسالة الثانية من الإسلام» وكانت الطبعة الأولى منه قد صدرت في يناير من عام ١٩٦٧، الموافق لشهر رمضان المكرم من عام ١٣٨٦.. ثم صدرت الطبعة الثانية منه في أبريل من عام ١٩٦٨، يوافق

(١) الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، محمود محمد طه،

١٩٦٩م.

(٢) الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، ص ٣٧-٣٨.

المحرم من عام ١٣٨٨.. وعند صدور هذه الطبعة صرفتنا صوارف العمل عن تصديرها بمقدمة خاصة بها..»^(١).

في أكتوبر ١٩٦٩م الموافق رجب ١٣٨٩ هجرية واتت محمود الفرصة لأن يصدر الطبعة الثالثة بمقدمة تليق بها، فيها أشار إلى أن هذا الكتاب جديد وغريب «هذا الكتاب - الرسالة الثانية من الإسلام - كتاب جديد من كل الوجوه.. وهو، إلى جدته غريب كل الغرابة، ولا غرو، ذلك بأنه بشارة بعودة الإسلام من جديد، وأي الناس، من علماء الناس لا ينتظر الغرابة في عودة الإسلام من جديد؟ ألم يقل المعصوم: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء! قالوا من الغرباء يا رسول الله؟ قال الذين يحيون سنتي بعد اندثارها»؟»^(٢). لم يُخرَج محمود الحديث. إذا استدل أي أحد بحديث لا بد أن يثبت مصدره حتى لا تصبح فوضى علمية لا ضابط لها؛ لأن من جمع الحديث في قرون الإسلام الأولى وضع لهذا العلم قواعد وضوابط لا يصح بعدها الاستدلال بالحديث بعيداً عنها، ومحمود بكل تأكيد لم يشارك في جمع الحديث ولا وضع علومه وضوابطه، وبالتالي لا يمكنه أن يطلق لنفسه العنان في هذا الأمر. الآن بين أيدينا تراث ضخم من الأحاديث يدور العلم حوله، ولا يوجد حديث جديد، ولا توجد قواعد جديدة، بل يعاد تقييم بعض أحكام علماء الحديث السابقين، لكن بنفس القواعد التي قام عليها علم الحديث. علم الحديث هذا هو العلم الذي انفردت به أمة الإسلام دون سائر الأمم. حديث «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ... الحديث» رواه مسلم في صحيحه، جاء عن أبي هريرة «رض» عن النبي ﷺ أنه قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ» زاد جماعة من أئمة الحديث في رواية أخرى: «قيل يا رسول الله! من الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس»، وفي اللفظ الآخر: «يصلحون ما أفسد الناس من سنتي»، وفي لفظ آخر: «هم النزاع من القبائل»، وفي لفظ آخر: «هم أناس صالحون قليل في أناس سوء كثير». هذا الحديث هو الذي استند عليه محمود ليبرر غرابة

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٢.



أفكاره ودعوته، هذه الغرابة ألصقتها هو بنفسه عليها ولم يصفها بذلك أحد الناس، وبذلك يكون محمود كفى الناس مؤونة الاجتهاد لوصف أعماله بالغرابة. الغرابة تبدو من الوهلة الأولى عندما لا يُخَرَّج محمود الحديث وتتحول الغرابة إلى صدمة حين يظهر أن محموداً أتى برواية في آخر الحديث لم يروها أحد عن النبي ﷺ، ليفصلها على دعوته والمنتسبين لها «الذين يحيون سنتي بعد اندثارها». هل كذب محمود على النبي ﷺ أم أنه لم يتثبت في نقله للحديث؟ كلا الأمرين عيب في حق العلماء.

كلمة غريب ومشتقاتها لا توجد في القرآن. في معجم مقاييس اللغة وردت الكلمة بعدة معاني لا علاقة لها بمعنى كلمة غريباً وغرباء التي وردت بالحديث، لكن منها «والغربة البعد عن الوطن»^(١) ونفس المعنى ورد في المصباح المنير وزاد عليه «جاء بشيء غريب وكلام غريب بعيد من الفهم»^(٢) وفي المعجم الوجيز «والكلام غرابة: غمض وخفي فهو غريب «أغرب» في كلامه: فهو أتى بالغريب البعيد عن الفهم»^(٣). اتفقت المعاجم الثلاثة على معنى البعد عن الوطن ووافقوا في ذلك حديث ابن عمر «رض» قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» رواه البخاري. ذلك لأن الدنيا طريق عبور للآخرة فيكون الإنسان فيها كأنه مسافر أو بعيد عن وطنه «الجنة» في الآخرة. وبهذا يكون استخدام كلمة غريب أو غرباء بقصد الشذوذ أو الخروج عما ألفه الناس عامتهم أو علماؤهم من فهم لنصوص القرآن أو السنة فيه شيء من العنت والعسف.

(١) معجم مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. راجعه وعلق عليه أنس

محمد الشامي. دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٨م. ص ٧٠٩.

(٢) المصباح المنير. أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي. تحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوي. دار المعارف. ص ٤٤٤.

(٣) المعجم الوجيز. مجمع اللغة العربية. مصر. ١٩٩٦م. ص ٤٤٧.

أراد محمود أن يقنع الناس بهذا الحديث ليقبلوا منه كل خروج عن المنهجية في فهم نصوص القرآن والسنة إذ يقول «وهو، إلى جدته غريب كل الغرابة، ولا غرو»^(١). واستعمل في ذلك كلمة لا غرو «الغين والراء والحرف المعتل أصل صحيح، وهو يدل على الإعجاب والعجب لحسن الشيء»^(٢). فقد اعتبر محمود كتابه جديداً قولاً واحداً سيما أنه قائم على الفهم عن الله وأذن له في الكلام «هو رجل آتاه الله الفهم عنه من القرآن، وأذن له في الكلام..»^(٣). ومن ثم لا بد أن يقتنع به الناس سواء فهموه أم لا. القرآن يقول عن نفسه أنه سهل وميسر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (القمر: ١٧ - مكية) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (مريم: ٩٧ - مكية) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الدخان: ٥٨ - مكية). ومحمود يقول عن كلامه أنه جديد وغريب، رغم ذلك عاب على الناس معارضتهم لغريبه في الكتاب ووصفهم بأوصاف كلها موسومة بالسوء «ولقد تعرض بعضهم لهذا الكتاب فتورطوا في معارضة ما لم يحسنوا فهمه، ولم يطبقوا الصبر عليه، فجاءت معارضتهم مثلاً من سوء الفهم، وسوء التخريج، وسوء القصد أيضاً، ولسنا بحاجة لأن نرد على هؤلاء، فإن سوء صنيعهم يكفيننا إياهم»^(٤). كان هذا رد من أراد أن يشيع حسن التصرف في الحرية الفردية «الحرية في الإسلام مطلقة، وهي حق لكل فرد بشري، من حيث انه بشري، يصرف النظر عن ملته أو عنصره وهو حق يقابله واجب، فلا يؤخذ إلا

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢

(٢) مقاييس ص ٧٠٨

(٣) الرسالة الثانية، ص ١١

(٤) الرسالة الثانية، ص ١٢



به، وهذا الواجب هو حسن التصرف في الحرية»^(١). ونسي أنه الداعية للإسماح، ولم يستصحب القرآن وهو يقول: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤ - مدنية).

أراد محمود أن يعرف السنة تعريفاً جديداً «السنة هي عمل النبي في خاصة نفسه» الرسالة^(٢). من أدري محمود بخاصة نفس النبي ﷺ؟ إن الذي يعلم ما في النفوس هو الله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (هود: ٣١ - مكية). وعاد ليقول «فالسنة هي نبوته»^(٣). وأراد أن يعلي من قدر السنة على حساب الشريعة والنبوة على حساب الرسالة وأن يتجنب الصلاة على النبي ﷺ بإستعمال كلمة المعصوم ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧ - مدنية) هنا الخطاب للرسول ﷺ بالعصمة من الناس فقط. ومحمود يحتفي بالنبوة ولم يذكر الرسالة أو الرسول في كتبه كلها إلا في موضع ذم للرسالة الأولى وموضع مدح للرسالة الثانية. وبالمقابل أمر الله الناس أن يصلوا على النبي ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦ - مدنية) رغم هذا الأمر إلا أن محموداً لا يصلي على النبي ﷺ في كتبه كلها، فهو يستخدم دوماً كلمتي «النبي» و«المعصوم» ويتجنب استخدام كلمة «الرسول»، لعله ادخر الرسالة لنفسه.

يقول محمود: «الإسلام كما جاء به القرآن ليس رسالة واحدة وإنما هو رسالتان:

(١) الرسالة الثانية، ص ٣٩.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٣.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٣.

رسالة في طرف البداية أو هي مما يلي اليهودية، ورسالة في طرف النهاية أو هي مما يلي المسيحية، وقد بلغ المعصوم كلتا الرسالتين، بما بلغ به القرآن، وبما سار السيرة ولكنه فصل الرسالة الأولى بتشريع تفصيلاً وأجمل الرسالة الثانية إجمالاً، اللهم إلا ما يكون من أمر التشريع المتداخل بين الرسالة الأولى والرسالة الثانية^(١).

إن هذه المقولة يتضح معناها جلياً إذا ما وضعناها في الإطار العام للفكرة الجمهورية - نعني الإطار الذي يؤطر كل مقولاتها وهو «الإنسان الكامل» والذي هو الغاية التي يطلبها محمود والجمهوريون! وبلوغ هذه الغاية كما يزعم الجمهوريون يكون بالسير والارتقاء من الغلظة والجفوة إلى اللطف والإنسانية ومن حرية مقيدة إلى حرية مطلقة لا قيد عليها... وهذه الحرية المطلقة كما يزعم الجمهوريون هي حظ الإنسان الكامل!.

إذا عدنا إلى النص السابق نجد أن محموداً يتخذ من مجتمع اليهود مثلاً للمجتمع البدائي الغليظ الذي شدد عليه في التشريع في حين أن المسيحية تمثل الطرف اللطيف والإنسانية المفرطة، وبناءً على هذه المقارنة التي عقدها يقرر محمود أن الرسالة الأولى والتي هي عنده تلك التي بلغها المصطفى ﷺ وفصلها تفصيلاً هي في طرف البداية، أي ما يلي اليهودية... فبداية السير من النقص إلى الكمال في «الفكرة الجمهورية» تكون أقرب إلى الغلظة والجفوة منها إلى الإنسانية، أما الرسالة الثانية فهي مما يلي المسيحية المفرطة في اللطف والإنسانية.

يقول محمود: «الإسلام فكر يرتقي السالك فيه على درجات سلم سباعي أولها الإسلام وثانيها الإيمان وثالثها الإحسان ورابعها علم اليقين وخامسها علم عين اليقين وسادسها علم حق اليقين وسابعها الإسلام من جديد... ولكنه في هذه الدرجة يختلف عنه في الدرجة الأولية اختلاف مقدار - فهو في الدرجة الأولية انقياد الظاهر فقط، وهو في

(١) الرسالة الثانية، ص ١٠٧.



الدرجة النهائية انقياد الظاهر والباطن معاً»^(١).

والدرجات الثلاث الأولى في هذا السلم وهي الإسلام والإيمان والإحسان تشكل الرسالة الأولى من الإسلام وهي ما يعرف في «الفكرة الجمهورية» بمرحلة العقيدة - في حين أن الدرجات الثلاث الأخرى تشكل الرسالة الثانية وهي ما يعرف في «الفكرة الجمهورية» بمرحلة الحقيقة أو العلم.

يقول محمود: « وجليّة الأمر أن الإسلام كما هو وارد في القرآن قد جاء على مرحلتين: مرحلة العقيدة ومرحلة الحقيقة، أو سمها مرحلة العلم... وكل مرحلة من هاتين المرحلتين تقع على ثلاث درجات... فأما مرحلة العقيدة فدرجاتها الثلاث هي: الإسلام والإيمان والإحسان... وأما مرحلة العلم فدرجاتها الثلاث هي علم اليقين وعلم عين اليقين وعلم حق اليقين ثم تجيء بعد ذلك الدرجة السابعة من درجات سلم الترقى السباعي وتلك هي درجة الإسلام وبها تتم الدائرة»^(٢).

وقبل أن ندخل في تفصيل هذه الرسالة الثانية نطرح السؤال التالي وهو: ما هو الدليل - من النقل أو العقل - الذي يؤيد زعم محمود بأن هناك رسالة ثانية للإسلام!! خاصة وأننا نعلم علماً يقيناً من القرآن الكريم والسنة المطهرة أن الرسول ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين؟! يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾ الأحزاب: ٤٠

يقول محمود: « وإنه لحق أن النبوة قد ختمت ولكنه ليس حقاً أن الرسالة قد ختمت... إلى أن يقول: ومعلوم أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً... ولكن النبوة ما هي؟! النبوة هي أن يكون الرجل منبأ عن الله ومنبأ عن الله... أي متلقياً المعارف عن الله بواسطة الوحي وملقياً المعارف عن الله إلى الناس على وفق ما تلقى، وبحسب ما

(١) الرسالة الثانية من الاسلام، ص ١٤.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٥، ١٦.

يطبق الناس... فبمرتبة التلقي عن الله يكون الرجل نبياً وبوظيفة الإلقاء إلى الناس يكون رسولاً... إلى أن يقول: إن النبوة لم تختتم حتى استقر في الأرض كل ما أرادت السماء أن توحيه إلى أهل الأرض من الأمر... واستقراره في الأرض هو السبب في ختم النبوة.. وأما الحكمة في ختم النبوة فهي أن يتلقى الناس من الله كفاً من غير واسطة الملك جبريل^(١)...! هذا الذي يقوله محمود من أن الحكمة في ختم النبوة هي أن يتلقى الناس عن الله كفاً... إما أنه نتج عن سوء فهم منه أو أنه نتج عن سوء قصد وهو ما نرجحه!! ذلك أن التلقي عن الله كفاً هو «من النبوة» وليس هو «الحكمة في ختم النبوة» كما يدعي محمود محمد طه؛ فمن المعروف لدينا أن وحي الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ كانت له كفيات مختلفة منها: تكليم الله إياه بلا واسطة، وهذا يكذب مقولة محمود محمد طه: «وأما الحكمة في ختم النبوة فهي أن يتلقى الناس من الله كفاً من غير واسطة الملك جبريل»!!.

أما قول محمود: «وإنه لحق أن النبوة قد ختمت ولكنه ليس حقاً أن الرسالة قد ختمت، فنخطئه بقولنا: معلوم أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، كما يتفق معنا في ذلك محمود والجمهوريون... فإذا اختتمت النبوة تختتم من ثم الرسالة، فالنبوة أن ينبأ- أي أن يوحى إليه. والرسالة أن يبلغ ما أوحى إليه... فإذا انقطع الوحي تنقطع الرسالة!!

وهنا لا يجد محمود مناصاً من الدخول في منعطف آخر فيقول: «إن الرسالة لم تختتم لأنها ليست رسالة نبوة وإنما هي رسالة تقوم على التلقي من الله كفاً بدون واسطة الملك جبريل»!. وكأن محموداً يميز بين رسالة تقوم على نبوة وأخرى تقوم على التلقي عن الله كفاً وأن الثانية تبدأ بعد ختم الأولى وهذا يخطئه ما ذكرناه سابقاً من أن التلقي عن الله كفاً هو واحد من كفيات الوحي الذي يوحى الله تعالى لأتباعه ورسوله الكرام، وأن التلقي عن الله تعالى سواء أكان كفاً أو بواسطة جبريل عليه السلام هو

(١) الرسالة الثانية، ص ١٠، ١١.



«النبوة» كما يعرفها أهل العلم.

ذكرنا أن محمودًا يزعم أن الإسلام رسالتان أولى قامت على فروع القرآن وثانية تقوم على أصوله. ويزيد محمود الأمر تفصيلاً بقوله: «لقد نزلت الأصول في مكة فيما هو معروف عندنا بالآيات والصور المكية، وقد استمر نزولها خلال ثلاث عشرة سنة فلما لم يستجب لها الجاهليون... فظهر عملياً أنها فوق طاقتهم... فسحبت من التداول في مستوى التشريع... ونزل التنزيل على حكم الوقت... وجاءت آيات الفروع... وهي ما تعرف عندنا بالآيات المدنية وبالصور المدنية»^(١).

ويقول أيضاً: «آيات الأصول هي الآيات المكية وآيات الفروع هي الآيات المدنية... ولقد اعتبرت آيات الأصول يومئذٍ منسوخة... واعتبرت آيات الفروع صاحبة الوقت... وما نسخ آيات الأصول يومئذٍ إلا إرجاء ليوم يجيء فيه وقتها وذلك حين تستعد البشرية لتطبيقها»^(٢).

وخلاصة القول أن محمودًا يزعم أن آيات الأصول هي أول ما نزل من القرآن في مكة المكرمة، غير أن الناس قصرُوا عن شأوها وظهر عملياً عجزهم عن تطبيقها لأنها كانت في مستوى يفوق طاقتهم... فنسخت من ثم آيات الأصول -القرآن المكي - «الرسالة الثانية» - والنسخ في «الفكرة الجمهورية» يعني الإرجاء - وطبقت آيات الفروع - القرآن المدني - «الرسالة الأولى» في ذلك الوقت... أما آيات الأصول، وهي ما تقوم عليه الرسالة الثانية، تظل منسوخة إلى أن يجيء وقتها وتجيء أمتها فتبعث من جديد لتكون هي صاحبة الوقت، وتنسخ من ثم آيات الفروع التي كانت صاحبة الوقت في القرن السابع الميلادي.

كيف يزعم محمود أن هذه الرسالة الثانية! والتي لم يتم تفصيلها قد ظهر عملياً

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، محمود محمد طه، ط ٣، السودان، أم درمان، ١٩٧٩م - ص ٣٩.

(٢) القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري، محمود محمد طه، ص ٢٦.

أنها فوق مستوى المكلفين في ذلك الوقت؟! فهذا تناقض واضح لا يختلف عليه اثنان! إذ كيف نصف قوّمًا بالعجز عن أداء واجب لم يبين لهم؟! أي لم يفصل لهم المطلوب فيه أو منه أو له؟! وكيف يواجه محمود قول الله تعالى: «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون» والذي يبين أن الرسول ﷺ مكلف من قبل ربه تعالى بتبليغ القرآن الكريم وتبيينه للناس... إن من تمام تبليغ الرسول ﷺ لرسالة ربه أن يبين للناس ما نزل إليهم. يقول محمود ردًا على ذلك أن «ما في جملة «ما نزل إليهم» لا تعود إلى الذكر وإنما تعود إلى جزء من الذكر، ينصب عليه الأمر بالتبيين وهو ما يخص الرسالة الأولى»^(١). وتهافت هذا الذي يقوله محمود واضح لكل من له معرفة باللسان العربي. فعلماء اللغة يقولون إن لفظ «ما» في قوله تعالى «ما نزل إليهم» يفيد العموم ولا يفيد الجزئية... أي أن التبيين يقع على جميع القرآن الكريم، لا على بعضه! وإذا ما افترضنا - جدلاً - أن لفظ ما يفيد الجزئية كما يزعم محمود فمن أين له أن هذا الجزء هو ما يخص ما أسماه «بالرسالة الأولى»! وهي التي تتعلق بأمة معينة! الله سبحانه وتعالى يقول: لتبين «ما نزل إليهم» - أي لكل الناس!!.

كذلك يتضح: «إن ما يزعمه محمود من أن القرآن المكي نسخ بالقرآن المدني - والنسخ في «الفكرة الجمهورية» كما ذكرنا يعني الإرجاء - لهو قول يجافي الحقيقة تمامًا... لأننا لو تعرفنا على خصائص القرآن المكي لثبتت لنا رقة هذا القول وفجاسته؛ إن من خصائص القرآن المكي:

أولاً: الدعوة إلى التوحيد وإثبات الرسالة والبعث والجزاء وذكر القيامة وأحوالها والنار وعذابها والجنة ونعيمها.

ثانيًا: الإخبار عن الأمم السابقة وقصص الأنبياء بغرض العظة والاعتبار.

ثالثًا: وضع الأسس العامة لمكارم الأخلاق.

هذه هي بعض خصائص القرآن المكي... فماذا يعني محمود إذن بأن القرآن

(١) الرسالة الثانية من الإسلام، ص ١٣٥.



المكي نسخ بالقرآن المدني؟! كيف ينسخ التوحيد وإثبات الرسالات والبعث؟! وكيف تنسخ الأخبار؟! وكيف تنسخ مكارم الأخلاق؟! هذا مما لا يجوز النسخ فيه سواء أن النسخ يعني الإلغاء أو الإرجاء!!.

أما القرآن المدني فهو القرآن الذي جاء مبيناً للعبادات والمعاملات والحدود وسائر التكاليف... أي هو القرآن الذي جاء بالتشريع لكافة مناحي الحياة سواء الاقتصادية أو القانونية أو الاجتماعية أو السياسية أو الشخصية... وهذا يعني إن القرآن المدني والقرآن المكي يؤسسان لحياة الفرد والمجتمع عقيدة وشرعة، فلا يمكن - من ثم - الاستغناء بالعقيدة عن الشريعة أو بالشرعة عن العقيدة!!.

أمة المؤمنين وأمة المسلمين

أمة المؤمنين هي التي يزعم محمود أنها أمة ما أسماه «بالرسالة الأولى»، وهي عنده الأمة التي تضم الصحابة ومن جاء بعدهم إلى يومنا هذا...

يقول محمود: «الرسالة الأولى هي التي وقع في حقها التبيين بالتشريع وهي رسالة المؤمنين والمؤمنون غير المسلمين، وليس الاختلاف بين المؤمن والمسلم اختلاف نوع وإنما هو اختلاف مقدار فما كل مؤمن مسلم ولكن كل مسلم مؤمن...»^(١). ويقول: «أمة البعث الأول - أمة الرسالة الأولى - اسمها المؤمنون لدى الدقة، وإنما أخذت اسم المسلمين الذي ينطلق عليها عادة من الاسلام الأول وليس على التحقيق من الاسلام الأخير»^(٢).

المؤمن الذي ينتمي إلى أمة المؤمنين - كما يزعم محمود - يرتقي فقط ثلاث درجات من درجات السلم السباعي الذي حددته الفكرة الجمهورية وهذه الدرجات هي التي تشكل - عند محمود - الرسالة الأولى من الإسلام، وهي ما يعرف في الفكرة الجمهورية - كما ذكرنا - بمرحلة العقيدة أو مرحلة الإيمان. هذه الدرجات هي الإسلام - الإيمان - والإحسان، أما المسلم - عند محمود - وهو الذي ينتمي إلى أمة المسلمين - أمة الرسالة الثانية - فإنه يبدأ بما بدأ به المؤمن في أمة المؤمنين أي أنه يبدأ بالإسلام فالإيمان ثم الإحسان... غير إنه لا يتوقف في ترقيه عند هذا الحد بل يتعدى هذه الدرجات الثلاث إلى ما بعدها من درجات سلم الترقى وهي علم اليقين، علم عين اليقين، علم حق اليقين، ثم يتوج ذلك بالإسلام الأخير كما يزعم محمود. هذه الدرجة التي تبدأ بعلم اليقين تدرجاً إلى الإسلام الأخير هي ما يعرف في «الفكرة الجمهورية» بمرحلة الحقيقة أو مرحلة العلم كما سبق ذكره... وهذا يعني أن المسلم في الفكرة

(١) الرسالة الثانية من الإسلام، ص ١٣٥.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٠٨.



(٣) الرسالة الثانية من الإسلام، ص ١٣٨

المسلمين!! كيف يعد الله لهم جناتٍ خالدين فيها أبداً وهو القائل جل جلاله ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)؟!

وقد تزعم «الفكرة الجمهورية» أن قول الله تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) مخاطب به أمة الرسالة الثانية التي لم يتحقق ظهورها بعد ويعني بها محمود «الجمهوريين ورسولهم محمود»!! ولكن هذا تفسير لا تعطيه الآية الكريمة لأن لفظ «من» يفيد العموم ولا يتعلق بأمة دون أمة - فكل من يتبع غير الإسلام ديناً من يوم نزول الآية الكريمة وحتى قيام الساعة فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين!! كذلك زعمه أن الرسول ﷺ «كأنما جاء إلى أمته - أمة المؤمنين - من المستقبل». لأنه هو المسلم الوحيد بين أمته «أمة المؤمنين» لهو تطاول على نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام وسوء أدب معه خاصة إذا ما علمنا أن محموداً يعني بذلك أن رسولنا الكريم هو واحد من أمة المسلمين.

الإسلام والإيمان

أولاً الإسلام:

أراد محمود أن يعلي الإسلام على الإيمان فجعل من الإسلام فكراً «الإسلام فكر يرتقي السالك فيه على درجات سلم سباعي»^(١). الإسلام ليس فكراً بل هو دين ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩ - مدنية). ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥ - مدنية). ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣ - مدنية). ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ

(١) الرسالة الثانية، ص ١٤



إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ (النساء: ١٢٥ - مدنية). ولعظم أمر الإسلام يشرح الله صدر من سيدخل في الإسلام ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ (الأنعام: ١٢٥) - مكية). فيتسع صدره للإسلام ﴿أَقَمْنِ شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَلَيْسَةِ فَلُوهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٢﴾ (الزمر: ٢٢) مكية). بالمقابل يشرح الكافر صدره للكفر ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ (النحل: ١٠٦ - مكية). وسعة الصدر كانت سؤال موسى ﷺ لربه بعد أن كلمه وطلب منه الذهاب إلى فرعون ليهديه للإسلام ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿٥﴾ (طه: ٢٥ - مكية).

وهي من أنعم الله على نبيه ﷺ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿١﴾ (الشرح: ١ - مكية). والإسلام دعوة من الله للناس ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧﴾ (الصف: ٧ - مدنية)

وهو دين نوح ﷺ ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ ي (ونس: ٧٢ - مكية). وإبراهيم ﷺ وذريته من بعده ﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَإِرْزَاْنَا مَسْكِينًا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ (البقرة: ١٢٧ - ١٢٨ - مدنية)

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِعْ قَالَ أَسَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنْ أَلَّهِ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ (البقرة: ١٣١ - ١٣٣ - مدنية). ولوط

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (الذاريات: ٣١ - ٣٦ - مكية). وتبعهم في ذلك موسى عليه السلام بقومه والأنبياء من بعده الذين جاؤوا على التوراة ﴿وَأَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَّحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ (المائدة: ٤٤ - مدنية) ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقُومُ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤ - مكية). وكذلك كان عيسى عليه السلام ومعه الحواريين ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٢ - مدنية) ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ١١١ - مدنية). وأمر محمد ﷺ والمؤمنون معه أن يقرؤوا بالإسلام ﴿قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (لَا شَرِيكَ لَهُ) ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣ - مكية). ﴿فَإِن حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَسْلَمْتُمْ فَإِن أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٢٠ - مدنية) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٤ - مدنية) وقد أسلمت السماوات والأرض قيادها لله طوعاً أو كرهاً ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ ءَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: ٨٣ - مدنية) ولأن السماوات والأرض أسلمتا قيادهم لله فقد أتياه طائعين ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١ - مكية). لذلك لا يجوز في حق النبي ﷺ ومن معه أن يتبعوا من يتبعي غير دين الله، فأمر هو ومن معه بالإيمان بما كانت عليه الرسل، على أن يكون



هذا الإيمان قائماً على الإسلام ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ وَٰمُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٤ - مدنية). وهو دين الجن ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (الجن: ١٤ - مكية).

الإسلام هو الحالة التي تلي حالة الكفر مباشرة دون تمهيد كما حدث لفرعون وسحرته ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَّرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢) لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٣٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّتْ مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٣ - ١٢٦ - مكية). ﴿وَجَوْرًا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠) مكية. أي صاروا مسلمين كأول ردة فعل. ملكة سبأ كانت كافرة تسجد للشمس ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل: ٢٣ - ٢٤ - مكية). وأكد القرآن على كفر قومها وأنها كانت تعبد غير الله ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتِ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا

كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (النمل: ٤٣ - مكية). وحينما حصل الانقلاب العقدي في حياتها صارت على الفور من المسلمين ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤ - مكية). وهذا ما كان يخطط له سليمان عليه السلام فقد أرسل لها ولقومها الخطاب بالإسلام ﴿قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَىٰ كِتَابٍ كَرِيمٍ﴾ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ أَنِّي وَأَتُونِي مَسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٢٩ - ٣١ - مكية).

وقد توقع إسلامهم بصيغة الواثق من الانقلاب العقدي لدى القوم ﴿قَالَ يَأَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيُّكُمْ

يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ (النمل: ٣٨ - مكية). ومرد ذلك ما علمه من اتباعهم لمليكتهم في كل شيء، حرباً وسلماً أو كفراً وإسلاماً ﴿أَذْهَبَ بِكِكُنِيَ هَذَا فَأَلَقَتْهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ الْإِنِّي أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤١﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٤٣﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَىٰ بِقُوَّتٍ وَأُولُوا بِأَيِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٤٤﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٤٥﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (النمل: ٢٨ - ٣٥ - مكية).

إذن الإسلام هو الدين المعتمد عند الله، وهو دين كل الأنبياء والرسل، وهو الحالة التي تلي الكفر حين يحدث الانقلاب العقدي. وهو بوابة الخروج من الدين للكفر ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ (التوبة: ٧٤ - مدنية). ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٠ - مدنية). وقد قامت أمم من المسلمين من قبل الأمة التي بعث فيها النبي محمد ﷺ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَكُونِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِاهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِاهَا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا فَاعْمَلُوا ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا



كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ (البقرة: ١٢٧ - ١٣٦ - مدنية)

وهكذا تتبع القرآن إنسياب الإسلام في الأمم السابقة وهو يصبغهم بالإسلام والحنيفية التي كانت ملة إبراهيم عليه السلام. وبرأ القرآن إبراهيم عليه السلام بإسلامه وحنيفيته من اليهودية والنصرانية ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٦٧ - مدنية) ويأتي محمود بضعف منهجيته ليحشر الإسلام بينهما «ولما كان الإسلام الذي جاء به محمد وسطاً بين اليهودية والنصرانية، فإن القرآن قد جاء في سياقه بالجمع بين خصائص اليهودية، وخصائص النصرانية»^(١)

ولما قال الله ما كان إبراهيم عليه السلام يهودياً ولا نصرانياً، قال إن أولى الناس به من بعد أتباعه، هذا النبي والذين معه ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٦٨ - مدنية). وذلك لأنه دعا الله أن يبعث هذا النبي ومعه الكتاب والحكمة، وأطلق اسم المسلمين على من معه ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٨ - مدنية). وقد أقر الله دعوته وجعل النبي ﷺ ومن معه مسلمين، وكان إسلامه ﷺ مؤكداً شديداً ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصَالَهُ الدِّينَ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الزمر: ١١ - ١٢ - مكية). ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٩١ - مكية). ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ

أَسْلَمْتُ وَجَّهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٠﴾ (آل عمران: ٢٠ - مدنية)

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُ قُلٌّ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١﴾﴾ (الأنعام: ١٤ - مكية). ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ (غافر: ٦٦ - مكية). وقد أمر الله الذين كانوا مع النبي ﷺ أن يكونوا مسلمين ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَأَمَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ (العنكبوت: ٤٦ - مكية). وبعد أن قالوها أقرهم عليها الله وسماهم المسلمين ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَلِذَاتِ وَالْقَلِذَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِمِينَ وَالصَّالِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ (الأحزاب: ٣٥ - مدنية). ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَزِينُ عِيدَاتٍ سَيَّحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ (التحریم: ٥ - مدنية).

وقد ظهر الارتباط الكبير بالمسلمين الذين كانوا مع النبي ﷺ بإبراهيم عليه السلام، ذلك حين دعتهم يهود والنصارى إلى ملتهم، فاختاروا الحياة على ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (البقرة: ١٣٥ - مدنية). وقد توفيت ذريته على الإسلام حسب وصية يعقوب عليه السلام ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنْ اللَّهُ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة: ١٣٦ - مدنية). وقد تأكد يعقوب عليه السلام من ذلك حين حضره الموت ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة: ١٣٦ - مدنية).



(البقرة: ١٣٣ - مدنية) وبالفعل كان يوسف عليه السلام مثلاً مؤكداً لذلك ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوفِّقَنِي مُسْلِمًا وَآلِحِقَنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٣١﴾﴾ (يوسف: ١٠١ - مكية). لأجل كل هذا تولى الرب بنفسه وصية أمة النبي ﷺ أن تموت على الإسلام كما فعلت ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (آل عمران: ١٠٢). وقد ارتبط الإسلام بالكتاب عند الأمم السابقة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسَامُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيِّنُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا اللَّهَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ (المائدة: ٤٤ - مدنية). ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٤﴾ وَإِذَا يُنْزِلُ عَلَيْهِمْ قُلُوبٌ آمَنُوا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ (القصص: ٥٢ - ٥٣ - مكية).

وارتبط عند النبي ﷺ بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٨ - مكية). ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ (النحل: ١٠٢ - مكية). لهذا كان النبي ﷺ هو الشهيد على الناس يوم القيامة بما أنزل الله عليه من كتاب ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ (النحل: ٨٩ - مكية). في ذلك اليوم العصيب يتمنى الكفار لو كانوا مسلمين ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ (الحجر: ٢).

أدار القرآن حواراً طويلاً مع أهل الكتاب، كان كله يدور حول الإسلام ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ هَآنُكُمْ هَؤُلَاءِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ تَرَجَّاءَ كُمْ رَسُولٌ مَّصْدَقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ (آل عمران - مدنية) وقد واسى الله نبيه بألا يحزن على إعراض الناس من المشركين أو من أهل الكتاب عن الإسلام ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٨٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٦﴾ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (هود: ١٢ - ١٤ - مكية). ليس مطلوباً من النبي ﷺ فعل المستحيل من أجل إسلام الناس ﴿يَا لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أَرْسَلْنَا مِنْ دُونِ النَّبِيِّينَ مَعْزِينَ مِنْهُمْ لَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّكَ يَسْمَعُونَ إِنَّمَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَحْوِهِ لَوْلَا جَعَلْنَاهُ فِئْتَةً تُفْقِطُ السَّمْعَ لَيَسْمَعَنَّهُمْ كَذِبُوا عَلَيْهِمْ فَخَالَتْهُمُ أُذُنُهُمْ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيكَانِ فِيهِ خَزَائِنُ خَبْرٍ أَلَيْسَ لَنَا بِخَزَائِنٍ أَوْ لَنَا بِبَابٍ مِّنْ دُونِ الْبَابِ فَهُمْ عَلَىٰ سَبِيلٍ ﴿٨٨﴾﴾ (النمل: ٨٠ - ٨١ - مكية). هم أحرار، لكن المعاملة لن تكون واحدة في الآخرة ﴿أَفَجَعَلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٨٩﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٩٠﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٩١﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَآخِيزٌ ﴿٩٢﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَآخِيزٌ ﴿٩٣﴾ سَأَلَهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيْرٌ ﴿٩٤﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٩٥﴾﴾ (القلم: ٣٥ - ٤١ - مكية).

الأعراب ذكروا في القرآن عشر مرات، وكانت كلها في سور مدنية، وأكثرها في سورة التوبة. وكلها كانت تحكي مواقف مخزية للأعراب تجاه دعوة الإسلام، وكلها خذلان للنبي ﷺ في أحلك ظروف الدعوة، منها خذلانهم له يوم تبوك وما سمى بجيش العسرة ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ



الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ (التوبة: ٩٠ - مدنية) وقد لامهم القرآن على أفعالهم تلك ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ (التوبة: ١٢٠ - مدنية) لم يأبها لقول الله تعالى، ذلك لأنهم كانوا إما شديدي الكفر أو شديد النفاق ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٣﴾﴾ (التوبة: ٩٧ - ٩٨ - مدنية) وقد تمرسوا على النفاق ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ (التوبة: ١٠١ - مدنية) ويوم الأحزاب تمنى المنافقون لو كانوا مع إخوانهم الأعراب خارج المدينة يتسمعون أخبار المسلمين المحاصرين ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُ مِنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٩٥﴾﴾ (الأحزاب: ٢٠ - مدنية) وكان المنافقون يعلمون طبع الأعراب في التخلف عن النبي ﷺ ومقدرتهم على خلق الأعذار. وهو ما حدث في خروجه ﷺ للعمرة ورجوعه من الحديبية ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّتِمْهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ (الفتح: ١١ - مدنية) وقال لهم القرآن: لن تكون هذه آخر معركة، بل هنالك ما هو أخطر ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسَالِمُونَ فَإِنْ طَئِعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٩٧﴾﴾ (الفتح: ١٦ - مدنية) بعد كل هذا التاريخ المخزي جاء الأعراب يمنون على النبي ﷺ إسلامهم، فقال لهم القرآن لا تمنوا الإسلام

على الرسول ﷺ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان كمرحلة تستحق المن، لأن الإسلام كان لكم في «مرحلة الانقلاب العقدي» ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) ﴿(الحجرات: ١٧ - ١٨ - مدنية) فإن كان هنالك منُ فالله أولى به إذ يمن على المؤمنين نعمته عليهم﴾ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦٤) ﴿(آل عمران: ١٦٤ - مدنية) وعرف لهم صفات المؤمنين﴾ ﴿يَجْعَلُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْلِيَّاءَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٩) ﴿(الحجرات: ١٥ - مدنية) وهذه الصفات لا تنطبق عليهم﴾ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٤) ﴿(الحجرات: ١٤ - مدنية) وحتى لا يكثر من الجدال كما أكثر من الأعذار من قبل قال الله لهم «ولكل من هم على شاكلتهم - مثل الجمهوريين - إلى أن تقوم الساعة»: إنكم لا تعلمونه دينه﴾ ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٦) ﴿(الحجرات: ١٦ - مدنية) لكنهم لم يكونوا على قلب رجل واحد فقد كان بينهم مؤمنين﴾ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُفْقُ قُرْبَتِ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتٍ الرَّسُولَ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٩٩) ﴿(التوبة: ٩٩ - مدنية).

هكذا كانت الأعراب فريقين، فريق أسلم وما يزال قريب من مرحلة الانقلاب العقدي، وعنده استعداد للرجوع عن الإسلام؛ وفريق أسلم ثم آمن وليس لديه بعد أي استعداد للرجوع إلى الكفر. توجه القرآن بخطاب عام للمسلمين وجعل إسلامهم أحسن دين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ



اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ (النساء: ١٢٥ - مدنية) وقولهم فيه أحسن الأقوال ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (فصلت: ٣٣ - مكية).

وجعل الإسلام دعاء من برّ بوالديه ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلَتُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ (الأحقاف: ١٥ - ١٦ - مدنية) خاصة وأن بر الوالدين كان أول قيمة إنسانية منذ عهد نوح ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ (نوح: ٢٨ - مكية). لذلك إرتبط الإسلام بالمغفرة ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ نُمْ لَا تَنْصُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (الزمر: ٥٣ - ٥٥ - مكية). والأمن من الخوف والحزن ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (الزخرف: ٦٨ - ٦٩ - مكية).

بعد استعراض آيات القرآن التي تناولت الإسلام بتفصيل شديد، يتبين للناس شيان:

لا يستطيع دارس القرآن أن يجد خطأ فاصلاً بشأن الإسلام بين ما نزل من القرآن في مكة المكرمة «مكي»، وما نزل من القرآن في المدينة المنورة «مدني». بل على العكس تماماً يجد تداخلاً رائعاً، وكل مقطع من القرآن من مدني ومكي يتمم المعني فيما بينهما في تناغم واتساق بديعين.

الشيء الثاني لا يجد الدارس شيئاً مما إدعاه محمود من حيث الإسلام الأول الذي

لا عبرة به عند الله «وهذا هو الذي أسميناها الإسلام الأول وقلنا أنه لا عبرة به عند الله»
الرسالة ص ١٣٦.

ثانياً الإيمان:

إن تناول محمود لقضايا الإيمان والأمة المؤمنة يعطي انطباعاً بأن الإيمان قضية هامشية، وأن الأمة المؤمنة هي أمة متخلفة وأقل شأنًا من الأمة المسلمة. وكما هو معلوم فقد قسم محمود القرآن إلى قرآنيين، مكّي «الأصول» ومدني «الفروع» وهو منسوخ. وما دام القرآن المكّي هو الأصل، وهو قرآن أمة المسلمين، فالمنطق يتجه لأن يقرر بأن قضايا الإيمان فيه هامشية. وكذلك يكون عدد الآيات التي تناولت شأن الإيمان فيه أقل من تلكم التي تناولت قضايا الإسلام. لكن الوضع على العكس من ذلك تمامًا. لقد تابعت الآيات التي تناقش قضايا الإيمان في القرآن المكّي بصورة لا تخطئها العين. أي قراءة واعية تنتبه لكلمة إيمان واشتقاقاتها، في مصحف مصنف في السور إلى مكّية ومدنية بجوار اسمها، فإن النتيجة ستكون مذهلة لكثرة الآيات فيما يسميه محمود بالقرآن المكّي، التي تفوق في عددها الآيات التي تناولت الإسلام. ولعله من الملفت للنظر أن المؤمنين لهم سورة «مكّية» باسمهم «سورة المؤمنون وهي رقم ٢٣ حسب ترتيب السور في المصحف»، بينما لا توجد سورة باسم المسلمين في كل القرآن. مع ملاحظة أن النداء بـ «يا أيها» قد أختص به المؤمنون من دون المسلمين. سيتم تناول قضايا الإيمان في القرآن المكّي حصراً دون المدني، ذلك لأن محموداً يعتبر الإيمان من خصائص القرآن المدني «الفروع» وليس القرآن المكّي «الأصول».

تناول القرآن المكّي أمر الإيمان مع كل الرسل كما فعل في أمر الإسلام من قبل، فبدأ بنوح عليه السلام ثم تبعه ببقية الرسل «عليهم السلام» حتى وصل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الصافات: ٧٩ - ٨١) ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ (الصافات: ١٠٩ - ١١١) ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٥٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ



﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ (الصافات: ١٢٠ - ١٢٢) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخُذْ هَذَا فَخُذْهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾ (النمل: ١٥) ﴿وَذَا النُّورِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ (الأنبياء: ٨٧ - ٨٨) كذلك كانت أم موسى عليها السلام وهي ليست من الرسل ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾ (القصص: ١٠) وكان الإعلان عن رسالة محمد ﷺ ونبوته مرتباطان بالإيمان ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾ (الأعراف: ١٥٨). وقد قص الله على نبيه ﷺ أنباء هؤلاء الرسل المؤمنين ليثبت به فؤاده وموعظة للمؤمنين ﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ (هود: ١٢٠).

وقد أولى القرآن قضايا الإيمان اهتمامًا كبيرًا. نعمة القرآن تستوجب الحمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِمَنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ (الكهف: ١ - ٢) لأن الله أوحاه للنبي ﷺ الذي لم يكن يعرف الكتاب والإيمان نفسه، وجعل منه نورًا للهداية ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ آمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٢﴾ (الشورى: ٥٢) وهو قرآن يهدي لأفضل الخيارات ويبشر المؤمنين بالأجر الكبير ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٩﴾ (الإسراء: ٩) ﴿الْبَيْعُ الْعَيْنُ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ (النمل: ١ - ٢)

وهذه النعمة مرتبطة بصلاة الليل والإنفاق اللتين لطالما تحدث عنهما محمود ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٥) ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨) ﴿السجدة: ١٥ - ١٨. وربما يكفر به بعض الناس الذين بينهم وبين القرآن حجاب سميك ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (الإسراء: ٤٥) فلا يضيق صدرك يا محمد؛ هذا الكتاب مصمم لإلزام الناس من العواقب الوخيمة حال الكفر، ويذكرهم بالأجر الكبير حال الإيمان ﴿كَتَبْنَا نُزْلَ الْإِنشَاءِ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٢) ولن يؤمن أكثر الناس ولو حرصت ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١٠٣) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩) ﴿يُونِسُ: ٩٩) لأن الله ترك لهم الخيار في الإيمان والكفر ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩).

آية الحرية هذه التي هلل لها محمود كثيرًا في القرآن المكي، «ولسوء حظ محمود، ولضعف منهجيته»، كانت مرتبطة بالإيمان وليس الإسلام. في فضل الإيمان فصل القرآن المكي الأجر الكبير الذي ينتظر المؤمنين في آيات كثيرة، يبدأ في الحياة الدنيا بالعيشة الطيبة حيث يتساوى الذكر والأنثى في ذلك ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْأُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧) ولهم الأمن الكامل الذي كثيراً ما بحث عنه محمود ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْسَوْا بَأْسًا وَهُمْ مِّنْ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢) وهو الأمن من الخوف ﴿أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٤) هنا يجد محمود مراده في حربه



الضروس ضد الخوف وهو مرتبط بالإيمان وليس الإسلام. ويمتد هذا الأمن من الخوف إلى يوم القيامة ذلك اليوم العصيب ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (١١٢) لأن ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴿طه: ١١١ - ١١٢﴾ لأن الله حفظ لهم سعيهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ وَكِتُبُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ (الأنبياء: ٩٤) لذلك كان الوعد الأكيد بجنت الفردوس ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١ ﴿(المؤمنون: ١ - ١١) وهم مقيمون فيها ولا يتحولون عنها ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ ١٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ ﴿(الكهف: ١٠٧ - ١٠٨) ومع الفردوس لهم جنت أخرى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٩ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٠ (يونس: ٩ - ١٠) وستلحق بهم عائلاتهم المؤمنة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ٢١) كل ذلك بفعل حرص الرسول الكريم ورحمته للمؤمنين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) كيف لا يكون ذلك والمولى عز وجل يأمره بالترفق بالمؤمنين ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥).

بالمقابل فإن عدم الإيمان له عاقبة السوء في الحياة الدنيا ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ كَانُوا يُكْسِبُونَ﴾ ٨٢ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَاعِندِهِمْ مِنَ

الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي
عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴿(غافر: ٨٢ - ٨٥) وعندما تبرز الحجيم يوم القيامة
للمجرمين حينئذ يتذكرون الإيمان ويتمنون لو كانوا مؤمنين في الحياة الدنيا ﴿٨٣﴾ وَبُرِّزَتْ
الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٨٤﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَتَصَرَّوْنَ ﴿٨٦﴾ فَكَبَّوْا
فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَأْتِيهِمْ فِي ضَلَالٍ
مُتَّبِعِينَ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسِيتُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ
حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ (الشعراء: ٩١ - ١٠٤) ويتذكرون الإيمان ثانية عندما يقفون على
أعتاب النار وشفيرها ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا
وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأنعام: ٢٧) هنالك يمقتون أنفسهم التي أوردتهم المهالك بعدم
إيمان، والله أشد مقتًا لهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقَتِكُمْ
أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾﴾ (غافر: ١٠) هذه الصورة القرآنية عن النار
تجعل إيمان المؤمنين يزداد ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمُ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ
كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَبَرِّدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيحْنَا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا
يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ (المدثر: ٣١).

بعد استعراض آيات القرآن المكي «حصرًا» التي تناولت الإيمان بتفصيل شديد

يتبين للناس:

إن القرآن المكي - حسب تعبير محمود - لم يختص بقضايا الإسلام وحده، بل
كان تناوله لقضايا الإيمان مستفيضًا، بحيث لم يتسع المجال لتناولها كلها، وأنها كانت
أكثر من عدد الآيات التي تناولت قضايا الإسلام. ونفس الشيء ينطبق على القرآن
المدني. وبالنسبة فإن القرآن قد أولى الإيمان اهتمامًا عظيمًا.



إن قضية الإيمان متعمقة في تاريخ الدين مع كل الأنبياء وأتباعهم، وكان للنبي ﷺ وأتباعه نصيب كبير من هذا الإيمان. إن أمر الإيمان في غاية الخطورة في الدنيا وفي الآخرة.

برزت عدم المنهجية لدى محمود عندما أغمض عينيه عن كل هذه الآيات وغيرها مما لم يرد هنا. وهذا نوع من الانحياز الذي يضعف كل عمل بحثي، خاصة وأن محموداً يطلق على أعماله اسم «بحث».

إن مسألة الإسلام والإيمان بينها الرسول ﷺ وأصبحت معلومة لعامة المسلمين بالضرورة، وتمت دراستها من الناحية الفلسفية من علماء الكلام وأهل السنة وغيرهم وكذلك فلاسفة المعتزلة والفقهاء من المسلمين ولم يقل منهم أحد بأن الإيمان في زمن معين والإسلام في زمن آخر ينتظر صاحب الرسالة الثانية وليس في الإسلام رسالتان أولى وثانية كما أدعى محمود وإنما ذلك تأويل للقرآن دون دليل، ورسالة الإسلام الثانية عند محمود رسالة مجملة خالية من التفصيل وهي في الوقت ذاته رسالة فردية لا جماعية «وهي موجهة في المقام الأول لإشباع نرجسية محمود وإعجابه بنفسه، ومفصلة عليه وحده، فقد فاز وحده بالمقام المحمود، وكان وحده الإنسان الكامل، وكان عند الذات الإلهية وحده، وترك تلاميذه من بعده كالدراويش في حلقة الذكر» بمعنى أن التعبد فيها موكول لكل فرد على حدة فليس فيها عبادات ولا تكاليف جماعية يخضع الناس كلهم لها ويقومون جميعاً بأدائها وكونها فردية يعني اختلافها لأن لكل فرد فيها ما يناسبه، فكأنها جملة تشريعات متعددة بعدد الأفراد وهي متروكة لاجتهاد الأفراد ونجد ذلك في قوله: «الإسلام الأخير مرتبة فرديات»^(١) وفردية محمود جعلت منه وحده الإنسان الكامل والوحيد الذي وصل مرتبة الأصالة التي لن يصلها أحد من بعده أبداً كم أسلفنا. ونجده برغم فردية الرسالة عنده يضيف إليه أحكاماً تفصيلية ويدخل فيها كل غريب من القول، فتقسيم الإسلام إلى رسالتين تقسيم لا أصل له وذلك لخطأ قاعدته التي قام عليها وهو

(١) الرسالة الثانية، ص ١٥٠

يقول: « وانت حين تقرأ قوله تعالى: «إن الدين عند الله الإسلام» يجب أن تفهم أن المقصود هو الإسلام الأخير وليس على التحقيق الإسلام الأول وذلك بأن الإسلام الأول ليس به عبرة وإنما كان الإسلام الذي عصم الرقاب من السيف» ثم يقول في نفس الكتاب^(١) « المسلمون كأمة لم يجيئوا بعد، ولقد تنبأ المعصوم بمجيئهم في آخر الزمان وذلك حين يبلغ الكتاب أجله ويحيى موعود الله في قوله «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»... نتوقف أولا عند قوله أن المسلمين حقا كأمة لم يجيئوا بعد لأن المؤمنين الذين ذكرهم الله في كتابه الكريم هم المسلمون، وقد جاؤوا ولا زالوا موجودين وكل الأمة منهم، ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٦٧﴾ (آل عمران: ٦٧) ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ١١٠﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ (الصافات: ١٠٩ - ١١١) ومفهومه بأنه كان من المؤمنين فكما كان ابراهيم حنيفا مسلما من المؤمنين، فكذلك المؤمنون لأنهم على ملة ابراهيم وهو الذي سماهم المسلمين من قبل.

خطاب المؤمنين

خاطب القرآن المؤمنين خطابا مباشرا بـ «يا أيها الذين آمنوا» في تسعة وثمانين موضعاً. هذه المواضع شملت معاني عظيمة، على رأسها علاقة المؤمنين بالله الذي طلب منهم الالتزام بالتقوى والحقة والتمسك بحبل الله «الدين والقرآن» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَكُمْ أَمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا

(١) الرسالة الثانية، ص ١٤٩



تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴿١٠٤﴾ (آل عمران: ١٠٢ - ١٠٥). طرق القرآن على مسألة التقوى وربطها مع ابتغاء الوسيلة «العمل الصالح» والجهاد في سبيله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (المائدة: ٣٥). وهذا هو سبيل المؤمنين الصادقين مع ربهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (التوبة: ١١٩). الصادقون هم الخائفون من الله ويحذرون من اليوم الآخر ويرجون رحمة الله ﴿أَمَنْ هُوَ قَنْتَ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ (الزمر: ٩). لذلك طلب منهم ألا ينسوا الله وأن ينظروا إلى ما قدمت أيديهم لغد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الحشر: ١٨ - ١٩). ونسيان ذكر الله يأتي بالانشغال بالأموال والأولاد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ (المنافقون: ٩). لذلك حثهم الله على الذكر وكافأهم بصلاته عليهم هو وملائكته ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ نَحْمِتُهُمْ يَوْمَ يَقُونُهُ وَسَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ (الأحزاب: ٤١ - ٤٤). وفوق ذلك المغفرة العظيمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦٩﴾﴾ (الأنفال: ٢٩). حتى لا يدخلوا النار التي عليها ملائكة شداد غلاظ لا يُنجي منها إلا التوبة إلى الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ (التحریم: ٦ - ٨). أمر الله المؤمنين أمراً واضحاً بأن يقوموا بالعدل شهادة لله، وليس لأشخاص أو أسرة أو أمة، وربط ذلك بالإيمان بالكتاب والثبت عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أُولَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ (النساء: ١٣٥ - ١٣٦). هذا الأمر «أي القيام بالعدل» هو لله وغير متأثر بأمثلة الكفر، مع وعد للمؤمنين بالمغفرة والكافرين بالجحيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدُوا أَعْدَاؤُهُمْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾ (المائدة: ٨ - ١٠).

دعا القرآن المؤمنين لعدم التمثل بأهل الكتاب وهم يتوجهون لله بالذم قائلين راعنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ (البقرة: ١٠٤). بل أن يقولوا انظرونا برعايتك، ولا يكونون مع رسولهم كشأن أهل الكتاب من بني إسرائيل الذين آذوا رسولهم موسى عليه السلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ (الأحزاب: ٦٩ - ٧١). وإن كان هنالك من مثال لأهل الكتاب فإنه ينبغي أن يكون نصرة لله ودينه، مثلما آمن الحواريون وطائفة من بني إسرائيل



حينما صاح فيهم عيسى عليه السلام من أنصاري إلى الله؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّنَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَقَامَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (١٤). هكذا صار المؤمنون مؤهلين للعلاقة السوية مع النبي ﷺ.

تناول القرآن علاقة المؤمنين بالرسول ﷺ الذي يدعوهم لما يحبه «الحياة الكريمة المليئة بالقيم» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٥). (الأنفال: ٢٤). وقد سبق لها عدة آيات تأمر بطاعة الرسول ﷺ وتصف الذين لا يصغون إليه كالذواب الصم البكم الذين لا يعقلون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنهُ وَاتَّبِعْتُمْ تَسْمِعُونَ﴾ (١٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمِعُونَ ﴿١٧﴾ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنفال: ٢٠ - ٢٣). وجاءت من بعدها عدة آيات تحذر من فتنٍ وابتلاءات تعم الجميع بسبب حب الدنيا والأموال والأولاد، وحذرهم من خيانة الرسول ﷺ وخيانة أمانة الدين والتوحيد ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٠) وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَعَلِمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنفال: ٢٥ - ٢٨). وذلك لأن الله أمر المؤمنين بتقواه، والإيمان بالرسول ﷺ حتى يؤتيهم نورًا وكفيلين «أي ضعفين» من الرحمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحديد: ٢٨). ووجه أمر كل نزاع في الحياة إلى الله والرسول ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ (النساء: ٥٩). وجعل طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ ﴿٨٠﴾ (النساء: ٨٠). وعدم الطاعة تبطل العمل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾ (محمد: ٣٣). فكان من الطبيعي أن تكون الجنة جزاء الطائعين والعذاب مصير العاصين ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٣﴾ (البقرة: ١٣). ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ويدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُوا أَدْلُكُمْ عَلَى تَجَرُّدِ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ الْبَرِّ﴾ ﴿١٤﴾ (النساء: ١٣ - ١٤). وخص القرآن الإيمان بالله والرسول ﷺ بفوز كبير في الدنيا والآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُوا أَدْلُكُمْ عَلَى تَجَرُّدِ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ الْبَرِّ﴾ ﴿١٤﴾ (النساء: ١٣ - ١٤). وسبيل الله بأمولكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٥﴾ (البقرة: ١٥). وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشير المؤمنين ﴿(الصف: ١٠ - ١٣). بل ذهب القرآن أبعد من ذلك حينما جعل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ﴿٦﴾ (الأحزاب: ٦). هكذا صارت الأمة المؤمنة «أي المسلمة» كلها تنتمي للنبي ﷺ بالإيمان وبأولويته على أنفسهم، ثم بالعاطفة عبر أمومة أزواجه ﷺ لهم، إذ أنه لا توجد عاطفة إنسانية أقوى من عاطفة الأمومة. ولعل هذا هو سر تماسك الأمة الإسلامية رغم المحن الكثيرة التي مرت بها.

المنافقون لهم وضع نفسي معقد فهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، لذلك يجدون مساحات كافية للتغلغل في المجتمعات المؤمنة والعمل على تدميرها وإضعافها. سورة التوبة تناولت جزءاً من هذا الوضع وبينته للمؤمنين حتى تكون العلاقة واضحة.



تناول القرآن ظاهرة موالاته المنافقين لبعضهم وجعل أبرز علاماتها «أي مؤشرات» القيم المقلوبة «الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وصفة البخل» ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (التوبة: ٦٧). وذلك معاكس تمامًا لما ينبغي أن تكون عليه الفئة المؤمنة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١). ميزة هذه المؤشرات التي أعطيت للمؤمنين أنها باقية إلى يوم القيامة، فمتى ما أدرك المؤمنون الدعوة إلى المنكر «الدعارة مثلاً» والنهي عن المعروف «الزواج مثلاً» عند مجموعة أو أفراد يدركون على الفور إن ذلك هو النفاق بعينه. في زمن الرسول ﷺ كان المنافقون يخافون من الوحي أن يفضح ما تكتمه قلوبهم ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ٦٤). وحينما يحاصرون بالحجة يتهربون بحجة اللهو واللعب، فزجرهم القرآن بزجر دائم إلى يوم القيامة ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (التوبة: ٦٥) لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴿(التوبة: ٦٥ - ٦٦). لذلك كان مصيرهم النار﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿(التوبة: ٦٨). اختلف مصير المؤمنين تمامًا عن هذا المصير ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢). كما أن الله لم يوصد الباب أمام المشركين جعله مواربًا أمام المنافقين ليدخلوا في عفو الله عن آثام نفاقهم ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (التوبة: ٦٦).

خطاب القرآن للمؤمنين بخصوص أهل الكتاب قسمهم إلى فئتين: الأولى غير المقاتلة بل المؤمنة المتعبدة والخاشعة ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (آل عمران: ١١٣ - ١١٤). ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ (آل عمران: ١٩٩). هذه الفئة أمر القرآن بمجادلتهم بالحسنى ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِيهِمْ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (العنكبوت: ٤٦). أما الفئة الثانية الباغية المقاتلة التي اتبعت منهج الكفر كان نصيبهم بأن يقاتلوا حتى الاستسلام، وعلامته الرضوخ لسلطان الدولة بأداء فروض المال، الذي يمثل قمة إذعان المجتمع للدولة كما يحدث في عالم اليوم بما يسمى بالضرائب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (التوبة: ٢٩).

كل هذه النعم وكل هذا الخطاب الرائع للمؤمنين، بما فيه من قيم وحكم، يريد محمود بمنهجه الضعيف أن يشطبه بجرة قلم.

عودة إلى الرسالة الثانية من الإسلام

لكي تتوافر كل شروط البعث الثاني للإسلام لابد أن يكون هنالك فهم جديد للقرآن على أساس المكي والمدني كقرآنيين مختلفين، ووجود أمتين مختلفتين إسلامية وإيمانية، وشريعتين أحدهما بالية توافق القرن السابع الميلادي نزلت على المؤمنين وصفتها أنها غير قابلة للتطور واسمها «الشريعة»، وأخرى اسمها السنة وهي شريعة أمة



المسلمين التي اشتاق لها النبي ﷺ. وهي مرنة ومتطورة «ولكن كمالها إنما هو في مقدرتها على التطور»^(١). وتبدأ من التقليد وتنتهي بالأصالة، حيث يتلقى «السالك قديمًا، والإنسان الكامل حاليًا» شريعته من الله كفاً «وأما الحكمة في ختم النبوة فهي أن يتلقى الناس من الله من غير واسطة الملك، جبريل - أن يتلقوا عن الله كفاً»^(٢). ولكي يتسنى له ذلك عمد إلى الرسالة الأولى «على مستوى القرآن المدني» فنزع منها بعض تعاليمها مثل الجهاد وتعدد الزوجات والطلاق واللباس وغيرها، وأفرد لذلك الغرض عناوين جانبية وعقب كل عنوان كانت عبارة «ليس / ليست أصلاً من الإسلام» حاضرة.

مقدمة الطبعة الرابعة

تعتبر هذه المقدمة تلخيصاً - شبه دقيق - لفكرة الرسالة الثانية، وفيها يظهر بجلاء مظاهر التفكير المنهجي لمحمود، وتبرز معها ثلاثة مظاهر:

الاستدلال بالقرآن وكيف فهم محمود القرآن أي كيف فسر؟ وهل كان هذا التفسير ظاهرياً وقائماً على اللغة العربية كما قال محمود «وهذا ما يحكيه ظاهر القرآن الذي تعطينا إياه اللغة العربية»^(٣). «أني لم ابن شيئاً من أمري على كشف يخالف ظاهر النص»^(٤). أم كان تفسيراً باطنياً لا يخضع للمنطق؟

الاستدلال بالحديث النبوي وهل كان قائماً على الأحاديث الصحيحة أم كأن محموداً في ذلك حاطب ليل يجمع الأحاديث كيفما أتفق؟

هل كانت تقاريرات محمود وأحكامه ونتائجه مبنية على أدلة ومقدمات منطقية، أم كانت شتات أفكار ومحاولات إلزام عقول الناس بما يعلنه من أفكار؟
هذه الأسئلة سيتم الإجابة عليها بتحليل ما جاء في هذه المقدمة.

(١) الرسالة الثانية، ص ٨.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١١.

(٣) الرسالة ص ٤.

(٤) من دقائق حقائق الدين ص ١٤.

لقد صدر محمود هذه المقدمة بآيتين ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦ - مدنية) مع ملاحظة أن القرآن المدني آياته فرعية ومنسوخة حسب قول محمود. الآية الثانية ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ٢٢ - مكية).. من هنا إنطلق ليجسد العروة الوثقى «العروة هي المقبض.. أو هي اليد التي يحمل بها الإناء.. أو هي العقدة في طرف الجبل التي يستوثق القابض على الجبل من قبضة الجبل..»^(١). واختار محمود المعنى الأخير وترك الأولين دون إبداء السبب المنطقي -ضعف منهجي - «فالعروة الوثقى هي مقبض الجبل الوثيق..»، ولأنه يريد أن يستفيد من هذا الجبل، فكان عليه أن يدع العقدة وراءه ويتبع الجبل لأنه الدين «والجبل هو الدين.. قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾» (آل عمران: ١٠٣ مدنية) وجعل الجبل هو الإسلام والقرآن «فالجبل هنا هو الإسلام، وهو القرآن»^(٢) واستدل على ذلك بحديث «وقد قال المعصوم، في حديث يرويه علي بن أبي طالب: «ألا إنها ستكون فتنة!! فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال كتاب الله!! فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم... الحديث»^(٣). وقد ذكر الحديث بطوله، إلا أن الحديث وبرغم جماله وتأثير ما ورد فيه، هو حديث منكر لا يصح الاستدلال به. جسد محمود الجبل «وترك العروة الوثقى وراءه لحاجة في نفسه الله أعلم بها» ومضى يقول: «وهذا الجبل إنما تنزل من الله

(١) الرسالة الثانية، ص ٣.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٤.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٤.



في إطلاقه إلى أرض الناس.. فأوله عندنا، وآخره عنده تعالى في إطلاقه»^(١). أولاً من قال إن الله في الإطلاق؟ في أي آية في القرآن، وفي أي حديث نبوي؟ ومن معاني الإطلاق الترك والإرسال، ومنه طلاق الرجل لزوجته. محمود يقرر والبشرية تتبع طائفة. ثانياً لماذا أوله عندنا؟ لماذا لا يكون أوله في الإطلاق الذي قال به؟ لماذا لا يجعله يتمشى مع الآية ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢) (الحديد: ٣ - مدنية) لما كان الله هو الأول، فهو أولى بأول الحبل حسب منطق محمود؟ نفس هذا النهج من الاستدلال عمل به محمود، وهذه الصورة محكية، أجمل حكاية، في قوله تعالى، من مطلع سورة الزخرف: ﴿حَمِّ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ۝٤﴾^(٣). وهي سورة مكية، لكن ما علاقة الآية بالحبل؟ ثم جعل من «حم» الذات الإلهية «حم» هنا إشارة فقط، وهي إشارة في غاية الرفع.. وعبر هنا عبارة، وهي عبارة في غاية البلاغة.. وبين العبارة والإشارة اختلاف مقدار.. والمعبر عنه، والمشار إليه أمر واحد هو الذات..^(٤) إذا قُبِلَت الإشارة، أين البلاغة في حرفي «الحاء والميم»؟ وكيف فجر محمود كل هذه المعاني من حرفين فقط لا يقومان وحدهما على معنى؟ لا يوجد تفسير لذلك إلا أن تكون من التفسيرات الباطنية أو ضعف المنهج. نفس هذا النهج الباطني كان من نصيب آية أخرى الآية ٣٨ من سورة البقرة. - مدنية - «وهذا الحبل هو أيضاً المسمى بالهدى في قوله تعالى مخاطباً إبليس، وحواء، وآدم: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾» (البقرة: ٣٨) فإن هذا الهدى قد تنزل من الله في إطلاقه إلى المهبط الذي هبطه إبليس، وحواء، وآدم، وهو الأرض..^(٥).

(١) الرسالة الثانية، ص ٤.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٤.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٤.

(٤) الرسالة الثانية، ص ٤.

كل قصص آدم وإبليس الواردة في القرآن لم يرد فيها اسم «حواء»، والهبوط هل كان يعني هبوطاً من السماء أي من الإطلاق؟. فيكون بذلك أن بني إسرائيل كانوا هم أيضاً في الإطلاق حينما هبطوا مصرًا ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنةُ وَبَاءَ وَبَعْضُ مَنْ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْتَهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ (البقرة: ٦١ - مدنية). ولما كان الحبل أوله عند الناس إذن لا بد له من نقطة تنزل في الإطلاق «وقد عبر تعالى عن نقطة منتزله من الإطلاق بقوله تعالى: «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ»^(١). من الذي أوصل الحبل إلى أم الكتاب؟. إذا كان الحبل هو القرآن فقد كان القرآن في اللوح المحفوظ كذلك ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ (البروج: ٢١ - ٢٢ - مكية). لماذا لم يتجه الحبل إليه؟.

ظهر تجسيد الحبل جلياً في تناوله لآية سورة لقمان المكية «وأخراهما» «وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ».. وهذه الآية في معنى تلك، ولكنها تذهب أكثر منها في توضيح توسيل الشريعة^(٢). وكان يعني بذلك مزيداً من التجسيد للحبل «وجاء بالفاصلة» «وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» ليدل على الرجعى بالصعود على الحبل المنتزل من الإطلاق حيث كان الإنسان، قبل أن يزل، ويطرد بسبب الزلّة، ويبعد^(٣). من قال إن الإنسان كان يوماً في الإطلاق؟. كان الإنسان وإلى عهد بدايات محمود يعتقد أن الكون محدود، وإن الإنسان إذا ما رفع رأسه فهو حتماً ينظر إلى السماء التي توجد في هذا الاتجاه فقط. لكن بعد أن أُكْتُشِفَ الحجم الهائل

(١) الرسالة الثانية، ص ٤.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٥.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٥.



للكون والسرعة الهائلة التي يتحرك بها إلى اتجاه غير معلوم، فإنه من الممكن للإنسان لو نظر مد بصره على استقامة بدنه فهو بذلك قد يكون ينظر للسماء. تصور «الإطلاق» يوم قال محمود به لا محالة أنه يختلف عنه اليوم، ذلك أن الكون يتوسع بسرعة رهيبية ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧ - مكية).

ولكن هل هذا الجبل الذي أراد محمود أن يتسلقه هو الجبل الوحيد في القرآن؟. هنالك جبال أخرى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيُّنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءَ وَبَغَضِبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٢ - مدنية) هذه الآية تلت تلکم الآية التي أوردها محمود في نفس السورة بثمانية آيات فقط ولكن محمودًا لم يرها. لقد أغمض محمود كذلك عينيه عن آيتين أخريتين ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مِثْلَ نَفْسِهِ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (الزمر: ١٦ - مكية). والآخر يقرأه الصبيان في الخلوة وفي صلواتهم مرات كثيرة، فصارت كأن لم يرها محمود ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (المسد: ٥ مكية). لقد أوتي محمود الفهم عن الله في القرآن؛ ليربط بين الآية السادسة من سورة التين المكية والعروة الوثقى «وورد، في نفس هذا المعنى، قوله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦﴾ فالأجر «غير الممنون» يعني غير المقطوع.. وهو، من ثم، «العروة الوثقى، لا انفصام لها» (١).

وتحت عنوان «السنة هي الرسالة الثانية» فإنه مازال متمسكًا بأمر الجبل «وعروته الوثقى» الذي سيصعد به إلى الإطلاق «السنة شريعة وزيادة.. فإذا كانت العروة الوثقى هي الشريعة، فإن السنة أرفع منها.. وإذا كان جبل الإسلام متنزلًا من الإطلاق إلى أرض

الناس، حيث الشريعة - حيث مخاطبة الناس على قدر عقولهم - فإن السنة تقع فوق مستوى عامة الناس.. فالسنة هي شريعة النبي الخاصة به.. هي مخاطبته على قدر عقله.. و فرق كبير بين عقله، وبين عقول الناس.. وهذا نفسه هو الفرق بين السنة والشريعة^(١). هنا محمود يشرع دون أي دليل من القرآن أو الأحاديث، خاصة وأنه في كتبه كثير الاستدلال بهما. على سبيل المثال يقول إن السنة هي شريعة النبي الخاصة به، كيف عرف؟. ثم يقول هي مخاطبته على قدر عقله، كيف عرف؟. فإذا قبل الناس منه هذا لوجهة القول بأن عقل النبي ﷺ يفوق عقل الناس، وبالتالي سيقبلون منطق أن شريعته تفوق شريعة الناس في ذلك الزمن، وأنها كانت مرجأة حتى القرن العشرين لأنه عصر العلم الذي طور البشرية «وما الرسالة الثانية إلا بعث هذه السنة لتكون شريعة عامة الناس، وإنما كان ذلك ممكناً، بفضل الله، ثم بتطور المجتمع البشري خلال ما يقرب أربعة عشر قرناً من الزمان»^(٢). معتمداً في ذلك على الحديث الصحيح «...فطوبى للغرباء...الحديث» لكنه يعتمد نصاً غير موجود في الحديث «الذين يحيون سنتي بعد اندثارها». فإنهم - أي الناس - لا يمكن أن يتقبلوا أن تقوم حجة - في موضوع عقدي خطير بشأن رسالة ثانية - على جزء موضوع من حديث وقد أدخل على الحديث النبوي، وعلى تصور خاطئ لنهاية تطور العالم وفهم الدين في القرن العشرين. ثم يمهّد لما بعد ذلك «والسنة، كما قلنا، شريعة، وزيادة.. السنة طريقة.. والطريقة شريعة مؤكدة..»^(٣). على نسق أسمعته؟ أو عيت؟.

لكي يسوق منطقته آنف الذكر يقول: «والله تعالى يقول، على لسان نبيه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .. ومن ههنا انفتحت الشريعة على السنة، وأصبح مطلوباً من السالك أن يترقى من الشريعة إلى

(١) الرسالة الثانية، ص ٥.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٥.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٥.



الطريقة.. «السنة»..^(١) ثم يستأنف الحديث: «بيد أن هذا الترقى لم يكن فرضاً مفروضاً على عامة الناس، وإنما كان أمراً مندوباً إليه.. وما منعه ألا يكون مفروضاً إلا حكم الوقت.. فقد كانت الفترة الأولى من الدعوة خاصة بأمة المؤمنين.. وكان عمل النبي، في خاصة نفسه، عملاً في مستوى المسلمين.. فلم يكن فلم يكن في الأمة المسلمة غيره.. والإسلام مرتبة مترقية على الإيمان»^(٢). يحرم عامة الناس من نعمة الترقى في صورة بغیضة من صور التفرقة بين الناس، رغم أن الرسول النبي الأمي قد جاء لكل الناس وأطلق نداه بذلك منذ العهد المكي ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨ - مكية).. وقد جعل الوقت هو الحكم في أمر الرسالة.

لقد بدأت رسالة الإسلام قبل بعثة النبي ﷺ قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: ٣٥ - ٣٦ - مكية). سياق الآية يقول إنهم «أي الرسل» ذهبوا من أجل المؤمنين فلم يجدوهم، بل وجدوا فقط بيتاً واحداً من المسلمين، هل يعني أنهم وجدوا أناساً بصفات أدنى مما ذهبوا من أجله، ولذلك استعمل القرآن أداة الإستثناء «غير»؟. وكانت أمم الجن مسلمة من قبل سماعها ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (الجن: ١٤ - مكية). ولم يكن ﷺ المسلم الوحيد ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَدَنَتْ تَبَيَّنَتْ عِدَاتٍ سَلَحَتْ تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَارًا﴾ (التحریم: ٥ - مدنية) كان معه ﷺ مسلمات وكذلك مسلمين. هذه الآيات دحضت منطق «والإسلام مرتبة مترقية على الإيمان» حيث جاء ترتيب الإسلام قبل الإيمان، أي وبنفس منطق محمود جاء الإسلام

(١) الرسالة الثانية، ص ٦.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٦.

قبل الإيمان في سلم سباعي!! وعضدتهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩) (الزخرف: ٦٩ - مكية). أي في الماضي - في أول أمرهم - كانوا مسلمين وهم اليوم مؤمنين.

بذل محمود جهده ليقول أنه لم تكن هنالك أمة مسلمة في الماضي ولكنها ستظهر يوماً «و الأمة المسلمة هي التي سماها النبي الكريم بالأخوان، حين سمى الأمة المؤمنة بالأصحاب، وفي ذلك ورد حديثه المشهور الذي قال فيه: «وا شوقاه لإخواني الذين لم يأتوا بعد»... الحديث»^(١). وقد أورد محمود الحديث بطوله، لكن هذا حديث موضوع مكذوب لا يصح الاحتجاج به. وهذا كله ليعيد محمود الناس إلى ما كان يفعله النبي ﷺ في خاصة نفسه، وما أدرى محمود بخاصة نفس النبي ﷺ؟.

حدد محمود وقت ظهور أمة المسلمين ومعها أوضح العلة «والذي يهمننا هنا أن نقرر أن وقتنا الحاضر وقت تنهياً فيه الأرض لظهور أمة المسلمين.. وهذه الأمة هي أمة الرسالة الثانية.. وشريعتهما هي سنة النبي، لا شريعة الأمة الماضية، بكل تفاصيلها، وذلك بفضل الله، كما أسلفنا القول، ثم بفضل تطور المجتمع البشري خلال هذه المدة الطويلة، مما جعله مستعداً لتفهم التشريع المتطور من الشريعة إلى السنة..»^(٢). محمود يقرر وتقريراته لا بد أن تكون مسلمات لا تناقش عقلاً. جاء وقت الأمة وشريعتهما التي لا تمت بصلة للأمة الماضية، أي من وقت البعثة النبوية «٦١١م تقريباً» حتى يناير ١٩٦٧م وقت ظهور هذا الكتاب. وقد عد محمود هذا الزمن فترة طويلة، إنها عند الله أقل من يوم ونصف ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧ - مدنية) هكذا الإنسان العادي تبدو له السنوات كثيرة حسب عمره فيرى أن القيامة بعيدة ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا﴾ (٦) وَنَزَلَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ (المعارج: ٦ - ٧ - مكية).. وبدت لمحمود في خياله علامات فوصفها وكأنه ينظر إليها «فكان أرض الناس قد ارتفعت خلال هذه المدة.. وكأن طرفاً

(١) الرسالة الثانية، ص ٦.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٦.



من الجبل قد انطوى من البعد إلى القرب.. وأصبحت بذلك العروة الوثقى الجديدة أقرب إلى الإطلاق من العروة الوثقى القديمة.. وذلك لقرب أرض الناس - أعني مستوى فهمهم - من الإطلاق، إذا ما قورن بمستوى الفهم القديم^(١). يطلق محمود خيالاً واسعاً: الأرض ترتفع نحو السماء والجبل يقصر ويكون عقدة جديدة لتبدأ البشرية للتسلق صوب الإطلاق حيث نعيم الإطلاق، وما أدراك ما نعيم الإطلاق؟. ثم فجأة يهوي بك إلى ما يقصده، إنه يقصد الأفهام.

مضى محمود ليكون أكثر تحديداً للرسالة الثانية ووقت ظهورها «فقد أصبح واجباً على ورثة الإسلام - على ورثة القرآن - أن يدعو إلى الرسالة الثانية، تبشيراً بالعهد الجديد الذي أصبحت البشرية تشعر بالحاجة الملحة إليه»^(٢). لقد استفتى محمود البشرية وعلم منها شعورها بحاجتها للرسالة الثانية. «ومما تنطق به صدور الذين أوتو العلم أن طريق العهد الجديد - طريق المسلمين على الأرض - ترسم خط سيره آيات الأصول - الآيات المكية - تلك التي كانت في العهد الأول منسوخة بآيات الفروع - الآيات المدنية - وإنما نسخت آيات الأصول يومئذ لحكم الوقت.. فقد كان الوقت وقت أمة المؤمنين.. وآيات الأصول تخاطب أمة المسلمين، وهي أمة لم تكن يومئذ.. وإنما نسخت آيات الأصول في معنى أنها أُرجئت، وعلق العمل بها فيما يخص التشريع، إلى أن يحين حينها، ويحى وقتها، وهو الوقت الذي نعيش نحن اليوم في تباليج فجره الصادق..»^(٣). محمود هنا يقرر «كعاداته» تقارير خطيرة: يجعل من القرآن آيات أصول «مكية» وآيات فروع «مدنية» دون دليل. يجعل عهدين، عهد جديد «ربما تأثراً بالعهد الجديد عند النصارى» وعهد أول، ليس عهداً قديماً كما عند النصارى «أي التوراة». تارة نُسخت آيات الأصول، ومرة «أُرجئت» وأخرى عُلقت، فيما يخص التشريع، لحكم

(١) الرسالة الثانية، ص ٦.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٧.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٧.

الوقت. لم يذكر محمود من فعل هذا؟. ولم يوضح ما لم ينسخ من أحكام أخرى غير التشريع. حدد الوقت بالحاضر دون دليل أو قرينة واضحة. هكذا يريد محمود للأمة أن تتبعه مغمضة العينين، يقرر لها دون دليل أو منهجية علمية وهي تقرأه في ذلك.

هل الرسالة الثانية بحث علمي؟

جعل محمود من كتاب «الرسالة الثانية من الإسلام» بحثاً حتى يكون الأمر مقنعاً للناس. في صفحة ١٨ كان له عنواناً جانبياً اسمه «توطئة البحث». بعد كلمة بحث هذه التي في العنوان لا يوجد بحث على وجه الإطلاق. طبيعة مصادر المعرفة عند محمود كانت الكتب الورقية فقط، فإذا وقع في يده كتاب قرأه واستوعبه فيحاول بعد ذلك أن يأتي بطرح أفضل منه. أما إذا لم يقع في يده كتاب حول موضوع معين فإن التخطئ الناجم من عدم المعرفة هو سيد الموقف. لعل أوضح دليل على ذلك هو تورط محمود في محاولات الإتيان ببحث كما في كتاب «الرسالة الثانية» وكتاب «رسالة الصلاة»^(١) وكتاب «تطوير شريعة الأحوال الشخصية»^(٢). هنالك كتب تخصصت في كيفية كتابة البحوث العلمية كلها صدرت قبل أن يكتب محمود كتابه الأم ومن بعده بقية الكتب. كتب عبد الرحمن بدوي كتابه «مناهج البحث العلمي» عام ١٩٤٤م. الدكتور أحمد شلبي كتابه «كيف تكتب بحثاً أو رسالة» عام ١٩٥٢م. وكتبت أ.د. ثريا عبد الفتاح ملخص «منهج البحوث العلمي للطلاب الجامعيين» عام ١٩٦٠م. بذلك يكون محمود أمام خيارين:

الأول: أنه بمقدرات بشرية عادية، ولما لم يقع في يده كتاب عن البحث العلمي كان جاهلاً به، أو أنه كان يحذق هذا العلم وقد تجاهله عامداً وهذا عيب كبير.
الثاني: أنه لم يكن بشراً عادياً فكان باستطاعته أن يقول لكتاباته «كوني.. فتكون.. بحثاً متقناً مكتملاً» ولكنه لم يقل، فما الداعي إذن أن يورط نفسه في مأزق كهذا.

(١) الرسالة الثانية، ص ٥٤.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٣.



ثلاثة من أبسط قواعد البحث العلمي هي:

في ذلك الوقت المبكر نوعاً ما من التاريخ، كانت مناهج البحث موجودة بصورة أو بأخرى. كتب بيبكون كتابه «الأورغانون الجديد» سنة ١٦٢٠م، وديكارت «مقال في المنهج» سنة ١٦٣٧م. «وأتى أصحاب «منطق بور رويال» الطبعة الأولى سنة ١٦٦٢م فعنوا بتحديد المنهج بكل وضوح، وجعلوه القسم الرابع من منطقهم هذا. حدّد أصحاب هذا المنطق المنهج بأنه «فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة، حين نكون بها جاهلين؛ أو من أجل البرهنة عليها للآخرين، حين نكون بها عارفين»^(١). هذا التعريف لا يمكن أن يجده أي باحث منطبقاً على كتابات محمود مهما أرهق فكره ونحت ذهنه.

ثبت المراجع التي يعتمد عليها الباحث ذات أهمية كبرى في أي بحث. يبدأ الاهتمام بها مبكراً منذ بدايات البحث. «جمع مصادر البحث هو الخطوة الثانية بعد طرح المشكلة، يعود إليها الباحث في دراسته، ويستقي منها مادة بحثه، ويقوم بإجرائه من خلال ما توفره من معطيات، لذلك فهي أهم أسس تقويمه وتحديد قيمته وجودته»^(٢). لن يجد أي متصفح لكتب محمود توثيقاً واحداً لأي مرجع. والآيات القرآنية لا ترد لسورها والأحاديث النبوية لا تخرج.

علامات الترقيم لها أهميتها وضرورتها في أي بحث «علامات الترقيم يتوقف الفهم عليها أحياناً، وهي دائماً تعيّن مواقع الفصل والوصل، وتنبه على المواضع التي ينبغي فيها تغيير النبرات الصوتية، وتسهل الفهم والإدراك عند سماع الكلام ملفوظاً أو

(١) مناهج البحث العلمي. عبد الرحمن بدوي. وكالة المطبوعات. الكويت. ط ٣. ١٩٤٤م. ص ٤.

(٢) البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية، الدكتورة رجاء وحيد دويدري. دار الفكر دمشق. ط ١. ص ٣٥٧.

قراءته مكتوباً»^(١). عند متابعة علامات الترقيم في كتابات محمود، فإن النظر لأي صفحة يكفي لإدراك حجم الفوضى التي تضرب مواضع علامات الترقيم. قام محمود بضرب هذه النقاط الأساسية عرض الحائط في بحوثه المزعومة، ويصر على تجاهلها. لو عذر الباحثون محموداً في الكتاب الأول فلن يعذروه في الكتاب الثاني، ولو غضوا الطرف عنها في الطبعة الأولى، فإنهم لن يهضموا ذلك في الطبعة الرابعة «كما حدث في الكتاب الأم حيث قدم محمود للطبعة الرابعة منه». إن عدم الاهتمام بهذه القواعد «وغيرها من قواعد البحث العلمي» يجعل أي وثيقة تتحدث عن صلتها بالبحوث غير ذات قيمة علمية. من هنا فإن أي إنتاج فكري لمحمود يجب أن يقاس بحسب مقاييس البحث العلمي والمنطق ولو في أبسط صورته، ما دام أنه يصر على أمر البحث، لتتضح مدى جودته وقيمه.

يتوقع الباحث إن مشكلات البحث يمكن تلافيها في الطبعة التالية، أو بعد تقدم العمر وتراكم التجارب. الأمر ازداد سوءاً في المحاولات التي قصد بها محمود تفصيل ما جاء في الرسالة الثانية. قال محمود «وهذا الكتاب هو، بالنسبة للدعوة الجمهورية، الكتاب الأم.. ومع ذلك، فإنه موجز، أشد الإيجاز، ويتطلب شرحاً، وتفصيلاً، وتبياناً، ليس إليه اليوم من سبيل.. وسيطيب الوقت لذلك عما قريب إن شاء الله..»^(٢). ويبدو أن الوقت قد طاب فصدر كتاب «الإسلام» في أغسطس ١٩٦٨ م. وكتاب «الإسلام برسائله الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين» يناير ١٩٦٩ م. وكتاب «محمود محمد طه يدعو إلى طريق محمد» في أبريل ١٩٧٥ م. هذه الكتب الثلاثة لم تضيف جديداً لأفكار الكتاب الأم إنما كانت إعادة إنتاج لبعض العناوين الجانية في الرسالة الثانية الكتاب الأم.

(١) كيف تكتب بحثاً أو رسالة الدكتور أحمد شلبي. ط ٦. ١٩٥٢ م. مكتبة النهضة المصرية. ص ٩٨.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٣.



كتاب «الإسلام» جاء ليكون دليلاً دامغاً على نوعية مصادر المعرفة لدى محمود التي كانت في غالبها الكتب الورقية. فكان يتفاعل مع ما يقع في يده من كتاب، أمّا ما كان بعيداً عنه فإنه لا يعيره أدنى اهتمام كما حدث في له في موضوع مشكلات البحث العلمي الذي ذُكرت من قبل. وقد أَلقت هذه المشكلات بظلالها على الكتابات التي حاول بها شرح موضوعات الرسالة الثانية وتعميق الفهم فيها. كتاب «الإسلام» كان من الواضح أنه ردة فعل وإعجاب محمود بكتابات صحفي فذ هو «الدكتور أحمد زكي» «أما عن العلم التجريبي فاستمع إلى العالم الكبير الدكتور أحمد زكي يحدثك في كتابه مع الله في السماء تحت عنوان «لو انفرط هذا الكون»^(١). ويمضي ناقلاً جزءاً من المقالة. وفي ثنايا النقل يورد ما نقله الدكتور أحمد زكي عن العالم العبقرى أينشتين وهو يحدث عن المادة وقوى الجاذبية. لقد وجد محمود ضالته في ختام حديث الدكتور في نقله عن أينشتين: «إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون، هو أقوى حافز على البحث العلمي، وأنبُل حافز» وهو يقول: «إن ديني هو إعجابي، في تواضع، بتلك الروح السامية التي لا حد لها، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة، مهيمنة، تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام، إن هذا الإيمان يؤلف عندي معنى الله!! انتهى حديث الدكتور العالم أحمد زكي»^(٢). هنا محمود ينقل عن الدكتور أحمد زكي، الذى نقل عن أينشتين، وهنا انتفت عنه الأصالة وتراءت حقيقة اعتماده على ما يقع في يده من كتاب.

اهتبل محمود الفرصة لجعل من كلام أينشتين مدخلاً إلى فلسفته وتفسيراته الباطنية للنصوص «فأنتم ترون، من هذا الحديث كيف رد العلم التجريبي الظواهر

(١) الإسلام برسائله الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين،، ص ٥.

(٢) الإسلام برسائله الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين،، ص ٩.

المختلفة إلى أصل واحد^(١). ثم يمضي في نسج معاني مفخخة، لجر النص قسراً نحو التفسير الباطني قائلاً «فكأن العلم التجريبي لا يريد أن يكتفي بأن يظهر وحدة العالم المحسوس، وإنما يذهب أبعد من ذلك، فيرينا أن العالم المحسوس، إذا أحسن استقصاؤه، يسوقنا إلى عتبة عالم وراءه غير محسوس، وتركنا هناك وقوفاً في خشوع وإجلال، نلتمس وسائل، غير وسائل العلم التجريبي المادي، بها نهتدي في مجاهيل الوادي المقدس، الذي يقع وراء علم المادة»^(٢). بنيت فرضية الدخول إلى عالم ما وراء الطبيعة على أداة التشبيه «فكأن»، وبعد أن تركها وراء ظهره وجد نفسه قد وقف خاشعاً في الوادي المقدس الذي يقع وراء عالم المادة. بعد هذه الخطوة التي بلغت به الوادي المقدس جاء بالتفسير الباطني الذي يريده «إن العالم المادي إنما هو بمثابة الظلال للعالم الروحي، أو قل بتعبير أدق، إن المادة روح، في حالة من الاهتزاز لا تتأثر بها حواسنا، فالاختلاف، على ذلك، بين عالم المادة، وعالم الروح هو اختلاف مقدار وليس اختلاف نوع، وهذا يفتح الباب على الوحدة.. وحدة جميع العوالم»^(٣). فرضية وحدة العوالم قامت على أداة التشبيه «كأن»، إذا لم يكن المشبه كالمشبه به ضاعت القضية، هل يعقل أن يقوم الإيمان بوحدة العوالم ومن ثم «وحدة الوجود» على مثل هذا المنطق؟. هذا يظهر بجلاء مدى اضطراب المنهج العلمي عند محمود.

تحت عنوان الفهم الذري للدين يجعله يناسب عصر الذرة مضى يقول «.. نعم فالعلم التجريبي الروحي - الدين - ليس جديداً ولكنه سيعود جديداً، لأن عصر الذرة يتطلب فهماً ذرياً للدين - أعني فهماً دقيقاً، يصل إلى نواة الدين، ويفجر تلك النواة تفجيراً يسمع له دويّاً أعنى من دوي تفجير النواة المادية»^(٤). لقد كأن محموداً تحت تأثير

(١) الإسلام برسائله الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، ص ٩.

(٢) الإسلام برسائله الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، ص ٩-١٠.

(٣) الإسلام برسائله الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، ص ١٠.

(٤) الإسلام برسائله الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، ص ١٢.



تفجير أول قنبلة ذرية في التاريخ على سماء مدينة هيروشيما اليابانية في ٦ أغسطس ١٩٤٥م، خاصة وأن الإذاعات والصحف قد نقلت هذا الحدث الفريد. من المؤكد أن محموداً لم يشق الحجب ليشهد تفجير القنبلة الذرية ويسمع دوي انفجارها ويرى قوة دمارها، ولكنه استقى معلوماته مما هو متاح من مصادر في تلك الحقبة. لقد كان العالم منبهراً بقوة تفاعل الذرة، ولم يكن محمود «الإنسان الكامل» شاذاً عن ذلك. اليوم تجاوز العالم الحقبة الذرية وظهرت ظواهر كثيرة في التقدم العلمي المادي لا يكاد مثل هذا المجال أن يحصرها. ظاهرة النانو تكنولوجي فريدة ومثيرة للإعجاب فيمكن إعادة صياغة مقولة محمود أعلاه «.. نعم فالعلم التجريبي الروحي - الدين - ليس جديداً ولكنه سيعود جديداً، لأن عصر النانو تكنولوجي يتطلب فهماً نانويًا تكنولوجيًا للدين - أعني فهماً دقيقاً، يصل إلى النانو تكنولوجي للدين، ويفجر ذلك العلم النانوي نواة كل المواد بالنانو تكنولوجي تفجيراً يسمع له دوي اعترى من دوي تفجير النواة المادية». إن مثل هذه المنهجية البائسة تجعل قائلها محل استغراب الأوساط العلمية.

كتاب «الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين» كان عبارة عن محاضرة أعاد فيها محمود شرح معظم المفاهيم التي جاءت في الكتاب الأم «الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين هو موضوع محاضرتنا»^(١). وقد نقلت كما هي «نورد في هذا السفر نص المحاضرة التي قيلت بدار الحزب الجمهوري، بأمدرمان، في يوم الخميس ١٤ / ١١ / ١٩٦٨، وذلك نقلاً عن الشريط، بدون إجراء تغيير عليها ليحكم الناس بأنفسهم..»^(٢). ذلك ليجيب على سؤال ما البديل للرسالة الأولى «الرسالة الأولى في الإسلام لا تصلح لإنسانية القرن العشرين بتعني أنه في رسالة ثانية»^(٣). لماذا لا يصلح للقرن العشرين فقط، ؟، ماذا عن القرن الحادي والعشرين وما

(١) الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، ص ٦.

(٢) الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، ص ٤.

(٣) الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، ص ٧.

يليه من قرون لو استمرت الدنيا مليون عامًا بعد هذا القرن؟ ولماذا رسالة ثانية فقط، لماذا لا تكون لكل قرن رسالة خاصة به مع التطور الهائل المتوقع حدوثه؟ هنا غابت المنهجية كذلك. ولما أراد أن يتحدث عن رسول الرسالة الثانية لشرح ما أوجزه في الكتاب الأم، وتحت عنوان «رسول الرسالة الثانية» قال «الرسالة الثانية ما عايزة وحي، عايزة إنسان ربنا يوقفه ليفهم عنو.. في القرآن ربنا قال عن بيان القرآن. قال لنبينا ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ (القيامة: ١٦ - ١٩) بيانه باستمرار.. ربنا يبين للنفوس المتعرضة لخيراته وهباته.. يبين لها باستمرار دينو.. وأسرار ألوهيته.. فالرسالة الثانية، بإيجاز، هي فهم أصول الدين لتطوير شريعتنا من الصور اللي نزلت في القرن السابع وفيها بعض صفة الموقوتية، لتلتصق بأصول الدين أكثر منها بالفروع.. ما خرجت من القرآن.. هي انتقال من نص فرعي إلى نص أصلي..»^(١). الآيات من سورة القيامة - مكية). ثم مضى يتحدث عن موضوعات كثيرة ليس لأي واحد من هذه الموضوعات علاقة بالعنوان «رسول الرسالة الثانية» حتى نهاية المحاضرة.

لو وضعنا الكلام أعلاه في شكل نقاط مرتبة من أعلى إلى أسفل سنرى التسلسل المنطقي لدى محمود بوضوح:

- «الرسالة الثانية ما عايزة وحي». هنا بنفسه ينفي الوحي عن هذه الرسالة.
- «عايزة إنسان ربنا يوقفه ليفهم عنو.. في القرآن». يتحدث عن إنسان مجهول ممكن يكون أي إنسان من السبعة مليار إنسان فقط يحتاج إلى التوفيق من الرب. من هو؟ كيف نعرفه؟ لا جواب.

- «ربنا قال عن بيان القرآن. قال ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ (القيامة: ١٦ - ١٩). مكية» بيانه



باستمرار..». هنا يتحدث القرآن عن وعد إلهي ببيان القرآن للناس كلهم، وليس لفئة من الناس أو لذلك الإنسان الذي أشار إليه محمود.

- «ربنا يبين للنفس المتعرضة لخيراته وهباته». هنا وقع محمود في المحذور من أين له أن يقول أن هنالك نفوس متعرضة لخيراته تعالى فيوكل إليها أمر بيان القرآن على مستوى الرسالة الثانية ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦ - مكية).

- «يبين ليها باستمرار دينو.. وأسرار ألوهيته». الآيات تتحدث عن بيان القرآن ومحمود يتحدث عن أسرار الألوهية - تفسير باطني ومنهج ضعيف - ما علاقة هذه الأسرار بالآية أعلاه؟.

- «الرسالة الثانية، بإيجاز، هي فهم أصول الدين لتطوير شريعتنا من الصور اللي نزلت في القرن السابع وفيها بعض صفة الموقوتية، لتلتصق بأصول الدين أكثر منها بالفروع.. ما خرجت من القرآن.. هي إنتقال من نص فرعي إلى نص أصلي..» الحديث أصلاً عن رسول الرسالة الثانية، لكن الحديث هنا عن الرسالة الثانية نفسها، أين الحديث عن رسولها؟. يكمل محمود محاضراته دون أن يعود ويشير بوضوح لهذا الرسول. إنه يترك الجميع في حيرة. لا يوجد تفسير لمثل هذا الإضطراب في الطرح سوى إضطراب المنهج المتبع عند محمود.

أما كتاب «محمود محمد طه يدعو إلى طريق محمد» - أبريل ١٩٧٥م - فقد كان أمره عجب. من المفترض أن ثمانية سنوات فصلته من الكتاب الأم كانت كفيلة بتجويد المنهجية لدى محمود. في صفحة ١. كانت هنالك مقدمة، أعقبها في صفحة ١٥ مقدمة الطبعة الرابعة. وفي صفحة ١٩ كانت مقدمة الطبعة الثالثة. وبعد تدقيق ونظر يمكن أن يخمن القاريء بداية الكتاب، وذلك بعنوان جانبي يقول «من هو محمد» دون وجود علامة استفهام رغم أن محموداً كان يكثر من استخدام علامات الترقيم في كتاباته، وكان ذلك في صفحة ٢١. انتهى الكتاب في صفحة ٣٣. أي كان الكتاب «الدعوة كلها» يقع في

١٣ صفحة فقط. في صفحة ٣٤ كان تمهيد فيه تبشير بعودة دولة القرآن والدعوة للرجوع لطريق محمد وإدمان قراءة كتب الحديث. في البداية كانت مقدمة غير معروف إلى ما قدمت وفي الختام تمهيد لا يعرف إلى ما مهد. ثم بيان من الجمهوريين في صفحتي ٣٥ و٣٦. ثم تواصلت كتابات تتحدث عن جزء من تاريخ المسلمين وتبشر بعودة طريق محمد ثم تحدثت بعناوين جانبية عن «صلاة محمد» صفحة ٤١. «حركات صلاة محمد» صفحة ٤٣. «صيام محمد» صفحة ٤٤. «شمائل محمد» صفحة ٤٥. وأخيرًا خاتمة في صفحة ٤٨. أي اضطراب كهذا يمكن أن يقابل أي باحث في كتاب واحد؟ هل يدل ذلك على عدم المعرفة أم ضعف المنهج وضعف القدرات الذهنية؟ لقد كأن محمودًا قد بلغ الخامسة والستين من عمره آنذاك.

بعد هذا التناول لهذه الكتب الثلاثة، ووضوح اضطراب المنهج والتفكير لدى محمود، فإنه لا طائل من مناقشتها بالتفصيل لسببين: هذه الكتب عبارة عن رجوع الصدى لنقاط وردت في الكتاب الأم. فقط تمت إعادة العرض بعبارات قد تختلف في كلماتها ولكن يظل المعنى هو نفسه. الاستمرار في تناولها يعتبر ضربًا من إهدار الجهد والوقت فيما لا طائل منه.

المدنية والحضارة

في النصف الثاني من القرن العشرين إشتدت الهجمة على الإسلام والمسلمين، ودمغ الدين ومعتنقوه بالتخلف والرجعية، مما جعل بعض مفكريه يتصدون لهذه الهجمة، وكان أوضح مثال كتاب محمد قطب «شبهات حول الإسلام» الذي صدر في ١٩٥١م. قبل ظهور الكتاب الأم بستة عشر عامًا.

أراد محمود أن يظهر النبي ﷺ بالإنسان المتمدين وأن يسرله بلباس الحضارة «ومن أجل ذلك قلنا أن محمدًا عاش في أوج المدنية التي جاء بها الله عن طريقه»^(١).

(١) الرسالة الثانية، ص ٢١.



وذلك لأن محمودًا قد جزم بأن المدنية هي الأخلاق «هل المدنية هي الأخلاق؟؟ هي كذلك، من غير أدنى ريب»^(١). لقد كانت بين يديه آية وحديث عن أخلاق النبي وكان لا بد له أن يفيد منهما «ووصفه تعالى بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»^(٢). وهي الآية الرابعة من سورة القلم المكية. وأراد أن يعطى لهذا الخلق القرآني تفسيرًا باطنيًا «وحين سئلت عائشة عن أخلاق النبي قالت «كانت أخلاقه القرآن»^(٣). هذا الحديث رواه مسلم. بعد إيراده لنص الحديث قفز محمود قفزة هائلة «ومعلوم أن القرآن أخلاق الله، وأخلاق الله إنما هي في الإطلاق، ومن ههنا جاء التعريف بأن الأخلاق هي حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة»^(٤). وحين تفكيك تلك المعطيات يظهر التباعد الشديد بين مقاصد كل جملة فيها وعدم ارتباطها بسابقتها:

«ومعلوم أن القرآن أخلاق الله» بكل بساطة يمسك محمود بتلابيب الناس ويقول لهم إنكم تعلمون منذ أن أخذ الله ميثاقه منكم وأنتم في ظهور آبائكم وأشهدكم على ألوهيته ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيَّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف: ١٧٢ - مكية). «عندها أعلمكم بأن له أخلاق وهذه الأخلاق إنما هي ما جاء بالقرآن.

«وأخلاق الله إنما هي في الإطلاق»

«ومن ههنا جاء التعريف بأن الأخلاق هي حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة» ما علاقة هذا التعريف بالعبارتين السابقتين؟ كأن محمودًا يحدد «للمطلق» أخلاقًا موجودة في كتاب «محدود» بين أيدي الناس، وهنا يعرف الأخلاق التي كانت قبل قليل هي المدنية، بحسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة. محمود هنا يقود العقل عبر

(١) الرسالة الثانية، ص ٢١.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٢١.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٢١-٢٢.

(٤) الرسالة الثانية، ص ٢٢.

مسلمات متفق عليها، ثم ما يلبث أن يحرفها كما ينساب القطار عند التحويلة، وبعد فترة يتبين إن مسار القطار قد صار إلى نقطة تبعد كثيراً عما لو كان المسار قد استقر على استقامته المرسومة له من قبل.

عرف محمود سنة النبي ﷺ «فستنه هي مقدرته، في متقلبه ومثواه، وفي منشطه ومكرهه، على حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة، وتلك هي قمة الأخلاق، وهي أيضاً قمة المدنية»^(١). هذه هي قمة الأخلاق، النبي ملتزم بالسنة، ومتخلق بأخلاق القرآن، لذلك جلس في القمة، ولم يبلغ النبي ﷺ هذه القمة بسهولة «ولقد كان محمد أقدر الناس على حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة، وذلك لشدة مراقبته لربه، ولدقة محاسبته لنفسه، على كل ما يأتي، وما يدع، في جانب الله، وفي جانب الناس. أليس هو القائل «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»^(٢). لقد بذل محمود جهداً كبيراً للربط بين الحرية الفردية المطلقة وسنة النبي ﷺ وبحث عن حديث يسند به حجته، ولكنه أتى بحديث ضعيف لا يمكن أن يحتج به في موضوع خطير كهذا.

الحرية الفردية المطلقة

لقد كأن محموداً مسكوناً بتقديس الحرية الفردية المطلقة، واحتفى بها إلى حد الهوس، إذ ما من كتاب له أهميته عنده إلا وتحدث فيه عنها. لقد جعل الرسالة الثانية تفعل كل سعتها من أجل هذه الحرية «والسبب في ذلك أنه، في الرسالة الثانية، كل شيء وسيلة إلى إنجاب الفرد الحر حرية مطلقة»^(٣). وفي كتاب رسالة الصلاة وتحت عنوان الحرية الفردية المطلقة قال «والحرية لا حدود لها»^(٤). ولا بد أن تؤخذ بحقها «وفي الحق

(١) الرسالة الثانية، ص ٢٢.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٢٢.

(٣) الإسلام برسائله الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، ص ٣٨.

(٤) رسالة الصلاة، ص ٦٠.



أن الحرية الفردية في الإسلام مطلقة، على أن تؤخذ بحقها»^(١). ومن فعل ذلك فقد أوفى بوصية المعصوم «وأوفي في ذلك بوصية المعصوم حين قال «تخلقوا بأخلاق الله، إن ربي على سراط مستقيم»^(٢). حين عثر محمود على دليل من السنه كان حظه عاثراً وهو حديث لا أصل له وموضوع، سياق الحديث يتحدث عن أخلاق الله «ومعلوم أن القرآن أخلاق الله»^(٣). وهو يتحدث عن حرية فردية مطلقة. والأمر الثاني إن ما أورده محمود وأسماء وصية المعصوم هو حديث ليس له أصل، أي أنه لم يرد عن النبي ﷺ. وهكذا يريد محمود للناس أن تتبعه مغمضة العينين، لأنها واقعة تحت وطأة حاجة عصره لهذه الحرية «فنحن اليوم، في أخريات القرن العشرين نتحدث عن حاجة الفرد إلى الحرية الفردية المطلقة»^(٤)

بدا تقديس محمود للفرد وهوسه به واضحاً للعيان «أول ما تجب الإشارة إليه هو أن الفرد في الإسلام هو الغاية وكل ما عداه وسيلة إليه، بما في ذلك وسيلة القرآن، والإسلام»^(٥). لكن محموداً بعد ذلك استدرك الأمر قائلاً «ومما لا ريب فيه إن الذي يقام له وزن في الإسلام إنما هو الفرد العارف بالله»^(٦). بدأت الدائرة تضيق، كأن محموداً أولاً يسعى لمخاطبة الناس كلهم، ثم ضاقت أكثر لتكون للفرد بالإسلام، ثم انحصرت أخيراً في العارفين بالله فقط. لكن يظل الجميع مرشحين لأن يكونوا عارفين بالله «وإنما جعل الإسلام كل فرد غاية في ذاته، وإن كان أبله، لأنه جرثومة العارف بالله، وستحصل منه

(١) رسالة الصلاة، ص ٦٠-٦١.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٦١.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٢٢.

(٤) تطوير شريعة الأحوال الشخصية. ط ٣. ١٩٧٩ م. ص ٢٥.

(٥) الرسالة الثانية، ص ٣٦.

(٦) الرسالة الثانية، ص ٣٦.

المعرفة، عاجلاً أو آجلاً، ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾^(١). استخدم محمود الآية ليؤكد أن الأمر حادث لا محالة. استدلال محمود لم يكن في محله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾^(٢) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا^(٣) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا^(٤) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا^(٥) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا^(٦)﴾ (مريم: ٦٨ - ٧٢ - مكية). الآيات تتحدث عن جنهم في يوم القيامة، والجزم بأن الجميع سيردها ثم ينجي الله المتقين. لقد جعل الله من أمره هذا حتماً مقضياً لأنه خالق كل شيء والمتحكم فيه، لكن أنى لمحمود أن يقول مثل ذلك؟.

فشلت التجربة الإنسانية «في القرن المفضل عند محمود» في الخروج بالبشرية إلى بر الأمان لأنها فشلت في تنظيم المجتمع البشري، هكذا أطلق محمود أحكامه عليها «وهذه المدينة الغربية الآلية الحاضرة قد بلغت نهاية تطورها، وقد فشلت فشلاً نهائياً وظاهراً في أن تنظم حياة المجتمع البشري المعاصر»^(٢). ونفس الشيء حدث لروسيا «روسيا، وهي تواجه الفشل اليوم في تحقيق الاشتراكية، بله الشيوعية وتنكص على أعقابها، إلى إجراءات هي أدخل في الرأسمالية منها في الاشتراكية»^(٣). ولما عرض محمود لتجربة الصين، ظهرت معها أعراض بؤس المنهجية في التفكير عنده بكل جلاء «ولن تجد الصين فرصة التجربة الطويلة التي وجدتها روسيا، ذلك لأن الزمن قد أزف»^(٤). هنا حدث لمحمود سقوط منهجي مدو، لأن نبوءته لم تكن قد أسست على أساس متين، ذلك لأن الصين ما تزال تتقدم بسرعة كبيرة بعد مرور أكثر من خمسين سنة على النبوءة، ودخلت القرن الحادي والعشرين أكثر قوة. كما أن الزمن لم يآزف بعد كل

(١) الرسالة الثانية، ص ٣٦-٣٧.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٢٤.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٢٥.

(٤) الرسالة الثانية، ص ٢٥.



هذه المدة، يبدو أن محمودًا قد قاس ما بقي من عمر الدنيا بما بقي من عمره.

فشلت هذه الحضارة ببساطة لأنها لم تستطع أن تفك التعارض البادي للعيان بين حاجة الفرد للحرية الفردية المطلقة وحاجة المجتمع إلى العدالة الاجتماعية «فالوجه الدميم من المدنية الغربية الآلية الحاضرة هو فكرتها الاجتماعية، وقصور هذه الفكرة عن التوفيق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة.. حاجة الفرد إلى الحرية الفردية المطلقة، وحاجة الجماعة إلى العدالة الاجتماعية الشاملة»^(١). هذا الفشل كان نتاج فشل الفكر البشري كله «أما الفلسفة الاجتماعية، عبر العصور وإلى أن انتهت بالشيوعية المعاصرة، فإنها قد فشلت في إدراك العلاقة بين الفرد والجماعة، فهي قد ظنت أن الفرد إذا وجد الفرصة لممارسة حريته فإن نشاطه سيكون ضد مصلحة الجماعة، ولما كانت الجماعة أكثر من الفرد، فإن مصطلحها أولى بالرعاية من مصلحته، ومن ثم أهذرت حرية الفرد، في سبيل مصلحة الجماعة، متى ظهر أنهما تتعارضان»^(٢). الإسلام نجح فيما فشل فيه الآخرون «الإسلام قد استطاع أن يفض التعارض البادي بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة، وأن ينسق هاتين الحاجتين في سمط واحد، تكون فيه حاجة الفرد إلى الحرية الفردية المطلقة، امتدادًا لحاجة الجماعة إلى العدالة الاجتماعية الشاملة، وبعبارة أخرى استطاع أن يجعل تنظيم الجماعة وسيلة إلى الحرية»^(٣). وقد نجح في ذلك عندما «استطاع هذا التنسيق بفضل التوحيد، الذي جعل شريعتة تقع على مستويين.. مستوى الجماعة ومستوى الفرد: فأما تشريعه في مستوى الجماعة فيعرف بتشريع المعاملات، وأما تشريعه في مستوى الفرد فيعرف بتشريع العبادات»^(٤). لكن ليس للعبادة فائدة إذا لم تنعكس إيجابًا على المعاملات «والمقرر أنه ليست للعبادة قيمة إن لم تنعكس في

(١) الرسالة الثانية، ص ٢٣.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٢٨.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٣٧.

(٤) الرسالة الثانية، ص ٣٧.

معاملتك للجماعة معاملة هي في حد ذاتها عبادة. ولقد جعل المعصوم الدين كله في هذا المجال فقال: «الدين المعاملة»^(١). رغم وجهة طرح محمود في مسألة المعاملات الإنسانية من أجل سعادة كل المجتمعات البشرية، إلا أنه نسب ذلك لما هو ليس بحديث نبوي «الدين المعاملة». التوحيد الذي يقصده محمود هو الذي يقرب صفات الإنسان من صفات الرب «فالتوحيد يقرر أن الوجود كله مصدره واحد، وطريقه واحد، ومصيره واحد.. من الله صدر، وإلى الله يعود، وإنما يعود فرادى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وليست العودة إلى الله بقطع المسافات، وإنما هي بتقريب الصفات من الصفات. بتقريب صفات المحدود، من صفات المطلق»^(٢). (الآية ٩٤ من سورة الأنعام - مكية). هذه الآية تتحدث عن يوم القيامة، محمود يفسرها على غير وجهها، أي منهج هذا؟.

لكي يجعل محمود الحرية الفردية في موضع تقديس دائم جعلها في الإطلاق أي عند الله «وأنا حين نتحدث عن الحرية، من حيث هي، وفي أي مستوى كانت، إنما نتحدث عن الإطلاق»^(٣). وكأن محمودًا واضحًا وهو يقود الإنسان بعد أن قرب صفاته من صفات الله، ليكون كاملاً كالرب في الإطلاق «وإنما كان الإطلاق في الإسلام أصلاً لأنه لا يرى لترقي الفرد حدًا يقف عنده، فهو ساير من المحدود إلى المطلق، أو قل مسير من النقص إلى الكمال - والكمال المطلق. فنهاية العبد في الإسلام كمال الرب، وكمال الرب في الإطلاق»^(٤). محمود يأخذ الإنسان إلى الإطلاق وإلى كمال الرب!!!

إن الفرد البشري «أو الإنسان» الذي ينشده محمود لهو إنسان إفتراضي، منزوع منه كل نوازع الشر ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) الرسالة الثانية، ص ٣٧.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٣٧.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٣٨.

(٤) الرسالة الثانية، ص ٣٩.



الَّذِي هَدَيْنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَيْنَا اللَّهَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُّمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴿(الأعراف: ٤٣ - مكية)﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ﴿(الحجر: ٤٧ - مكية)﴾ «أوهو مثل الإنسان الآلي «الربوت» تمت برمجته على حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة. وهذا يشبه ما حلم به توماس هـ. هوكسلي - ١٨٢٥ إلى ١٨٩٩ م. - أبو مذهب اللاأدرية «أقر بأنه لو وافقت قوة عظمى أن تجعلني أفكر دومًا بما هو صحيح وأعمل ما هو صواب، شريطة أن أكون أشبه بالساعة التي تُضبط على هذا كل صباح قبل أن أبارح فراشي، فلن يكون لي من بد إلا أن أقبل بهذا العرض في الحال»^(١). وقد كان ذلك نقلًا عن كتاب هوسكلي:

«Huxley, Thomas H. ١٨٧٠. Discourse Touching the Method of Using One's Reason Rightly and of Seeking Scientific Truth.».

ولو أدرك محمود القرن الحادي والعشرين لاكتفى بأن يقول: يجب أن نضع في مخ كل إنسان شريحة إلكترونية فيها برمجة الإنسان الكامل، ولاستغنى عن كل جهد بذله، وحبر سكه لإفهام الناس معنى الإنسان الكامل. من الممكن لتلاميذه أن يتصدوا لهذا الوهم بعد موت أستاذهم، وهو وهم يقع خارج نطاق المعقول.

لم يناقش محمود الآيات التي حللت سلوك الإنسان وخطابه في القرآن. لو فعل لاكتشف أنه من المستحيل برمجة الإنسان. ولأدرك أن الاختلاف بين البشر هو الأصل وهو من أهم العوامل الداعية لاستمرار وجود البشر ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿(هود: ١١٨ - ١١٩ - مكية)﴾. القرآن يقول إن هذا الاختلاف من مراد الله منذ أن خلق البشر. وكان الله يعلم أن الإنسان سيفسد في الأرض ويسفك الدماء حين استخلفه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿(البقرة: ٣٠ - مدنية)﴾ الله يخلق الناس مختلفين ومحمود كان له

(١) من فقدوا الإله. د. لورانس ب. براون. ترجمة د. منذر عيسى. ٢٠١١. ص ٥٥.

رأي آخر. لقد كانت اتجاهات التفكير عند محمود في شأن توحيد الأفراد بجعلهم نسخ مكررة، هي أقرب إلى اتجاهات التفكير عند الإنسان في أواخر طور الطفولة وبدايات طور المراهقة؛ نفس الشيء ينطبق على أفكاره حول الأمة المسلمة. إن اختلاف اتجاهات البشر هي السبب الأساسي في تطور العلوم والاختراعات والاتجاهات الإنسانية المختلفة والتي قادت إلى رفاهية الإنسانية في عالم اليوم. إن تصور محمود لعالم أمة المسلمين المزعومة سوف يفضي بها إلى أن تكون مثل أمة النمل.

لم يخبرنا محمود كيف نصل إلى ٧ مليار فرد من البشر ونحولهم لسالكين يصلون نقطة حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة. لقد كان النبي ﷺ يرشد الناس عبر برنامج عملي ابتداءً من الاستيقاظ من النوم ودخول الخلاء «الحمام بلغة اليوم» ثم سائر يومهم عبادة ومعاملة، والقرآن المدني يعلمهم قمة الذوق في التعامل المنزلي بين الوالدين وأبنائهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَ ذِكْرُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضٌ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا أَسْتَذِنَ الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ (النور: ٥٨ - ٥٩ - مدنية). كل هذا الذوق لم يعجب محمود فجعل منه قرآن فروع ومنسوخ لصالح التقدم البشري، وهو قرآن أمة متخلفة في القرن السابع الميلادي. بعد كل هذا فإن محمودًا - ومن بعده تلاميذه - لم يقدموا برنامجًا عمليًا للبشرية. لقد قدموا اعتراضات فكرية على مفاهيم عند الناس، ومعها اعتراضات على معتقدات الناس وممارساتهم الشعائرية، وذهبوا أكثر من ذلك بأن حكموا على إسلامهم وتندروا على جهلهم، وأكثر ما أصابت سهامهم علماء الأمة وقضاتها.



الإنسان في القرآن^(١)

نال الإنسان في القرآن اهتمامًا كبيرًا، وخصص السورة رقم ٧٦ في القرآن لتكون باسم «سورة الإنسان»، وإهتم بأصله وخلقه ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَنِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝﴾ (الإنسان: ١ - ٢). وكانت البداية بالتراب ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ (غافر: ٦٧). ثم خلط التراب بالماء فصار طينًا ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ۝﴾ (الأنعام: ٢). وثبت فصار لازبًا ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ۝﴾ (الصافات: ١١). ثم تعفن الطين وبيس ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝﴾ (الحجر: ٢٦). ثم جعل نسله في نطفة من ماء مهين ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَنِ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝﴾ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝﴾ (السجدة: ٧ - ٩). ﴿يُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّنْ مَّيِّ يُمْنٍ ۝﴾ (٢٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝﴾ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝﴾ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝﴾ (القيامة: ٣٦ - ٤٠). وكان أول مانزل من القرآن مخاطبًا محمدًا ﷺ يأمره بالقراءة وتذكير الإنسان بأصله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ (العلق: ١ - ٢). ولخص له ذلك كله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝﴾ (المؤمنون: ١٢ - ١٤). وهل هنالك أفضل

(١) محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، عبد الإله كنه، تحت الطبع، ٢٠١٨م.

من إله هو أحسنُ الخالقين ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ (الانفطار: ٦ - ٨). كيف تكفر بالذي أحسن خلقك في أحسن هيئة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (التين: ٤).

اهتم القرآن بتحليل سلوك الإنسان وتصرفاته، وذلك من منطلق إن الإنسان يعاني كثيراً في الدنيا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ (البلد: ٤). لأن الله حذر آدم من الشقاء حال خروجه من الجنة ﴿فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾﴾ (طه: ١١٧). لذلك لزمه الكدح حتى يلاقي ربه ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾ (الانشقاق: ٦). ولعل أبلغ وصف للإنسان كان العجل ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ (الأنبياء: ٣٧). وكذلك الخصام والجدال ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾﴾ (النحل: ٤). ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ (الكهف: ٥٤). يجادل خوف البعث ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِئْتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ (مريم: ٦٦ - ٦٧). الهلع مثل سمة بارزة في صفات الإنسان ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ (المعارج: ١٩) وما كانت هذه صفاته إلا لضعفه ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء: ٢٨). ومع هذا الضعف دفعه ظلمه وجهله «حماقاته» لقبول الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب: ٧٢). لم ينس القرآن ما على الإنسان من بخل ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ (الإسراء: ١٠٠).

أنعم الله على الإنسان بنعم لا تحصى ﴿وَأَتَذَكَّرُ مِنْ كُلِّ مَآسَاءٍ لَتَمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ (إبراهيم: ٣٤). ولكن الإنسان قابلهما



بالجحود ﴿٦﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٨﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٩﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿١٠﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١١﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١٢﴾ العاديات: ٦ - ١١. في حال الشدة والكرب «الضر» يدعو الله وحده ﴿١٣﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْقَاعِدًا أَوْقَايِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ وَرَكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ﴿١٤﴾ كَذَٰلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ (يونس: ١٢). ﴿١٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾ (الإسراء: ٦٧). وعند الفرج والنعمة يتبطر إلا المؤمنين الصابرين ﴿١٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا نَازِعًا ﴿١٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿٢٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٢١﴾ (هود: ٩ - ١١). ﴿٢٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّ جَانِبِيهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَكُفِّرًا ﴿٢٣﴾ (الإسراء: ٨٣). ﴿٢٤﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرُّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ وَعَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ (الزمر: ٤٩). ﴿٢٦﴾ لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكُفُّ عَنْهُ ﴿٢٧﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا إِلَىٰ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٨﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّ جَانِبِيهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٢٩﴾ (فصلت: ٤٩ - ٥١). وَصِفَ دُعَاءُ الْإِنْسَانِ بالعريض وياله من وصف دقيق.

القرآن أوضح للإنسان مصيره في الحياة الثانية يوم القيامة لأنه سيموت ويبعث ﴿٣٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٣١﴾ (الحج: ٦٦). ﴿٣٢﴾ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿٣٣﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٣٤﴾ أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ تَجْمَعَ عِظَامُهُ ﴿٣٥﴾ بَلَىٰ فَرِّدِينَ عَلَىٰ أَنْ سُوِّيَ بَنَانُهُ ﴿٣٦﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَأَمَامَهُ ﴿٣٧﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ﴿٣٨﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٣٩﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٤٠﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٤١﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّنِ الْفَقْرُ ﴿٤٢﴾ كُلَّا لَا وَرَرَ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿٤٤﴾ يُتَّبَعُونَ الْإِنْسَانُ

يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمُوا لَكُمْ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ مِنْ الْأُولَىٰ عَلَىٰ النَّفْسِ ۚ إِنَّهَا كَانَ لِإِنْسَانٍ لَّكَفَّارًا مِّمَّا كَفَرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ ﴿القيامة: ١ - ١٥﴾.

يومئذ يتذكر الإنسان كل أعماله وبعدها إما إلى الجنة أو إلى النار ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ ﴿٣٥﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴿النازعات: ٣٥ - ٤١﴾.

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَعِيَ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ ﴿الفجر: ٢٣ - ٣٠﴾.

هذا الحشد من الآيات - ومعظمها من القرآن المكي حسب تعبير محمود - يبين وبكل وضوح أن نظرية محمود في الحرية الفردية المطلقة ونظريته في الإنسان الكامل من المستحيل أن تتحققا في الإنسان الذي عرفه القرآن.



الانسان الكامل ودعوى الظاهر والباطن

يدعي محمود أن السالك إلى الله يصل إلى مرحلة تكون له شريعته الفردية الخاصة به وحده والتي تختلف عن شريعة أي شخص آخر. وإذا سألنا ما هو الدليل على هذا الادعاء، جاءنا الرد من محمود: ان الدليل من القرآن^(١) وهو قوله تعالى: «ولكل جعلنا منكم شريعة ومنهاجاً» فإذا قلنا لمحمود أن العلماء والعقلاء وأصحاب الرأي المعتبر فهموا من هذه الآية أنها تتحدث عن الأمم السابقة لأمة محمد ﷺ، قال محمود إنكم لم تفهموا الآية فإن للآية معنى ظاهراً ومعنى باطناً، وأن لكل آية في القرآن معنيين. قبل أن نناقش قضية الباطن والظاهر هذه «وهي قضية ليست بالجديدة، ولقد تناولنا بعض جوانبها فيما سبق، فلنذكر بقية الآيات التي أوردها محمود لكي يدلل بها أن لكل فرد شريعته الخاصة إذ قال ان القرآن مستفيض بالدعوة للشريعة الفردية وذكر الآيات التالية^(٢) منها قوله تعالى: «وكلكم آتية يوم القيامة فرداً»، وقوله تعالى: «ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً»، وقوله تعالى: «ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة»، وقوله تعالى: «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً إقرأ كتابك كفي بنفسك اليوم عليك حسيباً». قال محمود إن في هذه الآيات إشارة صريحة للفردية!! فلنعد إلى نقاش دعواه: إن لكل آية من القرآن اليوم يحتاج إلى تأويل وليس إلى تفسير^(٣).

ولكن السؤال ما هي المعايير لمعرفة المعنى الظاهر والمعنى الباطن إذ أنه لا يصح أن تدع أن الباب مفتوح لكل مدع أن يدعى بدعوى التأويل وبدعوى الظاهر والباطن أن ظاهر آية ما كذا وباطنها كذا من غير ضابط ولقد ذكرنا أمثلة لبعض التفاسير الباطنية أقل ما يقال عنها أنها مضحكة ولا يقبلها عاقل، وتفسير محمود لبعض الآيات

(١) رسالة الصلاة - محمود محمد طه - ص ٧٩.

(٢) رسالة الصلاة ٧٩ - من دقائق وحقائق الدين - ص ٣٢.

(٣) القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري - ص ٣٢.

على كونها تدل على الشريعة الفردية وعلى ألوهية الإنسان هي من جنس التفسير الباطنية التي أشرنا إليها نعوذ بالله من الخذلان.

يقول محمود إن قوله بالشريعة الفردية فهمه من النصوص المشار إليها «وإنما فهمت النصوص على مستويين على نحو ما أوردت لك في هذا الكتاب»^(١). ماذا نقول يا أستاذ، إذا نازعك شخص وقال لك إن فهمك غير صحيح. يدعي محمود في كتابه «القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري» أنه يملك مقدرة خاصة لمعرفة حقيقة القرآن.

دعوى لكل ظاهر وباطن دعوى كاذبة، ودعوى التأويل عنده مثل القول بالظاهر والباطن لا ضابط لها.

يقول محمود: «وحقيقة القرآن، لا تعرف عن طريق القراءة، وإنما تعرف عن طريق الممارسة في تقليد المعصوم عبادة وسلوكًا وهو ما يسمى في أخريات الأيام بالتصوف»^(٢). في هذا القول اعتراف من محمود أنه أخذ الفكرة الأساسية في مذهبه من بعض المتصوفة ومحمود يدعى الكشف ولكنه كما قال لا يدعى كشفًا يناقض النص. لكن السؤال كيف نعرف أن كشفًا معينًا لا يناقض نصًا معينًا؟ الإجابة على هذا السؤال تقتضي معرفة معنى النص بطريقة مستقلة عن معرفته بطريقة الكشف. يقول محمود إن البشرية اليوم تحتاج إلى تأويل القرآن ولا تحتاج إلى تفسيره. إذا سلمنا جدلاً بصحة هذا الرأي فإنه لا يزال هنالك سؤال قائم وهو ما هي المعايير الضابطة للتأويل؟ وإذا تركنا الأمر بدون ضابط فسوف يتضرر منه محمود نفسه – إذا كان ينشد الحق وليس الفوضى وضياح الدين – وأنه بدون ضابط للتأويل والتفسير فسوف تضيع الحقيقة الموضوعية للنص.

(١) من دقائق وحقائق الدين – ص ٣٦.

(٢) القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري – ص ٧.



الإسلام في الفكر الجمهوري

عرف محمود الإسلام «في الباب الرابع للكتاب» كما يعرفه علماء الإسلام «التقليدي» حسب وصف محمود: «أسلم: انقاد واستسلم. الإسلام، في الحقيقة، الانقياد والاستسلام. ونعني بالحقيقة ما فطرت عليه الأشياء»^(١). ثم أضاف معنى غير مألوف للإسلام الإنسان مقابل إسلام الكون «ولقد فطرت الأشياء منقاداً لله، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(٢)». والإسلام، بهذا المعنى دين الخلائق جميعاً، في البداية، وفي النهاية، وما بين البداية والنهاية. ولا يستثنى من ذلك الإنسان. بيد أن الرحمة الإلهية لم ترض للخلائق الانقياد بغير إرادة، فمدت بدقائق لطفها، لطليعتها، وهو الإنسان، أن يتوهم أنه يختلف عن بقية المخلوقات»^(٣). — الآية أعلاه ٨٣ من سورة آل عمران — مدينة) هنا الإنسان يعيش وهماً داخل الإسلام، وهذا الوهم هو غرض الإسلام «والإسلام بهذا المعنى دين البشرية، وغرضه مجارة الوهم البشري، الذي أوحى به إرادة الحرية»^(٤). ولأن هذا الإسلام وهم لا بد من الخروج عنه «حتى يتم الخروج عنه، على مكث، وبحكمة مثبتة، تكون ثمرتها الإسلام الواعي»^(٥).

رغم أن محموداً يعترف بأن الإسلام دين الله إلا أنه يقول بوجود إسلام بشري هو نفس الإسلام الإلهي «والإسلام الذي هو دين البشرية، هو نفسه الإسلام الذي هو دين الله»^(٥). ويؤمن محمود بتطور الدين بما يتماشى مع نظرية النشوء والارتقاء الدارونية

(١) الرسالة الثانية، ص ٩٥.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٩٥ — ٩٦.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٩٧.

(٤) الرسالة الثانية، ص ٩٧.

(٥) الرسالة الثانية، ص ٩٨.

«والإسلام هو دين البشرية ظهر بظهور العقل، وظل يواكب نمو العقل في تطوره الطويل، من بدايات ساذجة ضعيفة إلى نهايات حكيمة مستحصدة»^(١). ويعبر عن هذا الإسلام البشري بكلمة «الفكرة» ويجعلها جزءاً من تاريخ الأديان السماوية «بدأ ظهور هذه الفكرة الواحدة في الوثنيات البدائية المتفرقة. ثم أخذت تتقلب في مراقبي التطور حتى ظهرت الوثنيات المتقدمة، واطرد بها التقدم حتى ظهرت ديانات التوحيد الكتابية، بظهور اليهودية وظهر النصرانية، ثم توج ذلك ببعث محمد، وإنزال القرآن الكريم»^(٢). هكذا تطورت الوثنية إلى التوحيد بدون أي تدخل للإله الذي جاء متأخراً وبدأ باليهودية مروراً بالنصرانية حتى بعث محمد ﷺ. ولتأكيد هذا المعنى جعل محمود الفكرة تنبت من الأرض «وهذه الفكرة نبتت في الأرض، كما نبتت الحياة بين الماء والطين»^(٣). فهي عنده كالإنسان نبت من الأرض ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (نوح: ١٧ مكية). وخرجت مثله من الطين والماء ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿السجدة: ٧ - ٨ - مكية)..

و«بمجيئ موسى ونزول التوراة على بني إسرائيل دخلت الفكرة الإسلامية في طور جديد، وهو ما يسمى بالأديان الكتابية»^(٤). وقد نسي محمود أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً قبل نزول التوراة والإنجيل ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٦٧ مدنية) وأنه كانت له صحفٌ مثل ما كان لموسى ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى: ١٩ - مكية). وهناك صحف ضاربة في القدم لم يذكرها القرآن بالتفصيل إنما أثبت وجودها ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِيَانَا بِلَايَةٍ

(١) الرسالة الثانية، ص ٩٧.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٠٠.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٠٠.

(٤) الرسالة الثانية، ص ١٠١.



مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ (طه: ١٣٣ - مكية). مثلها مثل الرسل الذين لم يقصصهم الله على نبيه ﷺ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ﴿١٦٤﴾ (النساء: ١٦٤ - مدنية). بنى محمود الثالث الإسلامي على صفة الوسطية «ثم جاء الإسلام، على عهد محمد، بين طرفي الإفراط والتفريط، فكانه من «ثالث إسلامي» مقام ﴿مَازَاغَ الْبَصَرِ وَمَا طَغَىٰ﴾ من ثالث القوى المودعة في البنية البشرية، قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿١﴾. - (البقرة: ١٤٣ - مدنية) لعل إعجاب محمود بثالث النصارى جعله يخلق ثالثاً إسلامياً كيفما أتفق.

في نهاية الباب أراد محمود أن يبرز الثالث والوسطية بين الأديان التوحيدية الكتابية «ولما كان الإسلام الذي جاء به محمد وسطاً بين اليهودية والنصرانية، فإن القرآن قد جاء في سياقه بالجمع بين خصائص اليهودية، والنصرانية»^(٢). هذه الوسطية جاءت لتكون للإسلام رسالتان «وكون الإسلام بين طرفين، طرف البداية وطرف النهاية. وجامعاً لخصائص الطرفين، جعل الإسلام نفسه ذا طرفين طرف أقرب إلى البداية، وطرف أقرب إلى النهاية.. وهذا شأن كل وسط بين طرفين، فهو كالولد الذي يجى جامعاً لخصائص الوالد، ولخصائص الوالدة، على نسب قد تتفاوت، ولكنها لا تنعدم»^(٣). ثم يعقب بصورة فيها شئ من الصلف والعنجهية الفكرية، والتعصب للرأي «فإذا كان هذا الحديث صحيحاً، وهو صحيح، بلا أدنى ريب، فإن له أثراً بعيداً في مستقبل الفكر الإسلامي»^(٤). هذا الحديث سوف يكون أساساً لما بعده رضي من رضي وأبى من أبى، بعز عزيز أو ذل ذليل. بعد هذا أكد محمود على أن هنالك رسالتين بناءً على أثر صحة

(١) الرسالة الثانية، ص ١٠٥.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٠٦.

(٤) الرسالة الثانية، ص ١٠٦.

هذا الحديث «ذلك يعني أن الإسلام، كما جاء به القرآن، ليس رسالة واحدة، وإنما هو رسالتان: رسالة في طرف البداية، أو هي مما يلي اليهودية، ورسالة في طرف النهاية، أو مما يلي المسيحية»^(١). لقد بنى محمود فهمه للإسلام على مصادر غير قرآنية. ففي أي مصدر قرآني، أو بأي منهج علمي، جعل محمود اليهودية بداية، والنصرانية نهاية، ثم حشر الإسلام بينهما حشراً؟ إنه منطق محمود يقول والناس تسلم له وتنقاد.

(١) الرسالة الثانية، ص ١٠٦.



وقفه مع الرسالة الأولى

هذا هو عنوان الباب الخامس من كتاب الرسالة الثانية من الإسلام. وكان الباب الرابع بعنوان الإسلام ليكون ممهِّداً للحديث عن الرسالة الأولى، ومن ثم يدخل للباب الأخير «السادس» الرسالة الثانية من الإسلام الذي هو سبب كتابة هذا الكتاب في الأصل. آخر فقرة من الباب السابق «الإسلام» مهدت للباينين الأخيرين «الرسالة الأولى» و«الرسالة الثانية» «وقد بلغ المعصوم كلتا الرسلتين، بما بلغ القرآن، وبما سار السيرة، لكنه فصل الرسالة الأولى بتشريعه تفصيلاً، وأجمل الرسالة الثانية إجمالاً، اللهم إلا ما يكون من أمر التشريع المتداخل بين الرسالة الأولى، والرسالة الثانية، فإن ذلك يعتبر تفصيلاً في حق الرسالة الثانية أيضاً، ومن ذلك، بشكل خاص، تشريع العبادات، ما خلا الزكاة ذات المقادير»^(١). لم يأت بدليل على استثنائه للزكاة ذات المقادير رغم أنها وردت في القرآن المكي وارتبطت بالصلاة الشعييرة المفضلة عند محمود ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (لقمان: ٤ - مكية). بل ومن الأيام الأولى للرسالة وارتبطت بقيام الليل وهي الصلاة المفضلة عند محمود ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نُحِصْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تَقْدِمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المزمل: ٢٠ مكية). هنا ارتبطت الزكاة مع الصلاة وتلاوة القرآن وقيام الليل الذي ينادي به محمود. وهذا هو ما يسمى بالإنحياز في البحوث وهو عيب كبير. وكانت عبادة الله التي خلق الله الإنس والجن من أجلها والحنيفية كدين عند الله مقرونة بالصلاة والزكاة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ

(١) الرسالة الثانية، ص ١٠٦ - ١٠٧.

الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ (البينة: ٥ - مدنية) وكون هذه الآية مدنية لا ينفي عن الزكاة أهميتها لأنها مقرونة مع الصلاة التي تمثل أهم شعيرة عند محمود.

عرف محمود الرسالة الأولى «الرسالة الأولى هي التي وقع في حقها التبين وهي رسالة المؤمنين»^(١). وعرف هؤلاء بالمؤمنين، ونفى أنهم أمة إسلام «وأمة البعث الأول - أمة الرسالة الأولى - اسمها المؤمنون، لدى الدقة، وإنما أخذت اسم المسلمين، الذي ينطلق عليها عادة، من الإسلام الأول، وليس، على التحقيق، من الإسلام الأخير»^(٢). وعرف الإسلام الذي يعنيه هو الأخير «وأنت حين تقرأ قوله تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» يجب أن تفهم إن المقصود هو الإسلام الأخير»^(٣). وقد أوضح الإسلام في شكل لولبي في خياله «والإسلام بداية، ونهاية. فكما أن الزمان والمكان لوليبي. فكذلك الأفكار فإنها لولبية»^(٤). ولأن الإسلام فكرة فهو معراج لولبي، حتمًا يسير فيه السالك «فإن السالك في مراقبي الإسلام يسير على معراج لولبي، ينضم نحو مركزه، كلما ارتفع نحو قمته، ويدور على نفسه كلما رقي في سبع درجات، أولها الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، ثم علم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين، ثم، في نهاية الدورة، الإسلام»^(٥). هكذا الخيال، تخرج منه الأحكام الخطيرة مثل الرسالة الثانية. محمود يتمتع بخيال طفولي خصب فقد جعل للتوحيد عمودًا مثل ساري المولد «كأنما الإنسان يستطيع أن يتصور أن عمود التوحيد زي ساري المولد»^(٦). ومثله خيال الأعمى مع

(١) الرسالة الثانية، ص ١٠٨.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٠٨.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٠٨.

(٤) الرسالة الثانية، ص ١٠٨.

(٥) الرسالة الثانية، ص ١٠٨.

(٦) الإسلام برسائله الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، ص ٨.



الخوابير والأخرام^(١)، وجعل للحروف المقطعة في أوائل السور أشكالا هرمية^(٢). لو أطلق باحث لنفسه العنان في الخيال مجارياً محمود لتصوّر أن طرح محمود مثل لعبة القطار في مدينة الملاهي، القطار فيها يصعد وينزل، ثم يتجه ذات اليمين وذات الشمال، مرة يسرع وأخرى يبطء، وهكذا دواليك.

ثم ما طفق محمود يعرف المكي والمدني من القرآن كما عرفه من سبقه من العلماء. لكنه لم يأت بقائمة تضم سور القرآن مقسمة إلى مكي ومدني، لأن ذلك كان سيفتح عليه أبواب نقاش وجدال لا قبل له بها، وربما شوشت على أتباعه خاصة في السور المختلف عليها والآيات التي نزلت خارج مكة والمدينة. وكذلك تناول اللغة والحروف المقطعة في القرآن وأسبغ عليها تفسيرات باطنية.

(١) الرسالة الثانية، ص ١٣٠.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١١٤.

الرسالة الأولى وحكم الوقت

«الفكرة الجمهورية» تعلق كل اختلاف بين «المسلم» و«المؤمن» حسب اصطلاحها أو بين ما أسمته «بالرسالة الأولى» و«الرسالة الثانية» على ما تصفه «بحكم الوقت»!! أي أن الاختلاف بين زمن البعث الأول وزمن الرسالة الثانية هو الذي يبرر الاختلاف بين «المؤمن» و«المسلم» في درجات القرب من الله سبحانه وتعالى!!

تقول «الفكرة الجمهورية» عن حكم الوقت: «للقرون السابع» حكم وقت «هو الذي جعل العدل بين الرجال والنساء على الصورة التي جاءت بها شريعة الله، وللقرون العشرين «حكم وقت» يجعل صورة العدل في القرن السابع. ظلماً يبرأ الله منه... وتنتقل صورة العدل إلى المستوى الجديد الذي ضمنه دين الله، حيث قصرت عنه شريعة الله للقرن السابع نزولاً على مقتضى الحكمة التي أقام الله عليها «حكم الوقت»^(١).

وتقول أيضاً «إنه من الخطأ الشنيع أن يظن إنسان أن الشريعة الإسلامية في القرن السابع تصلح بكل تفاصيلها للتطبيق في القرن العشرين، ذلك أن اختلاف مستوى مجتمع القرن السابع عن مستوى مجتمع القرن العشرين أمر لا يقبل المقارنة ولا يحتاج العارف ليفضّل فيه تفصيلاً»^(٢).

والسؤال هو بماذا يتفوق عصرنا هذا على عصر رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام حتى يزعم محمود أن حكم الوقت هو الذي فتح الباب لإنسان هذا العصر ليرقى في معراج الروحاني إلى منتهاه ولا ينتهي!! الأمر الذي يقصر عنه الصحابة رضوان الله عليهم؟! هل هو التفوق المادي والتكنولوجي الذي اتخذه الإنسان وسيلة معراج إلى قبة السماء وما ضمت من كواكب؟! لعل هذا يصلح إجابة لو أننا نتحدث عن معراج مادي لا إلى معراج روحي!!! أم أن التفوق المادي والتكنولوجي يلزم منه ترق روحي؟! لا نحسب أن هذا يقره العقل أو الواقع!! فهذا هو الغرب بكل تفوقه المادي والصناعي

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٤.

(٢) الرسالة الثانية من الإسلام، ص ٨.



يعاني جفافاً في الحياة الروحية مما دفع البعض إلى الانتحار... هل تعرف «لدارون» الذي تفوق في العلوم الطبيعية ولامارك وكارل ماركس معراجاً روحياً بلغ بهم علم اليقين في معرفة الحق عز وجل؟! أم أن تفوقهم خلافاً لذلك قادهم إلى إنكار الألوهية والبعث والغيب والأديان؟.

إن الطريق إلى الله تعالى هو جلاء القلوب... وجلاء القلوب يحصل بالذكر... وليس بتقديس الداروينية والماركسية أو أي من النظريات الحديثة التي بعدت عن منهج السماء.

يقول الإمام الغزالي «التقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر وهو الفوز بقاء الله تعالى»^(١).

ويقول الغزالي أيضاً «الأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفرغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، فمن كان الله كان علائقها»^(٢).

إذا علمنا ذلك فإننا نعلم أن خير من يضرب لنا المثل الأعلى في الزهد والتقوى والتبري من علائق الدنيا هم صحابة المصطفى ﷺ ورضوان الله عليهم أجمعين وليس محمود وجماعته.. يقول ﷺ «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته».

إن العقل الذي افتتن بالمادة ومعطياتها في عصرنا هذا لهو فتنة هذا العصر! ورغم ذلك تزعم «الفكرة الجمهورية» أنه هو ذات العقل الذي قوي واستحصد فعرف ربه كما لم يعرفه صحابة رسول الله ﷺ.

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، المجلد الثالث، ص ١٢.

(٢) إحياء علوم الدين، المجلد الثالث، ص ١٩.

عودة إلى أمة المؤمنين

أكد محمود أن سبب نزول القرآن المدني هو عجز الناس عن الإسلام وأنهم لم يطيقوه «قلنا لقد جاء القرآن مقسمًا بين الإيمان والإسلام، كما جاء مقسمًا بين مدني ومكي، وكان المكي سابقًا على المدني، وبعبارة أخرى، بدأ بدعوة الناس إلى الإسلام فلما لم يطيقوه، وظهر ظهورًا عمليًا قصورهم عن شأوه، نزل عنه إلى ما يطيقون. والظهور العملي حجة على الناس، وهو المعني بقوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾^(١). من يقول لمحمود أن هذه هي الآية ٣١ من سورة محمد المدنية، وأنه هنا يتحدث عن العهد المكي. لقد سبق المكي المدني، فهو أول رسالة نزلت على المسلمين ثم نسخت وأرجئت وعلقت كما قال^(٢). ثم جاءت رسالة في المدينة للمؤمنين، وهي رسالة تالية زمنيًا للرسالة التي كانت في مكة. لماذا أصبحت هذه هي الرسالة الأولى. فإذا اعتمدنا هذا المنطق سيكون ما جاء به محمود إما بعث الرسالة الأولى أو يكون «الرسالة الثالثة من الإسلام». محمود رغم ضعف منهجه هذا، يحاول إقناع الناس بأن ما جاء به رسالة ثانية من الإسلام.

(١) الرسالة الثانية، ص ١١٦.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٧.



ما ليس بأصل في الإسلام

يتوقع القارئ أن يسهب محمود في شرح الرسالة الأولى من كل جوانبها، ولكنه يجد تكراراً مملاً لما ناقشه محمود من أفكار في الصفحات السابقة. ثم مضى محمود يتحدث عن مفاهيم قال إنها ليست أصلاً في الإسلام. لم يعرف محمود أصول الإسلام، ولم يتعرض لها كما هي في الفقه التقليدي الذي ثار عليه. وإنما جاء بتعريف لم يسبقه إليه أحد، وما ذلك إلا لضعف منهجية محمود.

الجهاد ليس أصلاً في الإسلام

هذا العنوان الكبير والذي يتصور الإنسان أن محموداً سيتحدث فيه عن الجهاد بكل صوره، ثم يفند كل الآيات ويوضح معانيها، سيفاجأ أن محموداً لم يتحدث عن الجهاد مطلقاً، بل مضى يثرثر في موضوعات بعيدة كل البعد عن موضوع العنوان، ويحاول أن يدمج الإسلام بشهوة القتل دونما ضابط. ذكر الجهاد في أربعة مواضع في القرآن ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ عَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٢٤﴾ (التوبة: ٢٤ - مدنية) ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فِئْتُمُ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ٧٨﴾ (الحج: ٧٨ - مدنية) ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ٥٢﴾ (الفرقان: ٥٢ - مكة). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَقَعْلُهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١﴾ (الممتحنة: ١ - مدنية). لم يأت محمود على ذكر

الجهاد مطلقاً، ولم يتعرض لأي آية مما ذكر أعلاه، إنما تحدث عن القتال «وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني حتى لا تكون شرك»^(١). - (الآية ١٩٣ من سورة البقرة - مدنية) و فرق كبير بين الجهاد والقتال. وهذا يمثل خطأ منهجياً كبيراً.

لم يفهم محمود سياق آيات القتال، لم تتحدث هذ الآيات عن وضع همجي يهاجم فيه المسلمون الناس، لقد تحدثت عن أوضاع فيها القتال مازال مستعراً. أي دولة محترمة لا بد أن يكون لها مقاتليها الذين يحمونها. إذا افترض محمود أن ٧ مليار إنسان أصبحوا فجأة مسلمين على نهجه فلن يكون هنالك إعتداء، وبالتالي ليس هنالك دفاع ولا قتال. لكن في مثل مجتمع اليوم لو حدث هجوم على أي بلد مسلماً كان أو مؤمناً ماذا يفعلون؟ يقيمون «ركن نقاش» ويقنعونهم بفكر محمود. حينها تكون الجيوش قد اجتاحت كل شيء. نظم القرآن القتال فهو ليس شهوة من أجل القتل. القرآن يحدث عن عهد مليء بالعداءات المتبادلة، فالحرب ناشبة ولا بد من الاستعداد من أجل الردع ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠ - مدنية). أو القتال في أي مكان، إلا لارتدوا على المسلمين وقتلوههم ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨) ودُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليَاءَ وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ٨٨ - ٨٩ مدنية. لكن من لهم اتفاقيات لا يجوز قتالهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلقَتُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَالُ إِلَيْكُمْ السَّلامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠ - مدنية) أما

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢٢.



هؤلاء المراءوغون فلا مفر من التعامل معهم بصرامة، إما إتفاق سلام ملزم أو القتال في كل مكان ﴿سَتَجِدُونََ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيَدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٩١ - مدنية) أليس هذا النظام أفضل مما عليه عالم محمود أي القرن العشرين وما بعده؟. وحينما تحدث عن المجاهدين في نفس السورة، لم يتحدث عن القتال، بل تحدث عن معني بذل جهد المال قبل النفس وجعل ذلك في سبيل الله وليس شهوة للقتال ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥ - مدنية). محمود لم ير هذه الآيات.

صور محمود أن الأمر بالقتال قد صادف هوى في نفوس المؤمنين وهو لا يعرف طبيعة الناس تجاه القتال يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦ - مدنية) وقد خرجوا للقتال في بدر وهم كارهون ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (الأنفال: ٥ - ٦ - مدنية) ولن نجد مسلماً ذا عقيدة سوية يسلم مع محمود إن الجهاد ليس له أصل في الإسلام كما لا يسلم معه إن آيات الإسماع نسخت بآية السيف ، لأن الإسماع أصل في السلم والجهاد أصل أيضاً وآياته أصل في الحرب ووجود الاعتداء، فكلاهما أصل الأولى يمكن الاستمرار في العمل بها بجانب العمل بآيات السيف جنباً إلى جنب دون تعارض بينهما. ثم إذا سلمنا جدلاً -بمنطق محمود - إن آية السيف نسخت آيات الإسماع إذن فهي أصل على كل حال لأن الناسخ إما أن يكون خيراً من المنسوخ وإما أن يكون مساوياً له. فإذا قلت إن الآية الناسخة خير من المنسوخة كانت آية السيف هي أصل وآيات الإسماع هي الفرع،

لأن الأصل خير من الفرع ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقد يكون الناسخ مساوٍ للنسوخ. والقول هكذا بأن الجهاد ليس له أصل في الإسلام يفتح باباً لن يقفل ويحمل في دواخله دعوة خطيرة على المسلمين خاصة في زمننا هذا وبيت المقدس محتل من اليهود والبلدان الإسلامية تحت تحرش دائم من الغرب الضال، أو الوجه الدميم للحضارة الغربية الآلية كما قال محمود. ثم إذا كان الإسماع هو الأصل لماذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخُسْفَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥ - مدنية)

سؤال مهم يحتاج إلى إجابة واضحة من تلاميذ محمود، سورة الحج مكية أم مدنية؟ لقد اختلف العلماء هنالك من قال هي مكية وذهب آخرون إلى أنها مدنية، وقد قلنا أن محموداً تجنب تصنيف السور المكية من المدنية لأن ذلك سيفتح عليه أبواب جحيم العلماء الراسخون في العلم. في حال من اقتنع بالفكر الجمهوري وكان يعتقد أن هذه السورة مكية، أين سيذهب بهذه الآية من سورة الحج ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنْفُسِهِمْ ظُلُمًا وَإِنَّا لَنُصَرِّحُهُمْ لَقَدِيرٌ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمَتْ صَوْمُوعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَاةٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٥١﴾ (الحج: ٣٩ - ٤١؟)

لقد كأن محموداً مزهواً بالعلم في القرن العشرين، وراهن على أن هذا العلم سيحول القرن العشرين إلى عصر مائي فيه يسود السلام «إن العصر الذي نعيش فيه اليوم عصر مائي، وقد خلفنا وراءنا العصر الناري.. وهو عصر مائي لأنه عصر العلم.. العلم المادي المسيطر اليوم والعلم الديني - العلم بالله - الذي سيتوج ويوجه العلم المادي



الحاضر غداً.. وفي عصر العلم تصان الحرية وتحقق الدماء وتنصب موازين القيم الصحاح..» رسالة الصلاة ص ٥٢. في القرن العشرين دارت حربين عالميتين عدد القتلى فيها على أقل تقدير تجاوز ٥٠ مليون إنسان. مثلاً حرب العراق وإيران أكثر من مليون شخص. في البوسنة والهرسك أكثر من ٨٠٠ ألف شخص. حرب الهوتو والتوتسي في رواندا أكثر من ٣٠٠ ألف قتيل. في القرن الحادي والعشرين القتلى في حرب أفغانستان بلغ ١٠٠ ألف خلال عقد واحد من الزمان، وفي سوريا أكثر من ٥٠٠ ألف قتيل. في جنوب السودان الحرب الأهلية «ليست ضد السودان المسلم» بعد الاستقلال أكثر من ٣٨٢ ألف قتيل. هذه الإحصاءات جعلت الفيلسوف الفرنسي يقول في عنوان جانبي في كتابه الإرهاب الغربي «رائحة جنازية للقرن العشرين».

السلم والحرب

بناءً على مفهوم «الأصل» و«الفرع» في «الفكرة الجمهورية» فإنها أي «الفكرة الجمهورية» تعتبر الجهاد فرعاً انتهى وقته!! أما الأصل فهو السلام، وتحتج «الفكرة الجمهورية» لمنطقها هذا، بأن آيات الإسماع - على حد تعبيرها - من مثل قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ هي الأصل الذي بدئت به الدعوة إلى الاسلام، غير أن هذا الأصل نسخ، وصدورت الحرية، لما لم تستجب لها أمة البعث الأول، فكانت مصادرة الحرية للمشركين بالسيف وللمؤمنين بالشرعة وهذا الأصل الذي نسخ هو ما سيبحث من جديد في الرسالة الثانية! ويصبح هو الناسخ للفرع.

والحق إن الآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) من سورة البقرة المدنية تقرر مبدأ إسلامياً يصلح لكل زمان ومكان وهو حرية الاعتقاد؛

(١) سورة البقرة «٢٥٦».

لأن هذا الدين - كما يقول ابن كثير^(١) في تفسيره للآية الكريمة - بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحدًا على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً.

والقتال في الإسلام شرع لا ليناقض هذا المبدأ - أي مبدأ حرية الاعتقاد - بل ليقرره ويؤكدّه؛ فالحرب الإسلامية إما أن تكون دفاعاً عن الدعوة الإسلامية وحرية حركتها، أو إنها تكون تحريراً للمستضعفين من استعباد الطغاة لهم والحيلولة بينهم وبين دعوة الحق... ففي كلا الحالتين نجد أن القتال وسيلة تحرير للأفراد والمجتمعات، وليس هو وسيلة لمصادرة الحريات كما تدعى الفكرة الجمهورية!!

وإذا ما نظرنا في الشروط التي تعلنها الدولة الإسلامية قبل أن تعلن الحرب على دولة أخرى وهي التخيير بين الإسلام أو الجزية أو الحرب - لتجلى لنا هذا المعنى. فقبول الجزية، يعني إفراح المجال لحرية الاعتقاد، تحت راية الدولة الإسلامية - فالجزية ضريبة يفرضها الإسلام على غير المسلمين من رعايا الدولة الإسلامية لتقوم مقام الزكاة التي تؤخذ من المسلمين.

فالسيف إذن، لإخضاع الأنظمة الجائرة وجبروتها للإسلام، وليس لإكراه الأفراد والشعوب على الدخول في الإسلام؛ فلا إكراه في الدين. ولنا وقفة في هذا المقام مع شهادة بعض علماء الغرب على التسامح الإسلامي. يقول سير. ت. و. أرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»: «ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق، أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة...»

ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب، بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام. محمد نفسه قد

(١) تفسير ابن كثير «الجزء الأول»، ص ٣١٠.



عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية، وأخذ على عاتقه حمايتهم، ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم^(١).

الرق ليس أصلاً في الإسلام

لم يأت محمود بآية واحدة في شأن الرق. كلمة رق لا توجد في القرآن. بل كان مكانها كلمة ملك اليمين. وقد حرر الإسلام مصطلح العبودية قال ﷺ «لا يقل أحدكم: هذا عبدي وهذه أمتي، وليقل: هذا فتاي وفتاتي». كل تشريع الإسلام كان يقوم على حسن المعاملة لملك اليمين في ظل الوضع القائم آنذاك، وإنفاذ سياسات تحريرية متدرجة. لقد تدرج الإسلام في تحريم الخمر كما تفعل المصحات الطبية اليوم. فلو حرمت الخمر فجأة لاختل النظام الاقتصادي والصحي عند المتعاملين به. وبنفس المنطق لو حرر الرقيق فجأة أين سيذهبون في تلكم الصحراء القاحلة؟. أمر القرآن بحسن المعاملة ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦ - مدنية) وشرع سياسة التحرير، التي ينبغي أن يساهم فيها المجتمع كله ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ (النور: ٣٣ - مدنية). والمكاتب سيظهر جدية من أجل الإيفاء بالاتفاق، فيصبح مسئولاً ومؤهلاً عملياً ليكون حراً يعتمد على نفسه في بيئة قاسية مثل بيئة شبه الجزيرة العربية. القرآن أحكامه تقوم وتطبق على واقع البشر، وليس على واقع افتراضي في خيال محمود. عندما تناول محمود المسألة لم يأت بجديد «فالأصل الحرية، ولكنه نزل على

(١) الدعوة إلى الإسلام، سيرت. و. ارنولد، نقلا عن عفيف طيارة: روح الدين الاسلامي دار العلم بيروت ط ١٨، ١٩٧٩ م - ص ٢٨٨.

مجتمع الرق فيه جزء من النظام الاجتماعي والإقتصادي»^(١). والسبب عدم حسن التصرف في الحرية الفردية «وهو مجتمع قد ظهر عملياً أنه لا يحسن التصرف في الحرية»^(٢). وجعل لهذا النظام البغيض حكمة «والحكمة في الإسترقاق تقوم على قانون المعاوضة»^(٣). ويختم حديثه بما هو معرف لكل الناس «وهكذا شرع الإسلام في الرق، فجعل للرقيق حقوقاً وواجبات، بعد أن كانت عليهم واجبات، وليست لهم حقوق. ثم جعل الكفارات والقربات، بعثت الرقاب المؤمنة، السليمة النافعة. وأوجب مكاتبه العبد الصالح الذي يستطيع أن يفتدي نفسه، وأن يعيش عيشة المواطن الصالح. وهو في أثناء ذلك يدعو إلى حسن معاملتهم فيقول المعصوم «خولكم أخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تطعمون، وأكسوهم مما تلبسون»^(٤). وهذا حديث صحيح روله البخاري بلفظ آخر «هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم، ومن لم يلائمكم فيبيعوهم، ولا تعذبوا خلق الله». وأنذر النبي ﷺ المجتمع من إنتهاك كرامة هذه الفئة من البشر «من قتل عبده قتلناه، ومن جدد عبده جددناه، ومن أخصى عبداً أخصيناه» رواه الشيخان.

الرأسمالية ليست من الإسلام

بادئ ذي بدء الرأسمالية لم تبدأ في الإسلام، إنما بدأت في الغرب بعد اختراع الآلة. وهي لا تقوم في صورتها البغيضة الحالية إلا بوجود الربا الذي يحرمه الإسلام ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة - مدنية آية ٢٧٥). يعتقد محمود إن الاشتراكية هي الحل الإسلامي في مسألة المال، لا غرو أن دعاية الاشتراكية قد جابت الآفاق بعد

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢٤.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٢٤.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٢٤.

(٤) الرسالة الثانية، ص ١٢٥.



إنتصار الثورة البلشفية بداية القرن العشرين، وحتى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين «والأصل في الإسلام شيع المال بين عباد الله، فيأخذ كل حاجته وهي زاد المسافر»^(١). ولم يأت بدليل، ثم مضى يفسر الآيات ٣٦ - ٣٨ من سورة محمد المدنية تفسيراً يشبه كل التفسير السائدة ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾^(٣٦) **﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْغَنَكُمْ﴾**^(٣٧) هَآأَنَظْمُ هَؤُلَاءِ نَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^(٣٨) (محمد: ٣٦ - ٣٨ - مدنية). ولما جاء لتفسير قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ قال: «فيه إشارة لطيفة جداً إلى المسلمين الذين يجيئون بعد المؤمنين، ثم يكونوا خيراً منهم»^(٢). وذلك يعني إن المؤمنين من بعد نزول القرآن، من لدن أبي بكر الصديق أول من آمن، وحتى يناير ١٩٦٧م قد تولوا فاستبدلهم الله بخير منهم «أي الإخوان الجمهوريين». وعزا مجيء التشريع الإسلامي دون مستوى الطموح لعدم ظهور الاشتراكية في ذلك الزمن «وهكذا جاءت الزكاة ذات المقادير وجعلت ركنًا تعبديًا في حقهم، وذلك بمحض اللطف. يضاف إلى ذلك اعتبار آخر، هو إن شمس الاشتراكية لم تكن قد أشرقت على عالم يومئذ بعد»^(٣). لو علم محمود حال الاشتراكية اليوم ولمس فشلها لربما رجع عن احتفائه بها.

الزكاة ذات المقادير عند المؤمنين هي بديل العفو عند أمة الإسلام ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة: ٢١٩ - مدنية). والعفو هو ما زاد عن الحاجة. لكن هل هذا هو المعنى الوحيد لهذه الآية؟ قال تعالى ﴿حُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢٥.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٢٦.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٢٦.

الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ (الأعراف: ١٩٩ - مكية). بمعنى ما وجود به الناس من أموالهم. وقال تعالى ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾ (الأعراف: ٩٥ - مكية). بمعنى زادت أموالهم. لقد أخذ محمود آية واحدة ومعنى واحد لكلمة العفو «تمسك بآية مدنية واحدة وأهمل آيتين مكيتين»، وعلى ضوء ذلك راح يصدر تشريعاً يلغي به الزكاة ذات المقادير. إن ميزة الزكاة أنها إحدى أدوات كسر رأس المال لأنها تؤخذ من رأس المال نفسه، ليس من الأرباح كما تفعل الضرائب ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (الحشر: ٧ - مدنية). والميزة الثانية هي أن لها ثمانية مصارف فقط لا تزيد ولا تنقص ومن أهمها الفقراء. والأداة الثانية لكسر رأس المال هي الوراثة، حيث يقسم رأس مال المتوفي على الورثة بمقادير شرعها الله في القرآن. يبدو أن محموداً لم يتأمل هذا النظام القرآني الدقيق الذي وفق بين حاجة الجماعة وحاجة الفرد، وذهب يبشر بالاشتراكية ومن بعدها بالشيوعية. أخيراً لا تعرف نصوص الكتاب والسنة مصطلح «الرأسمالية».

النظرية الماركسية

كما تبنى محمود نظرية التطور الداروينية فإنه قد تبنى أيضاً النظرية الماركسية. فإذا كان ماركس يقول بحتمية ظهور المجتمع الشيوعي انطلاقاً مما وصفه بالحتمية التاريخية، فأن محموداً يقول بذات الحتمية. فغاية ما يبلغه المجتمع من تطور - كما يرى محمود - هو أن يحقق الشيوعية والديمقراطية، ولا يكتفي محمود بتقريره هذا، بل يذهب إلى أن الرسول ﷺ - قد حقق الشيوعية في قمتها! يقول محمود: «ولقد عاش المعصوم الشيوعية في قمتها حين كانت شريعته في مستوى آية الزكاة الكبرى!» والاختلاف بين محمود وماركس في مسألة الحتمية، هو أن ماركس يدعي أنه يؤسس هذه الحتمية على الواقع - فالصراع الطبقي - وهو أمر حتمي - عنده - يؤدي في نهاية المطاف إلى قيام المجتمع الشيوعي - في حين أن محموداً يدعي أنه يؤسس هذه الحتمية على الدين! فالتفسير الإلهي أو الإرادة الإلهية - كما يزعم - هي التي قهرت



الوجود وسيرته سيرًا حتميًا من ذرة الهيدروجين وحتى تبلغ به مرتبة الذات الإلهية، حيث يحقق الإنسان حريته المطلقة، فيحق من ثم ألوهيته! كما سيرت - الإرادة الإلهية - المجتمعات، ويستمر التسيير ليتحقق في نهاية المطاف المجتمع الديمقراطي الشيوعي! فالنتيجة إذن واحدة، مع إختلاف فماركس لا يدعي أن الحتمية تقود الإنسان إلى تحقيق الألوهية في حين أن محمودًا يدعي ذلك.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فأن محمودًا، مثله مثل ماركس، يقول بوجود النقيضتين في الذات الواحدة، دون الالتفات إلى معارضة ذلك لمبدأ عام وهو مبدأ عدم التناقض. غير أن الاختلاف بين محمود وماركس، هو أن ماركس يظن أن صراع النقيضين ينتهي بقيام المجتمع الشيوعي في حين أن محمودًا يرى أن العقل يوحد بين النقيضين بالاستواء في اللحظة الحاضرة التي فيها ذات الله - تعالى الله علوًا كبيرًا -. وبهذا الاستواء يكون الانسان قد حقق ألوهيته! سبحان الله عما يصفون.

عدم المساواة بين الرجال والنساء ليس أصلًا في الإسلام

قال محمود «والأصل في الإسلام المساواة التامة بين الرجال والنساء» الرسالة ص ١٢٦. وهو محق في ذلك وهو ما عليه الدين رغم أنه لم يأت بدليل. قال تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثًى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥ - مدنية) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثًى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٤ - مدنية) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثًى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧ - مكية). ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثًى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر: ٤٠ - مكية). فالقرآن ساوى بين الذكر والأنثى دون تمييز بين مكيه ومدنيه كما يذهب إلى ذلك محمود،. أترى خاف محمود من إبراز هذه الحقيقة؟ هذا مجرد سؤال. ثم قال «وهكذا جاء التشريع ليجعل المرأة على النصف من الرجل في الميراث. وعلى

النصف منه في الشهادة»^(١). وهنا وقع محمود في خطأين شنيعين من أخطاء البحث. الأول أنه لم يأت بدليل واحد يدعم به زعمه. الثاني أنه لم يستعرض كل الأدلة المتاحة له من القرآن. جعل المرأة نصف الرجل في الشهادة في آية واحدة ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ (البقرة: ٢٨٢ - مدنية). كانت المرأة في ذلك الزمان قليلة الخبرة في التجارة والعقود، كما أن المرأة بطبيعتها معرضة للنسيان عندما تنقطع عنها حيضاتها بسبب قلة هرمون الإستروجين فتحدث لها تغيرات عديدة من ضمنها ضعف الذاكرة. لكن محموداً لضعف منهجه، لم يأت على موضع تساوت فيه المرأة مع الرجل في الشهادة ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ وَلِإِنَّ الصِّدِّيقِينَ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ وَلِإِنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصِّدِّيقِينَ ﴿٩﴾﴾ (النور: ٦ - ٩ مدنية)

أما في الميراث فقد جعل الإسلام المرأة نصف الرجل في حالة واحدة هي حالة وراثة الأبناء لأبيهم، لكن الوضع يختلف في الحالات الأخرى، وقد فصلت سورة النساء هذه الحالات الأخرى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهِ إِنْ كَانَ عَالِمًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ لُهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ لَمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢٧.



فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةَ مَنِ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ (النساء: ١١ - ١٢ - مدنية). وكما في هذه الآيات أعلاه ترث المرأة في حالات مثل الرجل وأكثر منه في حالات أخرى.

أما في مسألة الوصاية فقد قال محمود «وعلى المرأة الخضوع للرجل، أباً وأخاً وزوجاً..» «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» والحق، أن في هذا التشريع قفزة بالمرأة كبيرة، بالمقارنة إلى حظها سابقاً، ولكنه، مع ذلك دون مراد الدين بها^(١). هنا يظهر محمود بؤساً شديداً في فهم آيات القرآن. فالرجال قوامون عليهن ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤ - مدنية). القصد هنا الرجال من حيث أنهم رجال وكذلك النساء «ليس ذكر وأنثى»، بما فضل الله بعضهم على بعض، ليس كما فهم بعض الناس ومحمود معهم، أن الله فضل الرجال على النساء. وليس ذلك محصوراً على الأزواج في الأسرة الواحدة فقط. والقوامة لا تعني التسلط على النساء وقهرهن إنما القيام بخدמתهن «ويقوم الرجال على النساء بإتفاق شئ من أموالهم، وقد يقومون على إدارة مال مملوك لهن وقد لا يقومون، ولكنهم ملزمون بكسب المال وتولي القوامة على خدمة حاجاتهن المعيشية»^(٢) والتمييز ليس منحازاً للرجال، فذلك وهم في عقول الكثيرين، لأن التفضيل متبادل لكل منهما فضله «وليس التفاضل بين الذكور والإناث في الصفات مطلقاً فهم بشر سواء إلا قليلاً بعضه تمايز وبعضه درجة تمايز. والرجال قوامون على النساء بفضلهم النسبي فيما يؤهلهم ويفرغهم للكسب والقوامة، ولهن فضل نسبي يناسب أن يقوم عليهن الرجال»^(٣). ذلك لأن الله حذر آدم من الشقاء في الدنيا حال

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢٧.

(٢) التفسير التوحيدي. حسن الترابي. دار الساقى. بيروت. ج ١. ط ١. ص ٣٦٩.

(٣) التفسير التوحيدي، ص ٣٦٩.

خروجه من الجنة ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه: ١١٧ - مكية). رغم أن الخروج كان لآدم وزوجه معاً، إلا أن الشقاء كان من نصيب آدم وحده لأنه سيقوم على زوجه خادماً لها. وفي تسجيل فيديو له في محاضرة «تجديد الفكر الديني» في جامعة الخرطوم ذكر الترابي أن قوامة الرجل على المرأة هو أن يقوم بخدمتها كما يقوم الجرسون «waiter» وذكر هذه الكلمة الإنجليزية التي تعني خادم أونادل. ولقد أغفل محمود دور الأب في الأسرة رغم أن محموداً مغرم بالثنائيات والثالث والسلم السباعي، والأشكال الهرمية والحلزونية، فلم يجعل للأب ثنائية مع الأم.

يبدو أن ضعف محمود الشديد في مسأل البحوث جعلته يقع في مثل هذه الأخطاء الساذجة.



الانتقال في أحكام المرأة من التشريع الإسلامي إلى الجمهوري

يدعي الجمهوريون أن حق المرأة في الشريعة الإسلامية - أي ما يصفونه بشريعة الفروع - منقوص ومبخوس حيث إن الشريعة الإسلامية تميز بين الرجل والمرأة في الميراث، وفي الشهادة وغير ذلك.. أما في شريعة الأصول - أي شريعة الرسالة الثانية التي يبشر بها محمود والجمهوريون - فإن المرأة تتساوى تمامًا مع الرجل في كل شيء! في الميراث وفي الشهادة! ولا تميز بينهما البتة في أي مجال من المجالات!! والجمهوريون يزعمون أن التشريع تنزل إلى مستوى التمييز بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات لقصور المرأة عن شأو الرجل في ذلك الوقت!! أي أنهم يزعمون أن المرأة اليوم أصبحت على قدم المساواة مع الرجل لأنها أصبحت راشدة بفضل ما أتيح لها من تعليم وعمل في الوظائف العامة مثلها مثل الرجل تمامًا؟!

إن هذه الشبهة يتضح بطلانها إذا ما وقفنا على وضع المرأة قبل الإسلام.. كانت المرأة في الجاهلية كمًا مهملاً تغص حياتها بالمفاسد الموروثة والتقاليد البالية من مثل وأد البنات وحرمان المرأة من الميراث والاتجار بأعراض الجوارى وغير ذلك حتى جاء الإسلام ليدفع عنها كل هذه الشرور والآثام ويرد كرامتها وإنسانيتها وشخصيتها بل ليمنحها من الحقوق ما يرفع من قدرها ويحقق أنوثتها الأمر الذي لم يتحقق حتى الآن في أي نظام وضعي قديمًا كان أو حديثًا!!.

والإسلام ساوى بين الرجل والمرأة ولم يفاضل بينهما ألا في بعض الأحوال.. فالجميع سواء في أداء الفرائض وسواء أمام القانون والتكليف والمسئولية والأوامر والنواهي وفي الحساب والعقاب وفي الوعد والوعيد وفي التوبة وغير ذلك مما ورد تفصيلًا في القرآن والسنة... إلا أن الإسلام فاضل بينهما في بعض الأحوال. ولا تعني هذه المفاضلة سلب حقوق أي منهما بل أن الإسلام ميّز بينهما كنوعين لجنس واحد، وهو جنس الإنسان. وهذا الاختلاف النوعي يعود إلى أن كل نوع يمتاز بصفات خاصة، سواء من الناحية الفسيولوجية أو الناحية النفسية. فالرجل بطبيعة تكوينه الفسيولوجي

والنفسى مؤهل للتعامل مع العالم الخارجى، ذلك أن المرأة قد تمر بأحوال نفسية وعضوية لا تقوى فيها على الاضطلاع بنفس الدور!! أما المرأة بتكوينها الذى يمتاز بصفات خاصة وبرقتها التى هى أوضح صفاتها، فإنها أعدت لدور أساسى آخر هو عين مسئوليتها. وليس هذا الدور سوى التعامل مع الإنسان منذ ميلاده - نعى دور الأمومة.

أما العمل فى الوظائف العامة بالنسبة للمرأة فهو حق من حقوقها وليس واجباً عليها، ولها أن تستخدم هذا الحق حين الحاجة إليه أو حاجة المجتمع إليه. وفرق بين الحق والواجب، كما هو معروف للجميع، ومهما بلغت المرأة من الدرجات العلمية أو من الثراء المادى أو التقدم التكنولوجى والتقنى فلن يغير هذا من أصل وظيفتها فى الحياة فهذا أمرٌ يعود إلى طبيعة تكوينها ولا علاقة له بالأمور المكتسبة.

إن تكليف الرجل بالإنفاق فى الاسلام حتى فى حالة قوة و ثراء زوجته يجعل من العدل أن يكون له فى الميراث مثل حظ الأنثيين فى بعض الأحوال مع الإشارة إلى أن هنالك أحوالاً يتساوى فيها ميراث الرجل مع المرأة. أما شهادة الاثنين من النساء فى مقابل شهادة رجل واحد فمنظور فيها إلى عاطفة المرأة التى هى جوهر أنوثتها مع الإشارة أيضاً إلى أن هنالك بعض الأحوال التى يأخذ فيها الاسلام بشهادة المرأة وحدها دون الرجل وتلك هى الأحوال التى تتعلق بالنساء!

تعدد الزوجات ليس أصلاً فى الإسلام:

منع محمود تعدد الزوجات والمهر والطلاق فى فقرة واحدة «والأصل فى الإسلام أن المرأة كفاءة للرجل فى الزواج، فالرجل كله للمرأة كلها، بلا مهر يدفعه، ولا طلاق يقع بينهما. ويلتمس منع التعدد فى قوله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ وفى قوله تعالى ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾. ويلتمس منع الطلاق فى قوله المعصوم «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» والإشارة اللطيفة إلى أن ما يغيضه الله لا بد



مانعه، حين يصير المنع ممكناً، وعملياً. فإن الله بالغ أمره.^(١) ستناول ما أورده محمود من أدلة. منع محمود تعدد الزوجات بدليل قائم على الخوف ومحمود في أدبياته يحارب الخوف «والخوف، من حيث هو، الأب الشرعي لكل آفات الأخلاق ومعائب السلوك، ولن تتم كمالات الرجولة للرجل وهو خائف، ولا تتم كمالات الأنوثة للأنثى وهي خائفة، في أي مستوى من الخوف، وفي أي لون من ألوانه، فالكمال في السلامة من الخوف.»^(٢) إذن بزوال الخوف تزول فتوى محمود «ولن يتم تحرير الفرد من جميع صور الخوف الموروث إلا بالعلم»^(٣). وهذا هو عصر العلم. محمود لم يكمل الآيات أعلاه ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ٣﴾ (النساء: ٣ - مدنية) مثنى وثلاث غير اثنين وثلاثة، مثنى تعني اثنين في آن واحد، وكذلك ثلاث ورباع. والأمر مربوط بالعدل، وليس المقصود بالعدل هنا المساواة كما في المعادلات الرياضية، وقد وضحت الآية التالية هذا العدل ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٢٩﴾ (النساء: ١٢٩ - مدنية). فلا يميل الرجل فيجعل منها كالمعلقة، لا هي مطلقة حرة في اختيار عيشها، ولا هي زوجة لها حقوقها. وكان هنالك حل في الآية التالية مباشرة ﴿وَأِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ١٣٠﴾ (النساء: ١٣٠ - مدنية) فإذا تعذرت الحياة فإن الفراق أفضل، لكن الفراق يصطدم بمنع الطلاق عند محمود، وهنا القرآن المدني أكثر مرونة من صاحب الرسالة الثانية. لقد منع محمود الطلاق بحديث «أبغض الحلال» وهو حديث مرسل لا يحتج به في مثل هذه الأمور الخطيرة. لعل

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٦٢.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٦٢.

محمود تأثر بالأنجيل المحرف في ذلك «٣١. وَقِيلَ: مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَلْيُعْطِهَا كِتَابَ طَلَاقٍ. ٣٢. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنْ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلَّا لِعِلَّةِ الزَّنى يَجْعَلُهَا تَرْزِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقةً فَإِنَّهُ يَرْزِي». متى الإصحاح ٥. من هنا منعت الكنيسة الطلاق وربما أعجب محمود بذلك ونقله للإسلام، والله أعلم.

لعل أخطر ما ذهب إليه محمود هو قطعه أن الله سيحرم في المستقبل ما هو يكرهه «والإشارة اللطيفة إلى أن ما يبغضه الله لا بد مانعه، حين يصير المنع ممكناً، وعملياً. فإن الله بالغ أمره»^(١). ولمثل هذه الأقوال قال القرآن ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٨٠ - مدنية) المشكلة العويصة أن محموداً جعل الله يبغض الطلاق من حديث غير صحيح ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل: ١١٦ - مكية). ﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرِيقًا يُؤْمِنُونَ أَلَسْتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِيَتَحَسَّبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨ - مدنية) ويلفت الله أنظار الناس إلى ما ذهب محمود إليه ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء: ٥٠ - مدنية).

وتعدد الزوجات من تشريعات الإسلام يقول تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْلَ وَلَدِكُمْ وَأَنْتُمْ حَرَامٌ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ (النساء: ٣ - مدنية) والطلاق تشريع إسلامي قال تعالى ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ مَسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحُ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٢٩ - مدنية) والحق أن القول بأن الأصل عدم التعدد هو قول يعارضه النص القرآني والعكس هو الصحيح التعدد أصل وزواج الواحدة فرع أنظر

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢٨.



الآية: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ الأمر بنكاح الواحدة جاء مشروطاً بالخوف من عدم العدل. إذن المفهوم من ذلك إن الأصل هو التعدد لمن رجع عنده العدل - والعدل المقصود هنا ليس العدل الشامل «الموزون بميزان الذهب» لما يملك وما لا يملك فهو غير مستطاع لأحد. حيث جاءت الآية: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١٢٩ - مدنية)، جاءت هذه الآية لتفسر العدل المشروط للتعدد وهو العدل الذي نقدر عليه. كما يؤكد أصل التعدد أن المصطفى ﷺ قد عدد وكذلك أصحابه عددوا على نسائهم.

الطلاق ليس أصلاً في الإسلام

تحت هذا العنوان يجد القارئ خرافات وحديث لا يخرج من عقل سليم ومنطقي. يقول محمود «والأصل في الإسلام ديمومة العلاقة الزوجية بين الزوجين»^(١). لم يأت بدليل. يمكن أن يكون ذلك من مقاصد الإسلام ولكنه ليس أصلاً فيه. ثم بدأت الخرافات الفلسفية الخاصة بمحمود «ذلك بأن زوجتك إنما هي صنو نفسك. هي انبثاق نفسك عنك خارجك. هي جماع آيات الآفاق لك في مقابلة نفسك، على فحوى آية ﴿سَرِيهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾»^(٢) ولكننا لا نملك النور الذي به نختار في الزواج نصفنا الآخر، إختياراً صحيحاً^(٢). «الآية ٥٣ من سورة فصلت - مكية. ما علاقة الآية بهذ الانبثاق؟. ثم ضرب مثل الأعمى والخواير والأخرام التي تشبه خرافات وأقاصيص ألف ليلة وليلة «مثلاً في ذلك يقرب منه الأعمى الذي يجلس وبين يديه «خواير» بعضها مربع، وبعضها مستطيل. وبعضها مثلث، وبعضها مبروم، وبعضها نصف دائرة، وبعضها قطاعات دائرة على أحجام مختلفة،

(١) الرسالة الثانية، ص ١٢٩.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٢٩ - ١٣٠.

وأمامه سطح عليه «أخرام» يناسب كل منها «خابورًا» من «الخوابير» التي بين يديه. فهو يحاول أن يضع «الخابور» المناسب في «الخرم» المناسب فيتفق له ذلك حينًا، ويعيبه أحيانًا، بل قد يعجز عجزًا تامًا عن التوفيق التام بين «الخابور» و«الخرم». وفي الحق، أن هذا المثل لا ينطبق تمام الانطباق على حالة اختيارنا الزوجة. بل أن الأعمى، في هذا المثل، أقرب إلى التوفيق والتسديد من أحدنا وهو يمارس تجربة الاختيار هذه. فإذا أخطأ أحدنا فوضع «خابورًا» نصف دائري في «خرم» مربع، مثلاً، فإنه يحتاج إلى فرصة ثانية ليعيد التجربة من جديد. وإنما شرع الطلاق ليعطينا هذه الفرصة الثانية^(١). من أي سماء نزلت على محمود لغة الخوابير والأخرام هذه؟ ألم يسمع محمود بالاحتمالات أو التباديل والتوافيق في علوم الرياضيات والإحصاء وهو خريج الهندسة؟ ألم يسمع بتعبير مثل «يكاد يلامس سقف المستحيل»؟.

تتبع محمود الخرافات في عصر العلم «عندما سقط آدم بالخطيئة، وحواء، وأخرجا من الجنة، هبط كل منهما، في مكان في الأرض، منعزلًا عن صاحبه، وطفقا يبحثان: آدم عن حواء، وحواء عن آدم، وبعد لأي وجد آدم حواء، ولم يجدها. ووجدت حواء آدم، ولم تجده»^(٢). مسألة نزول كل من آدم وحواء منعزلًا عن صاحبه، لا توجد في كل القرآن، ولا في التوراة «سفر التكوين» قال في هذا الشأن: «٢٣ فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الْإِلَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الْأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. ٢٤ فَطَرَدَ الْإِنْسَانَ»^٣. ثم قال الأصحاح التالي «أي الرابع» «١ وَعَرَفَ آدَمُ حَوَاءَ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتْ: «اقتنيتُ رجلًا من عند الرب». لا أثر لمقولة محمود في التوراة. ربما تكون جزءًا من الأقاويص التي وردت في كتب التراث والتفسير دون أن تنسب للرسول ﷺ بحديث صحيح، أو الخرافات الشعبية. ولكي يحقق محمود غرضه من ذلك، ربط تصحيح الوضع بحلم مستحيل على الأقل حسب معطيات البشرية في الوقت الحالي «فإذا أتم الله

(١) الرسالة الثانية، ص ١٣٠.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٣٠.



نوره، فأشرقت شمس الإسلام، فيومئذ لا يقع خطأ في الاختيار^(١).

ومن عجب لم يتكرم أحد من تلاميذه بمراجعة مسألة الأخرام والخواير هذه، لم يحدث هذا، ربما لشدة توقيرهم لأستاذهم، أو أنهم عالة عليه في التفكير كما حدث لهم عندما توقفوا عن كل شيء خمس سنوات إبان فترتي السجن والخلة. ومن عجب أيضاً أنهم لم يحدثوا مراجعات بعد موته، كما فعلت النصارى حينما راجعوا كتابهم المقدس مرات ومرات، وتدخلت أقلامهم البشرية تعديلاً في كلام منسوب للإله، فما بال التلاميذ مع محمود؟.

الحجاب ليس أصلاً في الإسلام

لم يتحدث محمود عن الحجاب مطلقاً تحت هذا العنوان، بل تحدث عن اللباس، وهذا خطأ منهجي شنيع. الحجاب في القرآن هو الحاجز الذي قد لا يسمح بالرؤية ولا السمع من خلفه ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (الأعراف: ٤٦ - مكية). ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسُورًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء: ٤٥ - مكية). ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مَرِيمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٥﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ (مريم: ١٦ - ١٧ - مكية). ﴿يَتَّيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ (الأحزاب: ٥٣ - مدنية). ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِيَتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ

(١) الرسالة الثانية، ص ١٣١.

لَمْ يَزَلْ يَدْعُوْنَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا فِي آكَنَّةِ
مَكِيَّةٍ﴾. ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ
بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ ﴿٥١﴾﴾ (الشورى: ٥١ - مكية).. والرسول ﷺ بشر ﴿قُلْ
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْهُكُمُ إِلَهٌ وَحِيدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا
يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف: ١١٠ - مكية).. ألم ير محمود كل هذا القرآن المكي؟
جعل محمود السفور هو الأصل في الإسلام «الأصل في الإسلام السفور..»^(١).
لم يأت بدليل، ولم يخبر الناس بحد هذا السفور. وجاء بتبرير لا علاقة له بالسفور «لأن
مراد الإسلام العفة.. وهو يريد بها عفة تقوم في صدور النساء والرجال، لا عفة مضروبة
بالباب المقفول. والثوب المسدول. ولكن ليس إلى هذه العفة الغالية من سبيل إلا عن
طريق التربية والتقويم. وهذه تحتاج إلى فترة انتقال لا تتحقق أثناءها العفة إلا عن طريق
الحجاب، وكذلك شرع الحجاب.»^(٢). في هذا الأمر يعتمد محمود على مفهومين في
ذهنه. الأول أنه بنظرياته يمكن أن يصل إلى إنسان افتراضي مثل الربوت منضبط تمامًا،
ويتصرف حسب البرمجة الموضوعة فيه. والثاني أن هذا الإنسان حينما يقترب من
كمالات الرب سيكون بلا مشاعر ولا غرائز «وهذا ما عجز التطوريون من تلاميذ دارون
عن تفسيره حتى الآن». وعندما يصل الإنسان لهذه المرحلة من التطور «أي دون غرائز»
حينها يقال كيف؟ ولماذا يتكاثر البشر؟. وبعد ذلك تفنى البشرية.

لقد جعل محمود من الحجاب «يقصد اللباس» عقوبة «فالحجاب عقوبة حكيمة
على سوء التصرف في حرية السفور»^(٣). أرجع محمود مسألة الحجاب إلى يوم خرج آدم

(١) الرسالة الثانية، ص ١٣١.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٣١.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٣٣.



وزوجه من الجنة «حتى تورطا في الخطيئة، فلما سقطا» بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» فأخذا يستران عوراتهما بورق التين، ومن يومئذ بدأ الحجاب. فهو نتيجة الخطيئة، وسيلازمهما حتى يزول بزوالها، إن شاء الله^(١). (الآية رقم ٢٢ من سورة الأعراف - مكية). هنا وقع محمود في عدة أخطاء منهجية:

* ما هو الدليل على أن الحجاب كان عقوبة؟

* تعبير «الخطيئة» ومعناها لا يوجد في قصة آدم في القرآن، بل فيها أن آدم عصى ربه فغوى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه: ١٢١ - مكية).. عصى أي خالف الأمر ﴿قَالَ يَلَهُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (١٢١) ﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (طه: ٩٢ - ٩٣ - مكية). وغوى تعني ضل ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (النجم: ٢ - مكية).. الخطيئة لم ترد في التوراة ولا في الأناجيل الأربعة، بل وردت في رسالة بولس إلى أهل رومية «١٢ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْ بِنِسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ» أصحاب ٥. ومات المسيح من أجل رفعها عن كاهل البشر «٩ عَالَمِينَ أَنَّ الْمَسِيحَ بَعْدَمَا أُقِيمَ مِنَ الْأَمْوَاتِ لَا يَمُوتُ أَيْضًا. لَا يَسُودُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ بَعْدُ. ١٠ لِأَنَّ الْمَوْتَ الَّذِي مَاتَهُ قَدْ مَاتَهُ لِلْخَطِيئَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً»، أصحاب ٦. أما في القرآن فلا خطية تثقل كاهل البشر، لقد تاب الله على آدم وانتهت القضية ﴿فَتَقَلَّبَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧ - مدنية) وأوضح القرآن أنها ليست خطيئة بل ضلال في مسيرة آدم وقد تاب الله عن العصيان وأعاده الله من الضلال بأن هداه ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَفَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١٢١ - ١٢٢ - مكية). ملازمة الخطيئة للبشر نفاها القرآن ﴿أَلَّا تَنْزِرُ الْإِنشَاءَ الْآخَرَ﴾ (٣٨) وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿النجم: ٣٨ - ٤١ - مكية).

* قال محمود أن آدم وزوجه استترا بورق التين، وهذا غير مذكور في القرآن، ولا في

(١) الرسالة الثانية، ص ١٣٢.

التوراة. من أين جاء محمود بورق التين؟. ما من مصدر في هذا سوى الخرافات أو أحاديث ضعيفة.

هذه الأخطاء المنهجية الفادحة تجعل قبول ما ذهب إليه محمود شديد الصعوبة.

المجتمع المنعزل رجاله عن نسائه ليس أصلاً في الإسلام

تحت هذا العنوان الكبير كتب محمود عدة أسطر، وسنورد حديثه بتمامه، حيث قال: «وما يقال عن السفور يقال عن الاختلاط، فإن الأصل في الإسلام المجتمع المختلط، بين الرجال والنساء، ثم هو مجتمع سليم من عيوب السلوك التي ألقت بها المجتمعات المختلطة المعاصرة»^(١).

لم يورد محمود أي دليل، وفارق المنهجية كعادته. لم يتحدث القرآن عن الاختلاط مطلقاً، وكذلك لم يؤثر هذا التعبير عن النبي ﷺ الذي منع الخلوة «ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما» أخرجه أحمد والترمذي وصححه ابن حبان والحاكم. «ألا لا يبيتن رجل عند امرأة ثيب إلا أن يكون ناكحاً أو ذا محرم» أخرجه مسلم. أما الاختلاط فهو مفهوم كان شائعاً بين الناس وهو ليس أصلاً في الإسلام من حيث الاصطلاح.

ملاحظات مهمة

هذه ملاحظات عن الباب السادس في كتاب الرسالة الثانية، وهذا هو أهم باب في الكتاب لأن عنوانه هو «الرسالة الثانية من الإسلام» وهو نفس عنوان الكتاب. يقع الباب في ٢٧ صفحة «من صفحة ١٣٤ إلى صفحة ١٦٠» وذلك من أصل ١٦٦ صفحة هي كل صفحات الكتاب «حيث تمثل نسبة ١٦٪ من عدد صفحات الكتاب». بعد العنوان الرئيس عرف الإسلام والقرآن، وقد تداخل التعريفان فيما بينهما. ثم جعل له عناوين جانبية كالتالي:

(١) الرسالة الثانية، ص ١٣٣.



* المسلمون.

* المجتمع الصالح.

* المساواة الاقتصادية: الاشتراكية.

* المساواة السياسية: الديمقراطية.

* المساواة الإجتماعية: محو الطبقات.

لو نظر باحث إلى هذه الموضوعات فإنه سيظن أن هذه رسالة جاءت في القرآن للمسلمين من أجل الوصول إلى مجتمع صالح بثلاث وسائل هي: الاشتراكية، الديمقراطية ومحو الطبقات، محققة بذلك مساواة نسبية. وليس الأمر كذلك وإنما هو من افتراء محمود.

القرآن والإسلام

سنلزم كتابات محمود في هذا الباب بما ألزم به نفسه في أول الكتاب. ونسوق معنا ما يجعل الكلام له معنىً محدداً. إن كل عبارة لابد أن تستند إلى أساس من البدهيات أو الحقائق الغنية عن البيان إذا ما كان علينا أن نعدها صحيحة. فالبدهيات تؤسس قاعدة معرفية واضحة يمكن أن نستمد من خلالها نتائج راسخة. وإذا ما ناقضت هذه النتائج البدهيات فعندها يمكن القول إن هذه النتائج تقع خارج نطاق العقل.

تحدث محمود حديثاً متداخلاً عن الإسلام والقرآن. وتحدث عن كمال الإسلام وتبيان القرآن وهو في ذلك يرد على فهم بعض الناس «وقد ظن كثير من الناس أن قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ إن الإسلام كمل عند الناس، وانتهى إلى قمة كماله يومئذ.»^(١) الآية ٣ من سورة المائدة - مدنية) وقال في شأن القرآن «وهؤلاء، حين يقرأون ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ تُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعتقدون أن تبين القرآن قد تم، وليس هناك رأي أبعد من الصواب من هذا الرأي.. فالقرآن لم يبين منه بالتشريع، وبالتفسير،

(١) الرسالة الثانية، ص ١٣٤.

إلا الطرف الذي يناسب الوقت الذي جرى فيه التبيين، ويناسب طاقة الناس»^(١). (الآية ٤٤ من سورة النحل - مكية). من هذه المقدمة بدأ محمود ينزل رويدًا رويدًا نحو التفسير الباطني للقرآن والإسلام، كانزلاق القطار عند التحويلة «والقرآن لا يمكن تبينه. والإسلام، كذلك، لا يمكن أن يكمل. فالسير في مضماره سير سرمدى «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» و«عند»، هنا ليست ظرف زمان، ولا ظرف مكان، وإنما هي خارج الزمان، والمكان.. فالسير بالقرآن في مضمار الإسلام هو سير إلى الله في إطلاقه.. وهو بذلك لم يتم تبينه، ولن يتم، وإنما تم إنزاله بين دفتي المصحف.. تم إنزاله، ولم يتم تبينه»^(٢). ومحمود يزعم أنه لم ولن يتم ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ٧ ﴿فَإِذَا قُرْآنُهُ فَاتَّعَ قُرْآنُهُ﴾ ٨ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ١٩ (القيامة: ١٧ - ١٩ - مكية). هذا الفهم: يقول محمود: «ويحسن أن نذكر هنا أن القرآن قد نزل مثاني.. وفي ذلك يقول تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيں جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ومعنى «متشابهًا» قائمة قرينة الشبه بين أسفله وأعلى، وبين وجهه وقفاه، وبين ظاهره وباطنه. ومعنى «مثاني» أنه ذو معنيين. معنى بعيد عند الرب، ومعنى قريب تنزل للعبد.. والقرآن كله مثاني.. كل آية منه، وكل كلمة فيه، بل وكل حرف من كل كلمة.. والسر في ذلك أنه حديث صادر من الرب مخاطب به العبد.. والشبه الذي فيه هو الشبه الذي قام بين الرب والعبد، وعبر عنه المعصوم بقوله «إن الله خلق آدم على صورته» وعبر عنه تبارك وتعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وتلك النفس والوحدة إنما هي نفسه، تبارك وتعالى» الرسالة ص ١٣٥ - ١٣٦. - الآية الأولى ٢٣ من سورة الزمر - مكية. والثانية الآية ١ من سورة النساء - مدنية) معروف عن محمود إعجابه بالأنجيل وإستدلالة بمقولات

(١) الرسالة الثانية، ص ١٣٤.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٣٥.



منسوبة للمسيح، هنا يظهر على محمود تأثيره بمنهج بولس مؤسس المسيحية الحالية «واعتقد بعضهم» كالحواريين مثلاً «بأن ناموس الرب يجب أن يُفسر حرفياً، في حين مال آخرون «مثل بولس» إلى أن الناموس يجب أن يفسر تفسيراً مجازياً.»^(١) وعلى نهج بولس سار محمود.

(١) من فقدوا الله، د. لورنس ب. براوني، ترجمة: د. منذر عبيسي، ٢٠١١م/١٤٣٢هـ، ص ٤٠.

نظرية التطور الداروينية

إذا كانت الحياة - عند محمود - تبدأ بالمادة غير العضوية «ذرة الهيدروجين» وهي - عنده - أول طور من أطوار النشأة الإنسانية، فإن هذه المادة غير العضوية تتطور كما يزعم - في طريقة عودتها إلى «الذات الإلهية» - إلى حيوان الخلية الواحدة في القاعدة وتنتهي بأعلى الحيوانات الثديية في القمة، وهي المرحلة التي تمثل بروز الإنسان في المادة العضوية. ثم يبرز العقل في هذه المادة العضوية، كما تنشأ الأديان - نتيجة الخوف - وتظهر العبادة في صورها البدائية. وتتطور العبادة - عنده - من الوثنيات إلى ديانات التوحيد والتي تبدأ بالتوراة التي تطورت إلى الإنجيل والذي تطور بدوره إلى القرآن - حسب زعمه - والذي يشمل - كما يدعي - على رسالتين: الأولى الرسالة المحمدية، التي تطورت إلى الرسالة الثانية - الرسالة الأحمدية - وهي الرسالة التي يبشر بها محمود - كما تطور أصحاب رسولنا الكريم - كما يدعي محمود - إلى الأخوان الجمهوريين... ثم يتطور الأخ الجمهوري فيتلقى شريعته الفردية من الله - تعالى - كفاحاً ويضطرر التطور إلى ما لا نهاية - لأن نهاية العبد - كما يظن محمود - كمال الرب - تعالى الله علواً كبيراً.

و محمود ينقل إلينا عبر مقولاته نظرية التطور الداروينية، كما هي، مع تمديد من طرفيها. فإذا كان داروين قد بدأ بحثه في الكائنات بحيوان الخلية الواحدة، فأن محموداً يدعي أن سلسلة التطور تبدأ بالمادة غير العضوية! وإذا كان داروين قد انتهى ببحثه إلى بشرية اليوم، فأن محموداً، يمدد السلسلة ليصلها «بالذات الإلهية! وكأن محموداً بذلك يحاول أن يلبس نظرية التطور الداروينية - والتي تقوم على معارضة «الخلق المستقل» - ثوباً دينياً! ولذلك فهو لا يتورع في أن يجعل من القرآن الكريم لحناً موسيقياً يصاحب الإنسان في تطوره من ذرة الهيدروجين، وحتى يبلغ مرتبه «الذات الإلهية»! فالقرآن - عنده - وتر مشدود بين «الذات الإلهية»!! و«الحقيقة العبدية» حسب اصطلاحه!.



وإذا كان داروين قد فشل في أن يجد في العلم المادي ما يثبت نظريته في التطور، فأن محمودًا يحاول أن يخرج من حيرته حين يزعم أن هذا التطور الدارويني يتم بالتسيير الإلهي، أو الإرادة الإلهية التي قهرت الوجود - أي أنه يريد أن يقول أن نظرية داروين تخرج من صميم الدين وليست هي نظرية مفارقة للعلم والدين!.

الإنسان والقرود عند التطوريين والجمهوريين

أعجب محمود بشدة بنظرية التطور عند داروين، وراح يقدم ما وصلت إليه النظرية على أنها حقائق ثابتة وراسخة رسوخ الجبال، وهذا ينسجم مع طبيعة الأخطاء المنهجية التي دومًا ما كان يقع فيها محمود. لقد أصدر العالم البريطاني المقيم في أستراليا «روبرت جيمس غالغي» كتابًا بعنوان خرافة التطور «The Evolution Myth» ترجمة فداء ياسر الجندي. صدرت طبعته الثانية عن مركز الفكر المعاصر ١٤٣٨ هـ. سيكون هذا الكتاب عماد مناقشتنا لمسألة التطور. قال المترجم في مقدمته «عندما نشر دارون نظريته في كتابه «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩، كان التقدم العلمي لا يزال في بداياته، لم يكن هناك حواسيب ولا مختبرات متقدمة ولا مجاهر الكترونية، بل إن بعض فروع العلم التي هي قواعد علوم الطب والأحياء اليوم لم تكن قد ظهرت إلى الوجود، ونخص بالذكر علم الوراثة وعلم الأجنة والكيمياء الحيوية، وهي كلها علوم لا بد منها اليوم عند تناول أي موضوع علمي يتعلق بالكائنات الحية، وفي غياب هذه العلوم كان اعتماد دارون على مشاهداته وملاحظاته التي دونها خلال رحلاته المتعددة، وعلى الأحافير التي كانت مكتشفة في زمانه»^(١). كان دارون عليمًا بمدى النقص في نظريته لقصور الحفريات عن سد الفجوات في شجرة تسلسل المخلوقات «فجعل في كتابه فصلًا مخصصًا للكلام عن نقاط الضعف فيها، وقال إن ما سيكشفه العلم في المستقبل كفيلاً بأن يكمل ما نقص من أدلته»^(٢).

(١) خرافة التطور، ص ٥.

(٢) خرافة التطور، ص ٥.

لسوء حظ دارون وتلاميذه والجمهوريين من خلفهم أن هذا لم يحدث «غير أن الرياح لم تجر بما انتهت سفن دارون، وسفن من تبنى نظريته، فما حدث كان معاكساً تماماً لما أرادوه، فكان التقدم العلمي الهائل هو العدو الأكبر لنظريته، وكان كل اكتشاف علمي جديد، بمثابة ضربة تقصم من ظهر نظرية التطور»^(١). وذلك أيضاً كان من سوء حظ محمود وتلاميذه من بعده الذين حاولوا إسباغ الغطاء الديني على هذه النظرية المنهارة. تمثلت أكبر الضربات في «إكتشاف التركيب المذهل للخلية الحية»^(٢). وقد أذهل الحمض النووي بيل غيتس فقال: «إن الحمض النووي يشبه برنامجاً حاسوبياً، ولكن تعقيده أكبر بكثير من أي برنامج كتبه البشر». الحمض النووي [DNA or RNA] يتكون من قواعد نيوتروجينية «أي أحماض أمينية» مرتبة في شكل أزواج، لكن لا بد من وجود الحمض النووي لتكوينها «أي تصنيعها»؛ أي أنه من المستحيل تكوين قاعدة أمينية بدون وجود حمض نووي. هنا تعود إلى الأذهان مغالطة أيهما جاء أولاً البيضة أم الدجاجة. الضربة الثانية «هي اكتشاف ما كان خافياً من سجل الأحافير، والذي أصبح الآن مكتملاً، وبدلاً من أن يسد الفجوات التي كان دارون يأمل بسدها، أثبتت الأحافير بما لا يدع مجالاً للشك أن الكائنات الحية كانت تظهر فجأة دون أسلاف، لأن العلماء لم يتمكنوا من إيجاد أية أحافير انتقالية تصل بين الكائنات التي زعموا أنها كانت موجودة على سلم التطور، وبين ما تطور عنها، فلم يجدوا ما يثبت تطور البكتريا إلى أحياء مائية أو أسماك، ولا ما يثبت تطور الزواحف إلى ثدييات أو طيور»^(٣).

لقد فشل العلم والعلماء من تصنيع مادة حية من العناصر الغير حية، رغم وجود المعامل العملاقة والإمكانات الهائلة، وآلاف العلماء الأذكياء. كما باءت كل المحاولات لتخليق خلية حية واحدة، بل كان الفشل الذريع في محاولة تصنيع الأحماض

(١) خرافة التطور، ص ٥.

(٢) خرافة التطور، ص ٦.

(٣) خرافة التطور، ص ٦.



الأمينية الأساسية اللازمة لتخلق البروتينات «القواعد» المكونة للحمض النووي وعددها ٢٠. لقد قدم محمود تخلق الحياة في المادة الغير عضوية، أي من العناصر الغير حية، على أنها حقيقة علمية ثابتة ونابعة من أصل الدين وواجبة التصديق «المرحلة الأولى، فقلنا: أن بدايتها في الأزل حيث برز الإنسان في الجسد في المادة غير العضوية»^(١). لكي يحدث هذا عن طريق التطور القائم على الصدفة والاحتمالات فإن الزمن لن يكفي لذلك «لنسأل أنفسنا مثلاً: ماهي فرصة تجمع مجموعة من الذرات لتشكيل خلية حية؟. يجب عن هذا السؤال العالم «كريستيان دو دوف Christian de Duvé» الحائز على جائزة نوبل في كتابه «رحلة في الخلية الحية» حيث كتب يقول: «إذا حسبنا فرصة ولادة خلية بكتيرية واحدة، وهي أبسط أنواع الخلايا، بسبب تجمع ذراتها المكونة عشوائياً فإن الأبدية لا تكفي لخلق تلك الخلية المفردة»^(٢). الآن هذا هو التحدي وهو أن يثبت التلاميذ الجمهوريون صحة ما زعمه محمود من بروز المادة الحية من العناصر الغير حية.

لجأ التطوريون إلى أمرين لإثبات هذه النظرية. الأول ممارسة الإرهاب الفكري والعلمي، حيث فرضوا تدريس النظرية في المدارس على أنها حقائق علمية مسلم بها. وנקלו בכל الأساتذة «والعلماء» الذين ناهضوها بالعلم «سنة ٢٠٠٥ جرت محاكمة عرفت بمحاكمة «دوفر» حصلت في ولاية في مدينة دوفر بولاية بنسلفانيا الأمريكية، حكمت المحكمة فيها على مدرس بالتوقف عن التدريس، لماذا؟ فقط لأنه أخبر طلابه في المدرسة الإعدادية أن مكتبة المدرسة فيها كتاب يتحدث عن التصميم الذكي للكون، وهذا يخالف نظرية دارون»^(٣). الثاني مارسوا التزوير مثل ما حدث لما يعرف بجمجمة إنسان «بلتنداون» حيث عثر «جارلس داوون» عام ١٩٠٨ على جمجمة قرب بلدة

(١) خرافة التطور، ص ٢٠.

(٢) خرافة التطور، ص ٥٥.

(٣) خرافة التطور، ص ٧.

«بلتنداون» وقدمها هو وصديقه «سميث وودورد» إلى اجتماع معقود في اتحاد الجيولوجيين عام ١٩١٢م على أنه إنسان «بلتنداون» وقد قبل الاجتماع هذا الاكتشاف. استمر هذا القبول حتى جاء علماء مدققون مثل عالم التشريح الألماني «فرانز ويدنريج» وصرح عام ١٩٤٠م «يجب حذف إنسان «بلتنداون» من سجل المتحجرات. لأنه ليس إلا عبارة عن تركيب اصطناعي بين جمجمة إنسان وفك قرد الأورانج ووضع أسنان في هذا الفك بشكل اصطناعي»^(١). لقد كانت فضيحة مدوية «وقد أحدث اكتشاف هذا التزوير فضيحة مدوية كانت حديث الأوساط العلمية في حينها، وقد كتبت مجلة «ريدر دايجست» عن هذه الحادثة: «لقد ثبت بالدليل القاطع أن كل جزء من أحفورة إنسان «بيلتدون» قد تم تزويره، كل الأدلة الظرفية تدلنا على أن «داوسن» كان مؤلف الخدعة»^(٢).

بعد فشل الاعتماد الكامل على الأحافير على منهج داروين لجأ التطوريون إلى الخلية ليثبتوا الأصول المشتركة للكائنات. لجأوا للكروموسومات وجدوا تقارباً بين الإنسان والقرد العليا مثل الشيمبانزي والغوريلا والبانابو حيث تحمل «٤٨ كروموسوم» والإنسان يحمل «٤٦ كروموسوم». لكن المفاجأة أن نبات البطاطا «البطاطس» تحمل «٤٦ كروموسوم» مثل الإنسان تماماً. التطوريون ومحمود وتلاميذه لم يقولوا بالأصل الواحد للإنسان والبطاطا. لقد كان بإمكان محموداً والتلاميذ أن يجدوا دليلاً يدعمهم من القرآن ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ﴾ (نوح: ١٧ - - مكية).. لقد كان من السهل عليهم أن يقولوا إن الإنسان نبت كالبطاطا من الأرض من أن يقولوا بتخلق المادة الحية من العناصر الغير حية.

لقد لجأ التطوريون لإثبات الأصل الواحد للإنسان والقرد إلى الأحماض النووية

(١) دارون ونظرية التطور. شمس الدين آق بلوت. ترجمة اورحان محمد علي. دار الوثائق.

الكويت. ١٩٨٥. ص ٩٢

(٢) خرافة التطور، ص ٤٧.



«DNA» حيث وجدوا التطابق بين الإنسان والقرد يصل لحوالي «٩٦ - ٩٨٪»، فقالوا بالأصل الواحد. لم يفسر التطوريون لغز اختفاء «الأصل المشترك»، مقابل استمرار وجود الرتب الدنيا من القروء رغم أنه كان أفضل منها فرصاً في الحياة والاستمرار في التطور حال خضوعها لقانوني الطفرات، والانتخاب الطبيعي. كما أنهم أغفلوا إن الخلية الإنسانية تحتوي على ٣ بليون زوج من القواعد الأمنية وأن فرق ٢٪ يمثل حوالي ٣٥ مليون زوج من الحمض الأمني، وهو عدد ليس بالقليل خاصة أن بعضاً من تلك الاختلافات كانت كافية لأن تحدث فوارق هائلة بين الإنسان والقرد. العلماء الذين شاركوا في تحليل الأحماض الأمنية أدلوا بشهاداتهم «وتحدثنا عن هذا الموضوع الدكتور «كيللي فرايزر» التي عملت في الشركة التي قامت بدراسة وتحليل الفروق بين الحمض النووي للقرد والإنسان فتقول: «الفروق كبيرة بين كلا الحمضين، هناك الكثير من الإضافات، والكثير من التغييرات والحذوفات، وهذه الفروق تشمل مختلف أجزاء الحمض النووي، وباختصار هنالك فجوة ضخمة بيننا وبين القروء» خرافة التطور ص ٥٠.

هنالك كائنات أخرى تشترك مع الإنسان بنسب أقل من القروء لكنها لم تجد لنفسها أي مكان في سلسلة تطور الأصل المشترك مع الإنسان. الفأر ٨٥ - ٩٦ ٪، القط ٩٠٪، البقر ٨٠٪، ذبابة الفاكهة ٦١٪، الدجاج ٦٠٪، الموز ٦٠٪. وهذا أمر يعرفه العلماء جيداً «والحمض النووي جزيء موجود في كل كائن حي، وهو متشابه في بنيته العامة في كل الكائنات، ولكن تسلسل القواعد [درجات السلم الملتف] في كل كائن مختلف عن غيره من الكائنات، وهذا الاختلاف هو الذي يمنح كل حيوان أو نبات شكله وصفاته، بل أنه في النوع الواحد، كالبشر مثلاً لا يمكن أن تجد شخصين لدهما تطابق في الحمض النووي بشكل كامل. كتب «رذر فورد بلات» Rutherford Platt: «هذه الجزيئات من الـ DNA تمتلك تركيباً كيميائياً متقارباً في معظم الكائنات، وبالحجم نفسه تقريباً، فنجد تشابهاً بين تلك التي يمتلكها القط والذبابة، أو عفن الخبز أو ورقة العشب

الأخضر، ولكن مع هذا فإن هذه الجزئيات مشفرة لتجعل كل كائن حي مختلفاً تماماً عن باقي الكائنات الأخرى. فتجعل الكلاب مختلفة عن عن الأسماك والطيور، وعفن الخبز مختلفاً عن شجرة التفاح، والفيلة مختلفة عن البعوض، وهكذا^(١). بدلاً من أن يجهد التطوريون أنفسهم في المحاولات المستميتة واليائسة، لإثبات الأصل الواحد، كان من السهل عليهم القول بالخالق الواحد. إن أسهل مثال لذلك من واقع الناس اليوم، مثال سيارات الكورولا والكامري والبرادو، من السهل القول إن التشابه بينها حدث بسبب أن الشركة المصنعة واحدة «شركة التويوتا»، بدلاً من قول أن هذه السيارات نتاج تطور حدث منذ مئات ملايين السنين حيث تجمعت فيها العناصر للتخلق هذه السيارات. العقل لا يصدق هذا الزعم في السيارات البسيطة التركيب ولكنه يصدقه بسهولة في الإنسان البالغ التعقيد. وهذا هو نفس التناقض الغريب الذي وقع فيه دارون نفسه من قبل حينما قال: «نستطيع القول أن مفصل الباب مصنوع من قبل الإنسان، ولكننا لا نستطيع الادعاء بأن المفصل المدهش الموجود في صدفة المحار هو من صنع كائن عاقل»^(٢)

التطوريون والأحافير:

يظن كثير من الناس أن الأحافير وفرت للتطوريين عشرات الهياكل العظمية التي تبين بوضوح كيف سار التطور والطفرات والانتخاب الطبيعي منذ ملايين السنين ليصدق مزاعم دارون وتلاميذه ومن لف لفهم من الجمهوريين بقيادة محمود. قد لا يصدق البعض أن التطوريين قد جمعوا من كل أنحاء العالم أعداداً قليلة من أجزاء هياكل عظمية كانت مبعثرة حول العالم «قد تفاجئكم ضالة الأدلة على وجود أسلاف الإنسان، وقد عبرت مجلة «ساينس دايجست» عن ذلك كما يلي: «الحقيقة الجديرة بالملاحظة أننا لو جمعنا كل الأدلة المادية على تطور الإنسان، لوسعها جميعاً تابوت واحد. القروود

(١) خرافة التطور، ص ٥٥ - ٥٦.

(٢) Francis Darwin «Ed». "The Authobiograghy of Charles Darwin

and Selected Letters" P.٦٣



الحديثة على سبيل المثال، تبدو وكأنها ظهرت من اللاشيء، وكأنهم لا ماضي لهم، إذ لا يوجد أي دليل أحفوري لماضيهم، والأصل الحقيقي للإنسان الحديث - المنتصب العاري، صانع الأدوات، ذي الأدمغة الكبيرة - إذا كنا صادقين مع أنفسنا، لغزاً أيضاً يضاف لسابقة»^(١). كان أمل التطوريين كبيراً في أن تسد الهياكل العظمية الثغرات في النظرية، لكن تلاشت أحلامهم بسرعة «لا بد أن هنالك العديد من الأدلة على شكل هياكل عظمية للقروود والإنسان القرد، أليس كذلك؟ فلنقرأ ما تذكره مجلة «ساينتفيك أميركان» «يمكن أن نتغاضى عن فشل علماء الرئيسيات في إيجاد هيكل عظمي واحد للقرد البدائي في الفجوة التي تمتد لملايين السنين، ولكن ماذا عن أصل الإنسان؟... هل يعقل أن نقرأ قصة التطور البدائي من بضعة عظام وأسنان مكسورة، تم جمعها من أصقاع مختلفة حول العالم القديم؟ ألا يتركنا ذلك في حيرة؟ ألا نجد أنفسنا في النهاية نقف وسط متاهة غامضة ونسأل أنفسنا: كيف وصلنا إلى هنا؟»^(٢). هذه المتاهة حدثت بسبب صعوبة التفرقة بين الجماجم «إن واحدة من أهم المشكلات التي تواجه التطوريين هي كشف هويات وأصول الجماجم»^(٣). وقد أوضح أحد العلماء هذه الصعوبة «العالم «لو غروس كلارك» في كتابه [دليل الأحافير على تطور الإنسان]: «تعتبر جماجم الأفارقة والإسكيمو من الجماجم المتميزة من غيرها من الأعراق البشرية ومع ذلك يختلف الخبراء في التمييز بينها عندما تعرض عليهم، فإذا كان الخبراء لا يتفقون عندما يتم مواجهتهم بجمجمتين من تلك الأنواع. فكيف بهم إذاً عندما تواجههم أجزاء مبعثرة من جماجم قديمة؟ إن تحديد أصلها آنذاك في غاية الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً»^(٤).

هنالك فروقات هائلة بين جماجم الإنسان وجماجم القروود «وأمر حاسم يميزنا

(١) خرافة التطور، ص ٤٢.

(٢) خرافة التطور، ص ٤٣.

(٣) خرافة التطور، ص ٤٦.

(٤) خرافة التطور، ص ٤٦.

عن القرد، هو استخدامنا للغة. إنها حقاً لهبة عظيمة، عندما نتكلم فإننا نستخدم المئات من العضلات في اللسان والشفاه، ونستخدم الفك والحلق والصدر، ويشرح لنا الدكتور «ويلكنز إتش بيركنز» Wilkinw H. Perkins «آلية الكلام قائلاً: «نصدر ما يقارب أربعة عشر صوتاً في الثانية، وهذا أسرع بمرتين من تحكمنا بلساننا أو شفاهنا أو فكنا أو أي عضو آخر من الأعضاء المستخدمة في الكلام عندما نستخدمه بشكل منفصل، ولكن عندما يعملون معاً بشكل متزامن ومناسب فيمكن تشبيه عملهم معاً بتناسق وتزامن أصابع ضارب آلة كاتبة، أو عازف بيانو عندما يعزف سيمفونية رائعة ذات تناسق وتوقيت مذهل»^(١). من وحي الكلام عن حركة الأصابع إنطلق غالغي يقول «وهناك عضو من جسمنا ننسى عظمته وتميزه وهو أيدينا. إن اليد البشرية هي آلة مذهلة لا يوجد لها مثل ولا شبيه في عالم الأحياء، وتكتسب الكثير من تميزها بوجود الإبهام المقابل لبقية الأصابع، والذي يُمكننا من ضم إبرة الخياطة، واستخدام المطرقة لتثبيت مسمار، وإمسك الهاتف، وكتابة رسالة، والعديد من المهام الأخرى التي لا تكاد تحصى، ألا نذهل عند رؤيتنا أنامل عازف البيانو وهي تتحرك ببراعة وخفة مصدرة أنغاماً تخلب الألباب؟. تخيلوا مقدار التنسيق المطلوب لهذا بين المخ والأصابع»^(٢). لعل ذلك ماجعل النبي ﷺ يعلمنا الباقيات الصالحات من تسبيح وتحميد وتكبير؛ يلعب فيها الإبهام الدور الأكبر حينما يقابل بقية الأصابع، ويكون بذلك تذكيراً لنابعظمة الخالق خمس مرات في اليوم، وعظمة نعمة الله على الناس بهذا الإبهام. يزعم التطوريون أن الإنسان والقرد افترقا من الأصل الواحد قبل مئات الملايين من السنين، ومن يومها القرد عاجز عن تطوير عضو واحد من جسده ولو قليلاً، هذا العضو هو الإبهام. لو فعلها لكانت له حضارة مثل حضارتنا هذه، التي لطالما تغنى بها محمود في كتاباته.

لقد ظل محمود يصبر على وجود مرحلة حيوانية في حياة الإنسان «ولما كان الفرد

(١) خرافة التطور، ص ٤٨.

(٢) خرافة التطور، ص ٤٨.



البشري الأول غليظ الطبع، قاسي القلب، بليد الحس، حيواني النزعة فقد احتاج إلى عنف عنيف لترويضه، ولنقله من الاستيحاش إلى الاستيناس»^(١). لقد وقع محمود بمنهجه العلمي الضعيف ضحية لعلماء الأجناس والتطوريين، حينما صوروا الإنسان في رحلته من الحيوانية للإنسانية نقطة في كتابه «الإنسان، الله والسحر» يقول «إيفار لينسر»: «لقد اكتشفنا شيئاً فشيئاً أن الإنسان البدائي لم يكن متوحشاً، وبالمثل فلا بد أن نقر بأن الإنسان الأول من العصر الجليدي أيضاً لم يكن وحشاً أو بهيمة أو نصف قرد، ولا مشوهاً لذا فإن كل المحاولات الحمقاء لبناء تجسيد لما يسمى «النياندرتال» أو إنسان «البيكنغ» ينبغي أن تتوقف»^(٢). «ولكن ماذا عن إنسان «النياندرتال» المشهور الذي وجد في ألمانيا؟ هل هو الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد؟ مما يثير الاهتمام أن مجلة «تايم» في عددها الصادر في ١٩ مارس ١٩٦١م أكدت أن حجم مخ «النياندرتال» هو ١٦٢٥ سم مكعب، فهو أكبر قليلاً من متوسط سعة مخ الإنسان العادي المعاصر. تعطي «موسوعة العالم» الوصف التالي لهذا الإنسان القديم: «في البداية، ظن العلماء أن إنسان «النياندرتال» كان مقرصاً، أحذب الظهر، وشبيهاً بالقرد. ولكن الأبحاث اللاحقة بينت أن أجسام نساء ورجال «النياندرتال» كانت بشرية، منتصبة، ونامية العضلات. وكانت أدمغتها بحجم أدمغة الإنسان المعاصر» أضاف المترجم مذيلاً «وهذا دليل قاطع أن هذا المخلوق هو بشر وليس قرداً أو مخلوقاً انتقالياً بين القرد والبشر»^(٣). عبر عالم النبات السويدي «هيربرت نيلسون» Heribert Nilson وبعد أن قضى أربعين سنة في الأبحاث، عبر عن انزعاجه قائلاً: «إن الحقائق التي توفرها لنا الأحافير لا تتيح أن نرسم ولو رسماً كاريكاتورياً عن التطور، فقد اكتملت مواد الأحافير لدرجة لا يمكن معها تبرير عدم وجود الكائنات الانتقالية بنقص الأحافير، إن الفجوات حقيقية ولا يمكن أن

(١) الرسالة الثانية، ص ٢٩.

(٢) خرافة التطور، ص ٤٣.

(٣) خرافة التطور، ص ٤٥-٤٦.

نسدها»^(١). وكان دارون نفسه قد أطلق زفيرًا يائسًا من صدره حين قال «لنسمع الجواب من دارون نفسه: «إن الظهور المفاجئ لمجموعات كاملة من المخلوقات، دفع علماء الأحافير إلى اعتباره سببًا قاطعًا لاعتراضهم على الاعتقاد بتحول وتغير الكائنات الحية»^(٢).

لقد انخدع معظم الناس بتزوير وخيال التطوريين، حيث صوروا تخيلاتهم عن طبيعة أصحاب هذه الهياكل العظمية، على أنها متدرجة من الحبو على أربع، ثم المشي منحنيًا بدرجات متفاوتة، حتى الانتصاب قائمًا، ومن الجسد المكسو تمامًا بالشعر كالقرد، حتى الجسد المكسو جزئيًا بالشعر كما في الإنسان المعاصر «ولكن ماذا عن الرسوم التي نراها في الكتب العلمية؟. ألا تعتمد على أدلة دامغة؟. تجيب مجلة «ساينس دايجست» أيضًا «أغلب أعمال الفنانين تعتمد على المخيلة بدل الأدلة،.. على الفنانين رسم شيء بين القرد والإنسان، وكلما طلب العلماء منهم رسم فصيلة أقدم، أصبحت أكثر شبهًا بالقرودة»^(٣). وهكذا يسوقنا التطوريون - ومن خلفهم محمود - بخيالاتهم وأحلامهم. إلا أن هنالك حلمًا لم يتحقق لهم، وربما شكل حلمًا أوكابوسًا مزعجًا أحيانًا. يقول غالغي «لا يزال العلماء التطوريون حتى اليوم يحلمون باكتشاف خلية حية بدائية بسيطة التكوين، لأن اكتشافًا كهذا من شأنه أن يقدم بعض الدعم لنظريتهم، فهل يتحقق حلمهم؟»^(٤).

لقد كان القرآن واضحًا وهو يقول ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (الزمر: ٦ - مكية). وهذا التخلق بدأ بالنطفة التي بها خلية واحدة من الذكر بها نصف الكروموسومات، لتكمل العدد من خلية واحدة مقابلة لها من الأنثى، ثم

(١) خرافة التطور، ص ٧٣.

(٢) خرافة التطور، ص ٧٢.

(٣) خرافة التطور، ص ٤٢.

(٤) خرافة التطور، ص ٢٩.



تدرج الخلق حتى اكتمل إنساناً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ (المؤمنون: ١٣ - ١٤ - مكية). لكن منهجية محمود الضعيفة الغير ناقدة، واعتماده على ما يقع في يده من كتب دون تمحيص، جعلته يقدم «نظرية» ما تزال في طور النقاش العلمي، وكأنها حقائق علمية مدعمة بوحى إلهي قائم على فهم خاص من الله، ألقاه في روعه وأذن له بالكلام به.

الغرائز تحطم نظرية التطور

تفسير التعلم من التجارب هو ما استند إليه التطوريون لتفسير سلوك الكائنات، غير أن ذلك لم يسعفهم لتفسير الغرائز. هنالك مثالين لطائرين يتصرفان بالغريزة نرجو من التطوريين والجمهوريين تفسير سلوكهما وفقاً للتعليم لمكتسب.

الأول طائر صغير اسمه «السنونو» وهجرة أحد أنواع طائر «السنونو» في أمريكا الشمالية، فذلك الطائر الصغير الذي لا يصل وزنه إلى ثلاثة أرباع الأونصة، يهاجر كل خريف من ألاسكا في أمريكا الشمالية قاطعاً القارة الأمريكية عرضاً حتى يصل الشواطئ الشرقية من كندا، وهناك يمكث فترة يتزود فيها بالطعام فيزداد وزنه قليلاً، و ينتظر وصول جبهة هوائية باردة، ليطير معها في الطريق إلى محطته النهائية في أمريكا الجنوبية، ولكن ليس بخط مستقيم، وهنا يكمن الأمر المدهش والمذهل، حيث يطير أولاً باتجاه الجنوب الشرقي وكأنه مهاجر إلى أفريقيا، ثم في نقطة ما في المحيط الأطلسي، وعلى إرتفاع ثلاثين كيلومتراً فوق سطح البحر، يلتقي بتيارات هوائية متجهة إلى أمريكا الجنوبية، فيطير في إتجاه هبوبها لتجعل الطيران سهلاً سريعاً ميسراً إلى أن يصل إلى محطته الأخيرة حيث تكون أمريكا الجنوبية تتمتع وقتئذٍ بفصل الصيف. إن هذه الهجرة العجيبة تطرح أسئلة محيرة:

كيف يعرف «السنونو» أن عليه أن ينتظر في كندا حتى وصول الجبهة الهوائية

الباردة؟

لماذا يطير على ارتفاع ثلاثين كيلومتراً حيث الأوكسجين يقل بنسبة ٥٠٪ عن سطح الأرض؟

لماذا يتجه نحو أفريقيا ليلتقي بالرياح المواتية مع أن وجهته النهائية مختلفة تماماً؟

وكيف يعلم أنه على هذا الارتفاع بالذات وفي ذلك المكان بالذات وفي ذلك الوقت من العام سيكون هناك رياح مواتية لإكمال رحلته بسهولة إلى أمريكا الجنوبية؟ وكيف يعلم الاتجاهات بشكل عام؟^(١). كيف هدت الغريزة هذا الطائر؟.

هناك طائر آخر له شأن يستحق التأمل «طائر «الوقواق» الذي يستوطن نيوزيلندا، فهذا الطائر يهاجر من جزر تقع في وسط المحيط الهادي، ليضع بيضه في نيوزيلندا، ثم يعود إلى الجزر التي جاء منها، وبعد أن تفقس البيوض وتخرج الفراخ وتقوى على الطيران، تهاجر مسافة ٦٠٠٠ كيلومتر إلى الجزر التي جاء منها آبائها، فتلقي بهم، نعم صدقوا أو لاتصدقوا، تهاجر خلف آبائها إلى أماكن لم تسافر إليها من قبل، وعبر مسافات شاسعة وفوق بحر خالٍ ليس به أي علامة يمكن أن تتبعها، فهل هناك مايفسر هذا السلوك الغريزي؟ أليس هذ دليلاً قاطعاً على أن هذه الغريزة موجودة في الطيور قبل ولادتها وليست سلوكاً متطوراً أو مكتسباً؟^(٢).

من علم هذه الطيور «الما بتعرف ليها خرطة ولا في إيدها جواز سفر»؟ ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَهُوَ هَدَى ﴿٢٠﴾ (طه: ٤٩-٥٠ - مكية). لم يسأل فرعون عن من هو إله موسى وهرون، فالإله يعبد؛ لكنه سأل عن الرب مدبر الكون وراعيه. كانت إجابة موسى وهرون بلسان واحد: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه اللائق به على حسن صنعه، ثم هدى كل مخلوق إلى الإنتفاع بما خلقه الله له، لقد هدى الله هذه الطيور إلى رحلاتها الطويلة بأن وضع لها في أمخاخها خرائط الطيران بقدر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ

(١) خرافة التطور، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) خرافة التطور، ص ١٢٩.



خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ (القمر: ٤٩ - مكية).، بأفضل مما للطيار الآلى من خرائط وحواسيب،
ثم طارت على هدىً منه سبحانه، هذا ما عجزت منهجية محمود أن تقوله للتطوريين،
ولقد أغمض محمود عينيه عن هذه الآيات.

المجتمع الصالح

عرّف محمود المجتمع الصالح بقوله: «والمجتمع الصالح هو المجتمع الذي يقوم على ثلاث مساويات «المساواة الاقتصادية، وتسمى في المجتمع الحديث الاشتراكية». «المساواة السياسية، وتسمى في المجتمع الحديث المساواة الديمقراطية». «ثم المساواة الاجتماعية، وهذه، إلى حد ما، نتيجة للمساواتين السابقتين، ومظهرها محو الطبقات»^(١). لم يكن تحت هذا العنوان نقاش ذو بال.

المساواة الاقتصادية: الاشتراكية

وعرّف محمود الاشتراكية بقوله «الاشتراكية تعني أن يكون الناس شركاء في خيرات الأرض»^(٢). يقول محمود: «وقبل أن تظهر الاشتراكية العلمية نتيجة لهذا الصراع الطويل المرير كانت الاشتراكية في مرحلتها البدائية، وهذه تعني المشاركة في الخيرات التي لا تضيق بأحد، ولا يقع عليها الحوز ولقد عبر المعصوم عن هذه حين قال: «الناس شركاء في ثلاثة: الماء والكأ والنار». في هذا الحديث إشارة رصينة إلى وجوب الاشتراكية بين الناس حين يمكن أن تفيض الخيرات باستغلال الموارد الطبيعية والصناعية»^(٣).

ثم تحدث محمود بما يقدمه الصحفيون لقرائهم من معلومات عامة عن تاريخ الاشتراكية والشيوعية وكارل ماركس وغيرها من المعلومات الأولية في هذا المجال. ثم جعل نتاج عمل الاشتراكية في المجتمع، ونجاحها مدخلاً لطور الشيوعية «وعند تحقيق المساواة المطلقة بفضل الله، ثم بفضل وفرة الإنتاج، تتحقق الشيوعية، وهي تعني شيوع خيرات الأرض بين الناس.. فالشيوعية إنما تختلف عن الاشتراكية اختلاف مقدار..

(١) الرسالة الثانية، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٤٣.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٤٤.



فكان الاشتراكية إنما هي طور مرحلي نحو الشيوعية»^(١). بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث يقول: «ولقد عاش المعصوم الشيوعية في قمتها حين كانت شريعته في مستوى آية الزكاة الكبرى «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» ولقد فسر العفو بما يزيد عن الحاجة الحاضرة»^(٢). الآية ٢٢٠ من سورة البقرة - مدنية) لقد فارق محمود المنهجية في موضعين، خاصة وهو يستدل في أمر مهم من شريعة الرسالة الثانية بقرآن مدني في حكم المنسوخ عنده. الأول حينما قال آية الزكاة الكبرى، من أين له أن هنالك زكاة كبرى وزكاة صغرى؟ وما هي آية الزكاة الصغرى؟. والثاني حينما اعتمد تفسيراً واحداً لكلمة العفو وهو الزائد عن الحاجة وأغفل معاني أخرى وردت في القرآن ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩ - مكية). أي ما يدفعه عن رضا أو ما يجودون به. ومرة كان العفو يعني زيادة الأموال أي الغنى ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٥ - مكية). من أين لمحمود أن المراد ذلك المعنى الذي زعمه دون غيره، واضح أن محموداً يلوي عنق النصوص لجعل من الشيوعية قمة ينشدها المسلمون.

محمود يريد أن يبشر الناس بجنة الشيوعية حيث يقول: «وحين يحدثنا القرآن عن الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ إنما عنى أيضاً النموذج المصغر للجنة الكبرى، الذي يتحقق في هذه الأرض التي نعيش عليها اليوم وذلك حين «تملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً» على حد تعبير النبي الكريم. وهو ما داعب خيال ماركس وضل الطريق إليه كل الضلال، ولن يبلغه إلا المسلمون الذين لم يأتوا بعد.. وحين يأتون سيتحقق في الأرض طرف من قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ إِمَّا يَنْزِعْنَاهُمْ فِي

(١) الرسالة الثانية، ص ١٤٧.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٤٧.

صُدُّوهُمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَلِّينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ وهذا الطرف هو الشيوعية التي يحققها الإسلام بمجيء أمة المسلمين، ويومئذ تشرق الأرض بنور ربها، وتتم نعمة الله على سكانها، ويحل في ربوعها السلام، وتنتصر المحبة» الرسالة ص ١٤٨. الآية الأولى ٧٤ من سورة الزمر - مكية). والآيات التالية من سورة الحجر - مكية). حديث «تملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً» هو حديث قيل في النبوءات عن المهدي المنتظر وليس في مجيء أمة المسلمين. محمود يحدث أن الإسلام حينما يبلغ نهايته بمجيء أمة المسلمين عندها يكون قد أدرك الشيوعية، ونعرف ذلك عندما تتحول الدنيا إلى جنة يعمها النعيم والسلام والمحبة ويعني بذلك «جنة أرضية» في دنيا الناس وليس في الآخرة، وهي الجنة الكبرى أما الجنان التي وصفها القرآن فهي عنده الصغرى.

إن المفاجأة التي ستفجع من يسير خلف محمود بلا هدى هي حينما يكتشف بعد بحث جاد في أفكاره أن الرسالة الثانية إنما هي في الحياة الدنيا فقط، لم تحدث هذه الرسالة عن الموت ولا عن البعث، ومن باب أولى أغفلت الحساب والجزاء وما يتبع ذلك من جنة أو نار. إن الدراسة المتعمقة لفكر محمود يجد أن هذه الرسالة مفصلة عليه فقط. محمود ذاهب ليصبح الإنسان الكامل - أي الإله - فليس له حاجة للموت وما بعده. ما هو مصير تلاميذه؟ ربما يقول لهم كونوا تراباً.

الانتقال من الشورى إلى الديمقراطية

تعتبر «الفكرة الجمهورية» هذا المبدأ الإسلامي - الشورى - فرعاً انتهى وقته، والأصل هو الديمقراطية!! والتي تعتبرها مبدأ متقدماً يقوم على الحرية والمسئولية، في حين أن الشورى تقوم على الوصاية!! إن في هذا لدلالة على محمود والجمهوريين يجهلون هذا المبدأ الإسلامي الذي يقرره الإسلام بنصوص قطعية الدلالة والثبوت حيث يقول تعالى: «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزم فتوكل على الله إن الله



يحب المتوكلين»^(١)، ويقول تعالى «والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون»^(٢).

ففي هاتين الآيتين ما يشير إلى أنه لا يحسن إيمان قوم إذا لم يقيموا الشورى بينهم، فالشورى فريضة إسلامية واجبة على الحاكمين والمحكومين، فعلى الحاكم أن يستشير في كل أمور الحكم والإدارة والسياسة والتشريع، وكل ما يتعلق بمصلحة الأفراد أو المصلحة العامة، وعلى المحكومين أن يشيروا على الحاكم بما يرونه في هذه المسائل كلها سواء استشارهم أم لم يستشرهم^(٣)... غير أن الشورى ليست مطلقة، وإنما هي مقيدة بنصوص التشريع الاسلامي وروحه - فما جاء فيه النص خرج عن نطاق الشورى، إلا أن يكون المقصود من الشورى تنفيذ ما جاء في النص، أما ما لم يرد فيه نص، فكله محل للشورى شريطة ألا يخرج الرأي عن مبادئ الاسلام العامة وروحه التشريعية.

والسؤال الآن: ماذا تعني مقولة «الفكرة الجمهورية»: «الشورى تقوم على الوصاية؟! هل تعني بهذه المقولة أن الشورى مبدأ يلتزم ويتقيد بنصوص الإسلام وروحه التشريعية؟! هذا من جانب، ومن جانب آخر ماذا تعني مقولة «الفكرة الجمهورية»: «الديمقراطية هي الأصل لأنها تقوم على تقرير الحرية والمسئولية»؟! إذا كانت الحرية والمسئولية تعني للجمهوريين عدم التقيد بالنصوص الإسلامية، فهذا يعني أن الديمقراطية لا علاقة لها بالإسلام؛ وبذا فلا يجوز لهم أن يعتبروها مبدأ إسلامياً، بله أنها من المبادئ التي تمثل قمة الدين بزعمهم!!.. أما إذا كانت الديمقراطية تعني بحث الأمور دون الخروج على نصوص التشريع الاسلامي أو روجه التشريعية، فإن

(١) سورة آل عمران «١٥٩».

(٢) سورة الشورى «٣٨».

(٣) الاسلام وأوضاعنا السياسية - عبد القادر عودة، المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع ط ٣، ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٨ م، ص ١٦٨.

الديمقراطية بهذا الوصف، لا تعني شيئاً آخر سوى الشورى كما يقرها الإسلام. إن «الفكرة الجمهورية» حيث تقرر مبدأ الديمقراطية كبديل للشورى، فهي إنما تسعى إلى التحلل من التشريع الإسلامي، وتحكيم الهوى، كما يحدث الآن في النظم الديمقراطية المعروفة، والتي نستطيع أن نقول إنها فشلت فشلاً ذريعاً في تطبيق مبدأ الشورى لسببين: أولهما أنهم يؤثرون المنافع الشخصية، والعصبيات الحزبية، على المصالح العامة. وثانيهما أنهم يسمحون للأقلية أن تناقش الرأي الذي أقرته الأغلبية بعد انتهاء دور المناقشة، وأن تشكك في قيمته وصلاحيته أثناء تنفيذه، بل أن الرأي يظل موضع الانتقاد والسخرية حتى بعد تمام تنفيذه...

مما يذكر هنا أن «الفكرة الجمهورية» تتناقض مع منطقها - وهو أمر يلازمها في معظم مقولاتها - حين تزعم أن الشورى هي الفرع والديمقراطية هي الأصل!!.. فإذا كانت الفروع - في الفكرة الجمهورية - هي القرآن المدني.. وإذا كانت الأصول - عندها - هي القرآن المكي.. فإن التناقض يتضح إذا ما علمنا أن الآية الكريمة «والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون» هي من الآيات المكية!! إن منطق «الفكرة الجمهورية» كان يقتضيها أن تعتبر هذه الآية الكريمة من آيات الأصول، لأنها من القرآن المكي! أي من أصول القرآن «بحسب زعم محمود والجمهوريين!!».

المساواة السياسية: الديمقراطية

عرف محمود الديمقراطية وربطها بالاشتراكية «فكما أن الاشتراكية هي ثمرة النزاع الطويل بين «العندهم والما عندهم» في الصعيد المادي، فإن الديمقراطية هي أيضاً نتيجة الصراع بين «العندهم والما عندهم» في الصعيد السياسي، وهي تبتغي أن يكون الناس شركاء في السلطة كما هم شركاء في خيرات الأرض. والديموقراطية صنو



الاشتراكية.. وهما معًا يمثلان جناحي المجتمع»^(١). ثم أضاف تعريفًا مختصرًا وربطه بحديث نبوي حيث يقول: «فالديموقراطية هي حق الخطأ.. وفي قمة هذا التعريف جاء حديث المعصوم «إن لم تخطئوا وتستغفروا فسيأت الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم»^(٢). الحديث صحيح رواه مسلم ولكنه بلفظ تذبذبوا وليس تخطئوا.

وفي المقابل عرف محمود الشورى بقوله: «ولما كان مجتمع المؤمنين قاصرًا عن الارتفاع إلى ممارسة الحرية الفردية في الاختيار والعمل فقد جعل النبي وصيًا عليهم ليعدهم لتحمل مسئولية الحرية الفردية المطلقة، وهو أثناء وصايته عليهم يصر على إعطاءهم حق الخطأ، كلما وسعه ذلك، من غير أن يشق عليهم أو يعتهم.. فهو بذلك إنما يعدهم لممارسة الديموقراطية حين يقوى عودهم، ويستحصد عقلهم.. وبذلك أمر الله حين قال ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وهذه آية الشورى، والشورى، حيث وردت سواء في هذه الآية أو في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فليست آية ديموقراطية، وإنما هي آية تنزلت من آية الديموقراطية لتعد الناس ليستأهلوا الديموقراطية، حين يجيء أوانها..»^(٣). لم يأت محمود بدليل يدل على قصور الناس على عهد النبي ﷺ، وكذلك لم يوضح كيف أن الشورى أقل من الديموقراطية حتى تنزل منها. الآية الأولى في النص (١٥٩) من سورة آل عمران - مدنية) وقد نزلت في سياق هزيمة المسلمين في معركة أحد. في هذه المعركة كان رأي النبي ﷺ وطائفة من أصحابه أن يبقوا في المدينة ويديروا حربًا تنهك العدو بين المنازل ومزارع النخيل. الشباب المتحمس أرادها مواجهة كيوم بدر فخرج النبي ﷺ نزولًا على رأيهم، وحتى لا تكون الهزيمة مبررًا للانفراد بالرأي في

(١) الرسالة الثانية، ص ١٤٩.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٥٣.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٥٤.

المستقبل نزلت الآية وفيها ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾. أي فإذا عزم أي إتخذت القرار بناءً على الشورى فتوكل على الله في التنفيذ. وقد جاءت الفاء للترتيب والتعقيب ولتكون قرارات الشورى ملزمة. أما الآية الثانية فهي الآية ٣٨ من سورة الشورى المكية ، فقد جاءت مربوطة بالصلاة، وكذلك بالإنفاق بصورة مفتوحة فالشورى على ذلك مفتوحة لعقول الناس حسب تطورهم وتقدمهم العلمي.

وعلى الرغم من ذلك يقول محمود: «الشورى ليست أصلاً، وإنما هي فرع، وهي ليست ديموقراطية، وإنما هي حكم الفرد الرشيد الذي يعد الأمة لتصبح ديموقراطية.. والأصل في الديموقراطية آيتا ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢)﴾ (١). الآيتان من سورة الغاشية - مكية). من أين لمحمود أن الشورى هي حكم الفرد الرشيد على القصر؟ فمحمود يصدر أحكامه بلا قيد من كتاب أو سنة أو إجماع.

المساواة الاجتماعية: محو الطبقات

منذ البداية أظهر محمود صعوبة تحقيق هذه المساواة «هذه أصعب المساويات تحقيقاً، وتعتبر المساواة الاقتصادية، والمساواة السياسية مقدمة لها، وهي تتويج لهما، وخلاصة، وقمة. وهي لم تتحقق للإنسانية إلى يوم الناس هذا، ولن تتحقق في المستقبل إلا بالجهد الشاق، والتربية، والتعليم، لتصحيح، وتغيير ما هو كالتطبعي في المسلك الإنساني. وهي بذلك أرقى إنتاج المدنية في جميع العصور» (٢). وهذا التغيير عماده الفرد البشري «الفرد الذي هو غاية هو الفرد البشري، من حيث هو بشري.. حتى وإن كان أحق.. فإنه يجب أن لا يجعل وسيلة إلى شئ سواه.. ومن أجل ذلك وجب ألا تقوم بين الأفراد فوارق من جراء المولد، أو العنصر، أو اللون، أو العقيدة، أو الجنس من الذكورة

(١) الرسالة الثانية، ص ١٥٤.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٥٥.



والأنوثة. قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَدَّرُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ﴾^(١). (الآية ١٣. سورة الحجرات - مدنية)

ولكي تمحي الطبقات يرى محمود أنه لابد من الاهتمام بالأسرة وعمادها الأم «والأسرة هي المجتمع الأول، وفيها تعلم، ولا يزال يتعلم الفرد النظام، والسلوك الاجتماعي النظيف، واحترام القانون، وتوقير السلطة، والتعاطف، والتسامح، والمحبة»^(٢). «وعماد الأسرة الأم، وهي ملكة المملكة الصغيرة، ولكن للأسف الشديد فإن الاعتراف بها لم يتفق للأسرة البشرية إلى اليوم. ولا تزال مضطهدة. وكان ولا يزال، دورها في بيتها دور الخادمة»^(٣). لقد أغفل محمود تكريم الإسلام للمرأة في المنزل حيث لم يكلفها بشئ حتى إرضاع أبنائها حيث جعله خياراً لها ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ فَمَنْ رَضِعْ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ (الطلاق: ٦ - مدنية)

(١) الرسالة الثانية، ص ١٥٦.

(٢) الرسالة الثانية، ص ١٥٧.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٥٧.

كتاب رسالة الصلاة

عندما صدر كتاب رسالة الصلاة في طبعته الثالثة «أبريل ١٩٦٨م» كان كتيباً يقع في ٦١ صفحة من القطع الصغير. ولما خرجت الطبعة السابعة في أبريل ١٩٧٩م - وهي الطبعة التي سنعتمدها- جاءت في ٩٤ صفحة من القطع المتوسط. أي أن الكتاب قد تضخم وزاد حجمه للضعف تقريباً، وذلك لأن متن الكتاب الأصل يبدأ في صفحة ٥٢ من هذه الطبعة. الإضافات التي دخلت على الكتاب كانت مقدمة طويلة تكاد تساوي حجم الكتاب نفسه «٤٧ صفحة»، معظم هذه الإضافات كانت عبارة عن إعادة كتابة لما جاء في كتاب الرسالة الثانية من أفكار، وبعضها أفكار جديدة عنت لمحمود «أما بعد فإن هذه المقدمة قد استفاضت، وكان همي دائماً، وأنا أسير في شعابها، كفكفة أطرافها.. ولكن موضوعها طويل بطبعه، وسنفرد له مؤلفاً مستقلاً باسم «الإسلام علم نفس»^(١). عندما انتهى من المقدمة أدرك محمود أنه لم يكن يتبع منهجاً في كتابته وإلا لما أفلت زمام الكتابة من يده حتى أضطر للكفكفة.

هذه الإضافة لم تزد من قيمة الأفكار التي في الكتاب، بل أن بعضها كان أبعد ما يكون عن المنهجية.

من المشكلات التي تواجه محموداً في هذا الكتاب هي اعتماده على أحاديث موضوعية نسبها للنبي ﷺ لا يصلح الاحتجاج بها مثل «فلكأنما نحن من فرط ما تحتوشنا دواعي الغفلة قوم نيام.. نحن بحق نيام.. ألم يقل المعصوم «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»؟ بلى!!»^(٢). وهو ليس بحديث أصلاً، ومثله حين قال «وإن لنا الانتباه لوسيلة أخرى غير وسيلة الموت، وقبل وسيلة الموت، وتلك هي وسيلة الصلاة الواعية، الصحيحة، الرشيدة.. وقد أمرنا بها المعصوم حين أمرنا: «موتوا قبل أن تموتوا» يعني

(١) رسالة الصلاة، ص ٥١.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٧.



ارفعوا حجاب الغفلة عنكم بالاطلاع على حقائق الأمور المركوزة وراء الظواهر، الآن، وذلك بوسيلة الصلاة، قبل أن يجري عليكم ذلك بوسيلة الموت، فيما بعد»^(١).

ولما تحدث عن الدين جعله على مستويين «والدين في هذين المستويين دينان، بينهما اختلاف مقدار.. ويمكن تسميتهما بالدين العام، والدين الخاص»^(٢). ولما جاء للدين الخاص قال: «وأما الدين الخاص فهو دين الجن والإنس - وهو بذلك دين العقول المكلفة بترويض الشهوة»^(٣). بعد ذلك قال إن للملائكة عقولاً بلا شهوات «وخلق عقولاً بلا شهوة، وركبها في الملائكة، فهم يصيبون ولا يخطئون»^(٤). ثم راح يعرف العقل بقوله «العقل هو القوة الداركة فينا.. وهو لا يختلف عن الجسد إختلاف نوع، إنما يختلف عنه اختلاف مقدار.. فالعقل هو الطرف اللطيف من الحواس.. والحواس هي الطرف اللطيف من الجسد.. وإنما بصهر كثائف الجسد، تحت قهر الإرادة الإلهية، ظهرت لطائف الحواس، ثم لطائف العقول..»^(٥). نسي محمود تعريفه أعلاه للعقل فعاد يعرفه مرة أخرى «قلنا أن العقل هو الروح الإلهي المنفوخ في البنية البشرية، وقلنا أن النفخ يعني الاستيلاء الإرادي القاهر على العناصر والأحياء..»^(٦). يبدو أن استرسال محمود في مناقشته لتطور الحياة والعقل ومحاولاته الإتيان بما لم تأت به الأوائل والأواخر، جعلته يقع في مثل هذه المغالطات المنهجية. فهو قد جعل البشر يتطورون من خلية واحدة «وقد بدأت هذه الحياة بحيوان الخلية الواحدة»^(٧). ثم جعل

(١) رسالة الصلاة، ص ٧.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٩.

(٣) رسالة الصلاة، ص ٩.

(٤) رسالة الصلاة، ص ١٦.

(٥) رسالة الصلاة، ص ١٤.

(٦) رسالة الصلاة، ص ٣٢.

(٧) رسالة الصلاة، ص ١١.

الحياة تتناسل من هذا الطور، ثم جعل الأنثى تخرج من الذكر «ثم أخذت الحياة تلد الحياة، بطريقة أو بأخرى، وذلك في مراحلها الدنيا، وقبل أن تتطور، وتتعدد، وتبرز الوظائف المختلفة للأعضاء، وللأنواع.. وقبل أن تبرز الأنثى بشكل مستقل عن الذكر»^(١). هنا محمود يواجه مشكلتين:

تطور الحياة بهذا الشكل كان قد قدمه «دارون» - كما تقدم - ومن بعده تلاميذه من التطوريين في شكل نظرية في مجال العلوم الطبيعية، تصيب أو تخطئ. ما من إشكال، إذا ثبت بطلانها. لكن محمودًا يقدمها كجزء من ثوابت الدين ضمن مفاهيم الرسالة الثانية التي هي أفضل من تلکم الأولى.

بروز الأنثى من الذكر لا يوجد في القرآن البتة، إنما هي من ضمن قصص التوراة «٢١ فَأَوْقَعَ الرَّبُّ إِلَهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. ٢٢ وَبَنَى الرَّبُّ إِلَهُ الضِّلَعِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ.» سفر التكوين أصحاح ٢.

ولما أراد محمود أن يصل إلى مرحلة آدم الكائن البشري العاقل جعل ذلك في المرحلة الثالثة من التطور، وقد سبقتها مرحلتان «المرحلة الأولى، فقلنا: إن بدايتها في الأزل حيث برز الإنسان في الجسد في المادة غير العضوية»^(٢). «المرحلة الثانية، وقلنا: إن بدايتها عند ظهور المادة العضوية - تلك التي نسميها إصطلاحًا ميتة - ونهايتها عند ظهور العقل»^(٣). «وأما المرحلة الثالثة فهي تتميز عن المرحلة الثانية ببرز العقل من الجسد، وهو عنصر جديد، وخطير..»^(٤). ثم أضاف مرحلة رابعة وهي بدخول حواس إضافية «وأما المرحلة الرابعة فهي تتميز عن المرحلة الثالثة بدخول الحاسة السادسة،

(١) رسالة الصلاة، ص ١٥.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٢٠.

(٣) رسالة الصلاة، ص ٢٠.

(٤) رسالة الصلاة، ص ٢٠.



والسابعة، في المسرح»^(١). وذلك كله ليهي آدم لرحلة طويلة من الترقى.

قبل أن يدخل محمود إلى صلب الكتاب أطلق بشارة للبشرية «الإسلام عايد عما قريب بعون الله وبتوقيقه»^(٢). «وهو سيعود نورًا بلا نار، لأن ناره، بفضل الله ثم بفضل الاستعداد البشري المعاصر، قد أصبحت كنار إبراهيم بردًا وسلامًا»^(٣). ما هي نار الإسلام هذه؟ ثم مضى محمود يصف عصرًا الناس اليوم شهود عليه، ربما يكون هنالك أحياء ولدوا في نفس تاريخ ميلاده، كما أن القرن العشرين قد وثق جزء منه بالصورة والصوت «إن العصر الذي نعيش فيه اليوم عصر مائي، وقد خلفنا وراءنا العصر الناري.. وهو عصر مائي لأنه عصر العلم.. العلم المادي المسيطر اليوم والعلم الديني – العلم بالله – الذي سيتوج ويوجه العلم المادي الحاضر غدًا.. وفي عصر العلم تصان الحرية وتحقق الدماء وتنصب موازين القيم الصحائح..»^(٤). نبوءة حقن الدماء تجعل المرء يضع رأسه بين يديه؛ إن دماء الأبرياء التي سالت بعد أن كتب محمود سطور هذه، وعلى مدى حوالي خمسين عامًا، إلى الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية. وقد سجل محمود اعترافًا بذلك وهو يتحدث عن الوجه الدميم للمدنية الغربية «وأما وجهها الدميم، فهو عجزها عن السعي الرشيد إلى تحقيق السلام، وقد جعلها هذا العجز تعمل للحرب، وتنفق على وسائل الدمار أضعاف ما تعمل للسلام، وأضعاف ما تنفق على مرافق التعمير..»^(٥). وقد نشبت الحروب وتبخر ماء عصر محمود الموسوم بعصر العلم، وخلف القرن العشرين ملايين الضحايا من جراء الحروب، والمجاعات الممنهجة، والأوبئة، ومختلف الكوارث التي وقف العالم

(١) رسالة الصلاة، ص ٢٠.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٥٢.

(٣) رسالة الصلاة، ص ٥٢.

(٤) رسالة الصلاة، ص ٥٢.

(٥) رسالة الصلاة، ص ٥٥.

يتفرج عليها ولا يمد يده للمتأثرين بها.

جعل محمود الصلاة وسيلة «والصلاة التي هي وسيلة، الصلاة الشرعية المألوفة، في الحركات والأوقات، وهي وسيلة إلى المقام الذي يكون فيه الفرد في صلة تامة، وجمعية شاملة بربه»^(١). ثم يقول عن قوله تعالى لعلك ترضى في سورة طه ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ معطياً تفسيراً خاصاً به «وعبرة «لعلك ترضى» تجعل الصلاة وسيلة إلى الرضى بصورة لا لبس فيها ولا غموض»^(٢). من هنا يبدأ محمود في سلوك الطريق نحو الربوبية «إذا أحسن العبد التوسل بوسيلة الصلاة اعانته على الدخول في مقام الرضى بالله، فإذا أحسن السلوك في مراقبه بالمزيد من إتقان الصلاة دخل في درجات العبودية. ولمقام العبودية بداية.. وهو مقام النفس الراضية، وليست له نهاية لأنه في ذلك كالربوبية لا يتناهى»^(٣). محمود دائماً ما يتحدث عن إحسان السلوك دون أن يوضح كيفية هذا الإحسان. هكذا بدأ السير في طريق لا نهاية له مبتدئاً بالرضا «الرضا بالله رباً مدخل على العبودية، كما سلف القول، ومن رضى بالله أثره على نفسه فاطرح ما يريده هو رضا بما يريده سيده. فقد قال أصحابنا «العبد موجود لسيده، مفقود لنفسه»^(٤). هنا يصل الأمر لمرحلة غاية في الخطورة، مرحلة الإفتاء على قول الأصحاب. من هم أصحاب محمود هؤلاء؟.

سأل محمود بعنوان جانبي قائلاً ما هي الصلاة؟ كانت الإجابة «إن الحديث هنا يقتضي فهم القرآن جيداً، وللإعانة على هذا الفهم لابد من تقرير أمور أربعة»^(٥). هذه

(١) رسالة الصلاة، ص ٦١.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٦٢.

(٣) رسالة الصلاة، ص ٦٣.

(٤) رسالة الصلاة، ص ٦٤.

(٥) رسالة الصلاة، ص ٦٧.



الأمور هي:

١. «الإسلام بداية ونهاية»^(١).
٢. «أن مجتمع البعث الأول اسمه الخاص به «المؤمنون»»^(٢).
٣. «المجتمع المسلم حقاً لم يدخل حيز الوجود بعد»^(٣).
٤. «القرآن كله مثاني»^(٤).

الأمر الثالث أعلاه هو مشكلة المشاكل. هنالك ثلاثة أسئلة لم يجب عليها محمود قبل أن يصمت صمته الأخير بالموت:

متى سيدخل هذا المجتمع المسلم حقاً حيز الوجود؟.

ماهي العلامات الدالة على هذا المجتمع المسلم حقاً؟.

من سيشير على الناس ويؤكد لهم أن هذا هو المجتمع المسلم حقاً؟. أم أن تحقيقه سيكون تلقائياً حينما يصل المجتمع بأفراده كلهم «٧ مليار فرد» إلى درجة الإسلام الحق؟.

كل هذا ليكون الإنسان مستعداً لفهم أن للصلاة معنيين «الصلاة لها معنى بعيد، ومعنى قريب. ولقد خرجت الصلاة يوم المعراج على مستويين من مستويات شهود النبي ربه، والقرآن يقص علينا هذين المشهدين فيقول: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۖ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۚ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۚ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۚ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۚ أَفَتَمْرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۚ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۚ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۚ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۚ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۚ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ

(١) رسالة الصلاة، ص ٦٨.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٦٨.

(٣) رسالة الصلاة، ص ٦٩.

(٤) رسالة الصلاة، ص ٦٩.

الْكُبْرَى ﴿١٨﴾^(١). ماذا رأى النبي حسب ظاهر القرآن واللغة العربية كما قال محمود في كتاب الرسالة الثانية^(٢). الآيات من «علمه شديد القوى» حتى «إذ يغشى السدرة ما يغشى»، قال المفسرون ذلك جبريل. وعلى فرض أن ذلك كان هو الله عز وجل فقد انتهى ﷺ إلى «قاب قوسين أو أدنى» و«مهما كانت المسافة» فقد انتهى الأمر هنا بدون رؤية لأي شيء. أما آية «ما زاغ البصر وما طغى» فقد كانت فيها الرؤية التي تحدثت عنها الآية التالية لها مباشرة، - لقد رأى من آيات «أي علامات» ربه الكبرى-. لم تكن هنالك رؤية في قاب قوسين، إلا إذا تم التسليم بأن للقرآن معنيين، أحدهما هو الذي يعنيه محمود، يقول محمود : «أن هنالك رؤية للذات» دون دليل أو قرينة، وذلك في مفارقة واضحة لما قاله محمود لظاهر القرآن واللغة العربية في كتاب الرسالة الثانية^(٣).

محمود بما قاله أعلاه يريد أن يواصل ما بدأه من رحلة التسلق بالجبل إلى الذات، تلكم التي بدأها في كتاب الرسالة الثانية «فأما المشهد الأول فهو مشهد أسمائي، وأما المشهد الثاني فهو مشهد ذاتي»^(٤). ثم يترك المشهد الأسمائي وراء ظهره «كما فعل مع العقدة في الرسالة الثانية» ويذهب إلى الذات «يقول تعالى عن نفسه «كل يوم هو في شأن» وشأنه إبداء ذاته لعباده، وهذا الإبداء إنما هو تنزل من بهموت الذات إلى مراتب العباد ليرقوا في معارج هذه التنزلات»^(٥). من الذي قال أن للذات بهموتاً؟ أتى محمود بهذين المشهدين ليشرح كيف فُرضت الصلاة «والصلاة، بالمعنى القريب، هي الصلاة الشرعية، ذات الحركات المعروفة. ولقد فرضت في مقام «قاب قوسين أو أدنى» وهو

(١) رسالة الصلاة، ص ٧٠.

(٢) الرسالة الثانية، ص ٤.

(٣) الرسالة الثانية، ص ٤.

(٤) رسالة الصلاة، ص ٧٠.

(٥) رسالة الصلاة، ص ٧٠.



مقام الشهود الأسمائي، والشهود الأسمائي وسيلة للشهود الذاتي^(١). ثم قال «في مقام الشهود الذاتي فرضت الصلاة بالمعنى البعيد، وهي الصلة مع الله بلا واسطة، في مقام «ما زاغ البصر وما طغى»، حيث تطمس من العبد ذاته المحدثه، وتبقى ذاته القديمة في صلة مع القديم، لا يفصلها وسيط، ولا تقوم بينهما وسيلة، وهناك تسقط الوسائل والغايات، ولا يبقى إلا الواحد «وليس لسفن العبارة ههنا نصيب». ولم يكن جبريل حاضراً، لأنه لا مقام له في شهود الذات، وذلك لأنه لا ذات له - لا نفس له - بها يطبق أنوار التجلي الذاتي، وهذا ما جعل ساير البشر، في مآلهم، أكمل من خاصة الملائكة.. فكمال الملائكة كمال درجة، وكمال البشر كمال نشأة، وهذا معنى قول المعصوم «إن لم تخطئوا وتستغفروا فسيأت الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم»^(٢).. الحديث صحيح رواه مسلم، بلفظ تذبوا ليس تخطئوا. لقد جعل محمود في الآيات أعلاه مقامات تطورت حتى بلغت مقام ما زاغ البصر وما طغى، ولم يجعل للرؤية التي رأت آيات الرب الكبرى مقاماً دون سبب واضح. في مقام الدفاع عن زوغان البصر كان هناك مقام، ولما ثبت البصر ورأى غاب عنه المقام. الحذقة الكلامية في استخدام عبارة «وليس لسفن العبارة ههنا نصيب» جعلت محمود يعرف طبيعة الملائكة التي لم تذكر في القرآن، وجعلت الإنسان يتقدم حتى الذات. لقد نسي محمود أن الوحي كان في قاب قوسين وكانت الرؤية محلها في الفؤاد ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَمْرُؤُهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَ مَا يَعْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ (النجم: ٨ - ١٨ - مكية).. وفي كل هذه الآيات لم يرد فرض الصلاة. لقد ورد فرض الصلاة في الأحاديث النبوية.

تخلف جبريل وتقدم المعصوم «وجاء تخلف جبريل لسبب آخر، هو أن وجود

(١) رسالة الصلاة، ص ٧٤.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٧٥.

جبريل يجعل النبي شفعا، ولا يصلح الشفع في مشاهدة الوتر. وفي مقام الشهود الأسماي فرضت الصلاة بالمعنى القريب.. الصلاة الشرعية، وقد كان جبريل وسيطا فيها، وقد جاء بكيفيتها ومواقيتها إلى النبي في مكة، وعلمه كيف يصلي^(١). المشهد الأسماي حدث ليلة المعراج كما قال محمود، وجبريل جاء بالصلاة الشرعية في مكة حسب قوله، كيف حدث هذا؟ هل رجع المعصوم إلى مكة ليستقبل وحي الصلاة، ثم عاد إلى مقام الشهود الذاتي، أم كيف حدث هذا؟ لعله يريد أن يقول أن النبي ﷺ قد أخذ تشريع الصلاة مجملا وأن جبريل لحقه بالتفاصيل في مكة. عند محمود صارت الصلاة معراجا للمقام المحمود «فجاءت الصلاة التي نعرفها اليوم، وجعلت معراجا، له بالأصالة، ولأتمته بالتبعية. وهي معراج إلى المقام المحمود، الذي قامه بين يدي ربه في مشهد، «ما زاغ البصر وما طغى». وقد قال في حق نبيه «ومن الليل فتعجد به نافلة لك، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا»^(٢). الذي يُتَّهَجَد به هنا هو القرآن، ليست صلاة الليل ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ (الإسراء: ٧٨ - ٧٩ - مكية).. وعسى هنا «تعني رجاء» أن يُبْعَثَ مقاما محمودا في المستقبل، ليس ما حدث في المعراج. أما تخلف جبريل لم يرد في أي حديث صحيح جاء في روايات المعراج. وقد ورد عن جبريل أمر «الاحتراق» في حديث ضعيف لا علاقة له بالمعراج «عن زرارة بن أوفى: «أن النبي ﷺ سأل جبريل: هل رأيت ربك؟ فانتفض جبريل، وقال: يا محمد! إن بيني وبينه سبعين حجابا من نور، لو دنوت من أدناها لاحتقرت.» هذا حديث مرسل فزرارة لم يدرك النبي ﷺ.

يقول محمود: «والمعراج الأكبر، الذي ارتفع في مراقبه المعصوم، بتوفيق الله، ثم بإعانة جبريل له، قد ظل تحقيقه هدف المعصوم في جميع حياته، بوسيلة معراجه الأصغر - الصلاة - وقد جعل الله قرة عينه في الصلاة، لأن فيها تتحقق الجمعية بربه كل حين،

(١) رسالة الصلاة، ص ٧٥.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٧٥.



وبها تقطع عند كل ركعة، مرحلة جديدة، من مراحل القرب إلى المقام المحمود.. مقام «ما زاغ البصر وما طغى»^(١). ومحمود بحث على هذا المعراج «وهذا المقام يجب أن يظل هدف كل مصل من هذه الأمة، لأن به تمام المعرفة، وكمال الشهود، وهو الشهود الذاتي، الذي يرقى فوق الشهود الأسمائي»^(٢). المعراج الأكبر لم يصل بالنبى ﷺ للوصول للذات الإلهية، فظل يطلب لنفسه ولأمته من بعده الوصول للذات الإلهية بوسيلة المعراج الأصغر «أي الصلاة». من يعطي الناس عقلاً يفهم أن وسيلة المعراج الصغرى تفوق الوسيلة الكبرى؟.

بعد أن يرقى المصلي «العابد» فوق الشهود الأسمائي، ويتعدى المكان الذي وقف فيه النبي ﷺ فيتم لقاءه بالله بلا واسطة، يقول محمود «والنبي الذي هو جبريلنا نحن، يرقى بنا إلى سدره منتهى كل منا، ويقف هناك، كما وقف جبريل، بيد أنه إنما يقف لكمال تبليغ رسالته، ولكمال توسيله بربه، حتى يتم اللقاء، بين العابد المجود وبين الله بلا واسطة. فيأخذ كل عابد مجود، من الأمة الإسلامية المقبلة، شريعته الفردية من الله بلا واسطة، فتكون له شهادته، وتكون له صلاته وصيامه وزكاته وحجه، ويكون، في كل أولئك، أصيلاً، ويكون، في كل أولئك، متأسيًا بالمعصوم في الأصالة..»^(٣). كيف يكون العابد المجود أصيلاً ومتأسيًا في آنٍ واحد؟

يقول محمود في كتابه رسالة الصلاة: «لقد تحدثنا في آيات سورة «النجم» التي أوردناها آنفاً عن «سدره المنتهى» حيث تخلف جبريل عن المعصوم وسار النبي بلا واسطة لحضرة الشهود الذاتي لأنه لا مقام له هناك والنبي الذي هو جبريلنا نحن يرقى بنا إلى سدره منتهى كل منا ويقف هناك كما وقف جبريل بيد أنه إنما يقف لكمال تبليغه رسالته وكمال توسيله إلى ربه حتى يتم اللقاء بين العابد المجود وبين الله بلا واسطة

(١) رسالة الصلاة، ص ٧٨.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٧٨.

(٣) رسالة الصلاة، ص ٧٨.

فياخذ كل عابد مجود من الأمة الإسلامية المقابلة شريعته الفردية من الله بلا واسطة فتكون له شهادته وصيامه وزكاته وحجه ويكون في كل أولئك متأسيا بالمعصوم في الأصالة وأنما يتم ذلك بفضل كمال توسيل المعصوم إلى ربه وذلك لمن جود التقليد وإلى هذه الأصالة الإشارة بقوله تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »^(١) ثم يختم مستطردا فيقول: « وشريعته الفردية فوق الشريعة العامة بما لا يقاس! ». والمعروف أن الشريعة الإسلامية هي ما شرعه الله لعباده المسلمين من أحكام وقواعد ونظم لإقامة الحياة العادلة وتحقيق مصالح الناس وأمنهم في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ونظم الحياة، في شعبها المختلفة لتنظيم علاقة الناس بربهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

أما المعراج فهو من خصوصيات النبي محمد ﷺ، ولا يتفق لأحد من بعده مهما كان أن يكون له شهود ذاتي كالرسول ﷺ وهو قياس غير صحيح ولا أصل له، ثم أن المعراج كان قبل الهجرة بزمن بسيط ولا زال جبريل هو الواسطة بين الله ومحمد ﷺ إلى أن انتقل النبي إلى الرفيق الأعلى.

فإذا كان الرسول ﷺ لم يستغن عن واسطته وهو جبريل ولم يأخذ شريعته من الله بلا واسطة إذا استثنينا فريضة الصلاة فكيف يعقل لفرد مهما بلغ من الكمال أن يأخذ شريعته من الله بلا واسطة؟ اللهم إلا إذا كان كمال هذا الفرد فوق كمال النبي ﷺ! وإذا كان الله تعالى يقول « ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » فكيف يعقل ان يأخذ كل فرد شريعته من الله بلا واسطة.

وكما قدمنا عن الشريعة فهي عامة وليس هناك شريعة يتلقاها الفرد وانما شريعة الفرد هي شريعة الجماعة، والاستدلال بالاية الكريمة « ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » على شريعة الفرد، هو استدلال غير صحيح وفيه تحريف واضح وذلك لأن

(١) رسالة الصلاة، ص ٣٩.



الخطاب هنا للأمم وليس للأفراد، أي لكل أمة وليس كل فرد والضمير «منكم» يرجع للأمم أي من الأمم! أما محمود وشطحاته في صلاة الأصالة والتي قال فيها إنه قلد نبينا محمداً ﷺ، حتى عرج به إلى الله ثم تخلف عنه ﷺ فأخذ صلاته بنفسه من الله كفاحاً. فهذه الشطحات لم يسبق إليها.

ولم يسبق أن ادعى عارف بالله هذا المقام النبوي، وحتى من قال منهم بالسير والعروج إلى الله كابن عربي وغيره لم يقل قط أن النبي صلي الله عليه وسلم قد تخلف عنه عند مقام ما، بل إن معظم كلامهم أن حدود عروج الولي منهم أدنى من مقام عروج الأنبياء. أما محمود فقد ادعى أنه خوطب كفاحاً من مقام قاب قوسين أو أدنى وهذا مقام النبي صلي الله عليه وسلم.

أوضح محمود خط السير حتى لا يظن السالك العابد المجود أن محموداً قد تركه في صحراء التيه «الأمر فيما يخص التقليد والأصالة بإيجاز هو هكذا:

«الله تبارك وتعالى هو السائر أمامنا جميعاً، ولكن مواضع أقدامه خفية لا ترى إلا بنور قوي، ولم يكن يملك هذا النور غير جبريل فسار يضع أقدامه على مواضع أقدام الله تماماً وبدقة.. ومواضع أقدام جبريل خفية أيضاً، لا ترى إلا بنور قوي، لم يكن يملكه غير محمد، فسار محمد يضع أقدامه على مواضع أقدام جبريل تماماً، وبدقة، ويحاول جاهداً أن يوضح مواقع أقدام جبريل بضغط أقدامه هو عليها، فأصبحت واضحة لكل منا على صور متفاوتة.. وأدنى هذه الصور وضوحاً، واضح بشكل كاف، ليتبعه من هذه الأمة أقلهم نوراً، ولكن بعضهم اكتفى بالسير خلف النبي، من غير أن يهتم بمواقع الأقدام، فذلك هو المقلد العادي، وبعضهم اهتم أن يسير خلف النبي، وبأن يضع أقدامه في مواضع أقدام النبي، بضبط وإتقان، حتى لا يزيد أثر قدمه على أثر قدم النبي، ولا ينقص عنه، حيث أمكنه ذلك، فذلك المقلد المجود للتقليد»^(١). ذلك ليطلق الناس لخيالهم العنان، وهنا على المرء إما أن يجمع بخیاله أكثر ويفتري على الله ويتصور أن الإله سائر

(١) رسالة الصلاة، ص ٨٠.

في الأمام، ومن خلفه جبريل ومحمد والساكون يتبعون الأثر بأنوار مثل الكشافات اليدوية. فالأمر سهل ومشجع لا يحتاج سوى التركيز على موضع أقدام النبي ﷺ ووضع الأقدام عليها بدقة شديدة. أو أن يعود إلى رشد، ويستيقظ من هذا الوهم والخيال الذي يداعب الأطفال وهم ينتقلون إلى بداية مرحلة المراهقة.

صار الأمر أكثر تشجيعاً وتضاعفاً حتى يبلغ مرحلة رؤية مواضع أقدام الله «ثم أنه بفضل هذا الاتباع، انعكست الأنوار المحمدية على المقلدين، كل حسب بلائه، فأصبح نظره يقوى حتى استطاع أن يرى مواقع أقدام جبريل، التي كانت خافية في أول أمره، ثم سار في إتقان تقليده، حتى رأى مواقع أقدام الله التي كانت خافية على محمد، فأخذ يوضحها له جبريل بسيره عليها، وسار محمد بسير جبريل، حتى قوي، فاستقل بالرؤية والاتباع. فإذا رأى المقلد، الموجود لتقليد النبي، مواضع الأقدام الإلهية فإنه يستقل بالرؤية وبالاتباع. فيكون في آخر أمره، وبفضل إتقان تقليد النبي، مقلداً لله بلا واسطة نبي»^(١). لقد بلغت الروح المعنوية عنان السماء. الأمر سهل اتباع مواضع أقدام بتجويد وإتقان.. رويدك رويدك لا يجنح بك خيالك، محمود يقول: «وتعالى الله عن الأقدام الحسية، بالصورة التي نعرفها نحن وإنما مواضع أقدامه مرامي الحكمة الخفية، الباطنة، في إرادته تلك الحكمة، التي خفيت ودقت، ولطفت، حتى أصبحنا نسير أمامه تبارك وتعالى، وننتظر منه أن يتبعنا هو، لفرط جهالتنا وغفلتنا»^(٢). انهارت الأحلام بعد أن صارت الأقدام معنوية خفية، وبلغ الإحباط ذروته بعد أن صار الرب يسير خلفنا بدلاً من أن يكون أمامنا. مثل هذه الالتفاتات جعلت بطريك القسطنطينية جناديوس Gennadius «يدهش من مثل هذه الصياغة غير العادية بحيث عبر عنها بالقول إنها من فعل رجل مخمور»^(٣)

(١) رسالة الصلاة، ص ٨٠.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٨٠ - ٨١.

(٣) Esq. ١٨٥٤. The History of the Decline and fall, Edward, Gibbon.

of the Roman Empire Vol. ٤. London: Henry G. Bohn. Chapter



يقول محمود: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً» يعني لكل فرد منكم جعلنا «شرعة» أي شريعة، «ومنهاجاً» يعني سنة.. «فشرعة ومنهاجاً» يعني شريعة وحقيقة.. فشرعية العارف طرف من حقيقة، وهو فردي الحقيقة، فردي الشريعة.. ووقت تحقيق هذه الشرائع الفردية، ومستوى تحقيقها، يختلف من فرد لآخر، إلا أنها، في مستوى القمة، المستوى الذي يسقط فيه التقليد، وتحقق في هذه الحياة الدنيا لرجل واحد، هو قمة الهرم، أما كل ما عداه فهم يحققون أصالتهم وشرائعهم الفردية داخل إطار التقليد النبوي^(١). هذا المقام الذي زعم محمود أن الخلائق تلهث خلفه، ضيق محمود دائرته، حيث اختار من البشرية المسلمين التي هي في رحم الغيب حتى الآن، ثم اختار منها السالكين المجودين، وبعد كل هؤلاء وأولئك المقام مخصص لفرد واحد. فمن أحق به غير صاحب الرسالة التي بعثت في القرن العشرين. وقد حكى محمود عن لقاءه مع الله تعالى: «ليلة أسري بي.. انتسخ بصري في بصيرتي.. فرأيت الله في صورة شاب أمرد.. فوضع يده على كتفي.. فاستشعرت برودة الذات الإلهية.. فقال لي.. أتدري فيم يختصم الملائ الأعلى يا محمود.. قلت الله أعلم.. فعلمني ثلاثة علوم.. علم أمرت بتبليغه «الرسالة الثانية» وعلم خيرت في تبليغه «وهذا أخص به أناس دون آخرين».. وعلم نهيت عن تبليغه لأن الله يعلم أن لا أحد سواي يطيقه»^(٢). هنالك عدة نقاط تستحق الوقوف عندها:-

يقول ليلة أسري بي: من أسرى به ومتى وكيف؟. لقد أراد محمود أن يتقمص حديثاً منسوباً للنبي ﷺ بهذا المعنى ورد بعدة روايات. وقد اختلف أهل الحديث في صحته اختلافاً كبيراً. هناك من صححه لكن رده إلى رؤية منامية وليست من رؤى وأحداث ليلة الإسراء والمعراج. وهناك من أنكر الحديث لأن به تجسيدا لله، ويكفي فيه

(١) التقليد والأصيل والأصلاء. ط ١. يوليو ١٩٨٢. ص ١٠
(٢) محاضرة في ميدان أبو جنزير - الخرطوم. جعفر بانقا. موقع النيلين

ما قاله السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى ٢ / ٣١٢» «موضوع مفترى على رسول الله ﷺ». وقد ضعفه كل من ابن الجوزي، الذهبي، الإمام أحمد، يحيى بن معين، النسائي، ابن حبان، ابن حجر، السيوطي، والشوكاني.

انتسخ بصري في بصيرتي: لقد احتفظ النبي ﷺ ببصره الذي ما زاغ وما طغى، أما محمود فأمره عجب، انتسخ بصره في بصيرته، لكنه لم يصبح كله بصراً كما يتوقع الناس.

فرايت الله في صورة شاب أمرد: موسى عليه السلام كلم الله لم يستطع أن أن يرى ربه ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي﴾ أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٣﴾ (الأعراف: ١٤٣ - مكية).

ما كان أسهل على الله أن ينتسخ بصر موسى عليه السلام في بصيرته!!

وقد طلب منه قومه ذلك فأخذتهم الصاعقة ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَقَوْنَ عَنْ ذَلِكَ وَعَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٤﴾ (النساء: ١٥٣ - مكية).

وهو طلب من في نفسه كبر ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْآلَمَاتُ لَكُنَّا أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١٦١﴾﴾ (الفرقان: ٢١ - مكية).

لماذا الله في صورة شاب أمرد؟ ولماذا لا يكون في صورة رجل وقور؟ أو يكون في صورة مرعدة مربعة كما صورته يهود في سفر الخروج؟ الله يقول عن نفسه ليس كمثله شئ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٦١﴾﴾ (الشورى: ١١ - مكية).

ومحمود يكذب هذه الآية.

لم يذكر محمود سبب الاختصام، وانطلق يقول: «فعلمني ثلاثة علوم.. علم أمرت بتبليغه «الرسالة الثانية» وعلم خیرت في تبليغه «وهذا أخص به أناس دون آخرين».. وعلم نهيت عن تبليغه لأن الله يعلم أن لا أحد سواي يطيقه». لقد أخذ محمود الرسالة الثانية من الله مباشرة في ليلة إسرائه، وهنا يتنفي اقتباس محمود من الحديث



النبي الشريف، بسبب قوله: «يا محمود» و«الرسالة الثانية» التي جعلت الكلام كله منسوباً لمحمود. لقد زعم محمود أنه تفوق تفوقاً كبيراً على النبي ﷺ الذي كان قاب قوسين أو أدنى، ولكنه لم ير ربه، وعاد من هنالك بخمس صلوات فقط. بينما رأى محمود ربه وجاء برسالة كاملة وعلمين، أحدهما لأناس مخصوصين، والآخر رفع مع محمود ما من سبيل للوصول إليه إلا إذا عاد محمود بديلاً للمسيح عليه السلام «وهو مقام المسيح المحمدي الموعود»^(١) وادعاه له هذا المقام دون غيره يوضح أنانيته، حيث زعم أنه مهما سعى الإنسان وترقى بمراقي الكمال فإن مصيره أصالة في إطار التقليد فقط. إن السبيل للرؤيا بعين محمود هو أن تغمض عين العقل.

مقولات الباطنية

لعله قد وضح لنا من خلال بحثنا في «الفكر الجمهوري» أن مقولات محمود تكاد تكون صورة طبق الأصل لعقيدة التجسد البهائية. مثلاً البهائية تقول عن ذات الله – تعالى – «هو غيب في ذاته وكنز مخزون في صفاته، ومجرد بحث في حقيقته وهويته، لا يوصف بوصف ولا يسمى باسم»^(٢)!، ويقول محمود: «الله في صرافة ذاته فوق الأسماء وفوق العبارة، وليس لمعرفته سبيل».

و محمود – مثله مثل البهائية والفرق الباطنية – يستخدم الأسلوب الباطني لينفذ إلى أغراضه. والباطنية – كما يقرر الغزالي وغيره من العلماء – وضعوا أساس مذهبهم على أن للقرآن الكريم ظاهراً وباطناً، وأن لكل تفسير تأويل، غير أنهم اتخذوا هذا المذهب وسيلة لتحريف القرآن الكريم، وقد هاجم هذه الفرقة شيوخ الاسلام وأئمة كالغزالي وابن تيمية الذي لا يتردد في الحكم على معتقداتهم بالكفر.

و محمود يشير بصراحة إلى انتمائه إلى الباطنية حين يقول: «إن للقرآن ظاهراً وباطناً، فظاهره عنى بظواهر الأشياء وباطنه قام على الحقائق، وراء الظواهر ثم اتخذ في

(١) التقليد والأصيل والأصلاء. يوليو ١٩٨٢. ط ١. ص ١٤.

(٢) البهائية تاريخها وعقيدتها، عبد الرحمن الوكيل، ص ١٨٥.

نهجه التعليمي الظواهر مجازًا يعبر منها العارف إلى البواطن»^(١).

وتفسير محمود للقرآن الكريم يؤكد أنه يمثل - بالفعل - امتدادًا للأسلوب الباطني، فمثلاً جاء في تفسيره لسورة القدر ما يلي! «إنا أنزلناه يعني القرآن مجسداً، يعني الانسان الكامل «الله» وهو المسيح. فالمسيح هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.. رسول الله يعني رسول الذات إلى جميع الخلائق وكلمته يعني كلمة «الله».. فالمسيح هو الكلمة «الله» ألقها إلى مريم يعني إلى النفس الطاهرة.. وليلة القدر هي لحظة نزول المسيح»^(٢).

و محمود، وإن انتهج منهج الباطنية، غير أنه لم يكن أصيلاً حتى في هذا المنهج. فقد جاءت مقولاته تلفيقاً لمقولات الباطنية.

(١) الرسالة الثانية، ص ٦٥.

(٢) أدب السالك في طريق محمد ص ٢٩.



كتاب تعلموا كيف تصلون

كان كتاب رسالة الصلاة - يناير ١٩٦٦م - عبارة عن خارطة طريق للوصول إلى مرتبة الألوهية، ولتحقق ذلك فإن المطلوب من السالك أن يجود صلاته، لكنّ محمودًا لم يذكر شيئًا عن تجويد الصلاة في هذا الكتاب؛ ولعله قام باستدراك الأمر لما قام بطباعة كتابه «كيف تصلون»، يقول محمود: «هذا كتاب عن «الصلاة» اسمه: «تعلموا كيف تصلون».. وهو كتاب يشفع كتابنا الأول: «كتاب رسالة الصلاة»، الذي يجري، الآن، في طبعته السادسة..». هذا يعكس مدى بؤس المنهجية لدى محمود، إذ أنه من الطبيعي أن يتعلم الإنسان الصلاة الصحيحة أولاً، ثم يجودها ثانيًا، وأخيرًا يعرج بها للسماء حتى يأخذ شريعته كفاً من الله كما يقول محمود. بؤس المنهجية جعلت محمود يعرض فكرته بهذا الوضع المقلوب، هذه المنهجية ليست غريبة على محمود فقد قال في الطبعة السادسة لكتاب «رسالة الصلاة» أنه اضطر لكفكفة أطراف المقدمة «أما بعد فإن هذه المقدمة قد استفاضت، وكان همي دائماً، وأنا أسير في شعابها، كفكفة أطرافها»^(١). وهكذا استرساله في المواضيع تجعل الفقرات تقوده إلى فقرات أخرى متتالية، ومحمود يمضي خلفها مغمض العينين دون منهجية واضحة، وحين ينتبه يجد أن الموضوع قد تشعب ويحتاج إلى الكفكفة على حد تعبيره. لقد إحتاج إلى الكفكفة في مقدمة كتابه ذلك آنف الذكر، ولكنه كان أحوج ما يكون إليها في متن كتابه الجديد «تعلموا كيف تصلون».

في هذا الكتاب بدأ المدخل في الصفحات ١٣ - ١٦، ثم أعقبت المدخل العناوين التالية: الإنسان منقسم، رفع الحجب، الصلاة وسيلة، طريق العودة، الفكر، رياضة العقول، مستويات التقوى والفرقان، الفكر هو السنة، الصلاة والصوم، الصلاة جلسة نفسية، بين الاعتراف والاستغفار. إنتهى هذا الباب الأول في صفحة ٤٩. وبدأ الباب الثاني وهو المعول عليه في تعليم الصلاة، والتي كتب من أجلها الكتاب صفحة ٥٠

(١) رسالة الصلاة، ص ٥١.

وانتهى في صفحة ٨٧. ثم أعقب هذا الباب بالخاتمة صفحة ٨٧ - ٩٠. يظن القارئ عندها إن الكتاب قد وصل محطته الأخيرة، لكنه يفاجأ بعنوان جديد هو «الصلاة ماتت» في صفحة ٩٠. لعله يذرف الدمع على حاله مع منهجية محمود. لا بأس نكمل هذا العنوان ونطوي صفحات الكتاب. ثم فجأة في صفحة ٩٨ تطل عليه خاتمة أخرى لم يجد محمود حرجاً أن يطلق عليها مصطلحاً جميلاً «خاتمة الخاتمة».

على مدى ٣٧ صفحة علم محمود الناس كيف يصلون «ونحن نحاول، في هذا الباب، أن نبين كيفيتها، لكي تؤدي وظيفتها»^(١). «ولعزة الصلاة، ولصعوبة تمامها، وظف العارفون كل حياتهم في سبيلها.. وكما قلنا، فإنهم إنما من أجلها زهدوا في طيبات الدنيا..»^(٢). لذلك بذلوا لها إستعدادات واسعة «ثم أنهم قد علموا أن الحضور في الصلاة إنما يكون قبل الدخول فيها» وجعل محمود علم هؤلاء العارفين الزاهدين حقيقة، ثم جعلها سبباً لتشريع الطهارة «وإنما من أجل هذه الحقيقة سرعت الطهارة الحسية بالماء، أو بالصعيد قبلها، وجعلت طرفاً فيها»^(٣). من يقول لمحمود أن الطهارة قد فرضت بالقرآن قبل أن يأتي هؤلاء العارفون إلى الوجود ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَا يَكُن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ (المائدة: ٦) ومن يطلعه على أن هذه السورة مدنية؟.

وتحت عنوان صل فإنك لم تصل، جعل محمود من الناس قبل هذا الكتاب

(١) تعلموا كيف تصلون، ص ٥٠.

(٢) تعلموا كيف تصلون، ص ٥٠.

(٣) تعلموا كيف تصلون، ص ٥٠.



كفارًا، وعبادتهم باطلة، ولم تكن لهم صلاة «واعلم أنك لم تكن تصلي، فيما مضى»^(١). وأنت تحتاج إلى توبة لأنك مقبل على عهد جديد وهو عهد مساوٍ للإسلام «وأول ما تبدأ به عهدك الجديد: «التوبة النصوح»^(٢). وتفعل كما يفعل الكفار حين يدخلون الإسلام «ولتوكيد تخليفتك الماضي وراء ظهرك، اغتسل غسل الجنابة، كأنك دخلت الإسلام لتوك»^(٣). الذي يؤمن بالفكر الجمهوري يكون قد دخل الإسلام الذي به عبرة عند الله فيستدعي ذلك الغسل قبل الصلاة.

ثم بدأ محمود يعلم الناس الغسل وآدابه كما عند الصوفية «ولتكون حاضرًا، وتعريت عن ملابسك، وانت في مكان مستور، يستحسن أن تردد كلمات، علمها السر السقطي لابن أخته، وتلميذه، أبي القاسم الجنيد، وهو لم يزل، يومئذٍ، يافعًا.. فإنه قال له: «حين تبدل ملابسك، أو حين تخلعها للحمام قل: الله معي.. الله ناظر إلي.. الله شاهد ولقد ذكر أبو القاسم الجنيد، فيما بعد، وهو زعيم الطائفة الصوفية: أنه ما انتفع بشيء ما انتفع بهذه الكلمات»^(٤). ثم علم الناس الغسل كما في كتب الفقه التقليدي. ولما أراد أن يعلم الوضوء بدأ بآداب الوضوء «وللوضوء آداب، أولها الذهاب لبيت الخلاء للاستبراء من الفضلات ثم السواك»^(٥). ولتعلم الناس الأدب الأول قال: «وعندما تأخذ إبريقك لتذهب «للأدبخانة»، ابدأ بتقديم رجلك اليسرى، وأنت داخل..... إلخ»^(٦). وقد ذكر محمود بقية الآداب كما في كتب الفقه التقليدي وكتب فضائل الأعمال ولم يأت بجديد. الغريب في الأمر أن محمودًا علم تلاميذه دخول «الأدبخانة» وهم في شبابه، في حين أن

(١) تعلموا كيف تصلون ص ٥٠.

(٢) تعلموا كيف تصلون، ص ٥١.

(٣) تعلموا كيف تصلون، ص ٥١.

(٤) تعلموا كيف تصلون، ص ٥١.

(٥) تعلموا كيف تصلون، ص ٥١.

(٦) تعلموا كيف تصلون، ص ٥٢.

الأطفال اليوم يتعلمون دخول «الأدبخانه» في رياض الأطفال، فهم متساوون مع محمود في كيفية دخول «الأدبخانه»، وأفضل من التلاميذ في معرفة كيفية دخول «الأدبخانه». اسألوا جيل القرن الحادي والعشرين ما هو الإبريق، وما هي الأدبخانه؟. محمود الذي ألغى القرآن المدني بكل ما فيه من أحكام وقيم ولغة رفيعة، يريد للناس أن يرتقوا في الحياة بكل شعابها، وأن يرتقوا لمستوى الإنسان الكامل أي يرتقوا إلى الله بلغة الإبريق والأدبخانه.

ولما وصل محمود للصلاة، لم يضع الوقت، فقد وصل الله قبل أن يكمل صلاته «واعلم: أن لكل عبادة هيئة.. ولكل هيئة أدب.. والأدب في العبادة كالروح في الجسد.. ولقد قال بعض العارفين: إن العبد ليصل «بعبادته» إلى «الجنة»، ويصل «بأدبه»، في عبادته، إلى «الله»^(١). ما أسهل القول وما أسهل الوصول. ثم حث على الالتزام بأول الوقت «وبتجويدك هذا الالتزام يرجى لك أن تصل بظاهر شريعتك إلى باطن شريعتك - إلى حقيقتك»^(٢). وهكذا يمضي محمود يحكي ما في كتب الفقه التقليدي وكتب فضائل الأعمال، ويكرر بعض ما قاله من قبل في كتبه عن الصلاة، وبين الفينة والأخرى يدخل كبسولة صغيرة من بنات أفكاره أو بعض ما ذهب إليه زعماء الصوفية أو بعض العارفين المجاهولين.

أراد محمود أن يربط بين الصلاة والصوم ويجعلهما صنوان «ولما كان الصوم صنو الصلاة»^(٣). في كل القرآن لم يكن الصوم مربوطاً بالصلاة. وردت كلمة صيام تسع مرات في القرآن كانت كلها في صوم رمضان أو الكفارات فقط ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣ - مدنية) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ

(١) تعلموا كيف تصلون، ص ٥٦.

(٢) تعلموا كيف تصلون، ص ٥٧.

(٣) تعلموا كيف تصلون، ص ٨٤.



مَثَلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَذَا يَبْلُغُ الْكَعْبَةَ أَوْ كَفَرَةً طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ (المائدة: ٩٥ - مدنية) وكلمة صوم في أحكام الصوم أو صوم مريم عن الكلام ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ (البقرة: ١٨٤ - مدنية) ﴿فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِي عَيْنًا فَاِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَةَ الْيَوْمِ إِنْسِيًّا ﴿٦٦﴾﴾ (مريم: ٢٦ - مكية). وكلمة صائمون وصائمات مرة واحدة كانت في مدح المسلمين المؤمنين ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِمِينَ وَالصَّالِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٥٥﴾﴾ (الأحزاب: ٣٥ - مدنية). بينما كان ارتباط الصلاة بالزكاة قويًا في القرآن في آيت كثيرة منها المدني ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ (البقرة: ٤٣ - مدنية) ومنها المكي حين ربطها بقيام الليل الذي يحبه محمود ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نُقِذْهُمُ لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ (المزمل: ٢٠ - مكية).

هكذا يلوي محمود المعاني قسرًا ليجعل الصوم صنو الصلاة، ويغضض عينه عمدًا عن الزكاة، إنها المنهجية البائسة والإنحياز للرأي بدون قرينة ولا علم. الذي يقرأ اسم الكتاب «تعلموا كيف تصلون» فإنه سيصعد بتوقعاته عنان السماء، وأنه سيجد فيه ما لم يجده في كتاب آخر، إن الذي يقرأ هذا الكتاب بمثل هذه التوقعات يقع في تيارات رياح

الحقيقة التي ستهوي به في مكان سحيق، وربما يقف في نهاية شوط قراءته للكتاب يلهث ويقول «تمخض الجبل وولد فأراً».

الصلاة عند محمود

الصلاة عند محمود صلاتان: صلاة تقليد، وصلاة أصالة، وصلاة، التقليد عنده هي الصلاة الشرعية المعروفة والمألوفة، ذات الحركات المعروفة والأوقات المحددة، وسميت بصلاة التقليد لأن المؤمن يقلد فيها النبي ﷺ، وأما الجمهوريون «من أتباع محمود» فهو يقلد فيها النبي ﷺ إلى فترة ثم يتركها لسقوطها عنه وينتقل إلى صلاة أخرى هي صلاة الأصالة. أما صلاة الأصالة، فهي صلاة من يصل المقام الذي يكون فيه الفرد في صلة تامة وجمعية شاملة بربه وهي صلاة لا ركوع ولا سجود ولا حركات فيها. يقول محمود في كتابه «رسالة الصلاة»^(١):

«الصلاة لها معنى بعيد، ومعنى قريب» ويقول في نفس الكتاب: «الصلاة بالمعنى القريب هي الصلاة الشرعية ذات الحركات المعروفة». ويقول «والصلاة بالمعنى البعيد هي الصلة مع الله بلا واسطة»^(٢).

ويقول محمود في نفس الكتاب كما تقدم: «لقد تحدثنا في آيات سورة «والنجم» التي أوردناها آنفاً عند سدره المنتهى، حيث تخلف جبريل عن المعصوم، وسار النبي بلا واسطة لحضرة الشهود الذاتي، لأن، الشهود الذاتي لا يتم بواسطة... والنبي الذي هو جبريلنا نحن يرقى بنا إلى سدره منتهى كل منا، ويقف هناك كما وقف جبريل حتى يتم اللقاء بين العابد المجود، وبين الله بلا واسطة، فيأخذ كل عابد مجود من الأمة الإسلامية المقبلة شريعته الفردية بلا واسطة فتكون له شهادته وتكون له صلاته وصيامه وزكاته وحجة ويكون في كل أولئك أصيلاً»^(٣).

(١) رسالة الصلاة، ص ٧٠.

(٢) رسالة الصلاة، ص ٧٤.

(٣) رسالة الصلاة، ص ٧٨.



والقول بصلاة الأصالة والتخلي عن الصلاة الشرعية المعروفة، قول باطل وكفر لا شك في ذلك، لأن النبي ﷺ قال «صلوا كما رأيتموني أصلي» وصلى النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، وصلى أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، والإسلام لا يعترف إلا بصلاة واحدة هي التي تلقاها المسلمون عن رسول الله ﷺ

التخير والتسيير عند محمود محمد طه

يسهب محمود كثيرا في هذا الجانب.. ومعظم حديثه هنا هو معرفة لدنية من النوع الذي قال به الصوفية. فالمعرفة اللدنية في النهاية فردية. مثلا يقول محمود: «والتسيير حرية، لأنه يقوم على ممارسة العمل بحرية «مدركة» في مستوى معين، ونفهم أن الإنسان مسير في معني أنه بلا حرية، ولكن / التسيير حرية/ يجعلنا نفهم أن الإنسان مخير. فنختار معه شيئا ما. وهو يقول: فكأن الإنسان مسير من التسيير إلى التخير، لأن الإنسان مخير فيما يحسن التصرف فيه، مسير فيما لا يحسن التصرف فيه، من مستويات الفكر، والقول، والعمل. فيكون المعنى أن الإنسان مسير.. ولكنه مسير إلى التخير.. فنكتشف أنه مخير إذن. وإذا دمجنا العبارتين أفادت أن الإنسان مسير في أن يكون مخير.. يعني مسير إذن. لكنك تجد في آخر العبارة أن الإنسان مسير في أشياء ومخير في أشياء. ثم من هو الله الذي يسيرنا؟ لأن الله في الفكرة الجمهورية مفهوم له تنزلات، فهناك الله - الذات القديمة المطلقة التي لا تسمى ولا توصف، ثم الله في التنزل الذي هو الإنسان الكامل الذي يحاسب الناس يوم القيامة نيابة عن الله الخالق القديم، وفي ذكر بعض أحوال العباد: «فيومئذ لا يكون العبد مسيراً، وإنما هو مخير، ذلك أن التسيير قد بلغ به منازل التشريف، فأسلمه إلى حرية الاختيار، فهو قد أطاع الله حتى أطاعه الله، معاوضةً لفعله.. فيكون حياً حياة الله، وعالمًا علم الله، ومريدًا إرادة الله، ويكون الله»^(١). قضية التسيير والتخير في القدر، وإنما عن قوله: «فيكون حياً حياة الله، وعالمًا علم الله، ومريدًا

(١) كتاب الرسالة الثانية، لمحمود محمد طه - ص ١٠٧

إرادة الله، ويكون الله»، فهذا لا يستند إلى شيء من التأويلات. ويقول في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ، وتلك النفس الواحدة إنما هي نفسه تبارك وتعالى... ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ، ومعلوم أنه لا يتقي الله حق تقاته إلا الله^(١). وقال في الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، ليس معنى ذلك أننا لا نشبهه! بل الحق أننا نشبهه تعالى^(٢).

(١) كتاب الرسالة الثانية، ص ١٦٤

(٢) أسئلة وأجوبة، ص ١٦



الأصول الفلسفية لنظرية الإنسان الكامل عند الجمهوريين:

وحدة الوجود

يرى محمود أن الحقيقة الوجودية واحدة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. وهذه الحقيقة الواحدة عنده هي: المطلق في صرافة ذاته ومراتب تنزلاته حسب زعمه، يقول محمود: « ليس في الوجود إلا الله... والمخلوقات هي مظاهر قدرته... هي قدرته مجسدة... وقدرته ليست غيره، وإنما هي عند التناهي ذاته.. والمخلوقات هي الله... والإنسان طليعتها في ذلك»^(١) تعالى الله علواً كبيراً...

ورغم أن مقولات محمود توحى في ظاهرها أنه يؤمن بوجود واحد هو الله - سبحانه وتعالى - وأن الموجودات هي تعينه في الوجود الخارجي، كما هو الحال، عند أصحاب وحدة الوجود المنتسبين إلى التصوف... إلا أن البحث في مضمون هذه المقولات يقودنا إلى أن محموداً لا يؤمن أصلاً بوجود الله سبحانه وتعالى بالصورة المتفق عليها بين المسلمين!! فالله - تعالى - عنده - هو الإنسان الكامل!! أما مصطلح «الذات المطلقة»، الذي يشير به إلى «الذات الإلهية»، إنما هو مجرد لفظ دون مضمون. «فالذات المطلقة - ذات لا اسم لها أو صفة، بل هي فوق العبارة وفوق الإشارة. ذات يجردها محمود حتى من صفة الإطلاق حين يقول: «إبداء ذات الله لخلقه، إنما يتم عن طريق تقييد الإنسان الكامل للمطلق، فهو في كل لحظة يقيد من المطلق ما به يزيد علمه وتتجدد عبوديته وتتسع حياته».

كما أن اسم الجلالة في شهادة التوحيد - عند محمود - اسم للإنسان الكامل وليس لله تعالى!.

يقول محمود: « لقد جاءت لا إله إلا الله بهذه الصياغة على أتم صورة، فهي من طرف نفي «لا»، ومن الطرف الآخر إثبات «إلا».. وليس الحق في طرف النفي وحده، ولا

(١) اسئلة وأجوبة ط ١ يناير ١٩٧٠م ام درمان، ص ٥٢.

هو في طرف الإثبات وحده، وإنما الحق برزخ بين ملتقى بحري النفي والإثبات. قال تعالى: «مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان». والبرزخ ههنا كلمة الله. فكأنه قال لا إله الا إلهًا هو الله. وإنما الله برزخ بين المطلق في إطلاقه وبين جميع الخلق... وهذا يعني أن أول تنزلات المطلق إلى القيد كان تنزله إلى مرتبة الاسم وهو «الله»... ويقول: « أول مراتب القيد هو مرتبة الاسم، وأول الأسماء «الله»، وهي مرتبة «الذات المحمدية»، التي هي أول قابل للتجليات الإلهية»^(١).

وعند تحليل هذه المقولات تجد إذا كان الطرفان هما «المطلق في إطلاقه» من جانب، «الخلق» من جانب آخر... والحق - حسب زعم محمود - ليس في طرف النفي وحده - أي طرف الخلق... وليس هو في طرف الإثبات وحده - أي طرف المطلق! وإنما الحق برزخ بين ملتقى بحري النفي والإثبات.

وإذا كان محمودًا يزعم من جانب آخر أن هذا البرزخ هو «الذات المحمدية» - الإنسان الكامل.. فهذا يعني إن الحق الذي ليس هو أي من طرفي النفي والإثبات في شهادة التوحيد «لا إله الا الله» - عند محمود - هو في حقيقته الإنسان الكامل!! تعالى الله علوًا كبيرًا.

والإنسان الكامل - كما يدعى محمود - هو الذي قامت به جميع أسماء الله الحسنی وصفاته الواردة في الكتب السماوية وفي القرآن الكريم خاصة!! هو مصدر الوجود، فكل الوجود مستمر فيه! وهو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير!.

ومحمود حين يستخدم مصطلح «الذات المطلقة»، وإن كان يبدو في الظاهر أنه يشير إلى الذات الإلهية، إلا أنه في الواقع إنما يشير إلى «حقيقة الإنسان» التي - كما يزعم - تكمن في سويداء قلبه. و«حقيقة الإنسان» - عند محمود - ليست سوى الكمال المطلق - أي كمال الله سبحانه وتعالى. والذي حال دون اكتشاف الإنسان «لحقيقته» - كما يزعم محمود - هو جهله بالاشياء وخوفه منها نتيجة الأوهام والخرافات التي

(١) القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري، ص ٣٨-٣٩.
شبكة الألوكة - قسم الكتب



ترسبت في عقله. ومحمود هنا يعني خوف الإنسان من آلهة لا وجود لها لأن الألوهية - عنده - في ذات الإنسان وليست خارجها! ولذلك يرى محمود الا سبيل لتحقيق الكمال المطلق للذات الإنسانية إلا بتوحيد بنيتها التي انقسمت على ذاتها نتيجة الكبت والخوف - أي بانفتاح العقل على القلب حيث تكمن الحقيقة الأزلية!! وهذا هو ما يعنيه محمود حين يشير إلى ما وصفه «باللحظة الحاضرة» التي يدعي أن ذات الله فيها - تعالى الله علوًا كبيرًا، يقول محمود: «إن العقل يتأرجح بين طرفين أو نقيضين بغية التوحيد بينهما فيتم له من ثم الاستواء في «اللحظة الحاضرة» وهذه هي الحكمة من خلق الأزواج - كما يقول - لأن العقل لا يدرك الأشياء إلا بأضدادها^(١). والزوجان أو النقيضان - عند محمود - هما أصل الوجود. فالحياة - كما يصورها محمود - تبدأ من المادة غير العضوية التي تترقى حتى تصل مرتبة «الذات الإلهية» وقمة الأزواج - عنده - المادة العضوية التي هي أحد الزوجين والذات الإلهية والتي هي الزوج الآخر!! وهو في ذلك يقول صراحة: « وفي قمة الأزواج الله والإنسان الكامل!! تعالى الله علوًا كبيرًا.

يرى محمود أن توحيد البنية البشرية يتم بانفتاح العقل على القلب كما ذكرنا ونضيف هنا أن آية توحيد البنية البشرية - عنده - هي أن يفكر الإنسان كما يريد، وأن يقول كما يفكر، وأن يعمل كما يقول، ثم لا تكون عاقبة قوله ولا عمله إلا خيرًا وبرًا بالأحياء والأشياء وهذه المقولة تعنى عند محمود - أن يحقق الإنسان حريته المطلقة - أي أن يتحرر الإنسان من القيد ليبلغ مرتبة الكمال المطلق!! فالأصل - عند محمود - الإطلاق، وما القيد إلا لازمة مرحلية. وإنما كان الإطلاق أصلًا، لأن محمودًا لا يرى لترقي الإنسان حدًا يقف عنده!! فنهاية العبد - كما يدعي - كمال الرب تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

صاحب فلسفة الإنسان الكامل والتي يرددها محمود ويحتفي بها في كتبه هو

(١) رسالة الصلاة، ص ٤٨ وما بعدها.

الشيخ عبد الكريم بن ابراهيم الجيلي المتوفي ٨٠٥هـ^(١) ولو أنها برزت عند من تقدمه من فلاسفة الصوفية كابن عربي ومن قبله الحلاج وذو النون المصري وسهل التستري وأبويزيد البسطامي وغيرهم، فالجيلي هو الذي افرد لها كتابا سماه الإنسان الكامل، شرح فيه وفي غيره من الكتب فلسفته شرحا وافيا فلذلك نسبت هذه الفلسفة اليه كما نسبت فلسفة وحدة الوجود لأبن عربي.

والإنسان الكامل عند الصوفية هو «الشخص الذي وصل إلى أعلى درجات الكمال» وهو هذا الكون الجامع، وهو البرزخ بين الوجود والإمكان والمرآة الجامعة بين صفات القدم وأحكامه وبين صفات الحدوث، وهو الواسطة بين الحق والخلق وبه وبمرتبته يصل فيض الحق والمدد إلى العالم علو وسفلا. ويسمى صاحب مقام الإنسان الكامل بالمحقق الذي لا يحجبه جمعه عن فرقه ولا فرقه عن جمعه ويسمى أيضا صاحب مرتبة جمع الجمع. وفي كتاب فصوص الحكم «فما صحت الخلافة إلا للإنسان للكمال فأنشأ فيها صورته الظاهرة من حقائق العالم وصوره، وأنشأ صورته الباطنة على صورته تعالى ولذلك قال فيه « كنت سمعه وبصره»! واستند ابن عربي في شرحه لهذه الفكرة إلى حديث شريف يقول: «كنت نبيا عندما كان آدم بين الماء والطين»^(٢)

والإنسان الكامل عند الجيلي هو الإنسان الذي يبلغ مرحلة الكمال بعد تحقيقه بالحقائق، فكل إنسان مؤهل ليصل لبلوغ مرحلة الإنسان الكامل الذي يطلق عليه الجيلي عبارة «نسخة الحق» وقد زاد الجيلي على أقوال ابن عربي بإضافة الخطوات المطلوبة للوصول إلى الكمال، ويؤكد على ضرورة اتباع ثلاث خطوات هي: البداية «عندما يحصل الإنسان على الخصائص الإلهية»، التواسط «عندما يدرك الكوني والإلهي ويستلم

(١) الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، الشيخ عبد الكريم بن ابراهيم الجيلي، دار الكتب لعلمية، بيروت لبنان، ص ١٤.

(٢) الإنسان الكامل والحقيقة المحمدية، ابن عربي. نسخة محفوظة ٢٣ يناير ٢٠١٨ على موقع واي باك مشين.



المعرفة الكاملة»، المقدرة «آي استعمال موصل اليه للتأثير على المخلوقات بقدرات فائقة»

وهي نفس فكرة محمود: « نفس الإنسان الكامل إنما هي تنزل عن النفس الكاملة - مطلقة الكمال - وهي نفس الله... »^(١)

وهذه النظرية في الفكر الصوفي هي فكرة فلسفية باطنية، كانت رائجة في الأمم السابقة المتصوفة قبل الإسلام، وقد بين المستشرق «هانز هينرش شيدر» أن فكرة الإنسان الكامل بلغت كمال نموها في الغنوص الإسلامي، وهي بدورها تعود في جذورها إلى صورة الإنسان في التفكير الإيراني القديم، والذي كان في الإنسان الأول يؤدي أولاً وظيفة كونية، ويلعب الدور الرئيس في نشأة العالم، ومن خلاله فسرت النظرية الإيرانية القديمة «المجوسية» نشأة الإنسانية بتصوير أسطوري^(٢).

وقد ارتبطت الفكرة في المعتقدات السامية بالمسيح المخلص كما يجد البعض صلات لها مع فكرة المهدي المنتظر في المدارس الشيعية، فالشيعة يعتقدون في سيدنا علي «كرم الله وجهه» أنه الإنسان التام الكامل وأقوالهم في ذلك كثيرة ومستفيضة.

والكثير من الصوفية يصفون النبي ﷺ بـ«الإنسان الكامل»، وهو مرادف لمصطلح «الحقيقة المحمدية» أو «النور المحمدي» عندهم، ويستخدم محمود هذا المصطلح نفس استخدام غلاة الصوفية الآن فالإنسان الكامل موجود على الصورة الإلهية، وهو مرآة الحق، والإنسان الكامل له جانبان: إلهي، وخلقي. له جميع الصفات الإلهية والكونية. والإنسان الكامل يظهر في كل زمان ومكان، وهو واحد، وأكمل ظهور

(١) الغرابة في الدعوة الإسلامية الحديثة، ص ٨ الطبعة الأولى، ١٩٧٥ م.

(٢) الحقيقة المحمدية أم الفلسفة الأفلوطينية - عايض بن سعد الدوسري: «ص: ٢٦٧- ٢٦٨» - "نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين، مصدرها وتصويرها الشعري" تأليف: هانز هينرش شيدر، بحث مرفق ضمن كتاب الإنسان الكامل في الإسلام لعبد الرحمن بدوي.

له هو صورة النبي محمد ﷺ، ثم الأنبياء، ثم الأولياء.

وكل إنسان أصله يكتنز حقيقة «الإنسان الكامل» في نفسه.

وفكرة الإنسان الكامل فكرة مناقضة للإسلام جملة وتفصيلاً لا تجد لها أصلاً في القرآن والسنة، والمتتبع لأصول الأفكار الصوفية عن الإنسان الكامل يجدها ترجع إلى الثقافات الفارسية، والهندية، واليونانية، مع بعض التطوير الذي قام به المتصوفة في حواشي الفكرة، دون أصلها.

عرّف غلاة الصوفية الإنسان الكامل بقولهم: هو الإنسان الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية الكلية والجزئية، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية؛ فمن حيث روحه كتاب عقلي مسمى بأم الكتاب، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات؛ فهو الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية. فنسبة العقل الأول إلى العالم الكبير وحقائقه بعينها نسبة الروح الإنساني إلى البدن وقواه. وإن النفس الكلية قلب العالم الكبير، كما أن النفس الناطقة قلب الإنسان؛ ولذلك يسمى العالم بالإنسان الكبير.

يقول محمود في كتابه «الغربة في الدعوة الجديدة»: «ومن الناحية العملية والتطبيقية فإن إله كل إنسان هو نفسه»^(١) هذا إضافة إلى النص الموجود في كتاب الرسالة الثانية^(٢) «فهو - «العبد» - قد أطاع الله حتى أطاعه الله معاوضة لفعله.. فيكون حياً حياة الله ومريداً وقادراً قدرة الله.. ويكون الله.. وليس لله تعالى صورة فيكونها ولا نهاية فيبلغها وإنما يصبح حظه من ذلك أن يكون مستمر التكوين» أ هـ. وأن لا يكون لله صورة يكونها العبد نفي للكينونة نفسها لأنه لا كينونة للأعراض واستمرارية التكوين عرض مستحيل وليس جوهرًا ثابتًا وقول محمود وليس لله صورة يكونها العبد هدم لقوله السابق «ويكون الله» ثم هل يصبح من حظي باستمرارية التكوين موصوفاً بكونه الله؟

(١) رسالة الصلاة، ص ٧٠.

(٢) الغربة في الدعوة الجديدة، ص ٩.



وهناك نصوص من كتابه رسالة الصلاة تؤيد التخلي عن صلاة التقليد عند وصول مرحلة الإنسان الكامل، والإنسان الكامل ضلالة قديمة ابتدعها الزنادقة قديماً وحاربها المسلمون ولكنها ظهرت مرة أخرى في كتاب محمود «أدب السالك»^(١) حيث يقول: «فالله تعالى إنما يعرف بخلقه، وخلقه ليسوا غيره وإنما هم هو من تنزل، هم فعله ليس غيره وقمة الخلق وأكملهم في الولاية هو الله والإنسان الكامل وهو صاحب مقام الاسم الأعظم «الله» فالله اسم على الإنسان الكامل...». ثم يكرر هذه العبارة في عدة صفحات من الكتاب. والحديث أعلاه يخالف المعلوم من الدين بالضرورة فالتصور السليم للذات الإلهية «ليس كمثله شئ» فالله سبحانه وتعالى واحد في ذاته وصفاته متميز عن خلقه ولا يشاركه أحد ولا يشابهه أحد لا الإنسان الكامل ولا غيره وفكرة الإنسان الكامل تترد في كثير من كتابات محمود حتى أن بعض الجمهوريين يعتقد الآن بعودته بعد موته «كما قال بروفيسور البوشي في حوار بهمجلة الدستور» لأنه وصل مقام الإنسان الكامل.

فالإنسان الكامل هو الله وهو المسيح المحمدي. كما ورد في كتابه «الموالم الثلاثة»^(٢) «وهكذا يجيء المسيح بالعلم بحقائق الدنيا والآخرة مجسداً ومعاشاً بين الناس ذلك هو خليفة الذات على سائر العوالم.. والخليفة هو الوكيل وهو إنما يخلف الذات الإلهية في تدبير الوجود وفي سوقه إليه.. ثم أن المسيح مما بلى الخلائق موصوف بصفات العظمة لأنه مدبرها المستغني عنها كالقاهر والمهيمن».

وغير هذا النص أيضا في كتابه «التقليد والأصيل والاصلاء» «فأعلم الناس بالله وأكثرهم تحقيقاً بالأصالة والفردية يكون بين جميع الناس وبين ذات الله في إطلاقها.. وهذا هو الإنسان الكامل والذي يتحقق بمقام الاسم الأعظم «الله» ومقام هذا «الإنسان الكامل» وهو مقام الوسيلة وبتحقيق هذا المقام تتحقق خلافة الأرض وهو مقام المسيح

(١) أدب السالك - محمود محمد طه - ص ٨ - بدون تاريخ.

(٢) الموالم الثلاثة - محمود محمد طه - ص ٣٣.

المحمدي الموعود» ويواصل في نفس الكتاب «فصاحب هذا المقام تحقق بأخلاق الله وأخلاق القرآن فقد تحقق بالاحدية وبالواحدية ومعنى الأحد هو الذي لا يجيء من مثله ولا يجيء منه مثله.. أو هو الذي «ليس كمثله شيء» ومعنى الواحد هو الذي لا ينقسم، فصاحب المقام المحمود هو في نفسه واحد وفي مقامه واحد.. وتجسيد هذا المقام على الأرض إنما يتم بظهور المسيح المحمدي»..^(١)

يقول الله سبحانه ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٧).

التطور التاريخي والفلسفي لنظرية الإنسان الكامل:

نظرية الإنسان الكامل كما تبين لنا خلال البحث في حقيقة الفكر الجمهوري هي جوهر «الفكرة الجمهورية» وأصلها الذي انبت عليه.

وقد أشرنا إشارة عابرة خلال البحث إلى أن جذر النظرية يضرب في أعماق الماضي البعيد... ورأينا إتماماً للفائدة أن نفصل القول في التطور التاريخي والفلسفي لهذه النظرية، ونبدأ بطرح سؤالين هما:

هل من الممكن تحديد التطور التاريخي والفلسفي لفكرة ما؟! وهل التشابه بين فكرتين يعني بالضرورة إن الأخيرة تأثرت من حيث الواقع بالأولى ومن ثم تعتبر طوراً متأخراً لها؟!

لعل من الصعب جداً الإجابة على هذين السؤالين خاصة بالنسبة للأفكار التي قد يعود أصلها إلى عصور قديمة موعلة في القدم.. بل أن الأمر يزداد صعوبة إذا ما كانت هذه الأفكار تتسم بالذاتية - كتلك التي يدخل فيها الذوق كمكون أساسي لها.

(١) التقليد والأصيل والأصلاء، ص ١٥.



وإذا كان الباحث يعتمد في ربط الأفكار بعضها ببعض على وجود عناصر متشابهة في تلك الأفكار فإن هذا لا يعني بالضرورة أن عملية تأثير وتأثر قد تمت بين هذه الأفكار في الواقع.. فهذه نتيجة يتعذر إثباتها أو نفيها كما سنرى... وهذا يعني لدينا أنه لا سبيل إلى إثبات التطور التاريخي والفلسفي لفكرة ما إلا من ناحية منطقية فقط - إذا ما اعتبرنا التشابه في أطوارها المختلفة - وليس من ناحية واقعية.

خذ مثلاً مبدأ الشورى في الاسلام... وقد اتخذناه مثالاً لأنه معلوم المصدر لدينا وهو القرآن الكريم كما أنه لم يكن تطويراً لأية فكرة تضرب جذورها في الماضي... فإذا بحث أحدهم في هذا المصطلح كفكرة تقرر مبدأ الحرية والأغلبية وغير ذلك من عناصر الشورى باعتبارها فكرة مجهولة الأصل.. فقد يقوده البحث إلى ذات الأطوار التي تقلب فيها مصطلح الديمقراطية للتشابه القائم بين الشورى والديمقراطية في بعض العناصر...

فإذا سلمنا بأن التشابه بين فكرتين يعتبر دليلاً علمياً على عملية تأثر وتأثير بينهما في الواقع، لقررنا أن هذا الباحث قد سار في الاتجاه الصحيح وأن هذا المبدأ الاسلامي - الشورى - يعود إلى ذات الأصول القديمة التي يعود اليها مصطلح الديمقراطية!! مع إننا - كمسلمين - نعلم أن هذا الباحث قد تنكب الطريق إلى أصل هذا المصطلح!! غير أننا لم نعلم ذلك وفقاً لمقاييس علمية محددة يمكن حسم الخلاف بها في مثل هذه الأحوال - فهو أمر يصعب نفيه أو إثباته - كما ذكرنا - وإنما الذي قادنا إلى هذا اليقين هو الوحي الإلهي الذي نعلم أنه لا يستمد من غيره! وخلاصة هذا أن التشابه بين عناصر فكرتين لا يعتبر دليلاً على عملية تأثير وتأثر تمت بين هاتين الفكرتين في الواقع.

إذا كان هذا فيما يتعلق بوقائع أقل تعقيداً - كالتي ذكرناها - فما بالنسبة بالوقائع الأكثر تعقيداً! وقائع يعتمد أصحابها أذواقهم كمصدر وحيد وأساسي لها، كما هو الحال في الوسط الصوفي. والحق أنه: لا يمكن إثبات تأثر وقائع كهذه بوقائع سبقتها سواء من الناحية التاريخية - حيث إن الاختلاف في مصدر الواقعة يفقد عملية «التأثير والتأثر» أهميتها التاريخية - أو من الناحية الواقعية، طالما أن هذه الوقائع يتدخل فيها العنصر

الشخصي الذي يحول دون الإثبات أو النفي من هذه الناحية... فلا يبقى إذن سوى الإثبات أو النفي من ناحية منطقية فقط - نعني تقييم الترابط بين الأطوار المتشابهة وما كان من أمر تأثرها وتأثيرها باعتبارها ترابطاً منطقياً صرفاً، بغض النظر عن حقيقته في الواقع - وهذا هو ما سيكون منهجنا في بحث التطور التاريخي والفلسفي لنظرية الإنسان الكامل.

نظرية الإنسان الكامل بين الحلاج وابن عربي:

الحلاج هو أبو المغيث الحسين بن منصور المعروف بالحلاج الصوفي المشهور توفي ٣٠٩هـ. وقد اختلف العلماء في أمره فمنهم من عده حلولياً ومنهم من اعتذر عن أقواله التي صدرت عنه، أما ابن عربي فهو أبوبكر محمد بن محمد بن علي الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين توفي ٦٣٨هـ. والناس بالنسبة لابن عربي ثلاث فئات: فئة مكفرة له لمخالفته للشرع وفئة غلت فيه واعتقدت في ولايته غير أنها تحرم كتبه وفئة ازدادت غلواً في أمره حيث عدته من أكابر الأولياء وأفاضل المجتهدين. وأهل السنة والجماعة يشكلون الفئة الأولى حيث يرون أن ابن عربي انحرف عن الدين وجاءت أقواله في «وحدة الوجود» مخالفة لعقيدة المسلمين.

مصطلح «الإنسان الكامل» والذي بلغ غايته على يد ابن عربي ومن بعده تلميذه عبد الكريم الجيلي توفي ٨٠٥هـ هو عند ابن عربي: «المختصر الشريف والكون الجامع لكل حقائق الوجود الحقية والخلقية». وإذا كانت نظرية «الإنسان الكامل» قد اكتمل نموها على يد ابن عربي إلا أن صيحة «الحلاج» المشهورة «أنا الحق»^(١) والتي جمع فيها خلاصة مذهبه كانت هي المقدمة المباشرة لهذه النظرية كما سيأتي بيانه. وصيحة الحلاج «أنا الحق» والتي انطلقت منها أخطر نظرية في الحقل الاسلامي كانت بمثابة ثغرة في الوسط الاسلامي لن يسدها الا رأس الحلاج كما قال أبو القاسم الجنيد إمام

(١) يقول الحلاج: أنا الحق والحق للحق لابس ذاته فما ثم فرق، أنظر أخبار الحلاج: تحقيق:

ل. ماسنيون، وب. كراوس، مطبعة القلم باريس ١٩٣٦م، ص ١٠٨.



طائفة الصوفية والذي توفي ٢٩٧هـ. ويقول بعض الباحثين إن الشجرة قد فتحت بالفعل غير أن رأس الحلاج لم يسدها بل أن إمكانية التعبير عن هذه الفكرة قد تفتحت أكثر بعد الحلاج لتبلغ الذروة. لدى ابن عربي الذي يقول مقررًا مذهبه في «وحدة الوجود» و«الانسان الكامل»: «فما أنت هو، بل أنت هو وتراه في عين الأمور مسرحًا»، ويقول: «فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا وليس خلقًا بذلك الوجه فأذكروا» ويقول أيضًا «فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبد»^(١).

ولما كانت «أنا الحق» التي نطق بها الحلاج، قد أحدثت صدمة قوية في الوسط الاسلامي في ذلك الوقت، فإن هذه العبارة المشهورة لم تترك دون بحث وتحليل فالآراء تباينت حولها... هل كانت صحيحة جذب، فني صاحبها عما سوى الله، في لحظة وجد وسكر صوفي، فلم يستشعر في الوجود سوى الله - سبحانه وتعالى - كما كان حال سلفه أبي يزيد البسطامي المتوفي سنة ٢٦١هـ والذي كان صاحب غيبة وشطحات صوفية غريبة، من مثل قوله سبحانه! أم أن الحلاج يعبر بصيحته «أنا الحق» عن اتجاه حلولي يؤمن بحلول الخالق في المخلوق!! كما تؤمن النصارى بحلول الله - سبحانه وتعالى - في المسيح عليه السلام!! اختلف الباحثون حول هذه المسألة ولاختلافهم ما يبرره، ذلك أن أقوال الحلاج وأحواله تضطرب بين الاتجاهين.. فمن اعتذر للحلاج وعدّ قوله «أنا الحق» صحيحة وجد وجذب صوفي، نظر في أقواله وأحواله التي تفيد نفيه لأي شكل من أشكال الحلول! ومنها - على سبيل المثال لا الحصر - قوله الذي نقله أحمد بن فاتك: «من ظن أن الإلهية تمتزج بالبشرية، أو البشرية تمتزج بالإلهية فقد كفر». ولعل هذه المقولة وغيرها هي التي دعت القاضي ابن سريج ت ٣٠٦هـ إلى التوقف عن الحكم بكفره حين طلب منه الواسطي أن يفتيه في شأن الحلاج^(٢). أما الإمام الغزالي ت ٥٠٥هـ،

(١) فصوص الحكم، والتعليقات عليه، محي الدين بن عربي، بقلم الدكتور أبو العلا عفيفي، الجزء الأول، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان، ص ٧٠/٧٩/٨٣.

(٢) أخبار الحلاج، ماسينيون وكراوس، ص ١٠٧.

فإنه يعتقد أن أمثال الحلاج قد وقعوا فيما حمل منهم على أحوال الأولياء الشاغلة عن التحفظ في المقال، فقال بعضهم «سبحاني» وقال الآخر «ما أعظم شأني» وقال الحلاج «أنا الله» و«ما في الجبة إلا الله». وقد عدّهم البعض سكارى وقال «مجالس السكارى تطوى ولا تحكى».

وإذا كان الغزالي قد اعتذر عن الحلاج وغيره بسكرهم الذي وقع دونه سلطان عقولهم، فإن الحلاج لم ينج من سخط المسلمين وثورتهم عليه واتهامهم إياه بالكفر والزندقة وذلك يعود إلى أقواله التي توحى بذلك ومنها:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحنُ روحان حللنا بدنا

وقوله:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنى لاهوته الثاقب

وقوله:

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمر بالماء الزلال^(١)

والحلاج الذي لا يزال مادة حية لدراسة الباحثين من المحدثين فهو لا يزال أيضاً موضع اختلافهم كما كان الحال بالنسبة لسلفهم. واعتقاد الحلاج هذا يتصل بنظريته في «النور المحمدي» أو بتعبير آخر «الحقيقة المحمدية». تلك النظرية التي يرى فيها الحلاج أن شخص النبي ﷺ ليس سوى المظهر لهذه «الحقيقة المحمدية» التي تجلت فيه وفي غيره من الرسل والأنبياء والأولياء. يقول الحلاج - فيما نسب إليه - عن «النور المحمدي» وعلاقته بأنوار النبوة «من نوره برزت وأنوارهم من نوره ظهرت إلى أن يقول همته سبقت الهمم ووجوده سبق العدم واسمه سبق القلم لأنه كان قبل

(١) هذه الأبيات وردت في ديوان الحلاج وطواسينه، انظر د. عبد القادر محمود: الفلسفة الصوفية في الاسلام مصادرها ونظرياتها ومكانها من الدين والحياة، دار الفكر العربي،



الأمم»^(١).

ويلاحظ أن هذه النظرية تشير إلى أن أول شيء خلقه الله تعالى «الروح المحمدي» أو «النور المحمدي» الذي ظهر بصورة آدم ثم بصورة كل نبي بعده.

ابن عربي ونظرية الإنسان الكامل

إذا كانت «أنا الحق» التي نطق بها الحلاج قد جمعت خلاصة مذهب أقصى ما يمكن أن يقال عنه أنه مذهب حلولي يعترف بثنائية الخالق والمخلوق، حيث يفرق الحلاج بين ما اصطلاح عليه «باللاهوت» و«الناسوت» للذين لا يتحدثان عنده أبداً وإنما يمتزجان كما تمتزج الخمر بالماء... فإن ابن عربي - خلافاً لذلك - يؤمن بأن الحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها وذاتها، متكررة بصفات واسمائها ومن ثم فهو يعتبر ما اصطلاح عليه «باللاهوت» و«الناسوت» مجرد وجهين لهذه الحقيقة الوجودية الواحدة... وبهذا يقرر ابن عربي مذهبه في «وحدة الوجود» وهو مذهب يعبر عنه ابن عربي بقوله: فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا وليس خلقاً بذاك الوجه فاذكروا من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته وليس يدره الا من له بصر جمع وفرق فإن العين واحدة وهي الكثير لا تبقى ولا تذر^(٢) ومذهب وحدة الوجود - كما يقول بعض الباحثين - لم يستكمل صياغته في الوسط الإسلامي ولم يعرض العرض الكامل إلا في القرن السابع الهجري، وعلى يد ابن عربي الذي اتخذه أساساً لدرسه وبحثه وبنى عليه آراءه كلها في كتابيه: «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم».

يقول ابن عربي مفصلاً نواحي مذهبه: «الحق المنزه هو الخلق المشبه، وإن كان قد تميز الخلق من الخالق، فالأمر «الخالق المخلوق والأمر المخلوق الخالق. كل ذلك

(١) انظر: الفلسفة الصوفية في الاسلام مصادرها ونظرياتها ومكانها من الدين والحياة، د. عبد القادر محمود، دار الفكر العربي، مايو ١٩٦٦م، ص ٣٨.

(٢) فصوص الحكم والتعليقات عليه، محي الدين بن عربي، ص ٧٩.

من عين واحدة... بل هو العين الواحدة وهو العيون الكثيرة»^(١)!! ووجود الكثرة عند ابن عربي ليس في الذات، وإنما هو في الاسماء، وهي النسب، وهي أمور عديمة وليس إلا العين الذي هو الذات فالعين واحدة من المجموع في المجموع.

وهذا يعني أن الحقيقة - عند ابن عربي - واحدة وإن تكثرت بالصور والتعينات، بل إن تكثرها بالصور تكثر وهمي قضى به حكم العقل القاصر^(٢).

والعلاقة بين الوحدة والكثرة تتضح أكثر في مذهب ابن عربي إذا ما علمنا ابتداءً أن «الخلق» عنده ليس إيجاد من عدم، بل هو قبول الفيض - التجلي الدائم الذي لم يزل ولا يزال^(٣) - هذا التجلي يعبر عنه ابن عربي بقوله «ولولا سريان الحق في الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجود»^(٤)، فكلمة «سريان» تشير هنا إلى هذا «الفيض» أو «التجلي الدائم». ولما كانت الصور الكونية هي المجالي التي تظهر فيها الأسماء الإلهية، كل حسب استعدادة لقبول الفيض الالهي فقد اقتضى الأمر كما يقول ابن عربي أن يظهر جميع ما في الصور الإلهية في النشأة الإنسانية فحازت بذلك رتبة الإحاطة والجمع بهذا الوجود^(٥).

بهذا يدخل بنا ابن عربي إلى نظريته في الإنسان الكامل والتي هي ثمرة نظريته في وحدة الوجود ومراتبه... فلما شاء الحق سبحانه وتعالى - حسب زعم ابن عربي - من حيث أسمائه الحسنی التي لا يبلغها الاحصاء أن يرى أعيانها وإن شئت قلت أن يرى عينه في كون جامع يحصر الأمر كله... اقتضى الأمر جلاء مرآة العالم، فكان آدم عين جلاء تلك المرأة وروح تلك الصورة وكانت الملائكة من بعض قوى تلك الصورة التي هي

(١) فصوص الحكم، محي الدين بن عربي، ص ٧٨.

(٢) تعليقات د. أبو العلا عفيفي علي فصوص الحكم، ص ٤٩ / ٥٠.

(٣) فصوص الحكم، محي الدين بن عربي، ص ٤٩.

(٤) فصوص الحكم، محي الدين بن عربي، ص ٥٥.

(٥) فصوص الحكم، محي الدين بن عربي، ص ٥٠.



صورة العالم^(١)، ولذلك قال في خلق آدم الذي هو البرنامج الجامع لنعوت الحضرة الإلهية التي هي الذات والصفات والأفعال «إن الله خلق آدم على صورته» وليست صورته سوى الحضرة الإلهية... فأوجد في هذا المختصر الشريف الذي هو الإنسان الكامل جميع الأسماء الإلهية وحقائق ما خرج عنه من العالم الكبير المنفصل وجعله روحًا للعالم فسخر له العلو والسفل لكمال الصورة!!^(٢) تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ويرى ابن عربي أن الخلافة لا تصح إلا للإنسان الكامل وذلك لكمال نشأته التي جعلت منه إنسانًا وخليفة، أما إنسانيته فلعوموم نشأته وحصره الحقائق كلها فهو للحق بمنزلة إنسان العين من العين... إلى أن يقول فهو الإنسان الحادث الأزلي والنشء الدائم الأبدي والكلمة الفاصلة الجامعة قيام العالم بوجوده^(٣) - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ومصطلح الإنسان الكامل عند ابن عربي لا ينطبق إلا على الأنبياء والأولياء خاصة دون غيرهم من سائر أفراد البشرية... ودرجات هؤلاء الأنبياء والأولياء تتفاوت في الكمال، وأكملهم محمد ﷺ.

وإبن عربي لا يعني بمحمد ﷺ هنا شخص النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وإنما يعني ما اصطلاح عليه «بالحقيقة المحمدية»، ولعل ذلك يتضح من عنوان «الفص» الذي ضمنه كتابه «فصوص الحكم» وهو «فص حكمة فردية في كلمة محمدية» فمن بين ما تعنيه كلمة محمدية -وفقًا لمذهب ابن عربي- «هو الحقيقة المحمدية»^(٤). والحقيقة المحمدية عنده، هي «كمال الحضرة الإلهية». وابن عربي يرى أن الأصل واحد

(١) فصوص الحكم، محي الدين بن عربي، ص ٤٩.

(٢) فصوص الحكم، محي الدين بن عربي، ص ١٩٩.

(٣) فصوص الحكم، محي الدين بن عربي، ص ٥٠.

(٤) راجع بحث حول الكلمة الإلهية - للدكتور أبو العلا عفيفي، نشر بمجلة الآداب بالقاهرة

وهو «الحقيقة المحمدية» التي يتعدد ظهورها بتعدد الصور التي تتعين فيها... ومحمد وآدم - عليهما السلام - ما هما إلا مظهران لهذه الحقيقة! فالمقام المحمود - وهو عند ابن عربي - مقام تجلي «الحقيقة المحمدية» أقيم فيه آدم - عليه السلام - في الدنيا كما سيقام فيه - محمد ﷺ - في الآخرة. والمقام المحمود عند ابن عربي هو كمال الحضرة الإلهية.

هكذا نجد أن عناصر حلاجية تأخذ طريقها إلى مذهب ابن عربي... ففكرة «النور المحمدي» أو «الحقيقة المحمدية» التي قال بها الحلاج تعود للظهور مرة أخرى بصورة تتفق مع مذهب ابن عربي. ولكن من أين استقى الحلاج تلك الفكرة أعني «أزلية النور المحمدي»؟! إننا نرى أن المدخل المباشر لهذه الفكرة كان شيعياً! ذلك أن الاعتقاد بأزلية الوجود المحمدي - كما يقول المستشرق الإنجليزي نيكلسون^(١) - قد ظهر في عصر مبكر جداً عند الشيعة. وقد ذكر أتباع هذه النظرية أن أول شيء خلقه الله هو الروح المحمدي أو النور المحمدي الذي ظهر بصورة آدم ثم بصورة كل نبي بعده حتى ظهر أخير في صورة النبي محمد نفسه. وأنه استمر يظهر بعده في صورة على وآل بيته كما هو مذهب الشيعة.

الشيعة وأزلية النور المحمدي:

كان عبد الله بن سبأ زعيم السبئية التي ينتسب إليها التشيع هو أول من بذر هذه الفكرة الخطيرة - أزلية النور المحمدي أو الروح الإلهي الذي ينتقل من دور إلى دور - في الحقل الإسلامي. وهو يهودي من اليمن أظهر الإسلام وكان وراء كل الفتن خاصة في عهد عثمان ومن بعده علي - رضى الله عنهما - وقد أخذ ابن سبأ والذي نفاه علي رضى الله عنه إلى المدائن في إدخال آراء وأفكار غالية تركت آثارها في الوسط الإسلامي ومنها أنه كان يزعم أن في علي - رضى الله عنه - جزءاً إلهياً وأنه لم يميت كما قال برجعتة. وهذه الأفكار السبئية عبرت عنها حركة الإسماعيلية الباطنية من خلال رسائل

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه، رينولد نيكلسون، ط / ١٩٤٨م، ص ١٥٩.



أخوان الصفا باعتبارهم المدرسة الفلسفية لهذه الحركة. وأخص من هذه الرسائل تلك التي خصصوها للبحث في نظرية الانسان المطلق الكلي...

إن هذا الغلو الباطني لم يتوقف عند هذا الحد بل أنه أسفر عن وجهه من جديد في عصرنا هذا من خلال ما يعرف «بالبابية» و«البهائية»!! والبابية نحلة^(١) تنتسب إلى «الباب» وهو لقب «ميرزا علي محمد» الذي نشأ في شيراز بجنوب إيران وادعى هذا الميرزا أنه المهدي المنتظر سنة ١٢٦٠هـ مما أدى إلى إعدامه صلباً عام ١٢٦٥هـ. ثم قام بعده ميرزا حسين علي الملقب «ببهاء الله»!! أحد أتباعه - يدعو إلى نفسه ويزعم أنه هو الموعود أي المهدي المنتظر - فقبل دعوته أكثر البابيين وتسموا بالبهاءيين!! وبقي البهاء بعكة التي نفته إليها الحكومة العثمانية إلى أن هلك عام ١٣٠٩هـ فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس الذي لقبوه «بعبد البهاء» فآخذ يدعو إلى هذا المذهب ويتصرف فيه كما يشاء. غير أن اصحاب البهاء رفضوه والتفوا حول أخيه «الميرزا علي».

الإنسان الكامل عند البهائية:

تتلخص عقيدة البهائية في أن الحقيقة الإلهية مجرد صرف، لا اسم لها أو وصف أو ذكر - أي أنها غيب مجهول ومن ثم تعينت في الوجود الخارجي لتعرف. وأول تعين لها هو «النقطة الأولى» فهي المجلي والمظهر الكامل الذي تعين فيه الحقيقة الإلهية - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وتفسير هذا عندهم أن النقطة الأولى هي انتقال الحقيقة الإلهية من مرتبة التجريد والإطلاق والغيب إلى مرتبة التعيين والقيد والشهود^(٢) - تعالى الله علواً كبيراً.

وأكمل مجالي «الحقيقة الإلهية» من حيث أسمائها وصفاتها عند البهائية هم الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - والأولياء الصالحون. وأما ما عداهم فتتجلى فيه

(١) حقيقة البهائية، الشيخ محمد الخضر حسين، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، ط ١٤٠٧هـ.

(٢) حقيقة البهائية، الشيخ محمد الخضر حسين، سابق، ١٤٠٧هـ.

«الحقيقة الإلهية» ببعض ما لها من أسماء وصفات حسب استعداد كل منهم للتجلي وقابليته له^(١). والبهائية تصل إلى عين فلسفتها ومزاعمها الفاسدة هذه حينما تزعم أن البهاء هو المجلي الكامل للحقيقة الإلهية.

ولعلنا نلاحظ الشبه الشديد بين عقيدة البهائية هذه وعقيدة الجمهوريين في الإنسان الكامل. فإذا كان البهاء هو المجلي الكامل للحقيقة الإلهية عند البهائيين فمحمود هو الإنسان الكامل عند الجمهوريين والذي هو أصل الوجود وغايته كما يزعم محمود وأتباعه.

نعود لسؤال مرة أخرى عن الأصل الأجنبي خارج الوسط الإسلامي لنظرية الإنسان الكامل؟! كان ينبغي أن نرد هذا الجذر الأجنبي إلى عناصر نصرانية أو أفلاطونية محدثة لما لاحظناه من تأثير هذين الأصلين على الحلاج والإسماعيلية الباطنية؛ مثلاً استخدام الحلاج لمصطلحات المسيحيين «اللاهوت والناسوت»، أو تأثير نظرية الفيض عند أفلوطين على العقيدة الإسماعيلية التي يبرزها إخوان الصفا في رسائلهم حيث يشيرون إلى أن العالم عبارة عن جسم واحد فتهياً لقبول الفيض من بارئه سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً... غير أن الأبحاث الحديثة تضع أيدينا على جذر أكثر إغفالاً في القدم. فالمستشرق الألماني هينرش شيدر يرفي بحث له بعنوان «الإنسان الكامل عند المسلمين»^(٢)، أن فكرة الإنسان الكامل تعود في ختام المطاف إلى صورة «الإنسان الأول» في التفكير الإيراني العتيق. واسمه في السلسلة الطقوسية «جيا مرتين» أي «الحياة الفانية» أما اسمه الذي ورد في «البندهشن» - كتاب التكوين - فهو «جيو مرد» أو «كيو مرث» كما هو في الترجمة العربية. والإنسان الأول - كما يعتقد شيدر - يؤدي في

(١) البهائية تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية، عبد الرحمن الوكيل، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، ط ٢ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، ص ١٩٨-١٩٩.

(٢) راجع نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين مصدرها وتصويرها الشعري، هانز هينرش



المنقول الإيراني وظيفة كونية ولم يتخذ بعد صبغة دينية أو بتعبير أدق صبغة «خلاصية» الأمر الذي تم في «المانوية» حيث تنحو نظرية الإنسان الأول منحاً صوفياً خلاصياً، فأصبح الإنسان الأول هو النموذج الأول للنفس القائمة بين العالم العلوي النوراني وبين الهولي الظلمانية، صادرة عن الأول مقيدة في هذه الأخيرة: فالإنسان الأول في ديانة ماني هو كائن ذو طبيعة الهية يمثل بوصفه نموذجاً أول للإنسانية – مجموع النفوس.

وإذا سألنا المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون^(١) رأيهِ فيما يقرره «شيدر» حول الأطوار التي قطعتها نظرية «الإنسان الكامل» فإنه يرى – خلافاً لشيدر – أن فكرة الإنسان الأول ليست آرية الأصل وإنما نشأت هذه «الفكرة» في الرؤى السامية فهي عنده فكرة «عبد يهوا» أي فكرة العادل المبتلى بالآلام والذي يكشف الرد الظافر لكرامته إليه في نهاية الأزمان سر «مجد العادل» على حد تعبيره.

هكذا نصل برحلتنا مع مصطلح «الإنسان الكامل» نقطة النهاية التي تتصل بجذور سامية أو آرية حسب الاختلاف في الآراء. تلك الرحلة التي كنا قد جعلنا ابن عربي نقطة الانطلاق لها وما ذلك إلا لأن البناء المذهبي لنظرية الإنسان الكامل لم يكتمل إلا على يديه كما أشرنا إلى ذلك.

و«الإنسان الكامل» بمعناه الاصطلاحي الذي بيناه خلال بحثنا هذا لا وجود له في التصور الإسلامي، بل إن دين التوحيد الذي بعث الله تعالى به رسله الكرام للناس كافة، يقوم على إبطال مثل هذه الدعوى.

وإذا ما استخدمنا العقل بعد النقل فإننا نتساءل: كيف يجوز عقلاً أن يكون الإنسان إلهاً أو الإله إنساناً؟! أن هذا يستحيل عقلاً لأن الألوهية تقتضي صفات الكمال المطلق في حين أن الإنسان يفتقر إلى هذا الكمال! إذن كيف تسربت النظرية إلى التفكير الإسلامي والذي تشكل عقيدة التوحيد أساساً له؟! إننا وإن كنا لا نستثني المؤثرات الأجنبية إلا أننا لا نستطيع تجاوز بعض المؤثرات الداخلية. ومن هذه المؤثرات عدم

(١) الإنسان الكامل في الاسلام وأصالته النشورية، ماسينيون، ص ١٠٨، ١٠٧، ١١٥، ١١٤.

الفهم الصحيح لنصوص الكتاب والسنة بجانب عدم التمييز بين حديث صحيح وآخر ضعيف أو موضوع.

فالذين قالوا بأزلية النور المحمدي - مثلاً - انطلقوا من حديث موضوع جاء فيه «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين». وقد ذكر أصحاب هذه النظرية أن أول شيء خلقه الله تعالى هو الروح المحمدي أو النور المحمدي الذي ظهر أخيراً في صورة النبي محمد عليها فضل الصلاة والسلام نفسه. غير أن أهل السنة لا يقرون بأن أول شيء خلقه الله تعالى هو ما يعرف عند أولئك بالروح المحمدي أو النور المحمدي!! بل يجمعون على أن أول شيء خلقه الله تعالى هو القلم. وذلك بالرجوع إلى الحديث الشريف «إن أول شيء خلقه الله تعالى القلم وأمره أن يكتب كل شيء يكون» (رواه أبو يعلى والبيهقي).

وقد ذكر محمد ناصر الدين الألباني هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة وعقب عليه بقوله «وفي الحديث إشارة إلى ما يتناقله الناس حتي صار ذلك عقيدة راسخة في قلوب كثيرة منهم وهو أن النور المحمدي هو أول ما خلقه الله تبارك وتعالى. وليس لذلك أساس من الصحة».

أما شيخ الاسلام ابن تيمية فيذكر أن الحديث الموضوع «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» لا أصل له، لا من نقل أو عقل.. ثم يقول «هؤلاء الضلال يتوهمون أن النبي صلي الله عليه وسلم كان حينئذ موجوداً وأن ذاته خلقت قبل الذوات ويستشهدون على ذلك بأحاديث مفتراة مثل حديث فيه أنه كان نوراً حول العرش».

القرآن الكريم عند محمود

يقول محمود: «الموسيقى أسمى الفنون وأعلاها وأقدمها وهي في حقيقتها القديمة هذا اللحن العلوى الذي تحرك في سلمه السباعي يحكي منازل الإنسان وهو يسير في طريق الاغتراب... ثم يحكيها وهو يسير في طريق الرجعي إلى الوطن القديم...»



هذه الحركة المحكية في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(١) تُرَدِّدَنَّهُ أَفْقَلْ سَافِلِينَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٢).

ويقول محمود في موضع آخر عن القرآن الكريم «هو هو اللحن العلوي المنطلق يرسم طريق صدور الانسان من منبعه وطريق رجوعه إلى مصبه - الذات الإلهية»^(٢).

فإذا كانت الموسيقى في حقيقتها القديمة هي اللحن العلوي كما يزعم محمود وإذا كان القرآن الكريم عنده هو هو اللحن العلوي أولاً تؤدي هذه المقدمات إلى أن الموسيقى في حقيقتها القديمة - كما يزعم محمود - هي القرآن الكريم!! وإذا كانت الموسيقى عنده - من جانب آخر - هي أسمى الفنون وأعلاها يكون بذلك القرآن الكريم حسب زعمه ضرباً من ضروب الفنون بل هو أسمى هذه الضروب وأعلاها!!.

(١) الاسلام والفنون، محمود محمد طه، ط ١، صفر ١٣٩٤هـ - سبتمبر ١٩٧١م أم درمان

مطبعة مصر، ص ٦، ٧.

(٢) الإسلام والفنون، ص ١١.

الزواج في شريعة الجمهوريين

في يوم الجمعة الأول من يناير ١٩٧١م. أصدر محمود كتيباً يقع في ٧ صفحات باسم «خطوة نحو الزواج في الإسلام». وقد بنى محمود أفكاره على خلفية زيجة «جمهورية» تمت يوم ١١ ديسمبر ١٩٧٠م في حي الموردة - أم درمان. ومنها وضع ست نقاط لتحقيق مثل هذه الزيجة في المستقبل وجاءت كلها في صفحة ٤ من الكتاب. وسيكون التعليق على كل نقطة بعد إيراد النص كاملاً. في فقرة منفصلة تماماً ومعلّمة «#» اختيار الطرفين لبعضهما عن رضى وقبول من كليهما..

هذا شيء طبيعي وموافق للشرع.

فترة خطوبة قصيرة يرتبط الطرفان عقبها بعقد زواج شرعي. ويلاحظ أن الخطبة ليست سوى إخطار الزوج أهل الزوجة نيته الاقتران بها.. وليس فيها أي أثر للتقاليد الجوفاء.. والتكاليف الكثيرة المعروفة لدينا..

هذا شيء طبيعي وموافق للشرع.

العقد على مهر قدره جنيه واحد. قال النبي ﷺ: «أخير النساء أحسنهن وجوهاً، وأقلهن مهوراً» وقال ﷺ: «من يمن المرأة تيسير خطبتها، وتيسير زواجها وتيسير رحمها».

هنا نلاحظ حالة نادرة لمحمود حيث أنه صلى على النبي ﷺ والعادة أنه يورده دون صلاة، وهو الذي يستخدم كلمة «المعصوم» ويتحاشى استخدام كلمة «الرسول».

تقليل المهور يرغب فيه كل الناس، لكن التحديد فيه شيء من العنت.

تسليم الزوج زوجته وزوجها، على حد سواء، في نفس ليلة العقد.

هذا جائز ولكنه قد لا يكون ممكناً في كل الأحوال.

دخول العروسين ببعضهما، بنفس ملابسهما القديمة، في حجرة مؤنثة بالأثاث

القديم، ومفروشة بالفرش القديم، الموجود بالمنزل..



هنا محمود يضيق واسعاً ماذا لو كان الزوج قادراً على أن يكون له بيته الخاص به، وأثاثه وفرشه «مما يقدر عليه» بدون مشقة؟.

قيام الزوج بالصرف على منزله، والزوجة بإدارة بيتها، منذ صباح اليوم التالي للزواج..

هذا شيء طبيعي، لكن ماذا لو كان الزوج يقدر على الاستمتاع بإجازة شهر يقضيه في أي مكان جميل؟. لا يمكن إجبار الناس على الفقر والشظف والكآبة وهم قادرون على الفرح. هذه من الممكن أن تكون موجهات أو مقترحات، حتى لا تثقل العادات المرذولة كاهل الفقراء من الأمة. ولا يمكن أن تكون ملزمة في درجة التشريعات الإلهية أو الهدي النبوي أو نفاذ القانون. هذا ما أشار إليه محمود بقوله: «وأول ما ينبغي ملاحظته أن السعادة لا تنبني على القانون، إنما تنبني على المعرفة بطبائع الناس»^(١). ما ينبغي ملاحظته هو أن محموداً أطلق أحكاماً تلك بما استوحاه من تجربة محدودة «زيجة في حي الموردة».

لكن محموداً وبضعف منهجيته تلك حاول إقحام القانون في حالتين «تعدد الزوجات والطلاق» لو أصابتا نفاذ القانون لأصبحت الحياة صعبة «فإننا نرى أن حماية عش الزوجية تقع على مستويين: مستوى التربية ومستوى القانون»^(٢). وكانت هذه الحماية بسبب قلة المهر «كما ذكرنا، فإن تقليل المهر المادي يعني إنه لابد من ترجمة إلى شروط كرامة للمرأة وهذه الشروط تثبت في وثيقة تعاقد الزواج، وتلزم الطرفين قضاءاً، لحماية هذا الزواج بسيط التكاليف من الاستهتار»^(٣). وكانت لمحمود ثلاثة شروط: -أ. «يجب أن تكون العصمة بيد المرأة، كما هي بيد الرجل، ولا يستأثر بها أحدهما.. ولا يهولن أحد هذا الكلام، فإنه جائز شرعاً، ومعمول به قضاء» . ب.

(١) خطوة نحو الزواج في الإسلام، ص ٤.

(٢) خطوة نحو الزواج في الإسلام، ص ٥.

(٣) خطوة نحو الزواج في الإسلام، ص ٥.

«يشترط ألا يقع الطلاق إلا بعد أن يرفع الأمر إلى حكمين عدلين»^(١). «ينص في العقد أنه لا يصح تعدد الزوجات إلا لضرورة قصوى»^(٢). الشرط الأول جائز ولكن محمودًا يريد أن يعطية قوة نفاذ شرائع الإله وحدوده، وهو ممكن إذا أرادت الزوجة ذلك وهي حرة فيما تشترط. الشرط الثاني هو أحد أوجه التفريق بين الزوجين ليس الوجه الوحيد، وكان الفقهاء دومًا يحاولون تضيق فرص الطلاق ولم يكن من بين محاولاتهم أطر الناس على وجه واحد فقط. الشرط الثالث تشريع ما أذن الله به من سلطان، فقد جعل القرآن تعدد الزوجات مباحًا، لكنه وجه الأمة بتعاليم من شأنها أن تنفع وتعين من يعدد على تدبير أمره.

الزواج في الحقيقة

جعل محمود للزواج صيغتين أحدهما في الحقيقة والأخرى في الشريعة «هناك زواج في «الحقيقة».. وهناك زواج في «الشريعة».. فأما، في «الحقيقة» فإن زوجتك هي صنو نفسك.. هي شقيقة نفسك.. هي انبثاق نفسك عنك خارجك.. وهي، بذلك، جماع آيات الآفاق لك.. وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣). الآية ٥٣ من سورة فصلت. محمود الذي ساوى الرجل والمرأة في الشهادة والميراث والطلاق، هنا يخاطب الناس خطابًا ذكوريًا. فإن كان هنالك من انبثاق فكان لابد له أن يكون «الذكر» قد انبثق عن «الأنثى» قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكِرِينَ﴾^(٤) (الأعراف: ١٨٩ - مكية). هنا الخلق من

(١) خطوة نحو الزواج في الإسلام، ص ٦.

(٢) خطوة نحو الزواج في الإسلام ص ٧

(٣) تطوير شريعة الأحوال الشخصية. ط ٣. ١٩٧٩ م. ص ٥٩.



نفس واحدة ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ثم الجعل وهو تغيير الوظيفة ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي إنشق عنها زوجها، وحتى الآن لا تحديد لأنثى أو ذكر. ثم جاءت الأفعال لتدل على الذكورة ﴿ لَيْسَ كُنْ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أي هذا المنبثق الذي هو ذكر. ثم دلت على الأنوثة، أي الأصل المنبثق عنه ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أي الذكر تغشى الأنثى، فكان الحمل نتيجة لهذا الغشيان ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ ثم وقفا ذكرًا وأنثى يدعوان الله ﴿ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَاحِبًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾. من الوضع المقلوب - بخلاف الآية أعلاه - الذي جعل الأنثى هي انبثاق عن الرجل، انطلق محمود ليني معاني ضخمة وخطيرة على أساس الفرض الذي إفترضه «وما يقال، في هذا المستوى، عن موضع الزوجة من الزوج، يقال عن موضع الزوج من الله.. فالزوجة هي أول تنزل من الوجدانية الحادثة إلى الشائية.. هذه هي الزوجة في «الحقيقة»: ﴿ يَأْيَاهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾^(١). (آية ١ من سورة النساء - مدنية) والنفس الواحدة هي آدم الإنسان الكامل «ففي هذا المقام فإن النفس الواحدة هي نفس آدم، الإنسان الكامل، الذي أقيم مقام الخلافة»^(٢). وهي زوج الله «وهذه النفس الواحدة هي، في أول الأمر، وفي بدء التنزل، نفس الله، تبارك وتعالى - هي الذات القديمة - التي منها تنزلت الذات الحادثة، وتلك هي الإنسان الكامل «الحقيقة المحمدية».. والإنسان الكامل هو أول قابل لتجليات أنوار الذات القديمة - الذات الإلهية - وهو، من ثم، زوجها.. وإنما كان الإنسان الكامل زوج الله لأنه قام في مقام العبودية..»^(٣). كل هذا الكلام بني على استنتاج خاطئ هو انبثاق الذكر عن الأنثى، وعن فهم خاطئ عن وجود

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٥٩.

(٢) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٤.

(٣) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٥٩.

شيء اسمه الزوجة، والقرآن لا يتحدث عن زوجة بل يتحدث عن زوج وزوجين وأزواج ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ (النساء: ٢٠ - مدنية) ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (هود: ٤٠ - مكية). ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ (البقرة: ٢٤٠ - مدنية) ولا تمييز بين الذكر والأنثى في مسألة الزوج ﴿أَوْ يَزْوَاجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإُنْثَى﴾ (الشورى: ٥٠ - مدنية) وفي معجم مقاييس اللغة «زوج الزاء والواو والجيم أصل يدل على مقارنة شيء لشيء. من ذلك [الزوج زوج المرأة. والمرأة] زوج بعلمها»^(١). وهو ما عليه القرآن ﴿قَالَتْ يَوَيْلَ لِيَ آلِ اللَّهِ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود: ٧٢ - مكية). أما زوجة فهي لغة رديئة «وزوجة لغة رديئة»^(٢). والقرآن ليس به إعوجاج لغة ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٢٨ - مكية). هذا الاستنتاج الخاطئ، والفهم الخاطئ، لا يقبلان ممن ادعى الفهم عن الله في القرآن.

من هنا انطلقت سلسلة من الأخطاء المنهجية عند محمود «ومقام العبودية مقام إنفعال، في حين أن مقام الربوبية مقام فعل.. فالرب فاعل، والعبد منفعل.. ثم تنزلت من الإنسان الكامل زوجته.. فكان مقامها منه، مقامه، هو، من الذات.. فهي منفعة، وهو فاعل.. وهذا هو، في الحقيقة، مستوى العلاقة «الجنسية» بين الرجل والمرأة»^(٣). قال محمود «فهي منفعة، وهو فاعل» فإذا أعيد ترتيب الجملة لتكون «فهو فاعل، وهي منفعة» فإن المعنى واحد. في الجملة التي سبقت هذه الجملة قال محمود «فالرب فاعل، والعبد منفعل» ونضع بعدها الجملة المعدلة «فهو فاعل، وهي منفعة» ونرى ما هي العلاقة في هذه الجمل. هذه العلاقة فصلها محمود «ومن أجل شرف هذه العلاقة

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص ٣٩٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن. الراغب الأصفهاني. ذوي القربى. ط ٦. ١٤٣١ هـ. ص ٣٨٤.

(٣) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٥٩.



«الجنسية» الذي حاولنا تبينه في الأسطر السابقة وقع شديد الحرص عليها في الدين.. وهي أكبر مظهر للحياة في مجال تعبيرها عن وجودها»^(١). لم يترك محمود الحيرة تكتنف الناس وبين العلاقة بين الإنسان الكامل والذات القديمة «أي الإلهية» «وحيث يكون إنجاب الذرية هو نتيجة العلاقة «الجنسية» بيننا وبين نساءنا: «وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً»، تكون ثمرة العلاقة بين الذات القديمة وزوجها - الإنسان الكامل - المعارف اللدنية..»^(٢). ونتيجة هذه العلاقة المبهمة بينهما يكون علمًا لدنياً يغمر العبد «وحيث يتم اللقاء بين هذين الزوجين - الذات الإلهية، والإنسان الكامل - ينبث العلم اللدني، فيفيض يغمر العبد العالم من جميع أقطاره»^(٣). ومن هذا الوضع صار الوضع بين الرجال والنساء «ومن هذا العلم.. اللدني رجال، ونساء، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.. فهذا الوضع بين الذات الإلهية، والإنسان الكامل - انفعال العبودية بالربوبية - هو الذي جاء الوضع منه بين الرجال والنساء - انفعال الأنوثة بالذكورة.. وهو ما يسمى عندنا، بالعلاقة «الجنسية»^(٤). وهكذا منذ أن بدأ محمود في فلسفة الخلق، وتنزلاتها، والانبثاق، والإنسان الكامل، والذات القديمة، سارت الأمور لتنتهي بهذه العلاقة «الجنسية».

هكذا نجد أن كل ما بذله محمود من تعابير فلسفية حول الزواج في الحقيقة كان بعيداً كل البعد عن المنهجية، وفيه مفاهيم مغلوطة عن انبثاق «من» عن «من»، وجعله الأنثى أن تنزل «أي تنبثق» عن الذكر دون دليل، ومن ثم القفز بالذكر لمرحلة الإنسان الكامل، تاركاً الأنثى المسكينة وراء ظهره، تسأل نفسها لماذا إنبثقت عن هذا الكائن

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦١.

(٢) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٠.

(٣) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٠.

(٤) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٠.

الأناني؟.

الزواج في شريعة الأصول

عرّف محمود هذا الضرب من الزواج «ويمكن تعريف الزواج هنا بأنه شراكة بين شريكين متكافئين، ومتساويين في الحقوق، والواجبات، لا تقع فيه وصاية من الرجل على المرأة، ولا من المرأة على الرجل»^(١). هنا أصبح الزواج شراكة، وانتفت الوصاية. لماذا يصير محمود على تكرار هذه الكلمة؟ كلمة «الوصية» وردت في القرآن في المواريث ووصية الموت. وصايا الله للناس لم يكن منها في القرآن شيء يخص وصاية الرجل على المرأة. من أين أصاب محمودًا هذا الهوس -أي- وصاية الرجل على المرأة؟. يقول محمود: «وصاية النبي على الأمة بمقتضى آية الشورى.. ووصاية الرجال على النساء بمقتضى آية القوام»^(٢). عندما يقصر فهم محمود عن إدراك معاني ظاهر القرآن واللغة، فإنه يقوم بتوزيع الإتهامات يمنة ويسرة. ثم يمضي في التعريف قائلاً «فليس هناك وصاية على أيهما في هذه الشراكة إلا بوصاية يفرضها على كليهما القانون الدستوري»^(٣). بمعنى لو أن الدين أو الفقه فرضا الوصاية على كليهما فهي مرفوضة، لكن لو فرضها قانون دستوري فهي مقبولة. ثم أضاف قائلاً «هما يملكان الدخول في هذه الشراكة بالأصالة عن نفسيهما، وبمطلق إختيارهما، ولهما الحق «المتساوي» في الخروج عنها..»^(٤). عندما يسمى الفراق بين الأزواج فض شركة فإنه مقبول، أما الطلاق ليس مقبولاً. لأن فض الشراكة دون مشاكل نفسية «فيكون فض الشراكة، من غير أن يترك مرارة، ولا عدا.. فيمارس حق الطلاق في سعة أفق، وطيبة نفس»^(٥). ما الذي جاء بكلمة الطلاق هنا؟، إنه

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٧.

(٢) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٧٥.

(٣) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٧.

(٤) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٧.

(٥) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٧.



يتكلم عن فض شراكة. هكذا يمضي أزواج الأمس بعد فض الشراكة في سرور وحبور لإقامة شراكات جديدة «ليدخل كل من الشريكين في تجربة جديدة، مع شريك جديد، عسى أن يهتدي بهذه التجربة الجديدة لصنوه الحق، أو إلى قريب منه»^(١).

لكن بعد ظهور أمة الإسلام من رحم الغيب، فلن تكون هناك حاجة للطلاق «فلا تكون، يومئذ، بهما حاجة إلى ممارسة حق الطلاق، وإنما هو الوفاق، والمحبة، والسعادة..»^(٢). فقد وجد الآن الخابور الخرم المطابق له تمامًا، وتكون الشمس قد أشرقت بنور ربها، وقيل الحمد لله رب العلمين، فقد وصل محمود لمبتغاه.

فرص الناس في هذا الزواج ضيقة «الزواج في هذه الشريعة، هو حظ العارفين، الذين يتسامون به إلى مستويات لا تدخلها معهم شريعة الطلاق.. لا لأنهم يمنعونها، بالطبع، ولكن لأنهم لا يحتاجونها»^(٣). على البشرية أن تنتظر هذا المجتمع الافتراضي الذي يتوهمه محمود حتى يقفوا على حقيقة التجربة ويمارسونها. حاجات الناس اليوم لا يأبه بها محمود، ولا يقدم لها أي حل. عندما قدر الله في الأرض خليفة كان يعلم ممارساته من أصغر الذنوب وحتى سفك الدماء ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠ - مدنية) ولم يعد الله الملائكة بمجتمع مثالي. ما لم يعد به خالق البشر، يعمل محمود على تحقيقه. خلاصة الأمر عند محمود أن الزواج شراكة دائمة توزع أرباحها بالتساوي في كل الأحوال. لا يسمح بفضها ولا إضافة شركاء جدد وغير مسجلة عند مسجل الشركات «في هذا الزواج ليس هنالك ولي، ولا مهر.. وليس فيه تعدد زوجات.. والطلاق فيه حق من حقوق المرأة، كما هو من حقوق الرجل.. ودخل الأسرة يملكه الشريكان، حتى حين يكون عمل المرأة قد استغرقه «البيت»..

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٧.

(٢) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٧-٦٨.

(٣) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٨.

فليست النفقة منة من الرجل على المرأة»^(١).

بنظرة لما طرحه محمود من تطوير لشريعة الأحوال الشخصية يتضح أنها تتلخص في الآتي:

١. محاولات فلسفية قامت على أسس ومفاهيم مغلوطة.
٢. حرية الرجل والمرأة في اختيار الشريك. وهذا كفله القرآن ولم يأت بجديد سوى أنه صوب نقدًا لعوامل وعادات اجتماعية - سودانية - صرفة، مثل الخطبة والمغالة في المهور، وصورها على أنها الدين. واقتبس الحل من تجربة سودانية صرفة «زيجة جمهورية في حي الموردة».

* رفض مسألة الولي.

* النفقة.

* الطلاق.

* تعدد الزوجات.

ما هو التطوير عند محمود؟ لقد وافق بعض الاختيارات الفقهية المعروفة منذ قرون، و صوب سهام نقده لبعض العادات الاجتماعية «السودانية على وجه الخصوص» التي توهم أنها من الدين، وقد منع الطلاق وتعدد الزوجات دون دليل أو قرينة.

كتاب فقه السنة^(٢) من كتب الفقه التقليدية، لكنه كتب بلغة سهلة يفهما كل الناس. وقد تناول كل ما أثاره محمود من نقاط. وسيكون هو المرجع الأساس الذي سنعرضه هنا فقط للمقارنة مع ما ذهب إليه محمود، ولن يتبنى هذا الكتاب وجه نظر كاتبه، إنما سيتولى العرض فقط

الخطبة

على وزن فعلة كفعلة وجلسة، يقال: خطب المرأة يخطبها خطابًا وخطبة، أي

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٦٨.

(٢) فقه السنة. السيد سابق. دار الفكر. بيروت. ط ١. ١٩٧٧.



طلبها للزواج بالوسيلة المعروفة بين الناس. والخطبة من مقدمات الزواج. وقد شرعها الله قبل الارتباط بعقد الزوجية ليتعرف كل الزوجين صاحبه، ويكون الإقدام على الزواج على هدى وبصيرة. (١).

المهر

«لم تجعل الشريعة حدًا لقلته، ولا لكثرتة، إذ الناس يختلفون في الغنى والفقر، ويتفاوتون في السعة والضيق؛ ولكل جهة عاداتها وتقاليدها، فتركت التحديد ليعطي كل واحد على قدر طاقته، وحسب حالته، وعادات عشيرته؛ وكل النصوص جاءت تشير إلى أن المهر لا يشترط فيه أن يكون شيئًا له قيمة؛ بقطع النظر عن القلة والكثرة.. فيجوز أن يكون خاتمًا من حديد، أو قدحًا من تمر أو تعليمًا لكتاب الله، وما شابه ذلك، إذا تراضى عليه المتعاقدان. فعن عامر بن ربيعة أن امرأة من بني فزارة تزوجت على نعلين، فقال رسول الله ﷺ: «أرضيت عن نفسك ومالك بنعلين؟». فقالت: نعم، فأجازه» رواه أحمد، وابن ماجه، والترمذي وصححه (٢).

الولي

أغلب جمهور الأمة على حديث النبي ﷺ «لا نكاح إلا بولي» وفي ذلك أدلة كثيرة وفقه مستفيض. لكن الأحناف ذهبوا قبل مئات السنين لما ذهب إليه محمود. «ويرى أبو حنيفة وأبو يوسف: أن المرأة العاقلة البالغة لها الحق في مباشرة العقد لنفسها. بكرًا كانت أو ثيبًا» (٣). ثم قال «وليس لوليها العاصب حق الاعتراض عليها، إلا إذا زوجت نفسها من غير كفاء أو كان مهرها أقل من مهر المثل» (٤). تحدث الأحناف عن حق المرأة في تزويج نفسها قبل مئات السنين. «واستدل جمهور الأحناف بما يأتي:-

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ١٢٠.

(٢) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٣) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ١١٣.

(٤) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ١١٣.

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ (البقرة: ٢٣٠ - مدنية).

وقوله سبحانه ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ (البقرة: ٢٣٢ - مدنية). ففي هاتين الآيتين إسناد الزواج إلى المرأة. والأصل أن يكون الفاعل الحقيقي...

ثم إنها تستقل بعقد البيع وغيره من العقود فمن حقها أن تستقل بعقد زواجها، إذ لا فرق بين عقد وعقد... وعقد الزواج وإن كان لأوليائها حق فيه فهو لم يلغ، إذ أعتبر في حالة ما إذا أساءت التصرف، وتزوجت من غير كفاء، إذ إن سوء تصرفها يلحق عاره أولياءها. قالوا: وأحاديث اشتراط الولاية في الزواج تحمل على ناقصة الأهلية، كأن تكون صغيرة، أو مجنونة... وتخصيص العام، وقصره على بعض أفرادها بالقياس جائز عند كثير من أهل الأصول^(١).. أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي. أول الأئمة الأربعة - ٦٩٩ م إلى ٧٦٧ م، أي ولد قبل محمود بحوالي ١٢١٠ سنة.

النفقة

«المقصود بالنفقة هنا توفير ما تحتاج إليه الزوجة من طعام، ومسكن، وخدمة، ودواء وإن كانت غنية. وهي واجبة بالكتاب، والسنة، والإجماع. أما وجوبها بالكتاب فلقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا اللَّهُ ﴾ (البقرة: ٢٣٣ - مدنية). والمعروف: المتعارف في عرف الشرع من غير تفريط، ولا إفراط. وقوله تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجَدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِنُصِيَّتِهِنَّ عَلَيْهُنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٍ فَلْيَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق: ٦ - مدنية). وقوله تعالى: ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا ﴾ (الطلاق: ٧ - مدنية). وأما وجوبها بالسنة: فقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ١١٤.



«فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بكلمة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف»^(١). لا بد من احترام علاقة قال الله عنها أنها ميثاق غليظ ﴿مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ٢١ - مدنية)

الطلاق

تعريفه: الطلاق مأخوذ من الإطلاق، وهو الإرسال والترك. وفي الشرع حل رابطة الزواج، وإنهاء العلاقة الزوجية^(٢). وحكمه «اختلفت آراء العلماء في حكم الطلاق، والأصح من هذه الآراء، رأي الذين ذهبوا إلى حظره إلا لحاجة، وهم الأحناف والحنابلة. واستدلوا بقول الرسول ﷺ «لعن الله كل ذواقٍ، مطلق»^(٣).

تعدد الزوجات

هو مباح ولم يحرمه القرآن. ولا يستطيع أحد أن يحرم شيئاً لم يحرمه الله، لأن الحلال والحرام من حق الله وحده ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل: ١١٦ - مكية). لكن للمرأة أن تشرط ما هو مباح مثل أن تشرط أن يجعل الرجل عصمتها بيدها أو ألا يتزوج عليها. قال رسول الله ﷺ: «أحق الشروط أن توفوا بها ما استحللتم به الفروج» رواه الشيخان. فإن خاف الرجل ألا يعدل فواحدة «روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها في تفسير ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾^(٤) فإن خاف إن

(١) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ١٤٧.

(٢) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٢٠٦.

(٣) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، ص ٢٠٧.

يجوز إذا تزوج أكثر من واحدة فواجب عليه أن يقتصر على واحدة، أو ما ملكت يمينه من الإماء»^(١).

لفقهاء المسلمين منذ مئات السنين باع طويل في التناول المنهجي في الاستدلال من نصوص الكتاب والسنة، ول بعضهم آراء جريئة سبقت ما كان عليه العلماء في ذلك الزمان. مسألة أحوال الأسرة أي ما يعرف في القانون «بقانون الأحوال الشخصية» كانت أكثر تفصيلاً في «الفقه التقليدي» لمقابلة كل حاجات الناس، وكانت كذلك أكثر مرونة ومنهجية مما لدى محمود في كتابه الموسوم «تطوير شريعة الأحوال الشخصية». إن كتاب تطوير شريعة الأحوال الشخصية ليجسد بكل وضوح البؤس المعرفي والمنهجي عند محمود، التي تشي أن محموداً كان ذا إطلاع في اتجاهات عدة، لكنها لم تشمل الاطلاع على التراث الفقهي الإسلامي في الشرق أو في الأندلس خاصة، لو اطلع محمود على منطق بن حزم، ومقارنات ابن رشد في كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»؛ لما وقع في مثل هذه الأخطاء الكارثية في فرع من علوم الدين قتله الفقهاء بحثاً.

(١) فقه السنة للنساء. أبو مالك كمال بن السيد سالم. المكتبة التوفيقية. القاهرة. ٢٠٠٠م. ص



الخاتمة

وبعد:

فقد وقفنا على الأفكار والآراء والمعتقدات التي صرخ بها محمود في كتابه الرسالة الثانية في الإسلام، وهو أمر عقدي خطير، يحتاج المرء أن يقف حياله وقفة متأملة ومتأنية. حيث سيتنقل الإنسان بالرسالة الثانية من إسلام يألفه وألفه الناس لأكثر من أربعة عشر قرنًا بالنظام الهجري، إلى عهد جديد كما قال محمود في هذا الأمر الخطير، قال محمود: إن فكره سيكون غريبًا. لماذا يكون غريبًا؟ وخارجًا عن المألوف؟ والقرآن نفسه ميسر ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٩٧) (مريم: ٩٧)، ثم قال إن كتابه موجز أشد الإيجاز، والله يتحدث عن القرآن ويقول إنها حكم أولاً ثم فصل ﴿□□ كَتَبَ أَحْكَمَتَ آيَتُهُ وَثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (١) (هود: ١). (١)

وقد اتضح ومن خلال الميزان الاعتقادي والرؤية النقدية للنصوص ما يلي:

لم تكن لمحمود محمد طه منهجية واضحة، وتبدى عوار المنهجية بشكل واضح في كتاب الرسالة الثانية. الذي لم يلتزم المنهجية العلمية، سواء في شكل الكتاب من حيث التبويب، حيث أن الباب الذي تحدثت عنه الرسالة الثانية من الإسلام كان من أصغر الأبواب في الكتاب، ولا من حيث الاستدلال بالآيات والأحاديث، حيث أن استدلاله بالقرآن المدني المنسوخ حسب زعمه كان قريبًا من نسبة ٤٥٪ من الآيات، وكانت استدلالاته بها في أحكام أساسية وجوهرية من آرائه. وتمثل آيات القرآن المدني حوالي ٢٦٪ من مجموع آيات القرآن، والمكي حوالي ٧٤٪. لم يستفد محمود منها، مثال ذلك الآيات التي كانت تدور حول قضايا الإيمان داخل القرآن المكي والتي تفوق في عددها الآيات التي تناولت قضايا الإسلام. لقد ظل محمود يدور حول آيات معينة في القرآن المكي ويكررها كثيرًا مثل آية الآفاق كما يسميها ﴿سَرِّبْهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي

أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْحَقَّ أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾
(فصلت: ٥٣).

وهذا خطأ منهجي كبير. أما في الاستدلال بالحديث النبوي كانت الفوضى تضرب بأطنابها، معظم الأحاديث ضعيفة، أو بها إدراج، أو آثار صوفية تقدم على أنها أحاديث نبوية.

الكتاب لم تكن به سلسلة أفكار منظمة من أوله إلى آخره تناسب كالأنهار. على النقيض سيجد أي باحث له معرفة بأبجديات البحث العلمي أن كل كتابات محمود وعلى رأسها كتابه الأم، عبارة عن شتات أفكار جمعت بين أغلفة كتب محمود. وأي باحث يود أن يقدم رؤية نقدية متكاملة لآراء محمود سيعاني الأمرين في سبيل إخراج كتاب متكامل يسهل على الناس هضمه. وهذه الرؤية التي خرجنا بها من كتاب الرسالة الثانية تنطبق تمامًا على كل إنتاج محمود الفكري.

المفاجأة التي ستكون بمثابة الفاجعة للجمهوريين، والتي ستعقد من هول الصدمة لسان المهتمين بهذا الفكر هي: بينما كانت رسالة محمد ﷺ مصحوبة بإعلان إلهي واضح للناس جميعًا ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمَرُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، كانت الرسالة الثانية بلا رسول، لم يقل محمود أنه رسول الرسالة الثانية بمثل وضوح الآية أعلاه، إنما ترك جلبابًا مفصلاً لمن شاء أن يرتديه. والمفاجأة الثانية أنه لا يوجد قرآن مكّي، ولا قرآن مدني بمفهوم محمود وأن إدعاء محمود والجمهوريين أن الانتقال مما أسماه «بالفروع» إلى «الأصول» مجرد عبث لا أصل له من الكتاب أو السنة.

عليه فقد تبينت لنا من خلال هذا الكتاب أمور جديرة بالذكر في هذا المقام، أهمها:

محمود يقول بتأليه الإنسان؛ ويرمى إلى أنه هو ذلك الإنسان الإله «الإنسان



الكامل» والنفس العليا التي ذهب محمود يبحث عنها هي الإنسان الكامل، الذي هو عند محمود الله! والدليل على هذه التعقيدات أقواله التالية: «ليس في دنيا الإنسان الكامل غير الله لأنه هو الله»... تعالى الله علواً كبيراً. ويقول « فالله اسم علم على الإنسان الكامل الذي بين الذات المطلقة في إطلاقها وبين جميع الخلق... فأسماء الله الحسنى إنما هي من حق الإنسان الكامل في المكان الأول ثم لا تكون في حق الذات الصرفة المطلقة الا عند التناهي، والرسالة الثانية «التشريع الجمهوري» هي الطريق الموصل إلى الانسان الكامل؛ والانسان الكامل «الله» هو المسيح. والمسيح عنده ليس عيسى بن مريم وإنما هو ما أسماه بالمسيح المحمدي، فالمسيح هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. يقول محمود:.. رسول الله يعني رسول الذات إلى جميع الخلائق وكلمته يعني كلمة «الله».. فالمسيح هو الكلمة «الله» ألقها إلى مريم يعني إلى النفس الطاهرة.. وليلة القدر هي لحظة نزول المسيح!..».

ضعف وبطلان التعليقات والأدلة التي يزعم محمود بها على حجية رسالته الثانية، وقد ظهر ذلك بجلاء من خلال طرحه المتباين ومن كتبه المستندة إلى قواعد فكرية مستمدة من الفلسفات القديمة.

يهدف محمود إلى إلغاء الشريعة الإسلامية ويتحدث عن «رسالة ثانية» من الإسلام تنطلق من أصول فلسفية. مستخدماً أساليب المخادعة والمراوغة والمداهنة، فمع جحد لأصول الدين الإسلامي وتشكيكه فيه ورفضه له، نجده يظهر في لبوس المعترف به والمحترم له، متوارياً خلف ألفاظه التليسية، والتي تبدو غامضة وملغزة تارة؛ وفضفاضة مراوغة تارة أخرى، للوصول إلى أهدافه ومرامييه والتي منها تحقيق ما يسمى بالرسالة الثانية التي يدعوا لها!

مستند محمود في تفسير القرآن الكريم الممارسة والذوق لأنه أصبح الأصيل كما يدعي، وبلغ مرتبة الإنسان الكامل.

اتسمت عبارات محمود في طرحه العام بعدم الوضوح والتجريدات حتى تكون

خط دفاعه الأول لمواجهة مخالفيه. وذلك عبر وصمهم بعدم الفهم!.

افتقرت معظم كتابات وأفكار محمود إلى التأصيل الشرعي والتفسير الصحيح في ضوء الكتاب والسنة وتمييز الحديث الصحيح من الضعيف.

«صاحب الفكرة الجمهورية» محمود هو أول من زعم أنه انتقل من مرحلة التقليد إلى مرحلة الأصالة، ولذلك سمعنا وقرأنا أن زعيم الجمهوريين لا يصلي الصلاة التي يعرفها المسلمون وإنما يصلي صلاة الأصالة لأنه أصبح أصيلاً.

هنالك فهم جديد لدى محمود للقرآن على أساس المكي والمدني كقرآنين مختلفين، ووجود أمتين مختلفتين إسلامية وإيمانية، وشريعتين أحدهما بالية توافق القرن السابع الميلادي نزلت على المؤمنين وصفتها أنها غير قابلة للتطور واسمها «الشريعة»، وأخرى اسمها السنة وهي شريعة أمة المسلمين التي اشتاق لها النبي ﷺ. وهي مرنة ومتطورة «ولكن كمالها إنما هو في مقدرتها على التطور». وتبدأ من التقليد وتنتهي بالأصالة، حيث يتلقى «السالك قديماً، والإنسان الكامل حالياً» شريعته من الله كفاً «وأما الحكمة في ختم النبوة فهي أن يتلقى الناس من الله من غير واسطة الملك، - جبريل - أن يتلقوا عن الله كفاً». ولكي يتسنى له ذلك عمد إلى الرسالة الأولى «على مستوى القرآن المدني» فنزع منها بعض تعاليمها مثل الجهاد وتعدد الزوجات والطلاق واللباس وغيرها، وأفرد لذلك الغرض عناوين جانبية وعقب كل عنوان كانت عبارة «ليس/ ليست أصلاً من الإسلام» حاضرة. ويظهر ذلك في تعاطيه مع القرآن الكريم من زاوية المكي والمدني ومن الزاوية التأملية دون الرجوع لكتب من سبقه وهو غير متخصص.

اتضح جلياً من هذه الدراسة ضعف العلم عند محمود بالنصوص ودلالاتها، وبالضوابط والأصول الحاكمة للاستنباط والتفسير والتأويل. ولعل ذلك مرده إلى أنه لم يدرس في معاهد دينية متخصصة وليست له إجازة منها، وكذلك لم يؤثر عنه أنه اتخذ له شيخاً كما فعل كبار أقطاب الصوفية ومصدر المعرفة الذي يستقي منه معلوماته؛ أشار



إليه في كتابه الرسالة الثانية - وإن لم ينسبه لنفسه صراحةً- هذا المصدر هو الفهم عن الله: «من رسول الرسالة الثانية؟ هو رجل آتاه الله الفهم عنه من القرآن، وأذن له في الكلام..». مما يوضح جهل محمود بالسنة استدلاله في كتبه ومنشوراته بأحاديث لا أصل لها؛ وليست من حديث الرسول ﷺ؛ وبعضها مذكور في الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ. وفي إسناد بعضها من هو متروك الحديث لكذبه. وبعضها من وضع الصوفية وليس له أصل من حديث النبي ﷺ.

يدعى الجمهوريون أن حق المرأة في الشريعة الإسلامية - أي ما يصفونه بشريعة الفروع - منقوص ومبخوس حيث إن الشريعة الإسلامية تميز بين الرجل والمرأة في الميراث، وفي الشهادة وغير ذلك.. أما في شريعة الأصول - أي شريعة الرسالة الثانية التي يبشر بها محمود والجمهوريون - فإن المرأة تتساوى تمامًا مع الرجل في كل شيء! في الميراث وفي الشهادة! ولا تميز بينهما البتة في أي مجال من المجالات!! والجمهوريون يزعمون أن التشريع تنزل إلى مستوى التمييز بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات لقصور المرأة عن شأو الرجل في ذلك الوقت!! أي أنهم يزعمون أن المرأة اليوم أصبحت على قدم المساواة مع الرجل لأنها أصبحت راشدة بفضل ما أتيح لها من تعليم وعمل في الوظائف العامة مثلها مثل الرجل تمامًا.

تعدد الزوجات والطلاق والحجاب والزكاة والجهاد: كل ذلك ليس أصلًا في الإسلام.

مقولات محمود تكاد تكون صورة طبق الأصل لعقيدة التجسد البهائية. فالبهائية تقول عن ذات الله - تعالى - «هو غيب في ذاته وكثر مخزون في صفاته، ومجرد بحث في حقيقته وهويته، لا يوصف بوصف ولا يسمى باسم!»، ويقول محمود: «الله في صرافة ذاته فوق الأسماء وفوق العبارة، وليس لمعرفته سبيل».

استخدم محمود الأسلوب الباطني لينفذ إلى أغراضه. والباطنية وضعوا أساس مذهبهم على أن للقرآن الكريم ظاهرًا وباطنًا، وأن لكل تفسير تأويل، غير أنهم اتخذوا

هذا المذهب وسيلة لتحريف القرآن الكريم، ومحمود يشير بصراحة إلى انتمائه إلى الباطنية حين يقول: « إن للقرآن ظاهراً وباطناً، فظاهره عنى بظواهر الأشياء وباطنه قام على الحقائق، وراء الظواهر ثم اتخذ في نهجه التعليمي الظواهر مجازاً يعبر منها العارف إلى البواطن ».

هناك شبه شديد بين عقيدة البهائية وعقيدة الجمهوريين في الإنسان الكامل. فإذا كان البهاء هو المجلي الكامل للحقيقة الإلهية عند البهائيين، فمحمود هو الإنسان الكامل عند الجمهوريين والذي هو أصل الوجود وغايته كما يزعم محمود وأتباعه.

صدر حکمان برده محمود الأول: من محكمة الاستئناف العليا الشرعية في يوم الاثنين ١٨/١١/١٩٦٨م برئاسة القاضي: توفيق أحمد الصديق عضو محكمة الاستئناف العليا الشرعية، وأصدرت المحكمة حكمها - القضية رقم ١٠٣٥ / ١٩٦٨م عليه بالردة وأمرت المحكمة بتوبته من جميع أقواله وأفعاله التي أدت لردته. والثاني: من المحكمة الجنائية رقم «٤» بأم درمان برئاسة القاضي حسن إبراهيم المهلاوي وأصدرت حكمها في ٨/١/١٩٨٥ م وجاء في بعض حشياتها إن المتهمين يدعون فهمًا جديدًا للإسلام غير الذي عليه المسلمون اليوم. واعترف المتهمون جميعًا - محمود وأربعة من أتباعه - اعترافاً واضحاً بمسئوليتهم عن المنشور الصادر وتوزيعه وقررت المحكمة إدانتهم بناء عليه وعلى اعترافهم وحكمت عليهم جميعاً بالإعدام شنقاً حتى الموت، على أن يكون لهم الحق في التوبة والرجوع عن دعوتهم إلى ما قبل تنفيذ الحكم. ورفعت الأوراق لمحكمة الاستئناف للفحص والتأييد، ثم صدر قرار محكمة الاستئناف الجنائية بالخرطوم في ١٥/١/١٩٨٥م بتأييد حكم الإعدام على محمود وأتباعه. بعد ان رأت المحكمة ثبوت رده ووجوب قتله مع أعوانه، كما قررت المحكمة اعتبار طائفة الجمهوريين طائفة كافرة مرتدة تعامل معاملة طوائف الكفر في كافة المعاملات وأمرت بمصادرة كل كتب ومطبوعات محمود وكتب الجمهوريين من جميع المكتبات بغرض إبادة مع منع تداولها وطبعها في كافة المطابع وحظرت نشاط الجمهوريين في كافة البلاد



ثم أمرت برفع الأوراق للسيد رئيس الجمهورية للتأييد. فأيد الرئيس الأسبق جعفر النميري قرار محكمة الاستئناف بإعدام محمود حدًا للردة بخطاب بث في جميع الأجهزة الإعلامية المرئية والمسموعة والمقروءة، وأمهل أتباعه ثلاثة أيام للتوبة وحدد يوم الجمعة ١٨ / ١ / ١٩٨٥ م لتنفيذ حكم الإعدام بساحة العدالة بسجن كوبر مدينة الخرطوم بحري. وتم بالفعل في صبيحة ذلك اليوم تنفيذ الحكم على محمود بالإعدام شنقاً حتى الموت حدًا للردة وحضرت التنفيذ جموع غفيرة من المسلمين بلغت عشرات الآلاف.

المصادر والمراجع:

- (١) أثر التصوف على الدعوة الإسلامية في السودان - د. عاطف بابكر جميل الإمام - رسالة دكتوراة - إشراف/ د. عبد الله عبد الحي أبو بكر - جامعة القرآن الكريم - ٢٠٠٤م.
- (٢) الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، د. عبد المجيد السوسوه الشرفي، كتاب الأمة العدد ٦٢٣.
- (٣) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
- (٤) أدب السالك في طريق محمد، الإخوان الجمهوريون، ط ١ / ١٩٨٢، ١
- (٥) أسس دستور السودان. إصدارات مركز الأستاذ محمود محمد طه الثقافي «٥».
- (٦) الإسلام برسائلته الأولى لا يصلح لإنسانية القرن العشرين، محمود محمد طه، ١٩٦٩م
- (٧) الاسلام والفنون، محمود محمد طه، ط ١، صفر ١٣٩٤هـ - سبتمبر ١٩٧١م أم درمان مطبعة مصر.
- (٨) الإسلام، محمود محمد طه، أم درمان ١٩٦٨
- (٩) أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، محمد بن محمد دوريس، الحوت الشافعي «ت ١٢٧٧»، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ط ١، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (١٠) اسئلة وأجوبة ط ١ يناير ١٩٧٠م أم درمان.
- (١١) أصول النظام الاجتماعي، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، «بدون ط أوت»
- (١٢) أعلام الحديث «شرح صحيح البخاري»، الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد



«ت٣٨٨هـ»، تحقيق، د/ محمد بن سعد بن عبدالرحمن آل سعود، ط١، ١٤٠٩هـ، جامعة أم القرى.

(١٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق، يحيى إسماعيل، ط١، ١٩٩٨م، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر.

(١٤) الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، الشيخ عبد الكريم بن ابراهيم الجيلي، دار الكتب لعلمية، بيروت لبنان.

(١٥) الإنسان الكامل والحقيقة المحمدية، ابن عربي. نسخة محفوظة ٢٣ يناير ٢٠١٨ على موقع واي باك مشين.

(١٦) الإيماء على زوائد الأمالي والأجزاء، نبيل سعدالدين سليم جرار، ط«١» ١٤٢٨هـ، الناشر - أضواء السلف.

(١٧) البرهان في علوم القرآن، الزركشي أبو عبدالله بدرالدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي «المتوفى: ٧٩٤هـ»، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١/ ٢٧٣.

(١٨) البهائية تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية عبد الرحمن الوكيل، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، ط ٢ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(١٩) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، العراقي، «٧٢٥-٨٠٦هـ»، ابن السبكي «٧٢٧-٧٧١هـ»، الزبيدي «١١٤٥-١٢٠٥»، استخراج ابن عبدالله محمود بن محمد الحداد «١٣٧٤ - ؟»، ط «١» ١٤٠٨هـ، دار العاصمة للنشر، الرياض.

(٢٠) تخريج أحاديث وآثار في ظلال القرآن، علوي بن عبدالقادر السقاف، تط «٢» ١٤١٦هـ، دار الهجرة للنشر والتوزيع.

(٢١) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، السيوطي، جلال الدين، تحقيق ، أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة للنشر ب ت.

(٢٢) التصوف الإسلامي رياضة روحية خالصة - د. سعيد مراد - مكتبة الأنجلو

المصرية - القاهرة - بدون تاريخ

(٢٣) التصوف المنشأ والمصدر - إحسان إلهي ظهير - إدارة ترجمان السنة - لاهور باكستان - ط «١» - ١٩٧٤ م.

(٢٤) التصوف والباراسيكولوجي - د. عبد الستار عز الدين الراوي - المؤسسة العربية للدراسات - الأردن

(٢٥) تطوير شريعة الأحوال الشخصية، محمود محمد طه، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٩

(٢٦) تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، تحقيق، د/ عبدالله بن إبراهيم الوهبي، ط ١ - ١٩٩٦ م، دار بن حزم، بيروت.

(٢٧) التفسير الوسيط، الزحيلي، وهبة بن مصطفى، ط ١، ١٤٢٢ هـ، دار الفكر - دمشق.

(٢٨) التفسير والمفسرون، الدكتور محمد السيد حسين الذهبي «المتوفى: ١٣٩٨ هـ»، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.

(٢٩) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، تحقيق، عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ط ١، ١٤٢٠ هـ، مؤسسة الرسالة.

(٣٠) جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابنثير، مجد الدين أبو السعادات، «ت ٦٠٦ هـ»، تحقيق، الأرئوط، التتمة تحقيق بشير عون ط «١» الناشر مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان.

(٣١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، «بدون ط أو ت».

(٣٢) الحاوي الكبير شرح مختصر المزني، الماوردي، الإمام أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب، تحقيق: علي معوض وعادل بن عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج ١٦.

(٣٣) الحديث والمحدثون، محمد محمد أبو زهو، ط ١٣٧٨ هـ، دار الفكر العربي -



القاهرة.

- (٣٤) الحركة الصوفية في الإسلام، دار المعرفة الجامعية - د. محمد علي أبو ريان - مصر - ١٩٩٥م.
- (٣٥) الحزب الجمهوري في السودان.. الواقع ومحاولات التأثير، محمد خليفة صديق - كاتب سوداني، الاثنين ٣ مارس ٢٠١٤، خاصب الراصد.
- (٣٦) حقيقة البهائية، الشيخ محمد الخضر حسين، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، ط ١٤٠٧هـ.
- (٣٧) دراسات في علوم القرآن الكريم، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م
- (٣٨) دفع الشبهات حول القرآن الكريم، الشيخ ياسر عبد ربه، بحث منشور على موقع صوت السلف، <http://www.salafvoice.com>.
- (٣٩) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨١م.
- (٤٠) الردة ومحاكمة محمود محمد طه فيالسودان. للدكتور المكاشفي طه الكباشي ص ١٦٥ - ١٦٦ - دار الفكر - الخرطوم.
- (٤١) الرسالة الثانية من الإسلام. محمود محمد طه، الطبعة السادسة. ١٩٨٦م
- (٤٢) رسالة الصلاة، محمود محمد طه، ط ٦، ديسمبر ١٩٧٢م.
- (٤٣) رسالة واحدة فقط، د. ناجي بن إبراهيم العرفج، ط «١»، السعودية، ١٤٢٤هـ.
- (٤٤) روح الدين الاسلامي، عفيف طيارة، دار العلم بيروت ط ١٨، ١٩٧٩م
- (٤٥) زيارة المقبور والاستنجد بالمقبر - شيخ الإسلام ابن تيمية - دار ابن المبارك للنشر والتوزيع - ط «١» - ١٤١٤هـ.
- (٤٦) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الألباني، محمد ناصر الدين، ط ١، ١٤١٢هـ، دار المعارف، الرياض.

- (٤٧) السنة النبوية المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي ومكانتها من حيث الاحتجاج والعمل، محمد بن عبدالله باجمعان، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ب ت.
- (٤٨) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، ط «٣» ١٤٠٢ هـ، المكتب الإسلامي، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان.
- (٤٩) سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي «ت ٢٧٩ هـ»، تحقيق، بشار عواد، ط ١٩٩٨ م، دار الغرب الإسلامي - بيروت.
- (٥٠) شعب الإيمان، البيهقي، أحمد بن الحسين، تحقيق، عبدالعلي عبد الحميد حامد، ط «١» ١٤٢٣ هـ، مكتبة الرشيد للنشر والتوزيع - الرياض.
- (٥١) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.
- (٥٢) صحيح مسلم، تحقيق، محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٥٣) صحيفة الأيام السودانية مع سعيد شايب حول الفكر الجمهوري بتاريخ ٢٥ ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ، الموافق ٦ يناير ١٩٨٦ م.
- (٥٤) الطعن الدستوري وتعليق د. المكاشفي طه الكباشي. أنظر كتاب الردة لمحاكمة محمود محمد طه بالسودان - دار الفكر - الخرطوم ١٩٨٧.
- (٥٥) علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، دار القلم للطباعة والنشر ط ٢، ١٣٩٨ هـ، ١٩٨٧ م.
- (٥٦) علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، جيب، ترجمة: د. عادل العوا، منشورات عوايدات، بيروت، ط ١، ١٩٧٧ م.
- (٥٧) علوم القرآن.. فن مدون، الصادق عوض الفاضل، مقال منشور على موقع شبكة الهداية الإسلامية، <http://alhidaya.net/node>.
- (٥٨) عناية العلماء بالإسناد وعلم الجرح والتعديل، صالح بن حامد بن سعيد



- الرفاعي، الناشر - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة، ب ت.
- (٥٩) الغرابة في الدعوة الإسلامية الحديثة، محمود محمد طه، ص ٨ الطبعة الأولى، ١٩٧٥ م
- (٦٠) فتح القدير، الشوكاني اليمني، ط ١، ١٤١٤ هـ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت.
- (٦١) فقه السنة للنساء. أبو مالك كمال بن السيد سالم. المكتبة التوفيقية. القاهرة. ٢٠٠٠ م.
- (٦٢) فقه قراءة القرآن الكريم، أبو خالد سعيد عبد الجليل يوسف صخر المصري، الناشر: مكتبة القدس، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- (٦٣) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، الشوكاني، محمد بن علي، «ت ١٢٥٠ هـ»، تحقيق، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (٦٤) في ذكرى الفداء العظيم، المنشورات التي واجهت الإمام المزعوم!! وقوانينه الجائرة، الإخوان الجمهوريون، يناير ١٩٨٦ م
- (٦٥) القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري، محمود محمد طه، ط ١، يناير ١٩٧١ م، السودان
- (٦٦) الكتاب الثاني من سلسلة: رسائل ومقالات، محمود محمد طه، ط ١، مايو ١٩٧٣ م
- (٦٧) الكتاب والقرآن رؤية جديدة. محمد شحرور، ط ٢ دار الساقى بيروت ٢٠١٣. ص ٥٣.
- (٦٨) كشف الخفاء ومزيل الإلباس، العجلوني الدمشقي، أبو الفداء، إسماعيل بن محمد «ت ١١٦٢ هـ»، تحقيق، عبد الحميد بن أحمد بن يوسف هنداوي، ط ١، ١٤٢٠ هـ، المكتبة العصرية.

- (٦٩) اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة المعروف ب«التذكرة في الأحاديث المشتهرة»، الزركشي، أبو عبدالله بدرالدين محمد بن عبدالله، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ط ١، ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- (٧٠) لسان العرب، ابن منظور، ط «٣» ١٤١٤هـ، دار صادر - بيروت.
- (٧١) لمحات من حياة الأستاذ محمود محمد طه. إصدارات مركز الأستاذ محمود محمد طه الثقافي
- (٧٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، أبو الحسن نورالدين، تحقيق، حسام الدين القدسي، ط ١٤١٤هـ، مكتبة القدس - القاهرة.
- (٧٣) محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، عبد الإله كنه، كتاب تحت الطبع، ٢٠١٨م.
- (٧٤) محمود محمد طه بين الأصالة والشك، محمد خير علي محيسي، أكتوبر ١٩٨٢م
- (٧٥) المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية، د. شعبان محمد اسماعيل، الجزء الاول - دار الأنصار - القاهرة ط ١، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م
- (٧٦) المدرسة الفلسفية في الإسلام بين المشائية والإشراقية، أ. د محمد إبراهيم الفيومي ضمن أبحاث ندوة «نحو فلسفة إسلامية معاصرة».
- (٧٧) المستدرک علی الصحیحین، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله، «ت ٤٠٥هـ»، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ط «١» ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
- (٧٨) مسند الإمام أحمد، أبو عبدالله الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق، شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد وآخرون، ط «١» ١٤٢١هـ، مؤسسة الرسالة.
- (٧٩) المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي «المتوفى: ٢٣٥هـ»، المحقق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ



- (٨٠) معالم علي طريق تطور الفكرة الجمهورية خلال ثلاثين عامًا «١٩٤٥م-
١٩٧٥م» - الكتاب الأول، الإخوان الجمهوريو، ط١، مايو ١٩٧٦م
- (٨١) المعجم الوسيط: أخرجه، إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية، دار
الدعوة للتأليف والنشر والتوزيع، أستانبول، تركيا، ١٩٨٩م.
- (٨٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين
«المتوفى: ٣٩٥هـ»، المحقق: عبدالسلام محمد هارون، دارالفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
- (٨٣) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، السخاوي،
شمس الدين أبو الخير «ت ٩٠٢هـ»، تحقيق، محمد عثمان الخشت، ط١، ١٤٠٥هـ، دار
الكتاب العربي، بيروت.
- (٨٤) ملحمة الاعتقاد، العز بن عبد السلام، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١،
١٤١٤هـ ج.
- (٨٥) من فقدوا الله، د. لورنس ب. براوني، ترجمة: د. منذر عبيسي،
٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ.
- (٨٦) المنقذ من الضلال - الغزالي - مع أبحاث في التصوف، بقلم/ د. عبد الحليم
محمود - ط «٨» - دار الكتب الحديثة - ١٩٧٤م.
- (٨٧) منهاج المحدثين في القرن الأول الهجري وحتى عصرنا الحاضر، علي
عبدالباسط مزيد، الناشر - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ب ت.
- (٨٨) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، ط٢، ١٣٩٢هـ، دار إحياء التراث العربي،
بيروت.
- (٨٩) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٦، ١٩٨٢.
- (٩٠) منهج في دراسة التصوف - لطف الله بن عبد العظيم - مجلة البيان العدد رقم
«١٩٩» - إبريل - مايو - ٢٠٠٤م.
- (٩١) الموسوعة الميسرة في الأديان والأحزاب والمذاهب المعاصرة، نشر الندوة

العالمية للشباب الإسلامي، إشراف د. مانع الجهنني.

(٩٢) الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني «المتوفى: ١٧٩هـ»،

المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال

الخيرية والإنسانية، أبوظبي، الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

(٩٣) موقع الفكرة الجمهورية: <http://www.alfikra.org>

(٩٤) نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين، مصدرها وتصويرها الشعري، تأليف:

هانز هينرش شيدر، بحث مرفق ضمن كتاب الإنسان الكامل في الإسلام لعبد الرحمن

بدوي.

(٩٥) نواذر الإصول في أحاديث الرسول، الحكيم الترمذي، محمد بن علي بن

الحسن، تحقيق عبدالرحمن بن عميرة، دار الجيل - بيروت.

(٩٦) Francis Darwin «Ed». «The Authobiograghy of Charles Darwin and Selected Letters»

(٩٧) Gibbon ،Edward ،Esq. ١٨٥٤. The History of the Decline and fall of the Roman Empire Vol. ٤. London: Henry G. Bohn.

(٩٨) Encyclopedia Americana ،١٩٥٩، Vol. ٢٣.



مقتطفات من كتاب الرسالة الثانية- الطبعة السادسة - ١٩٨٦ م

ومعلوم أن القرآن أخلاق الله. ص ٢٢.

وليست العودة إلى الله بقطع المسافات، وإنما هي بتقريب الصفات من الصفات، بتقريب صفات المحدود، من صفات المطلق. ص ٣٨.

فنهاية العبد في الإسلام كمال الرب، وكمال الرب في الإطلاق. ص ٣٩.

وقد كان إبليس عابداً. ٧٧.

والروح قانونها الحرام والحلال. ص ٨١.

ويلي هذه الحدود حد السكر. ٨٣.

كيف عُفِرَ لآدم؟ الجواب عُفِرَ له بإعطائه حق الخطأ. ص ٨٣.

«كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» وشأنه هو إبداء ذاته لخلقه ليعرفوه. ص ٨٦.

فهو قد أطاع الله حتى أطاعه الله، معاوضة لفعله.. فيكون حياً حياة الله، وعالمًا علم الله، ومريداً إرادة الله، وقادراً قدرة الله، ويكون الله. ص ٩١.

فإذا كان حضور العبد مع الرب كحضور الرب مع العبد، تماماً، فقد أقيم الوزن بالقسط. ص ٩١.

يومئذ تتم سلامة القلب، فيرى في صفوها الله العظيم. ص ١١٦.

والأصل في الإسلام أن المرأة كفاءة للرجل في الزواج، فالرجل كله للمرأة كلها، بلا مهر يدفعه، ولا طلاق يقع بينهما. ص ١٢٧.

فالسير بالقرآن في مضممار الإسلام سير إلى الله في إطلاقه. ص ١٣٥.

ومعلوم أنه لا يتقي الله حق تقاته إلا الله. ١٣٦.

ذلك بأن القرآن هو ذات الله. ص ١٣٧.

ولقد عاش المعصوم الشيوعية في قمتها. ص ١٤٧.

ستظل قمة هرم الإسلام فوق مستوى التحقيق، في الأبد، وفي ما بعد الأبد. ص

موجود الإنسان من الكمال مرتبة الإله. ص ١٦٦.



الفهرس

٥	استهلال
٦	إهداء
٧	شكر
٨	مقدمة
١٤	محمود محمد طه
١٥	مولده ونشأته
١٥	تعليمه النظامي
١٦	السكك الحديدية والنضال السياسي
١٦	أفكاره
١٧	نشأة الحزب الجمهورى
١٨	محمود السياسي ورجل الدين
٢٣	تواريخ مهمة في حياة محمود
٢٤	من مؤلفاته
٢٥	مصادر المعرفة عند محمود
٣٢	حياته الفكرية
٣٣	أهم مصطلحات محمود
٣٥	محاكمات محمود
٣٦	الحكم الأول
٣٦	محكمة الردة الثانية
٣٨	أتباع محمود محمد طه

- من أبرز رموز الجمهوريين داخل السودان وخارجه: ٤١
- الاختلاف حول تقييم محمود ٤٨
- الفتاوى الصادرة ضد محمود ٥٠
- أولاً: مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ٥٠
- ثانياً: المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة ٥٢
- أهداف الحزب الجمهوري ٥٤
- عودة للبدايات ٥٤
- الأصالة والتقليد عند محمود والجمهوريين ٦١
- أنانية محمود ٦١
- تصور محمود للدين ٦٦
- المعرفة والتأويل واللغة ٧١
- القرآن الكريم وعلومه ٧٥
- تعريف معنى القرآن في القرآن ٨٧
- الوحي ٩٤
- أصول التفسير وعلوم القرآن ١٠٢
- تعريف علوم القرآن ١٠٢
- أسماء القرآن الكريم وصفاته ١٠٢
- علوم القرآن كـ«فن مدون» ١٠٣
- عصر التدوين ١٠٥
- خصائص القرآن الكريم ١٠٦
- المقصود بجمع القرآن الكريم ١٠٦
- جمع القرآن في العهد النبوي ١٠٧
- مميزات الجمع في عهد رسول الله ﷺ ١٠٨



- ١٠٩ لم لم يُجمع القرآن في عهد النبي ﷺ في مصحف واحد
- ١٠٩ جمع القرآن في عهد أبي بكر
- ١١١ جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه
- ١١٤ أسباب النزول
- ١١٦ فوائد أسباب النزول
- ١١٦ الناسخ والمنسوخ
- ١١٦ تعريف النَّسخ
- ١١٧ تعريف الناسخ
- ١١٧ تعريف المنسوخ
- ١١٧ شروط النَّسخ
- ١١٩ مناهج المفسرين
- ١٢٠ القرآن المكي والمدني
- ١٢٠ تعريف القرآن المكي والمدني
- ١٢١ خصائص القرآن المكي
- ١٢١ خصائص القرآن المدني
- ١٢٢ هل ينقسم القرآن إلى قرآنين «القرآن المكي» و«القرآن المدني»
- ١٣٣ السنة وعلوم الحديث
- ١٣٣ تعريف السنة
- ١٣٣ تعريف الحديث
- ١٣٤ نشأة علم الحديث
- ١٣٥ علم الإسناد
- ١٣٧ حجية السنة النبوية
- ١٣٧ أدلة حجية السنة

- علاقة السنة بالقرآن الكريم..... ١٣٩
- أقسام الحديث النبوي من حيث القبول والرد ١٤١
- أولاً: الحديث الصحيح..... ١٤١
- الحسن ١٤٣
- الحديث الضعيف..... ١٤٣
- مفهوم السنة عند محمود..... ١٤٥
- السنة عند محمود..... ١٥٧
- تحليل التشريع الجمهوري من منظور إسلامي ١٥٩
- تخريج أحاديث كتاب الرسالة الثانية ١٦١
- التصوف النشأة والتطور..... ١٦٨
- معنى التصوف ١٦٩
- نشأة التصوف وتطوره ١٦٩
- الطريق الصوفي والمقامات والأحوال ١٧١
- طبقات الأولياء ورجال الطريق..... ١٧٢
- التجديد والاجتهاد..... ١٧٦
- تعريف الاجتهاد لغة ١٧٦
- الاجتهاد اصطلاحاً ١٧٦
- من هو المجتهد؟ ١٧٦
- شروط قبول الاجتهاد..... ١٧٧
- شروط صحة الاجتهاد..... ١٧٨
- مجالات الاجتهاد ١٧٩
- مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة..... ١٨٠
- المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة ١٨٠



١٨١	 مفهوم الألوهية
١٨١	 معنى الإله في اللغة
١٨٢	 معنى الإله في الاصطلاح
١٨٢	 التوحيد:
١٨٥	 العقل في الفكر الإسلامي
١٨٥	 تعريفات العقل
١٨٦	 العقل في الإسلام
١٨٨	 العقل والوحي
١٩٠	 الإسلام دين العلم والعقل
١٩٣	 مفهوم الفلسفة
١٩٤	 نشأة الفلسفة
١٩٥	 أشهر الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام
١٩٥	 غاية الفلسفة، وموضوعها، وأقسامها
١٩٦	 افتراق الفلاسفة
١٩٦	 كثرة اضطراب الفلاسفة وشكهم
١٩٦	 نماذج من ضلالات بعض الفلاسفة
١٩٨	 كتاب الرسالة الثانية من الإسلام
٢٠٩	 أمة المؤمنين وأمة المسلمين
٢١١	 الإسلام والإيمان
٢٢٣	 ثانياً الإيمان:
٢٢٩	 خطاب المؤمنين
٢٣٥	 الرسالة الثانية من الإسلام
٢٣٦	 مقدمة الطبعة الرابعة:

توطئة البحث: **Error! Bookmark not defined.**

المدنية والحضارة: ٢٥٣

الحرية الفردية المطلقة..... ٢٥٥

الإنسان في القرآن ٢٦٢

الانسان الكامل، شريعتان ظاهر وباطن..... ٢٦٦

الإسلام..... ٢٦٨

الرسالة الأولى..... ٢٧٢

أمة المؤمنین: ٢٧٧

الجهاد ليس أصلاً في الإسلام: ٢٧٨

الرق ليس أصلاً في الإسلام: ٢٨٤

الرأسمالية ليست من الإسلام: ٢٨٥

النظرية الماركسية..... ٢٨٧

عدم المساواة بين الرجال والنساء ليس أصلاً في الإسلام: ٢٨٨

الانتقال في أحكام المرأة من التشريع الإسلامي إلى التشريع الجمهوري ٢٩٢

تعدد الزوجات ليس أصلاً في الإسلام: ٢٩٣

الطلاق ليس أصلاً في الإسلام: ٢٩٦

الحجاب ليس أصلاً في الإسلام: ٢٩٨

المجتمع المنعزل رجاله عن نسائه ليس أصلاً في الإسلام: ٣٠١

الرسالة الثانية من الإسلام..... **Error! Bookmark not defined.**

القرآن والإسلام: ٣٠٢

خلق الإنسان ٣٠٤

نظرية التطور الداروينية ٣٠٥

الإنسان والقرود عند التطورين والجمهوريين: ٣٠٦



- التطوريون والأحافير: ٣١١
- من علمها؟: **Error! Bookmark not defined.**
- إسلام بمعنيين: **Error! Bookmark not defined.**
- المسلمون: **Error! Bookmark not defined.**
- المجتمع الصالح: ٣١٩
- المساواة الاقتصادية: الاشتراكية ٣١٩
- المساواة السياسية: الديمقراطية ٣٢٣
- المساواة الاجتماعية: محو الطبقات ٣٢٥
- كتاب رسالة الصلاة ٣٢٧
- الصلاة عند محمود: ٣٤٩
- التخير والتسيير عند محمود محمد طه ٣٥٠
- الإنسان الكامل **Error! Bookmark not defined.**
- الأصول الفلسفية لنظرية الإنسان الكامل عند الجمهوريين: ٣٥٢
- وحدة الوجود: ٣٥٢
- التطور التاريخي والفلسفي لنظرية الإنسان الكامل: ٣٥٩
- نظرية الإنسان الكامل بين الحلاج وابن عربي: ٣٦١
- ابن عربي ونظرية الإنسان الكامل: ٣٦٤
- الشيعة وأزلية النور المحمدي: ٣٦٧
- الإنسان الكامل عند البهائية: ٣٦٨
- القرآن الكريم عند محمود: ٣٧١
- كتاب تطوير شريعة الأحوال الشخصية ٣٧٢
- الزواج في الحقيقة: ٣٧٥
- الزواج في شريعة الأصول: ٣٧٩

- الخاتمة ٣٨٦
- المصادر والمراجع: ٣٩٣
- مقتطفات من كتاب الرسالة الثانية - الطبعة السادسة - ١٩٨٦ م ٤٠٢
- الفهرس ٤٠٤

